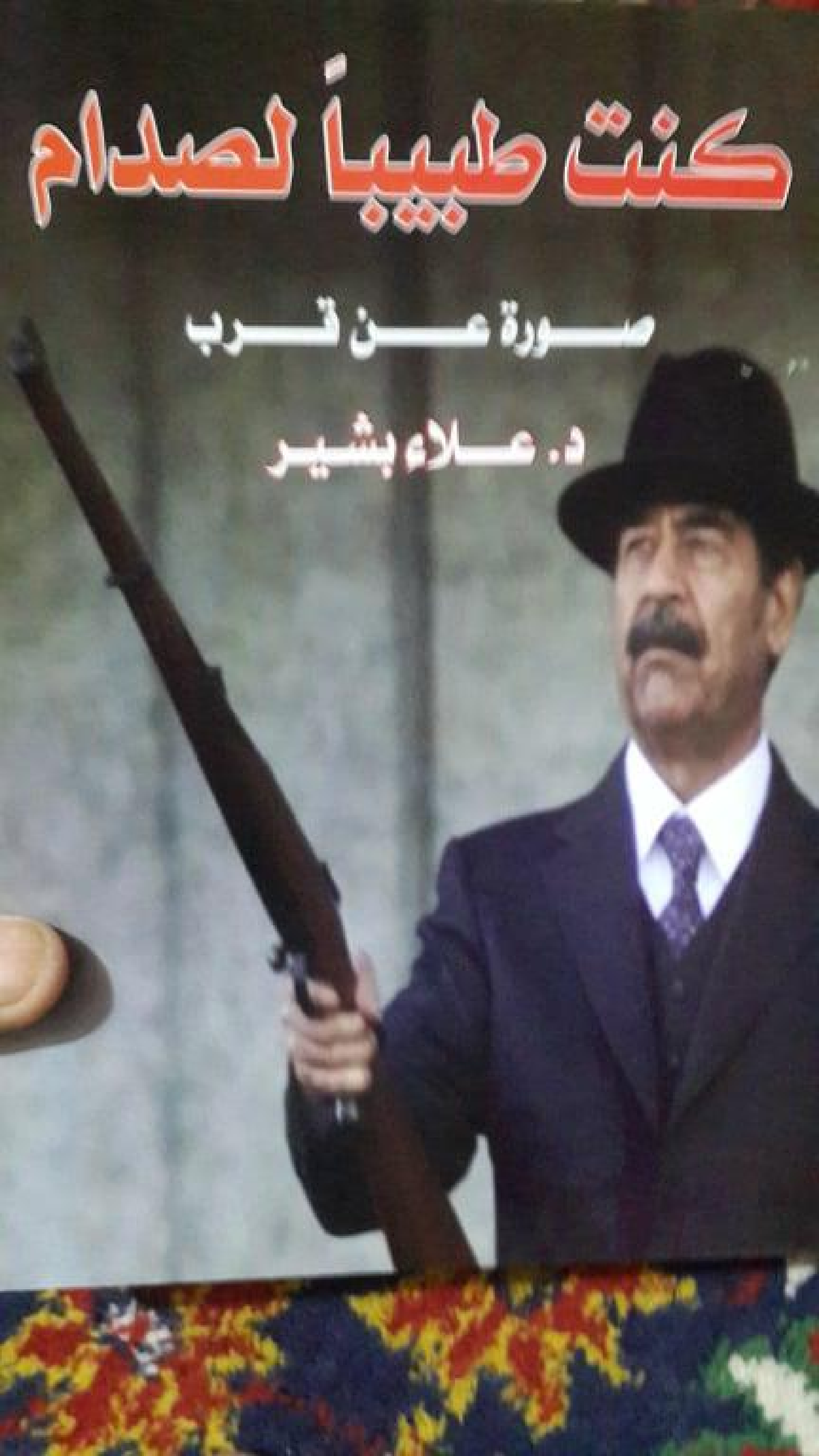

كنت طبيباً لصدام
صورة عن قرب
د. علاء بشير

كنت طبيبا لصدام

طبعة عربية مزيدة ومنقحة

الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

ترجمه من اللغة الألمانية:

- د. صلاح هلال
- ضياء الدين زاهر
- نهلة توفيق

وقام بالمراجعة:

د. علا عادل

SADDAMS FORTROLIGE
By Ala Bashir/ Lars Sigurd Sunnana.
J. W. Cappelens Forlag A/S Mariboesgt
13, 0183 Oslo, Norway

دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر

ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢)

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

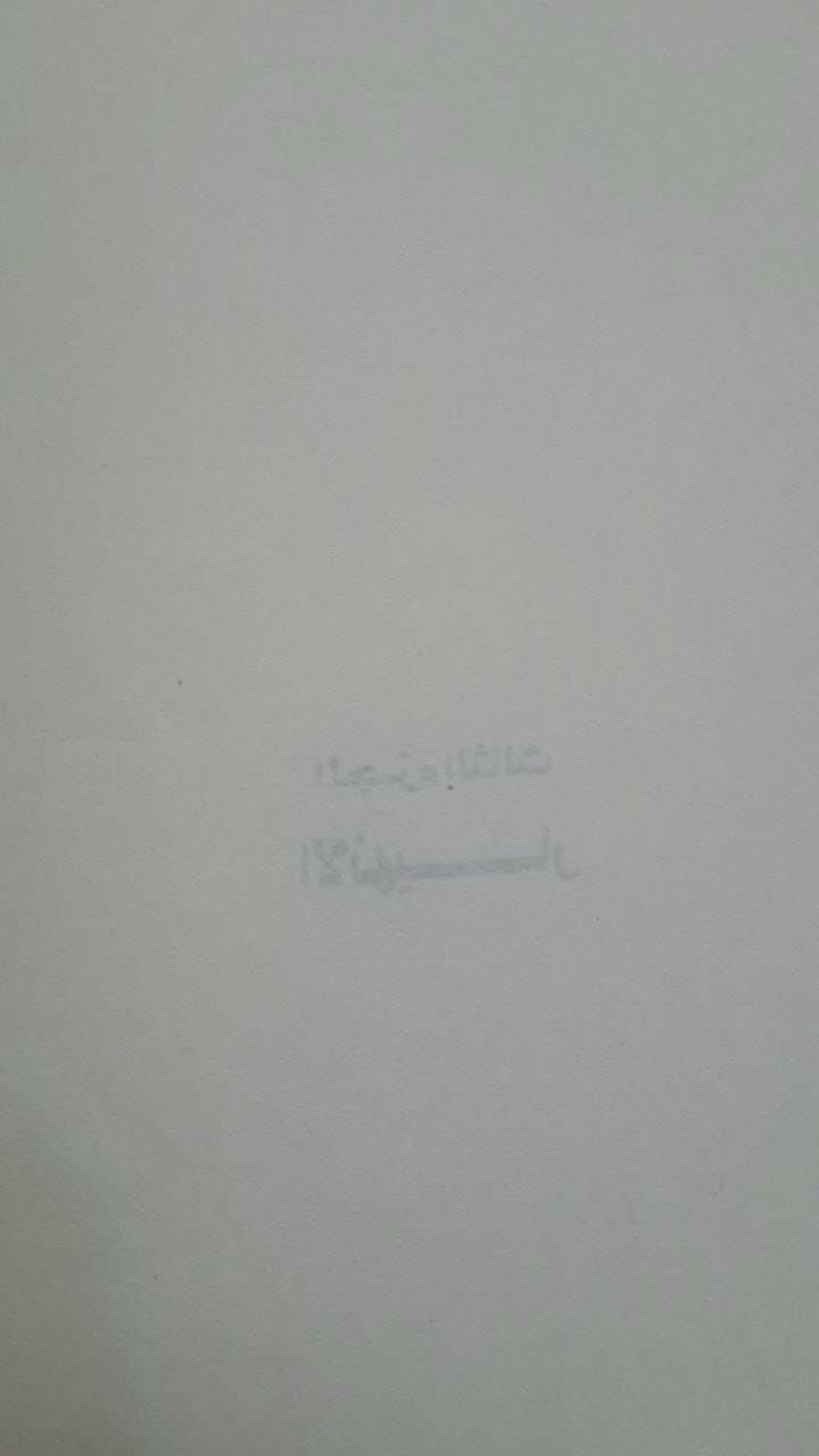
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

كنت طبيباً لصدام

صورة عن قرب

د. علاء بشير

دار الشروق

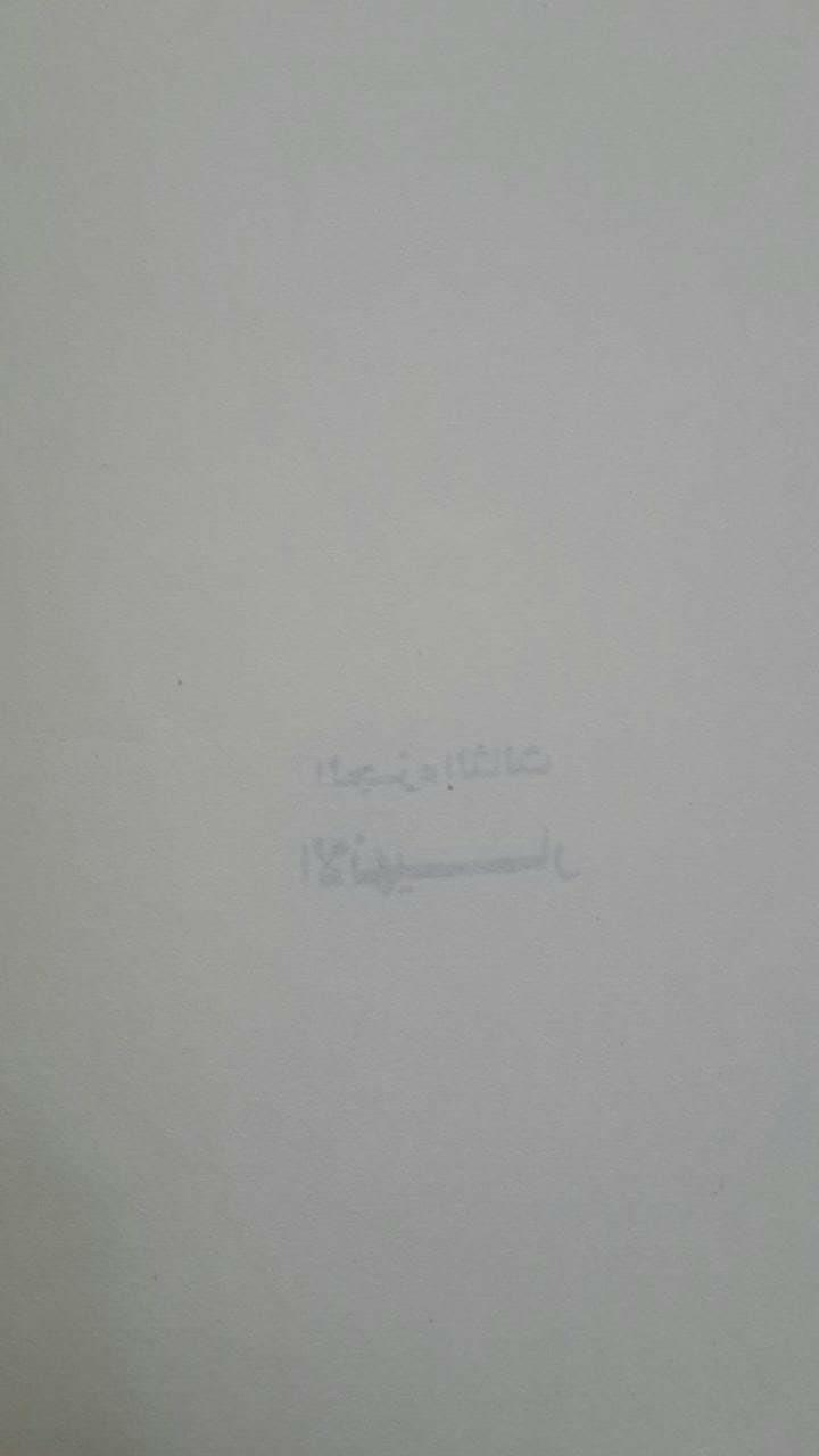


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤) وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (٢٠٥) وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾

صدق الله العظيم

(سورة البقرة، الآيات ٢٠٤-٢٠٦)





إلى الأطفال والنساء والرجال الأبرياء الشرفاء،

والمخلصين الذين فقدوا حياتهم،

والذين عانوا آلاما معنوية أو جسمانية،

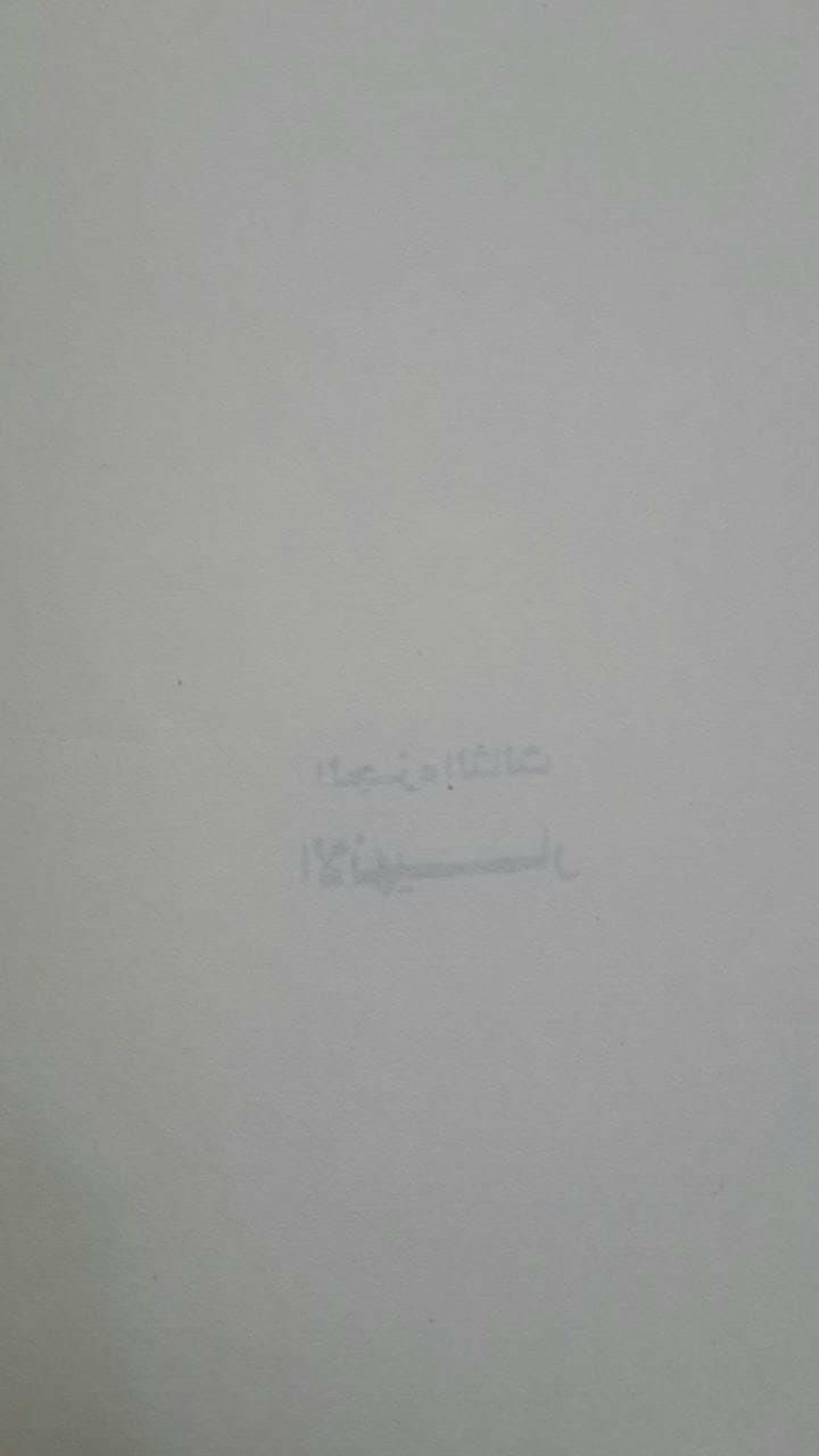
نتيجة أحداث وظروف لم يشاركوا فى صنعها،

ولم يكونوا سببا فيها،

بل وجدوا أنفسهم مكرهين على أن يعيشوا فى خضمّها،

إلى العراقيين الغيارى الذين يحبون العراق العظيم...

أقدم هذه الشواخص من الذاكرة لعلها تنفع فى تدارك مثيلاتها
ى بناء العراق الجديد.



مقدمة

الشيخ حسن بن محمد بن على آل ثانى فى قطر رجلٌ محب للفن. فهو يمتلك أكبر مجموعة لوحات ومخطوطات وتماثيل على مستوى العالم، الكلاسيكى منه والحديث. كما أن مكتبه فريدة من نوعها. وفى ديسمبر عام ٢٠٠٢ دعانى الشيخ حسن لقضاء أسبوع فى الدوحة، حيث وضع مرسمًا وبيتا للضيافة تحت تصرفى. وطوال فترة إقامتى فى هذا المرسم كان على مقربة منى باستمرار. ولقد عرفت السبب. فهو يتوقع منى أن أسر إليه ببعض خططى المستقبلية بوصفى ضيفه وفى كنفه طبقًا للتقاليد العربية.

حرص الشيخ حسن على أن أتلقى دعوة رسمية لزيارة قطر. إلا أننى لم أدع إلى قطر لمجرد الرسم فى هدوء. فزوجتى وأبنائى الأربعة كانوا يقيمون فى أوروبا، وطبقًا للقانون العراقى لم يكن مسموحا لى بالسفر طالما أن زوجتى توجد فى الخارج، إذ كان ينبغى على أحدنا أن يبقى فى بغداد، ولكن الأمر بدا مختلفا فى ظل دعوة رسمية من قطر. لذا فقد سمح لى بالسفر رغم وجود زوجتى فى أوروبا.

أتاح لى الشيخ حسن الفرصة فى البقاء لديه بدلاً من العودة إلى العراق وإلى الحرب الوشيكة، وكان ينتظر منى أن أبلغه بالقرار الذى اتخذته.

إنه لأمر رائع أن تحل كفنان ضيفًا على الشيخ حسن. فقد وجدت كل ما أحتاجه من فُرَش رسم وقماش الكتان فى ذلك المرسم الكبير. أما الألوان الزيتية فكانت من أحد المصانع الخاصة فى هولندا، وقد تكلفت كلها ثروة وكانت مصنعة تمامًا بنفس الشكل الذى كان معهودا فى زمن رمبراندت. إننى لم أعمل من قبل قطّ بأجمل من هذه الألوان.

رسمت الرأس المفصولة لسيدة شابة، وكانت قد غلفت فى كيس من البلاستيك لتوضع على أحد الكراسى الذى التف حوله ستة رجال يشبهون الحيوانات ويحملون سكاكين كبيرة بين مخالبهم رامزين إلى الجهل والطمع والأنانية والحقد وحب الانتقام وإساءة استغلال

السلطة، وهى تلك الصفات التى ابتلينا بها نحن العراقيين فى صورة حكام مستبدين سواء كانوا كبارا أم صغارًا، داخل أو خارج العراق، بغرض السيطرة على تلك البلاد الخصبة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات، حيث كانت مهد الحضارة قبل خمسة أو ستة آلاف عام.

وقد اصطف صدام حسين التكريتى فى تاريخ العراق الدموى مباشرة ضمن الحكام الدمويين الذين سيطروا على البلد ثم سقطوا ضحايا لسلطتهم التى لا حدود لها.

إن السلطة المطلقة والمال كثيرا ما تفسد الإنسان، وبخاصة الحكام منهم.

كان الخليفة أبو جعفر المنصور، الذى أسس بغداد عام ٧٦٢، يفضل أن يبسط السجاجيد فوق أجساد أعدائه بعد أن يكون قد قضى عليهم بسيفه ثم يدعو الأسرة والأصدقاء والمعارف للاحتفال فوق هذه السجاجيد على وجه الخصوص، وكان الاحتفال يبدأ فى حين يسلم الأعداء المنهزمين أرواحهم مع رجفة الموت. إن الولائم لدى هذا الخليفة كانت صاخبة جدا.

إلا أن صدام كان يعد بمثابة ظاهرة استثنائية. فلم يستطع أى من أسلافه أن يسحر العالم الخارجى ويزعجه ويبث فيه الخوف والرعب بنفس القدر مثلما فعل هو. إذ لم يستطع السياسيون الغربيون والصحفيون والكتاب أن يؤكدوا بالقدر الكافى فى أعقاب غزوه للكويت عام ١٩٩٠ مدى خطورته وماهية التهديد الذى يشكله نظامه على السلام العالمى.

وقد بلغت المسائل ذروتها بالهجوم الإرهابى لتنظيم القاعدة على مركز التجارة العالمى، وعلى مبنى وزارة الدفاع فى واشنطن فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. وعلى الرغم من عدم إثبات العلاقة بين النظام فى بغداد وأسامة بن لادن وشبكته، يبدو أن الرئيس جورج بوش فى البيت الأبيض قد ألقى بزهر اللعبة بالفعل مقرراً ضرورة رحيل صدام. فجاء الادعاء بأنه يمتلك أسلحة الدمار الشامل رغم حظر مجلس الأمن فى الأمم المتحدة.

لم يكن الاختيار فى بيت الشيخ حسن فى قطر أمرا سهلا علىّ. فقد كان هناك ما يغرينى بالبقاء. وكنت قد عاصرت الثورة والإطاحة بالملكية فى الرابع عشر من يوليو عام ١٩٥٨، وعايشت كذلك المواجهات الدامية بين الشيوعيين والقوميين من حركة الوحدة العربية فى العام التالى، فضلاً عن الانقلاب الأكثر دموية فى الثامن من فبراير ١٩٦٣ ومقدمات تولى حزب البعث للسلطة نهائيًا فى السابع عشر من يوليو عام ١٩٦٨، كما نجوت من الحرب بين العراق وإيران والتى دامت من ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٨، كذلك أفلتُ من وابل القنابل التى

سقطت على بغداد أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ ومن صواريخ عملية «ثعلب الصحراء» عام ١٩٩٨، ونحن الآن على أعتاب حرب جديدة.

قلت للشيخ حسن عندما قاربت زيارتى إلى الدوحة - والتى استمرت أسبوعا - على الانتهاء: «إننى عائد إلى العراق».

لم أكن لأهرب، فأنا أدير مستشفى فى بغداد يعمل به ثلاثمائة شخص يحتاجوننى فى مواجهة هذه الحرب الوشيكة. وإذا تركت جسر الإدارة قبل العاصفة لما احترمنى أحدٌ أبدا، فهذا الأمر مخالف تمامًا لمعتقداتى؛ لأنى أترك طلابى فى الدراسات العليا ومرضاى بسبب نظام بدأ يتفسخ وينهار! إن وطنى أكثر جاذبية وبقاء من نظام قصير العمر مهما طال. هذا ما قررت أن أفعله، رغم حقيقة أن فرص عملى وراحتى خارج العراق أفضل بكثير من العيش داخل العراق ماديا ومعنويا. لم أكن منتميا إلى حزب من الأحزاب لأننى كنت أعتقد أنها ترى مصلحة العراق من خلال مصالحها كمن ينظر إلى داخل الغرفة من ثقب الباب، وكثيرا ما استغلت شعارات تغرر بالبسطاء والجهلة وتحجب وراءها نوايا غير مخلصة كشف التاريخ عن الكثير منها. كما كان حبى الشديد للعراق يقف دائما دون تفكيرى فى ترك وطنى، رغم أن ترك أرض المعركة أيسر بكثير من البقاء فيها. وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نغيِّر المنكر بالفعل أو القول أو النوايا.

وهناك سبب آخر لعودتى يكمن فى رغبتى فى معايشة سقوط صدام ونظامه.

فقد اقتادونى لأصبح طبيبا متخصصا ضمن فريق أطبائه قبل حوالى عشرين عامًا دون أن أطلب ذلك أو أرفضه. كان صدام يحترمنى لتميّزى فى اختصاصى فى الجراحة التقويمية والتجميل، وكذلك كفنان فى فن الرسم والنحت، وربما لأننى لم أكذب عليه فى الإجابة عن أسئلته رغم امتعاضه من بعضها. وفى ظل السلطة والمؤامرات والإبادة والفساد وتصفية الحسابات بشكل دموى داخل العائلة وعن قرب وفى إطار التزام الصمت والقَسَم الذى نؤديه نحن الأطباء، وقفت على الحقائق التى يضمّها هذا الكتاب.

عدت إلى بغداد، وواصلت عملى فى مستشفى الواسطى لعدة شهور. لكن تدهور الوضع الأمنى السريع بعد سقوط النظام، وعدم الأمان بعد أنَ اغتيل عدد كبير من الأطباء والأساتذة والمهنيين المتخصصين والمثقفين فيما بات واضحا أنه عمل مخطط ومدبر وراءه الحقد والكراهية، كل ذلك دفعنى إلى أن أغادر بلدى مؤقتا لحين السيطرة على حركة المجرمين والقتلة الذين وجدوا أنفسهم أحرارا فى بلاد انهار فيها الأمن والاستقرار تماما.

وقد آن الأوان للإفصاح عما شاهدته فى تلك الحقبة المأساوية البشعة من تاريخ العراق الحديث وتسليط الأضواء عليه. فلم يعد بوسعى ألاّ أشارك أبناء وطنى فيما شاهدته منذ الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ يوم سقوط الملكية من عنف يزداد حدة فى كل تحوّل سياسى كما ونوعا، ومن نمو متسارع، كالورم، للأحقاد ونزعة الانتقام حتى فى قلوب وضمائر معظم الناس بغض النظر عن ثقافاتهم ومللهم ومعتقداتهم. إن ما يرعب المرء حقا ليس حجم الحقد والانتقام الذى تَعَشَّشَ فى نفوس الناس وحسب، بل نوعية هذا الحقد والانتقام. لقد اكتست نوايا المنطق والعقل والحب بستار كثيف من الجهل، مما جعل الإشارة إليه ضرورة وطنية صادقة ومخلصة وملحة. إن الحقد والكراهية والانتقام لا تبنى، إنما تهدم وتدمر. ولابد أن نتعرف على هذه الحقيقة من مفردات تاريخنا الحديث والمعاصر لكى نتعاون جميعا فى أن نعتمد فى نفوسنا أسس النوايا الصادقة والبناءة لتشييد صرح المجتمع الديموقراطى الصادق فى جو من الحب والتسامح. لهذا الغرض فقط كتب هذا الكتاب، الذى يحتوى على مذكرات كنت أدونها منذ منتصف عام ١٩٧٥.

كتبت هذا الكتاب لكى ينشر باللغة النرويجية أولا بعد أن تولى السيد لارس زيجورد سونان، الصحفى النرويجى، مساعدتى فى تهيئة نص بتلك اللغة. وذلك ما توضحه المقدمة التى كتبها، والتى تلى هذه المقدمة. وقد ترجم الكتاب إلى اللغات السويدية والفنلندية والألمانية والهولندية، وعندما توصلت إلى قرار بضرورة نشر الكتاب باللغة العربية، أيقنت بضرورة مراجعة النص العربى الأولى، الذى ترجم عن اللغة الألمانية مراجعة تفصيلية، قمت خلالها بتعديلات عديدة، وأدخلت إضافات كثيرة لكى يستقيم المضمون للقارئ العربى.

وإنى لعلى يقين تام وبضمير مرتاح أن المشاعر التى تَشِعّ من صفحات هذا الكتاب تعبّر تعبيرا صادقا عما يجيش فى صدور المجموع الغالب من العراقيين، على مختلف مستوياتهم، الذين وجدوا أنفسهم رهينة للأحداث المؤلمة التى اضطروا، كلٌ حسب ظرفه، للعيش فى ظلها.

علاء بشير

الدوحة، فى يونيو - حزيران - ٢٠٠٤

مقدمة لارس زيجورد سونان

Lars Sigurd Sunnan

«إن تاريخ العراق الحديث يثبت أنه لا فرصة للديمقراطية الحقيقية الآن. والأمريكان والإنجليز يخدعون أنفسهم عندما يرون أنه بإمكانهم إرساء ديمقراطية حقيقية قادرة على البقاء فقط عندما يجردون صدام حسين ونظامه من السلطة». كانت هذه مقولة لعلاء بشير.

جلست معه فى الشقة التى نزلت بها أثناء عملى كمراسل أجنبى فى عَمّان. وكانت ليلة رأس السنة الجديدة ٢٠٠٣، فتحدثنا بالطبع عن الحرب الوشيكة. وكان علاء قد اتصل بى من بيت الشيخ حسن فى الدوحة. وكنت آنذاك فى مهمة للتليفزيون النرويجى العام فى القدس، ولكننى ألغيت كافة ارتباطاتى ولقاءاتى الصحفية المخطط لها. فعندما يكون علاء فى طريقه من أو إلى بغداد كنت أترك فى العادة كل شىء خلفى. ولكم سعدت برؤيته مجدداً. وجدنا بعض السمك النرويجى المدخن فى الفريزر إلى جانب زجاجة من النبيذ الأبيض البورجوندى الفاخر.

ثم أكمل علاء قائلاً: «لقد عشنا السنوات الخمس والأربعين الماضية فى ظل الحقد والانتقام والكراهية والعدوانية. أما القلة القليلة التى حاربت فى بلادنا من أجل النزاهة والطهر والذمة والقيم الإنسانية، فقد تم إقصاؤها منذ أمد طويل. كما أن هؤلاء الأشخاص قد أصبحوا ندرة. وقد تناقص عددهم مؤخرا بدرجة كبيرة حتى إننى لا أستطيع أن أتصور كيفية اكتسابهم تأثيراً أو نفوذاً فى ذلك المجتمع الجديد الذى نرغب فى تكوينه بعد الحرب».

كان ذلك يوما طويلا قضينا صباحه وليله معًا فى العاصمة الأردنية، حيث كان هناك الكثير مما نرغب فى الحديث عنه. كما لم يكن هناك شىء مبشر بالخير يمكن أن نتوقعه للعام الجديد ٢٠٠٣.

وأنا مدين لمحلل البترول الأمريكى الجنسية ، وابن عم علاء بشير ، فالح الجبورى ، لأنه عرّفنى على ذلك الطبيب والفنان العراقى عندما حضرت إلى عمان فى شهر مايو عام ١٩٩٩ ، حيث إننى كنت أغطى آنذاك اجتماعات وزراء دول منظمة الأوبك منذ عام ١٩٧٥ بتكليف من التليفزيون النرويجى قبل تعيينى مراسلاً فى الشرق الأوسط . وكان الجبورى يتابع هذه الاجتماعات ضمن المحللين الآخرين والصحفيين ، وهناك نشأت بيننا صداقة . وهو الذى نصح ابن عمه بزيارتى عندما يكون فى عمان .

وقد التقيت علاء أثناء رحلاتى لكتابة تقارير صحفية ، وذلك قبل اندلاع الحرب فى العشرين من شهر مارس عام ٢٠٠٣ ، حين قرر صاحب العمل أن يخرجنى من العراق قبل بدء المعارك ، ولكننى عدت فى الحادى عشر من أبريل ، أى بعد سقوط بغداد بيومين . إلا أننى لم أتمكن من العثور على بشير ، ولكنى تنفست الصعداء لعلمى بأنه ما زال على قيد الحياة .

وبعد مرور أربعة أشهر اتصل بى فالح الجبورى من منزله الكائن على مشارف مدينة سان فرانسيسكو ، ليخبرنى أن علاء عنده . وكان كلاهما يفكر فيما إذا كان بمقدورى مساعدة علاء فى تأليف كتاب يتناول فيه تجاربه ومعايشاته بوصفه واحدا من الرجال الذين كان صدام يثق بصدق كلامهم . وكان بشير يرغب فى صدور الكتاب فى النرويج بوصفها بلدا تسود فيها الرفاهية والديمقراطية ، وهو ما يحظى بإعجابه واحترامه . وسألانى إذا كان بالإمكان العثور على ناشر نرويجى يقوم بنشر الكتاب .

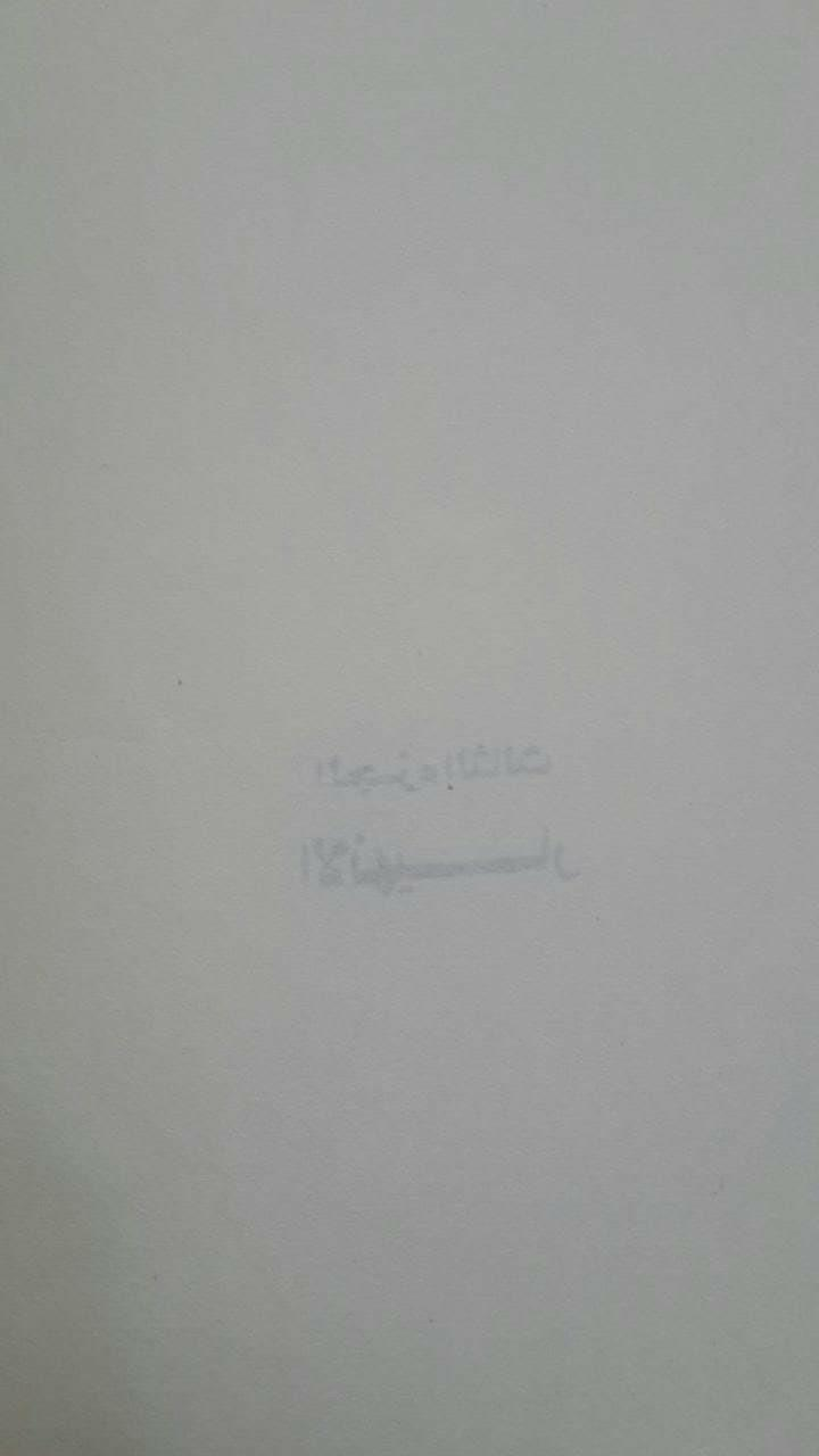
وطوال الستة أشهر الماضية قمت بأكثر الرحلات إثارة وأكثرها إحباطًا فى الوقت ذاته ، وذلك على مدار سنوات حياتى الصحفية التى تزيد على الأربعين عامًا . حيث اصطحبنى علاء فى بيت الضيافة لدى الشيخ حسن بالدوحة خلال عالم سوداوى ومجنون لم أكن أتخيل مجرد وجوده قبل أن يبدأ علاء فى سرد حكايته مستعينًا بدفتر مذكرات شخصية .

عمان، فى مارس ٢٠٠٤

لارس زيجورد سونان

الجزء الأول

النظـــــــام



الفصل الأول

الملكيــــة

«يرغب صدام فى رؤيتك بمكتبه»، ذلك ما قاله رجال الحرس الخاص عندما أخذونى من مستشفى الواسطى فى بغداد.

كانت الحرب الدامية بين العراق وإيران تشرف على نهايتها، وكان الرئيس يود أن يشكرنا على ما قدمناه من خدمات؛ فقد أنقذنا حياة الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا يأتوننا مباشرة من ساحة القتال. كنت آنذاك المدير ورئيس قسم الجراحة التقويمية والتجميل فى المستشفى التخصصى للجراحة التقويمية والعظام. وقد قمنا لتونا بإجراء جراحة للمريض رقم عشرين ألفا منذ أن بدأ حمام الدم فى عام ١٩٨٠، أى قبل ذلك اليوم بثمانية أعوام.

يقع مكتب صدام فى الدور الأول من مبنى المجلس الوطنى الذى يبعد عدة مئات من الأمتار عن القصر الجمهورى الكائن فى وسط العاصمة العراقية. كان ذلك القصر الذى يحيطه سور عال وتقوم عليه حراسة مشددة يقع على الضفة الغربية من نهر دجلة، وتمتد مساحته لأكثر من كيلو مترين مربعين ونصف، وهو متصل فى بعض أجزائه بمكاتب، ومساكن، ودور ضيافة، وثكنات مشيدة لقوات الأمن التى كان الرئيس يضع فيها ثقته الخاصة.

كان مستشفى ابن سينا ـ وهو المستشفى الخاص بأسرة الرئيس وبقية كبار الدولة ـ يقع هو أيضا قريبا للغاية من القصر الجمهورى الذى كان قد شيده فيصل الثانى قبل أن

يعدم رميا بالرصاص مع بقية أفراد أسرته فى عام ١٩٥٨ عندما أطاحت الثورة بالنظام الملكى.

كان علىّ الخضوع لتفتيش ذاتى، وطُلب منى أن أخلع ساعتى وخاتم زواجى كالعادة، كما أفرغت إلى جانب ذلك جميع محتويات جيوبى، حتى منديلى آل به الحال مع بقية ممتلكاتى المتواضعة فى كيس كبير من الورق قبل أن يسمح لى بالدخول إلى مكتب الرئيس.

لم تبدُ مظاهر فخامة وأبهة غير عادية على أثاث الحجرة. فأرضية الحجرة تغطيها سجادة فارسية المنشأ، زرقاء اللون، كبيرة الحجم، ثمينة القيمة. أما باقى الحجرة فكانت تتميز بالبساطة، فهناك أريكتان عند حائطين متقابلين يكسوهما قماش منقوش لونه أحمر وردى وأبيض، وكانت الستائر تلقى ظلالا حمراء على الغرفة. وها هو ذا العلم العراقى فى ركن من أركان الحجرة خلف المكتب على الجانب الأيمن. وعلقت على حائطين لوحات قرآنية داخل إطارات من الزجاج بمقاس ٥٠ سم × ١٠٠ سم.

كانت الآية الأولى هى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، (الحشر، ٢١) وهى معلقة على الحائط يسار مكتب الرئيس.

أما فحوى الآية الثانية فكان مشابها، ولربما كانت موجهة إلى زوار الرئيس الكثيرين: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، (الأنبياء، ١٨) وكانت معلقة خلف مكتب الرئيس وسط الحائط.

كان صدام يجلس على مكتب من خشب الماهوجنى، وكان كل شىء على درجة عالية من النظام والترتيب: حافظة مستندات مغلقة تحتوى أغلب الظن على أحدث تقارير الجهاز الأمنى عن المستشفى وعن شخصى، صحن زجاجى به مسبحة بيضاء اللون ومطفأة سجائر من الكريستال ومعها قاطع أطراف السيجار من الفضة. فيما عدا ذلك لم يكن هناك على المكتب إلا عدد من أجهزة التليفون المختلفة الألوان.

كان الرئيس منكبا على كتاب ما.

«اجلس وانتظر لحظة. هذا الكتاب شائق للغاية وممتع بشكل غير معقول. إنها

رسالة دكتوراه عن نورى السعيد. لقد أحضروها لى لأفحصها وأود لو أتممت قراءة فصل آخر منها بسرعة».

عندما كنت طالبا بمدرسة الثانوية المركزية فى بغداد من عام ١٩٥٤ حتى ١٩٥٦ كنا أحيانا نقذف نورى السعيد بالحجارة، وهو ما ندمت عليه بعد ذلك، ولكن آنذاك لم أكن أعلم عن هذا الرجل أكثر من أنه رئيس وزراء يعمل عميلا للغرب. هكذا كان يصفه الحزب الشيوعى وبقية الأحزاب؛ فقد انضممت فقط للطلبة الآخرين من فصلى عندما كانوا يتظاهرون بهذه الطريقة.

أسست مدرسة الثانوية المركزية فى بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، وكان من حسن حظى أنى قُبلت فى المدرسة، فقد كان شرطا أن يحصل المتقدم لها على درجات ممتازة. كان عدد كبير من المثقفين والصفوة الأكاديمية فى العراق طلابا فى مدرسة الثانوية المركزية، وأدوا هناك امتحان الثانوية العامة. وكانت المدرسة مثل الإناء الذى ينضح بالمذاهب السياسية التى كانت فى مجملها ذات طابع مناهض للإمبريالية والسياسة الاستعمارية.

صحيح أن العراق نال استقلاله فى عام ١٩٣٢، إلا أن التأثير البريطانى فى أغلب الميادين كان لا يزال قويا، حتى أنه يمكن القول بأن العراق كان فى ذلك الوقت دولة من دول التاج البريطانى.

كانت أنباء العدوان الثلاثى على مصر من قِبَل إنجلترا، وفرنسا، وإسرائيل، وكذلك قرار إغلاق قناة السويس فى عام ١٩٥٦، قد قوبلت بغضب شديد من طلبة مدرسة الثانوية المركزية فى المقام الأول، وكذلك مدارس وكليات الجامعات العراقية الأخرى..

كان الشيوعيون منا ـ وكذلك نحن ـ ممن يسعون من أجل عراق حر مرتبط بالأقطار الأخرى فى العالم العربى نرفع أصواتنا معبرين عن مشاعرنا تجاه كلتا القوتين الأوروبيتين الاستعماريتين، وكذلك الدولة اليهودية الجديدة كلما ازدادت حدة الأزمة.

وما لبثت أن وصلت مشاعر اليأس والإحباط إلى أعضاء مجلس النواب الذى كان

مقره فى مبنى قديم رائع كان قد شيده الخليفة العباسى هارون الرشيد لأخته قبل ألف ومائتى عام مضت، حيث كانت الدولة الإسلامية تمتد آنذاك من إفريقيا حتى إيران حاليا. كانت العاصمة بغداد - التى كان يبلغ عدد سكانها أكثر من مليون نسمة - هى ثانى أكبر مدينة فى العالم بعد القسطنطينية. وإذا كان هناك فى التاريخ مبنى للبرلمان لكان ذلك هو الذى هنا. حيث كان المبنى يقع على نهر دجلة، يلتصق حائطه بحائط مدرسة الثانوية المركزية - إذا أمكننى أن أقول ذلك - ؛ فلم يكن يفصل بين المبنيين غير طريق ضيق.

كان الطريق الذى يسلكه أعضاء مجلس الأمة (البرلمان) وموقف السيارات الخاص بهم لا يبعد حتى خطوتين عن سطح المدرسة، وكان هدفنا المحبب هو السيارة الشيفروليه السوداء أمريكية الصنع الخاصة بنورى السعيد. كنا نهرول إلى سطح المدرسة، وفى أيدينا الحجارة والطوب وغيره مما يمكن أن يُقذف به، فور أن يرى أحدنا نورى السعيد قادما. ولم يكن بعض أعضاء مجلس الأمة كذلك بمنأى عن حجارتنا.

كنا نمطر السيارة بما فى أيدينا ونصيح إنه «عميل» و«خائن»، وإنه باعنا للإنجليز «بثمن بخس».

كان رئيس الوزراء يرتدى عادة قميصا أصفر اللون، ويجلس لدواعى الأمن فى منتصف المقعد الخلفى عندما كانت تمر سيارته تحت هذا الوابل من الحجارة. لكنه كان يبتسم ويلوح لنا دائما بيده. وما زلت أتذكر ما كنت أشعر به آنذاك من أن له حضورا يشع طيبة ومودة.

كان وقوع بلاد الرافدين تحت الحماية البريطانية يرجع فى المقام الأول إلى قرار سياسى خاطئ من إسطنبول. فقبيل إطلاق تلك الأعيرة النارية فى سراييفو، ذلك الأمر المصيرى الذى كان سببا فى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان العراق - ذلك الإقليم كما نعرفه اليوم - لا يزال يتكون من ثلاث ولايات تركية متخلفة اقتصاديا، ولا تسترعى انتباه أحد: الموصل، وبغداد، والبصرة.

وإذا بالحرب العالمية الأولى تنتزع هذه الولايات من دائرة النسيان فجأة لتدفع بها إلى لعبة الحرب التى تديرها القوى العظمى فى الشرق الأوسط. وبعد نشوب الحرب فى

عام ١٩١٤ راهن الحكام العثمانيون على الحصان الخاسر، فانضموا للقوى المركزية فى أوروبا وهى ألمانيا، والنمسا، والمجر، وتحالفوا ضد فرنسا، وبريطانيا العظمى.

وعندما خسرت القوى المركزية الحرب بعد ذلك بأربعة أعوام وأعلنت استسلامها، كانت أجزاء كبيرة من الدولة العثمانية، ومن ضمنها بلاد الرافدين، قد بدأت تتجزأ.

كان التصور حول العراق كأمة جديدة قد بدأ يتبلور بالتدريج عند القوى العظمى المنتصرة.

كانت للحرب العالمية التى اندلعت فى شبه جزيرة البلقان آثارها السريعة فى منطقة الشرق الأوسط؛ فقد خشيت الحكومة فى لندن أنه ربما قد تهدد القوات التركية فى المنطقة أماكن استخراج البترول فى بلاد فارس، تلك التى تمد الأسطول الملكى بكميات كبيرة من الوقود. وعليه فقد توجهت إلى البصرة فى نوفمبر من عام ١٩١٤ حملة برية كبيرة من الإنجليز والهنود، كان من بين أهدافها تأمين استخراج البترول من حقول البترول الفارسية.

وبعد سقوط البصرة زحفت الحملة فى اتجاه الشمال. فى شهر نوفمبر من عام ١٩١٥ كانت قوات الحملة على بعد ثمانين كيلومترا جنوبى بغداد، حيث لاقت دفاعا عنيفا من القوات التركية التى دحرت الغزاة إلى مدينة الكوت، حيث تعرضوا لحصار شديد، وتكبدوا خسائر فادحة أدت بهم فى النهاية إلى الاستسلام. وقد قتل فى هذه الموقعة المأساوية عشرة آلاف جندى بريطانى، كما جرح أكثر من عشرين ألفا.

أرسلت لندن على الفور مددا للقوات من الهند، حيث تمكنت القوات بقيادة القائد ستانلى مود من دحر الجيش العثمانى مرة أخرى. وعندما استولى الجيش البريطانى الهندى الجديد على بغداد فى شهر مارس من عام ١٩١٧، خطب الجنرال قائلا: «لقد أتينا لتحريركم وليس لاحتلالكم».

وعندما دخل الجنرال المدينة سادت فيها الفوضى، وكانت الفرصة سانحة لكل من يريد النهب والسلب، فقد أخذت جموع العامة تحمل كل ما هو ممكن من مقتنيات قيمة من المبانى العامة والمكتبات والدكاكين وبيوت الأغنياء من اليهود والمسيحيين. كما تعرضت قافلة تجارية فى حى الكاظمية للسطو، وقامت جموع العامة بذبح الحيوانات

وتعاركوا من أجل أفضل الأجزاء فى الذبائح، كما لقى كثيرون حتفهم. وكان رد فعل الجنرال مود سريعا، ففى خلال ساعات قليلة كانت قواته قد أعادت السكينة والنظام إلى بغداد، واضطر كثير من اللصوص والعصابات إلى ترك الغنائم التى حصلوا عليها وفَرُّوا هاربين من المدينة عندما تدخلت القوات البريطانية والهندية.

وقد ظفر الجنرال على أثر تلك الواقعة بشعبية كبيرة حتى أن بعض رجال التجارة ذوى النفوذ الكبير قد شيدوا له نصبا تذكاريا بعد وفاته، كما نحت مثّال إيطالى تمثالا رائعا للجنرال وهو يمتطى حصانه، وقد رأى هذا العمل الفنى النور لأول مرة فى عام ١٩٢٣.

لم تقتصر الصعاب التى تعرض لها الأتراك فى الحرب العالمية الأولى على نطاق بلاد الرافدين، حيث تصدعت جوانب إمبراطوريتهم مترامية الأطراف فى شبه الجزيرة العربية أيضا؛ فقد شهد إقليم الحجاز ثورة كبيرة قام بها شريف مكة الحسين بن على فى صيف عام ١٩١٦، وانضم إلى جيشه بسرعة عدد من الضباط العرب الشبان الذين كانوا قد تخرجوا من الأكاديمية الحربية العثمانية فى إسطنبول. كان من بينهم نورى السعيد الذى كان آنذاك فى الثامنة والعشرين من عمره. وبعد فترة أصبح نورى السعيد رئيس أركان حرب جيش الثوار العرب الذى بدأ يزحف نحو الشمال بقيادة الأمير فيصل ابن شريف مكة، وكذلك ضابط المخابرات والمغامر البريطانى الذى ذاع صيته فيما بعد لورانس.

كان احتلال ميناء العقبة على البحر الأحمر هو أول انتصار كبير يحققه لورانس العرب والأمير فيصل، وكانت عمليات التخريب والاعتداءات المستمرة التى شنها جيش الثوار على طرق الإمداد والحاميات التركية قد سهلت الطريق على الجنرال إدموند اللينبى وجنوده البريطانيين والأستراليين والهنود لكى يتحركوا من مصر إلى فلسطين، واستطاع الجنرال فى شهر ديسمبر من عام ١٩١٧ أن يحتل القدس، وواصل حملته بمحاذاة الشاطئ نحو سوريا ودمشق. أما جيش الثوار العرب فقد قام بالمثل فى عمق البلاد.

وقد كسب الأمير فيصل، ولورانس، ونورى السعيد السباق بفارق ضئيل جدا. فبعد أن هزم جنود الجنرال اللينبى فلول الجيش العثمانى فى معركة «ماجدو» الحاسمة

(واسمها فى فلسطين «تل المتسلم» الذى يقع على الطريق بين طبرية وحيفا قريبا من الناصرة فى منطقة برج عامر، وهى ذات تاريخ عريق يعود إلى أيام الكنعانيين) فى شهر سبتمبر من عام ١٩١٨، توقفوا بذلك على مشارف دمشق منتظرين الأوامر الجديدة من لندن.

وفى عشية الأول من أكتوبر دخل الثوار العرب على خيولهم وجمالهم المدينة القديمة، يتقدمهم الأمير فيصل، واستقبلهم الأهالى استقبال الأبطال. وبعد هذا التاريخ بيومين استطاع اللينبى أن يدخل دمشق بجيشه دون مقاومة تذكر.

أما فى الشرق فكان الجنرال مود قد أصابه مرض الكوليرا فى مدينة الرمادى، ولم يمر سوى نصف العام على احتلاله لبغداد وعلى ما قدمه من وعود للمواطنين بأنه سيسمح لهم بتشكيل حكومتهم بأنفسهم حتى كان الجنرال قد قضى نحبه بعد ذلك بوقت قصير، ولم يكتب له أن يشهد ما قد تم تقريره فى المؤتمرات بعد هزيمة الدولة العثمانية وتفككها؛ فقد اجتمعت القوى المنتصرة فى اليوم الثامن عشر من شهر يناير لمؤتمر السلام فى قصر فرساى فى باريس. وسرعان ما اتضح أنه هيهات أن يكون هناك حكم ذاتى عربى فى الأقاليم التركية المحررة فى بلاد الرافدين أو فى سوريا على حد سواء. وكان الأمير فيصل قد أعلن نفسه ملكا هناك عندما تقدم بالقوات مع لورانس ونورى السعيد نحو دمشق.

كانت الحدود قد رسمت قبلها منذ أمد بعيد.

فقد أظهرت الحرب العالمية الأولى للقوى العظمى بشكل لا يدع مجالا للشك أن البترول لا غنى عنه بالنسبة للحرب الحديثة الممكنة. فالطائرات والسفن الحربية والدبابات والشاحنات لا جدوى منها بدون الوقود. وقد تمت فى لندن مقارنة جيولوجية الأقاليم العثمانية الثلاثة فى بلاد الرافدين بالمناطق فى بلاد فارس التى كان يتدفق فيها زيت البترول. وكان التشابه مذهلا وينبئ بأنه قد يكون فى العراق أيضا كميات ضخمة من البترول تحت الكثبان الرملية.

كانت إنجلترا وفرنسا قد أبرمتا اتفاقا سريا فى شهر مايو من عام ١٩١٦، وذلك بتصديق من روسيا حول كيفية تقسيم أجزاء كبيرة من الدولة العثمانية فيما بينهم بعد الحرب، وقد تم تنفيذ الاتفاقية - التى أطلق عليها اسم «سايكس بيكو»

نسبة إلى المفاوضين سير مارك سايكس الانكليزى وجورج بيكو الفرنسى - بأدق تفاصيلها.

وفى مؤتمر جديد عقد فى سان ريمو فى أواخر شهر أبريل من عام ١٩٢٠، وبموافقة واستحسان عصبة الأمم حديثة العهد، تم إعلان العراق وفلسطين دولتين تحت الانتداب البريطانى، أما سوريا ولبنان فكانتا من نصيب باريس، وعلى إثر ذلك توجهت قوات فرنسية بسرعة إلى الجزء الشرقى من ساحل البحر المتوسط، وقامت بطرد الملك فيصل الذى كان قد نصب نفسه ملكا فى دمشق.

لم تمض سوى أشهر قليلة حتى نشبت الثورة فى العراق، حيث عم الاستياء من خضوع العراق للحكم العسكرى البريطانى، سواء أكان ذلك فى الأجزاء الوسطى من الدولة الجديدة أو فى المناطق الكردية فى الشمال.

وعندما حمى وطيس القتال واستطاع الثوار أن يكسبوا مناطق أكثر وأكثر، طلب القائد الأعلى للجيش البريطانى أيلمار هالدين السماح له باستخدام الغاز السام ضد الثوار ليغير الموقف لصالحه. واستطاع أن يقنع وزير المستعمرات آنذاك فى لندن بسهولة:

«أنا لا أفهم سبب هذه الحساسية المفرطة تجاه استخدام الغاز السام؛ فأنا أؤيد استخدام الغاز ضد الشعوب غير المتحضرة أيما تأييد»، ذلك ما قاله ونستون تشرشل، ما لم يخطئ المؤرخون فى النقل عنه!

لكنه من غير المعروف إذا ما كان القائد أيلمر قد استخدم بالفعل الأسلحة الكيماوية التى جلبها أم لا، حيث كان لدى الجنرال - على العكس من الثوار العرب - سلاح جوى فتاك كان بمقدوره ليس فقط إلقاء القنابل بل أيضا حصد الثوار بنيران المدافع الرشاشة من الهواء. راح ضحية هذه المعارك ما يقرب من ستة آلاف عراقى وخمسمائة جندى من البريطانيين والهنود، وذلك قبل أن يُخضع الجنرال الثوار فى خريف عام ١٩٢٠.

تكلف إخماد مثل هذه الثورات ثمنا غير زهيد، وكان من شأن ذلك أن يثير المخاوف فى لندن، فبدأت الحكومة البريطانية بزعامة تشرشل تبحث عن بديل آخر



للاحتلال العسكرى المباشر الذى كان العراقيون يمقتونه تماما، على أن يكون البديل الجديد أكثر أناقة وغير مثير لحفيظة العراقيين لهذه الدرجة. وقد تم التوصل إلى قرار أنه من الأفضل أن يحكم العراقيون أنفسهم بأنفسهم فى المستقبل، على أن يكون ذلك فى ظل السيطرة البريطانية بالطبع.

تم تشكيل «حكومة» عراقية لها مستشارون بريطانيون. وفى مارس من عام ١٩٢١ رحل تشرشل و لورانس إلى مصر ليلتقيا ببعض مبعوثى هذه «الحكومة»، وتم وضع الخطوط العريضة لحكم هذا القطر تحت الانتداب. كما تقرر فى مؤتمر القاهرة أن العراق سيصبح مملكة، وقد وقع الاختيار على الأمير فيصل - الذى كان الفرنسيون قد طردوه من سوريا - ليتولى الآن عرش العراق. قَبِل الأمير - الذى كان فى السادسة والثلاثين من عمره آنذاك - هذا. وفى صيف هذا العام تم إجراء استفتاء عام كانت تحيط به الشبهات بدرجة كبيرة حصل فيه الملك الجديد على أكثر من ٩٦ بالمائة من أصوات الناخبين الذين لهم حق التصويت. ومنذ ذلك الوقت لم ينتخب أحد بمثل هذه الأغلبية الساحقة فى العراق إلا صدام حسين، وهو الأمر الذى يفصح بعض الشىء عن مصداقية هذا الاستفتاء!

فى الثالث والعشرين من أغسطس من عام ١٩٢١ تم فى بغداد تتويج فيصل الأول ملكا على العراق فى أجواء تسودها مظاهر العظمة والفخامة.

اتضح سريعا أن الملك الجديد فيصل الأول ليس هو الذى يلعب الدور السياسى الأول فى العراق الذى أصبح دولة نصف ديمقراطية تحت الانتداب البريطانى، إنما هو نورى السعيد الذى كان يشغل منصب رئيس أركان الحرب آنذاك، حيث تدرج فى المناصب فبدأ قائدا للقوات المسلحة، ثم أصبح بسرعة وزيرا للدفاع، ليشغل فى النهاية منصب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، حيث تنقل بين هذه المراكز مرات لا تحصى.

وفى الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٨ شهد العراق ستين تغييرا وزاريا. وبشكل مهذب يمكن أن نقول إنه فى خضم هذه الأمواج العاتية المتصارعة على السلطة تمكن نورى السعيد عادة أن يظل على السطح. فإذا فاجأته مرة عاصفة لم يحسب لها حسبانا لم يكن يمضى وقت طويل حتى يكون قد تمكن من السيطرة على الموقف مرة أخرى.

تمكن نورى السعيد بحسه السياسى المرهف الذى لا يعرف الكلل أو الملل من أن

يشرك الملوك المتعاقبين وضباط الجيش الأقوياء وأعضاء الحكومة والنواب وصفوة التجار وكبار الملاك الزراعيين فى بناء الدولة وإعمارها. كان لديه دائما هدف واضح أمام عينيه:

يجب أن يصبح العراق دولة حديثة تعمل لصالح مواطنيها، وذلك بفضل مخزون البترول الهائل الذى تطفو فوقه العراق بمعنى الكلمة كما اتضح بالتدريج. فشيدت المدارس الجديدة والجامعات ومحطات المياه والطرق ومحطات توليد الطاقة الكهربائية بدون انقطاع. وتمكن الطلاب من خلال البعثات العلمية أن يدرسوا فى الجامعات والمعاهد العليا في الخارج، وفى بريطانيا فى المقام الأول. و اتسع نطاق العمل بفضل إيرادات النفط التى ارتفعت مع تزايد كمية النفط المستخرج من الحقول. كان هذا النمو الاقتصادى من شأنه أن يخفف من وطأة النزاعات. وقد لعب مجلس الإعمار دورا رائدا فى التخطيط لتحقيق ذلك الهدف.

استطاع نورى السعيد فى هذه السنوات الطويلة أن يتغلب حتى على الصراعات الدينية والعرقية وعلى البنية السلطوية داخل القبائل والعشائر والعائلات، وذلك كله بفضل جهود قوات الأمن و جهاز الشرطة السرية ذَوَىْ اليد الطائلة، واللذين لم يتصفا قطّ باستخدام الأساليب الإنسانية.

كان نفوذه يبدو ثابتا لا يمكن زعزعته.

عندما قذفته بالحجارة من فوق سطح المدرسة الثانوية فى بغداد كان نورى السعيد أقوى رجل فى العراق لمدة تزيد على خمسة وثلاثين عاما.

وذات يوم كان نورى السعيد قد ضاق ذرعا بمضايقاتنا.

كان للمدرسة بوابة واحدة، وعندما أردنا أن نعود إلى منازلنا بعد أن قذفناه بالحجارة كالمعتاد وجدنا رجال الشرطة الذين كانوا يقفون كتفا إلى كتف يسدون الطريق مكونّين ممرا متصلا يؤدى إلى مركز الشرطة القريب من المدرسة التى تبعد عدة مئات من الأمتار. كانوا يمسكون بعصيهم مستعدين للضرب.

كان عددنا يقترب من مائة وخمسين تلميذا ضُربوا فى نقطة الحراسة فى عصر هذا اليوم. هناك سحبت منا أوراقنا الشخصية وقيل لنا إن كل من يواصل القذف بالحجارة

سيحرم من المدرسة. وقد تمكنت أنا وصديق لى يدعى لبيب السامرى - أصبح الآن جراحا مشهورا فى لوس أنجلوس - من أن نهرب من هذا العرض المخزى فى نقطة الحراسة، فقد نفذنا من بين شرطيين وهربنا، غير أنى تلقيت من أحدهم ضربة قوية بالعصا فى ركبتى ما زلت أتذكر حتى الآن كيف كانت مؤلمة أيما إيلام.

فى منتصف الخمسينيات خيمت ظلال الحرب الباردة على العراق، وازدهر الحزب الشيوعى الممنوع يوما بعد يوم وهو الذى كان معظم أعضائه من تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة. وكان النشطاء يخاطرون بإمكانية فصلهم من المدارس الثانوية والجامعات.

كان نورى السعيد على طول الخط مواليا للغرب ولبريطانيا، حتى عندما استولت على السلطة مجموعة من الضباط المتعاطفين مع الحكم النازى فى ألمانيا فى شهر أبريل من عام ١٩٤١. هرب نورى السعيد مع الأسرة المالكة إلى الأردن عند وقوع هذا الإنقلاب، غير أنهم استطاعوا العودة سريعا فى شهر يونيو بعدما تدخلت القوات البريطانية وعصفت بالثوار.

ودفع أكثر من ثلاثة آلاف جندى عراقى حياتهم ثمنا لإخماد هذا الانقلاب!

وهرب الجنرالات والقواد الذين دبروا الانقلاب، ولكنهم حوكموا أمام محكمة الحرب وحكم عليهم غيابيا بالإعدام. وقد اقتفت قوات الأمن أثرهم وتمكنت فى النهاية من القبض عليهم وإحضارهم إلى بغداد وشنقهم. وقد تلت هذه الواقعة عمليات تطهير تم الحكم فيها على أعداد كبيرة من الضباط بالسجن لسنوات طويلة لاشتراكهم فى الانقلاب، كما طرد عدة آلاف منهم من وظائفهم وتقرر إبعادهم نهائيا عن الخدمة العسكرية.

غير أن رئيس الوزراء كان يرى أن تزايد تأثير الاتحاد السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط هو أكبر تهديد للمصالح القومية للعراق، ولذلك قامت الحكومة فى العراق بقطع العلاقات الدبلوماسية مع موسكو فى عام ١٩٥٥، وقبل نهاية العام كان قد تم إبرام اتفاقية بغداد التى اتفق كل من العراق وتركيا وإيران وباكستان وبريطانيا العظمى على التعاون بينهم فى السياسة الدفاعية ضد الخطر الأحمر.

فى عام ١٩٥٦ تعرض جورج خياط، وهو واحد من أصدقائى العراقيين الكثيرين الذين قرروا الهجرة إلى أمريكا، ومعه خمسة عشر طالبا للطرد من الجامعة لأنهم اشتركوا فى مظاهرات ضد الملك والحكومة واتهموا بأنهم شيوعيون، وهو ما كان - على ما يبدو - منطبقا على معظمهم.

حاول الأباء اليائسون الذين رأوا مستقبل أبنائهم العلمى يضيع أن يفعلوا كل ما بوسعهم لإقناع قوات الأمن بعودة الطلبة الشبان المضللين إلى الجامعة دون جدوى.

وروى لى جورج خياط أن الطلبة قرروا ذات ليلة أن يذهبوا إلى نورى السعيد، بعد أن اعتذر عن مساعدتهم المرحوم كامل الجادرجى والمرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبى لظرفهم الخاص، وكلهم أمل أنه ربما يمكنه مساعدتهم. كان هناك شرطى يحرس منزل رئيس الوزراء الذى كان يقع بالقرب من مبنى الإذاعة فى وسط بغداد، وبالطبع لم يسمح لهم بالدخول. فبدأ الطلبة يعرضون له وجهة نظرهم، واحتدم النقاش ليصبح سريعا ضجيجا عاليا.

«ماذا يحدث؟». سمع خياط صوتا جاء من وراء السور العالى الذى يحيط بالمنزل.

أجاب الضابط: «إنهم بعض الطلبة الذين يريدون التحدث معك، يا ريس».

قال السعيد: «دعهم يدخلون».

كان رئيس الوزراء يجلس على سجادة صغيرة فى التراس أمام المنزل وفى يده كأس عرق وأمامه طبق فيه حلقات من الخيار. كان يرتدى الدشداشة. نهض الرئيس وصافح كلا منهم ودعاهم للدخول، وطلب منهم أن يصبوا لأنفسهم الويسكى أو الكونياك أو عصير البرتقال إذا كانوا يفضلون ذلك. وهذا هو ما فعلوا.

سألهم: «ماذا يمكننى أن أقدم لكم؟»

حكى الطلبة أنهم قد طردوا من الجامعة لأنهم اشتركوا فى مظاهرات ضده وضد الحكومة. كما وجهت لهم تهمة الشيوعية.

رد السعيد: «سأقول لكم كل شىء. إنه لا يهمنى فى واقع الأمر إذا ما كنتم تنتمون لحزب معارض أم لا، فذلك أمر طبيعى، غير أنكم ما زلتم صغار السن جدا وتوجد أشياء كثيرة فى الحياة لا تعلمون عنها شيئا، لذلك فإنه يسهل توجيهكم واستغلالكم».

تأملهم مليا:

«يمكن أن تواصلوا تبنى آراء أخرى غير آرائى بدون مشاكل، ولكن كفوا عن وصمى بالخيانة والعمل لخدمة المصالح البريطانية والأمريكية. عندما تعرفون تاريخ بلادنا بشكل أفضل فسوف تكتشفون أنى أديث دورا حاسما فى عملية بناء العراق الحديث، وستدركون أنه كان لى بخصوص هذا الشأن تصورات مختلفة تماما عن الحزب الشيوعى».

رشف السعيد رشفة من العرق ثم واصل حديثه:

«إن التعاون مع القوى العظمى الغربية أفضل بكثير بالنسبة للعراق، وسيؤتى ثمارا أكثر من العمل مع الاتحاد السوفييتى ودول الكتلة الشرقية. أنا مقتنع بذلك أيما اقتناع. ستكسب القوى الغربية الحرب الباردة».

بعدما انتهى السعيد من تحذيراته التى لم ينسها جورج خياط طيلة حياته قام بالاتصال بمدير الأمن.

«عندى هنا بعض الشبان الذين استبعدوا من الجامعة، فلتقم باللازم لكى يستطيعوا العودة إليها».

لكن الطلبة كانوا يطمعون فى أكثر من ذلك، فقد ألقى باثنين من زملائهم فى السجن. أخذ السعيد الأسماء واتصل مرة أخرى، فأخبره مدير الأمن أنه قد ألقى القبض على كليهما وهما يطبعان منشورات للحزب الشيوعى، وأن لديهما فى المنزل ماكينة طباعة.

فسأل السعيد الشبان: «كيف لى أن أطلب إطلاق سراحهم و ما قاموا به فى النهاية هو أمر محظور»؟

ألح رفاق الخياط على نورى السعيد بطلب مساعدة زميليهما. ونفذ نورى السعيد مرة أخرى مبدأ الرحمة فوق العدل.

«أطلقوا سراحهما، لكن خذوا منهما تعهدا مكتوبا بأنهما لن يقوما بذلك مرة أخرى»، ذلك هو ما قاله نورى السعيد لمدير الأمن فى مكالمته الأخرى.

لم يكن الخطر الذى يهدد نورى السعيد والنظام الملكى فى العراق قادما من الروس وإنما من رجال الجيش العراقى أنفسهم.

كانوا يحتذون فى ذلك حذو مجموعة من الضباط الشبان الذين كانوا قد ضاقوا ذرعا بالملك الفاسد فاروق بعد الهزيمة النكراء فى الحروب العربية الإسرائيلية فى فلسطين فى عام ١٩٤٨، فقد قام «الضباط الأحرار»، كما كانوا يطلقون على أنفسهم، بتدبير ثورة عام ١٩٥٢، ونفى فاروق فى اليخت الخاص به فى البحر ولم يعد مرة أخرى. وأعلنوا أن وجود القوات البريطانية فى مصر أمر غير مرغوب فيه، حيث غادر فى عام ١٩٥٤ آخر جندى إنجليزى الجمهورية الوليدة. فى مارس من عام ١٩٥٦ أممت مصر قناة السويس، وأصبح الرئيس جمال عبد الناصر بذلك بطلا وقدوة تحتذى فى منطقة الشرق الأوسط كلها تقريبا.

بدأت فى بغداد حركة تنظيمية سرية قام بها «الضباط الأحرار» الشبان الذين كانوا قد شعروا بالمهانة الشديدة بسبب الهزيمة النكراء فى فلسطين. كان الجنود العراقيون البالغ عددهم من خمسة عشر إلى عشرين ألف جندى ممن أرسلوا إلى فلسطين ليقضوا على دولة إسرائيل وهى فى أطوارها الأولى يشكلون أكبر فصيلة مقاتلين أرسلت من الدول العربية للمشاركة فى الحرب. كان قبول الهزيمة أمرا صعبا عليهم. وكان الاستياء من الأسرة المالكة وموقف نورى السعيد الموالى لبريطانيا يزداد يوما بعد يوم، فقد كان يغذيه الحزب الشيوعى والأحزاب القومية آنذاك.

وعلى الرغم من ذلك، كان عدد المجموعة التى قامت بالانقلاب فيما بعد ضئيلا فى بادئ الأمر، ولم يبدأ عددها فى التزايد إلا عندما نجحت بريطانيا وفرنسا فى إعادة فرض سيطرتها على قناة السويس بمساعدة إسرائيل فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٦.

تسبب هذا التدخل العسكرى فى ردود فعل عنيفة فى منطقة الشرق الأوسط بأكملها، ففى العراق أغلقت المدارس والجامعات أبوابها حتى يمكن إخماد موجة الشغب والمظاهرات المندة بالعدوان الثلاثى للقوى الاستعمارية وإسرائيل على مصر. ورأى نورى السعيد نفسه مجبرا على إعلان حالة الطوارئ التى امتدت حتى شهر مايو من عام ١٩٥٧.

وبسبب الضغط الشديد من الولايات المتحدة، فقد اضطرت القوات الفرنسية

والبريطانية والإسرائيلية أن تنسحب من مصر فى خزى وانكسار. فقد كان الرئيس الأمريكى أيزنهاور يخشى من أن الاتحاد السوفيتى يمكن أن يستفيد من الموقف إذا لم تنسحب القوات من منطقة الشرق الأوسط، ولذلك وبخ إسرائيل و حلفاءه فى الغرب على فعلتهم.

ظهر جمال عبد الناصر بمظهر المنتصر العظيم لتزدهر شعبيته ازدهارا كبيرا من جديد.

وفى خريف عام ١٩٥٧ توجه «الضباط الأحرار» إلى العميد الركن عبد الكريم قاسم، الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وأربعين عاما، وطلبوا منه أن يتولى قيادة الثورة التى خططوا لها، فوافق عبد الكريم قاسم واستدعى معاونه عبد السلام عارف الذى يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاما و أشركه فى الإعداد للثورة.

كان الجو شديد الحرارة عندما استيقظت فى الصباح الباكر من يوم الرابع عشر من يوليو من عام ١٩٥٨، وكانت بغداد على سطح من صفيح ساخن. عرفت من الراديو أنه قد حدث انقلاب عسكرى فى تلك الليلة وأطيح بالملك والأسرة الحاكمة. وطلب عبد السلام عارف من المستمعين فى البيان الذى ألقاه أن يقوموا بمظاهرات فى الشوارع لمساندة الثورة، فالفساد والحياة غير الكريمة التى يحياها الشعب ستنتهى وسيتم القضاء على «الإمبريالية وحلفائها».

«إنه فى غاية الأهمية أن تتوجهوا جميعا إلى قصر الرحاب»، هكذا كان مطلب القائد.

كان فيصل الثانى فى الثانية والعشرين من عمره عندما احتشدت الجماهير العارمة حول القصر. كان هو الملك الثالث الذى اعتلى عرش العراق من بين ملوكها القلائل. وكان جده فيصل الأول قد توفى فى ظروف غامضة فى أحد الفنادق فى مدينة برن فى سويسرا. أما والده الملك غازى فقد توفى فى حادث سيارة، ولم تكتشف هنا أيضا ملابسات الحادث. وقد تولى الوصاية على حكم البلاد خاله عبد الإله حتى عام ١٩٥٣ عندما وصل فيصل الثانى إلى السن القانونية التى تؤهله لاعتلاء العرش.

قتل الملك الشاب وخاله عبد الإله رميا بالرصاص عند مغادرتهما القصر فى يوم

الرابع عشر من يوليو ١٩٥٨، ولم يغن عنهما أنهما كانا يحملان القرآن فوق رأسيهما، حيث فقد الملازم ثان عبد الستار العبوسى أعصابه حسب زعمه بأنه قد سمع طلقات نارية من القصر الملكى، فأطلق النيران دون أن ينتظر الأوامر على أفراد الأسرة الملكية بأكملها، فأرداهم صرعى.

لم يمت الملك فيصل الثانى على الفور، ولكن الأطباء لم يتمكنوا من إنقاذ حياته عند وصوله إلى مستشفى الرشيد العسكرى. كانت زوجة خاله عبد الإله قد وصلت إلى نفس المستشفى مصابة بجروح خطيرة، ولكن تم إنقاذها لتصبح بذلك الوحيدة من أفراد الأسرة المالكة التى نجت من وابل الرصاص فى ذلك اليوم.

كان خضر عبد العزيز الدورى أحد كبار أعضاء حزب البعث فى العراق، وعندما وصل هذا الحزب إلى السلطة فى عام ١٩٦٨، أرسل خضر إلى البصرة ليتولى منصب الضابط السياسى للقوات هناك.

كان عبد الستار العبوسى يخدم فى صفوف الجيش هناك. وكان يعانى من مشاكل نفسية مستعصية. فقد روى الدورى الآتى: «كان فيصل الثانى يأتيه كل ليلة فى المنام ويسأله لماذا قتله؟ وذات يوم لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك؛ فوجدناه جثة هامدة. لقد انتحر».

كانت أعمدة الدخان تتصاعد من نوافذ قصر الرحاب عندما وصلتُ إلى هناك فى صباح يوم الانقلاب مع ابن خالى محمد قاسم الذى كان فى مثل عمرى. كان الناس يتزاحمون فى الشوارع المؤدية إلى القصر. كانوا يغنون ويرقصون، وكانت أعمال النهب والسلب على قدم وساق. فهذا شاب ترتسم على وجهه ملامح السعادة وذراعاه محملتان بأحذية وقمصان الملك. عندما دخلت إلى القصر أذهلنى حظه البسيط من الترف والأبهة، فكثير من منازل الأغنياء فى بغداد قد بهرتنى أكثر منه بكثير.

كان عبد الإله جثة عارية ملقاة أمام القصر، وقد أحضرت الجماهير عربة نقل وحبلا وشدوا وثاق الجثة جيدا، ثم سحلوا الجثة وسط صيحات السخرية والازدراء إلى ميدان الشهداء. وكنتُ أنا وابن خالى نركض خلف حشود الجماهير المهللة.

فى ميدان الشهداء علقت الجماهير جثة عبد الإله فى أحد أعمدة الإنارة. ثم عاون

رجلان امرأة فى تسلق العامود حتى وصلت إلى جثة عبد الإله وقطعت إحدى يديه، ثم غرست فيها سكينها وأخذت تلوح بها للجماهير كأنها رمز لانتصارها، فقد كانت هذه المرأة قريبة للعقيد صلاح الدين الصباغ، وهو واحد من الذين قاموا بانقلاب ١٩٤١ وكان من المتعاطفين مع الحزب النازى، وقد شنق فى حضور عبد الإله أمام مبنى وزارة الدفاع فى بغداد. الآن تشفى أسرته غليلها. فقد صعد بعد ذلك أحدهم إلى الجثة وقام بقطع عضوه الذكرى. ثم توالى آخرون عليه.

شيئا فشيئا أصبح من غير الممكن التعرف على عبد الإله!

لم تقتصر دعوة عبد السلام عارف فى الراديو إلى الانتصار على «الإمبريالية وعملائها» على الأحياء من البشر فقط؛ فقد انقضت الغوغاء على تمثال فيصل الثانى وتمثال الجنرال البريطانى مود. كان تمثال الجنرال مود محرر بغداد ممتطيا جواده وقد نُصب أمام السفارة البريطانية، أما تمثال الملك فيصل فكان فى مدخل إحدى الجسور على نهر دجلة القريبة من بناية الإذاعة العراقية فى بغداد.

أسقطت العامة كليهما وألقت بهما فى النهر.

سرعان ما حان الدور على نورى السعيد.

كان قد ألقى القبض على ابنه صباح وقُتل وسحلت جثته فى الشوارع، وفى آخر الأمر سُكب عليها البنزين وأشعلت فيها النيران لإسعاد الجماهير.

أما رجل الدولة العجوز فقد حالفه الحظ فى الهرب بواسطة زورق صغير كان مربوطا بالحبال بالقرب من قصره، فأبحر به صوب منبع نهر دجلة، فاستضافه صديق حميم له فى حى الكاظمية، إلا أنهم على ما يبدو كانوا يعرفون أنه لن يمضى وقت طويل حتى يأتى الثوار ويفتشوا هذا المنزل أيضا بحثا عن رئيس الحكومة.

لذا قرر نورى السعيد مغادرة الكاظمية والذهاب إلى بعض أقاربه الذين يسكنون قرب منطقة الباب الشرقى بعد أن ارتدى عباءة نسائية سوداء حتى يمكنه أن يتخفى فى الشوارع دون أن يعرفه أحد. لكن الأمر ما لبث أن باء بالفشل فى أحد شوارع المنطقة، إذ رأى أحد الشبان بنطلون البيجاما الخاص به ظاهرا من تحت العباءة، فصرخ منبها الآخرين، وعلى الفور التف الناس حول رئيس الحكومة وهو فى ملابس النساء.

وروى بعض شهود العيان أن نورى السعيد أخرج مسدسه وأطلق على نفسه الرصاص على حين حكى الآخرون أن أحد الجنود الذين أسرعوا إلى المكان هو الذى رماه بالرصاص، وظلت جثة نورى السعيد لفترة ما ملقاة فى ميدان الحرية إلى أن تم إبلاغ الثوار.

تأكد العقيد وصفى طاهر بنفسه أن القتيل هو رئيس الوزراء، فقد كان طاهر لسنوات عديدة الحارس الخاص لنورى السعيد الذى كان يضع فيه ثقته الغالية. والآن ها هو ذا يصوب مدفعه الرشاش نحو رأس رئيسه ويفرغ فيه الطلقات إمعانا فى الإذلال. فقد أصبح العقيد الآن الحارس الخاص لعبد الكريم قاسم، رئيس الوزراء وأقوى رجل فى الجمهورية الجديدة.

وبما أن نورى السعيد كان القائد الأعلى للقوات المسلحة وتقلد أكثر من مرة منصب وزير الدفاع فقد أمر عبد الكريم قاسم بتشييع جنازة مهيبة له سرا. ولكننا سمعنا بعد ذلك بقليل أن العامة قد نبشوا قبره وأخرجوا الجثة وربطوها بحبل فى سيارة وسحلوها، وكانوا فى أثناء هذا الموكب الكئيب على النفس فى شوارع بغداد يستوقفون سائقى السيارات والأتوبيسات ويأمرونهم أن يدهسوا الجثة. وعندما ظفرتُ بنظرة من هذا المشهد الدموى الفظيع لم يكن لِيُرى من رئيس الوزراء ذى السبعين عاما غير عامود فقرى متسخ، ملطخ بالدماء.

اتضح بعد ذلك أن نورى السعيد لم يترك أموالا لا فى العراق ولا فى خارجه، حتى منزله لم يكن يمتلكه عند وفاته!

وبينما أنا أجلس فى مكتب صدام حسين بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما منتظرا أن ينهى قراءة فصل من رسالة دكتوراه عن نورى السعيد، إذا بى أستحضر أيام انقلاب ١٩٥٨.

أخذ الرئيس وقته. وفى النهاية أغلق الكتاب ووضع نظارة القراءة الخاصة به جانبا.

قال الرئيس: «إذا ما كتبت يوما تاريخ العراق الحديث فإننى سوف أنصف هذا الرجل (يقصد نورى السعيد)؛ فقد كان - على عكس ما هو سائد بين الناس - رجلا عظيما ومثلا يحتذى فى خدمة مصالح الوطن».

الفصل الثانى

قتـــال فى الشـــوارع

قال والدى : «علىَّ أن أذهب».

كان ذلك فى يوم الجمعة ، عندما وقع مجددا انقلاب فى بغداد .

كان والدى آنذاك نائب رئيس شرطة النجدة فى حى الكاظمية . فى صباح هذا اليوم، الجمعة، الثامن من فبراير من عام ١٩٦٣ ، لم يتمكن والدى من الاتصال هاتفيا برؤسائه أو مرؤوسيه فى العمل.

قلنا جميعا، أنا، وأمى، وأخواتى : «لا ، لا تذهب . فإنك إن ذهبت الآن إلى قسم الشرطة ستدفع حياتك ثمنا لذلك».

كان دوى الانفجارات والطلقات النارية يُسمع فى الشارع .

لكنه لم يعدل عن رأيه .

منذ خمسة أعوام، أى بعد ثورة ١٩٥٨ التى تمت فيها الإطاحة بالأسرة المالكة وبنورى السعيد وقتلهم جميعا، رقّى عبد الكريم قاسم نفسه إلى رتبة اللواء، ثم استولى على السلطة بعد أن تولى منصبى رئيس الوزراء ووزير الدفاع، غير أن الرئيس الجديد القوى للعراق كان عليه أن يواجه منذ ذلك الوقت صعوبات كثيرة؛ فقد توالت محاولات الانقلاب عليه وعلى النظام، المحاولة تلو الأخرى مثل حبات اللؤلؤ فى العقد.

كانت الصراعات السياسية والاجتماعية تعصف بالعراق؛ فقد كان عدد كبير من

الضباط، وكذلك طلبة الجامعات وتلاميذ المدارس، يحلمون بدولة عربية عظمى موحدة من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى. وكان العرب فى الشرق الأوسط يرددون عن طيب خاطر: «القاهرة هى قلب العالم العربى، عندما يدق، يعيش العالم العربى كله». وقد قام جمال عبد الناصر فى العاصمة المصرية بخطوة مهمة على طريق الوحدة العربية: ففى الأول من فبراير من عام ١٩٥٨ تم إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وصرح الرئيس المصرى برغبته فى أن ينضم العراق لهذه الدولة الجديدة التى كانت تحمل اسم الجمهورية العربية المتحدة.

لكن قاسمًا كان مترددا، فقد كان يضع العراق فى الاعتبار الأول، وعلى عكس كثير من زملائه الضباط الشبان كان قاسم لا يرى فى ذلك عرضا مغريا أن تكون مقادير الحكم فى يد عبد الناصر فى القاهرة. أما عبد السلام عارف ـ الذى تقلد رتبة المشير بعد الثورة وأصبح نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ـ فقد كان له رأى آخر، حيث كان يريد الانضمام إلى عبد الناصر والدولة العربية الجديدة بأسرع ما يمكن، وما لبث أن احتدم الخلاف بين كبار مدبرى الانقلاب احتداما عنيفا.

وقد اتخذ هذا النزاع المرير طابعا شخصيا، فقد حز فى نفس عبد السلام عارف أن يكون قاسم على القمة وأن ينال وحده شرف النجاح فى قلب نظام الحكم، حيث كان عارف يرى نفسه الرأس المدبر للثورة وللإطاحة بالنظام الملكى قبل ذلك بأربعة أشهر.

غير أن عارفًا لم يحالفه الحظ فى ذلك الصراع على السلطة فى سبتمبر من عام ١٩٥٨. على أثر ذلك طُرد من الخدمة وفقد منصبه كوزير، وبعد ذلك بشهرين قام بمحاولة انقلاب مع مجموعة من الضباط الذين بلغ عددهم ما يقرب من العشرين كانوا يشاركونه الآمال نفسها حول القومية العربية ويريدون الانضمام إلى الدولة المصرية السورية الجديدة.

باءت محاولة الانقلاب بالفشل، وحكم على تسعة عشر ضابطا بالإعدام ونفذ فيهم الحكم.

وقد أصدرت محكمة الشعب حكمها بالإعدام على عبد السلام عارف أيضا، لكن

عبد الكريم قاسم عمل بمبدأ الرحمة فوق العدل وأرسله سفيرا للعراق فى ألمانيا الغربية بدلا من إعدامه رميا بالرصاص مع بقية المتآمرين.

بعد إسقاط الملكية أخذ نفوذ الحزب الشيوعى فى الازدياد بين أفراد الشعب، وليس نفوذ القومية العربية؛ فقد كانت الملايين من صغار الفلاحين فى القرى تعيش فى فقر مدقع يتزايد يوما بعد يوم يكاد يشبه ما ساد من فقر فى ظل نظام السخرة، حيث كانت الأراضى التى يزرعها الفلاحون يملكها عدد قليل من الشيوخ المترفين ذوى النفوذ وأسرهم، لذا فقد نزح كثير من الفلاحين إلى المدن أملا فى العمل وفى حياة أفضل، غير أنه لم يكن من السهل بمكان الحصول على فرصة عمل. وعلى ذلك فقد انتشرت الأحياء الفقيرة واتسعت، وازدادت الهوة بين الفقراء والأغنياء يوما بعد يوم.

كان الحزب الشيوعى يَعد بالتغيير. فعن طريق نظام شامل للإصلاح الزراعى، وإعادة توزيع الأملاك فى المجتمع، كان من المفروض أن يُوضع حد للبؤس الذى تعيش فيه الجموع الفقيرة. كان عشرات الآلاف من العراقيين يتجمعون تحت الرايات والأعلام الحمراء التى كان مكتوبا عليها: «بلد حر وشعب سعيد». وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية، كان الحزب الشيوعى يطالب بالتقرب إلى موسكو وليس إلى القاهرة، غير أنه كان قد تلقى تعليمات بألا يثير الشكوك حوله، وأن يتعاون لأطول فترة ممكنة مع عبد الكريم قاسم ونظامه، فقد كانت فكرة حكومة قومية عربية ليست فى صالح الكريملين.

لم يكن من الصعب التكهن بأن عبد الكريم قاسم سيواجه مصاعب كبيرة؛ فبعد محاولة الانقلاب الفاشلة بأسبوع توجهتُ مع الآلاف من الفضوليين إلى مبنى وزارة الدفاع فى منطقة باب المعظم لنستمع إلى عبد الكريم قاسم وهو يتحدث إلى الشعب. كانت المسافة بينى وبين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف لا تزيد عن خمسين مترا. كانت خطبة قصيرة، فلم يكن قاسم ممن يحبون كثير الكلام.

كان يكرر دائما هذه العبارة: «الوحدة الوطنية هى الأهم لنا جميعا».

لكن لم يكن هناك من يصغى إليه. فقد تزاحم فى الميدان أمام شرفته الشيوعيون وأنصار الوحدة العربية على حد سواء. هؤلاء لم يكن لديهم ما يفعلونه إلا أن يصرخ بعضهم فى وجه الآخر. كان أنصار الوحدة العربية يصيحون: «وحدة وحدة عربية..

لا شرقية ولا غربية»، فى حين كان الشيوعيون يهتفون: «اتحاد فدرالى.. صداقة سوفييتية».

كان الحديث عن اتفاق بين المجموعتين مستحيلا.

وفى شهر مارس من عام ١٩٥٩ وقع تمرد فى شمال العراق، وقد تناقلت الألسن منذ وقت طويل أن مجموعة من «الضباط الأحرار» بقيادة العقيد عبد الوهاب الشواف المناصرين لفكرة القومية العربية يدبرون ثورة فى الموصل، آملين فى أن تمتد موجة التمرد والعصيان إلى مناطق أخرى من البلاد. وقد أسرع الحزب الشيوعى واستنفر مائتين وخمسين ألفا من عناصر الحركة الشعبية المسماة «أنصار السلام» التى كانت تابعة للحزب وأرسلهم إلى الموصل. ولكن بعد أن انتهت هذه المظاهرات الشعبية العارمة قررت مجموعة «الضباط الأحرار» أن تدبر ثورة ضد قاسم ونظامه حيث كانوا يرونه مواليا للشيوعية أكثر مما ينبغى.

غير أن الضباط فى شمال العراق لم يتلقوا المساندة الكافية من القوات التى كانوا يرأسونها، كما أن جذوة الثورة لم تنتشر فى مناطق أخرى من العراق، وبدلا من ذلك أفلت زمام الأمور فى الموصل تماما، واشتد القتال فى الشوارع بين الشيوعيين وأنصار القومية العربية، وسرعان ما وصل الأمر إلى أقصى درجات العنف.

وفى وقت قصير كان كلٌ يقاتل الآخر. الشيوعيون ضد أنصار القومية العربية، المسيحيون ضد المسلمين، الأكراد ضد التركمان والعرب، القبائل والعشائر، الواحدة ضد الأخرى.

الفقراء يقتلون الأغنياء، وينهبون، ويسلبون. وقد استخدمت جميع أنواع الأسلحة والمُدَى والعصى.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان القتال يدور فى الشوارع فى المقام الأول بين الشيوعيين من الأكراد وأنصار الوحدة العربية، وكان السّنة فى العراق الذين كوّنوا جماعة دينية أسوة بالمنظمات المشابهة فى مصر وسوريا يساندون أنصار القومية العربية؛ فقد كان الإخوان المسلمون يرون فى الشيوعية البلاء الأكبر، وكانوا يعتبرون الشيوعيين بأيديولوجيتهم الماركسية كفرة وملحدين.

كان الشيوعيون متفوقين فى العدد تفوقا واضحا، وكانت صفوفهم أكثر تنظيما. وقد أعطى لهم عبد الكريم قاسم فى الفترة التى استمر فيها القتال فى الشوارع حرية شبه مطلقة فيما يتعلق بالتعامل مع الضباط الثوار، ودعاة القومية العربية، وأنصار الإخوان المسلمين. ساد «قانون الشارع»؛ ففى الميادين والتقاطعات كانت تجرى محاكمات سريعة كان يصدر فيها باستمرار الحكم بالإعدام على المتهمين الذين كانوا فى أغلب الأمور يدفع بهم إلى الحائط أمام الآلاف من المتفرجين المهللين، وتفتح عليهم نيران المدافع الرشاشة.

ولم تتدخل قوات الحكومة إلا بعد مرور خمسة أو ستة أيام لتعيد النظام والهدوء مرة أخرى.

بعد ذلك بأربعة أشهر، أى فى شهر يوليو من عام ١٩٥٩، تحدث العراق كله عن حمام دم جديد فى مدينة النفط كركوك. كان الشيوعيون من الأكراد هم الذين لعبوا مرة أخرى الدور الرئيسى فى الأعمال الوحشية التى ارتكبت وعلمنا بها بعد ذلك شيئا فشيئا؛ ففى ذكرى الانقلاب العسكرى وإسقاط النظام الملكى، خرجت مظاهرة كبرى لمساندة عبد الكريم قاسم، وقبل أن يتراجع منظمو المظاهرة عن موقفهم، كان المتظاهرون قد أثاروا أعمال الشغب والعنف، ففى ثورة عمياء انقض المتظاهرون على الطبقة الوسطى من التركمان كثيرى العدد الذين كانوا يتسيدون حركة التجارة والبيع والشراء فى كركوك. فنُهبت محالهم ومنازلهم، وأشعلت فيها النيران، وكان الآباء وأبناؤهم من الذكور يُسحلون على مرأى من جميع الناس، ويعذبون، ثم تطلق عليهم النيران.

وقد تعرض بعضهم لما هو أفظع من ذلك. فقد روت لى طبيبة أعرفها كانت قد نشأت فى كركوك تُدعى وداد، أنها رأت من شقة والديها فى شارع «ألماز» الشاحنات التى تسحل الناس وراءها وهم مربوطون بالحبال. كان معظمهم ما يزالون على قيد الحياة عندما تحركت الشاحنة.

«لن أنسى طيلة حياتى منظر هذه الأجساد وهى تتراقص لأعلى ولأسفل»، هذا ما أكدته لى.

وفى يوم من أيام الشغب والهياج رأت وداد رجلا قد شُد وثاق ساقيه إلى شاحنتين

ثم تحركت كل شاحنة منهما فى الاتجاه المعاكس. كان ذلك أمام المنزل الذى تسكن هى فيه.

«كان الرجل من التركمان، وكان الشيوعيون هم الذين شدوا وثاقه ثم تحركوا بالشاحنات».

أدت حمامات الدماء فى الموصل وفى كركوك إلى تصعيد الوضع فى العراق يوما بعد يوم، حيث قرر حزب البعث الذى كان قد تأسس منذ فترة قصيرة، ونجح فى أن يثبت أقدامه فى ذلك الوقت، قرر قتل عبد الكريم قاسم فى أول فرصة.

كان حزب البعث يرى فى فكرة الوحدة العربية هدفا يسعى من أجل تحقيقه بعد أن أصبح فى أثناء ذلك أهم قطب مقابل للحزب الشيوعى فى حقل الألغام السياسى فى العراق الذى كان يزداد اضطرابه يوما بعد يوم. وقد تأسس ذلك الحزب الاشتراكى العلمانى المناصر لفكرة القومية العربية فى سوريا فى عام ١٩٤٠، وبعد ذلك التاريخ بأحد عشر عاما نشأ حزب البعث العراقى. كان لهذا الحزب فى البداية أتباع قليلون، كان عددهم لا يتجاوز بضع مئات من المتحمسين فى السنوات الأولى، ولم يبدأ الآلاف من الشبان العرب فى الانضمام إلى حزب البعث واعتناق مبادئه إلا بعد أن قام الرئيس عبد الناصر فى أثناء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ بإثارة المشاعر القومية للعرب فى الشرق الأوسط، حيث فُتن هؤلاء الشبان بشعارات الوحدة والحرية والاشتراكية.

كان صدام واحدا من هؤلاء. وفى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩ كلفته قيادة الحزب بالاشتراك فى محاولة لاغتيال عبد الكريم قاسم.

كان صدام قد بلغ رسميا فى خريف ذلك العام اثنين وعشرين ربيعا، وإن كنت أشك أن يوم الثامن والعشرين من شهر أبريل من عام ١٩٣٧ هو يوم ميلاده الحقيقى؛ فبخبرتى كجراح تجميل لازمتُه لأكثر من عشرين عاما قمت فيها بفحصه وعلاجه مرارا وتكرارا، تأكد لى أنه أكبر من ذلك التاريخ الذى يدعيه بعدة أعوام.

تتضارب البيانات حول ميلاده فى قرية العوجة الصغيرة التى تقع ثمانية كيلومترات إلى الجنوب من تكريت عند منحنى شديد لنهر دجلة؛ فقد اختفى الوالد حسين المجيد

من حياة ابنه قبل أن يأتى إلى النور ، وتزوجت والدته صبحة طلفاح بعد ذلك من إبراهيم الحسن ليكون والد إخوة صدام غير الأشقاء سبعاوى وبرزان ووطبان .

وعلى ما يبدو فلم يكن كل من والده الحقيقى ، أو زوج والدته ، من الرجال البارزين فى القرية ، إن صح التعبير بشكل مهذب ، فقد كانوا يطلقون على زوج والدته إبراهيم الكذاب لأنه كان يدّعى أنه فى شبابه قد حجّ إلى مكة ، لكن الجميع فى القرية كانوا يعلمون أنه لم يضع قدمه بالقرب من المملكة العربية السعودية والأماكن المقدسة بها قط فى ذلك الوقت .

نشأ صدام فى فقر مدقع فى أدنى طبقات المجتمع ، ويُروى أن والدته وزوجها كانا من الفقر حتى أنه لم يكن بمقدورهما شراء الملابس الداخلية له .

كذلك كان الأمر فيما يتعلق بالمدرسة ؛ فلم يبدأ صدام فى تعلم القراءة والكتابة إلا عندما انتقل إلى منزل خاله خير الله طلفاح فى تكريت فى عام ١٩٤٧ .

كان هذا الخال الذى اهتم بشأن ابن أخته يعيش حياة مريرة ؛ فقد كان ضابطا فى الجيش العراقى ، ولكنه عوقب وطرد من الخدمة مثله مثل كثير من زملائه بعد محاولة قلب نظام الحكم فى عام ١٩٤١ والتى أخمدتها القوات البريطانية على الفور . كان طلفاح من أنصار القومية العربية قلبا وقالبا ، وكان يبغض الشيوعيين والبريطانيين على حد سواء ، وقد قضى فى السجن خمسة أعوام خلّفت بلا شك أثرا عميقا فى نفسه .

أصبح الآن مسئولا عن تربية ابن أخته ، فاصطحبه مع أسرته إلى بغداد فى منتصف الخمسينيات عندما وجد وظيفة مدرس فى إحدى المدارس الحكومية فى جانب الكرخ من بغداد .

وباءت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم بالفشل .

كان صدام ومن معه من المتآمرين من أتباع حزب البعث قد فتحوا النيران على موكب عبد الكريم قاسم الذى استقل شارع الرشيد فى بغداد فى مساء يوم السابع من أكتوبر من عام ١٩٥٩ . وراح ضحية هذا الحادث سائق سيارة الرئيس . أما الرئيس نفسه فقد أصيب إصابات خطيرة ، لكنها لم تقض عليه ، حيث مكث على أثرها ثمانية أسابيع فى المستشفى ثم خرج .

كان قد تم آنذاك القبض على معظم المتآمرين، ما عدا صدام؛ فقد تمكن من الهرب مع فاتك الصافى (أحد أبناء عائلة معروفة من وسط العراق) ـ والذى أصبح فيما بعد من أعز أصدقائى ـ أولا إلى تكريت، ثم عبر الصحراء إلى سوريا ودمشق.

كان صدام قد أصيب أثناء تبادل النيران مع الحرس الشخصى لعبد الكريم قاسم برصاصة فى بطن ساقه اليسرى، وعندما طلب صدام من الأطباء الذين كان يعرف أنهم من أنصار حزب البعث أن يخرجوا الرصاصة، رفضوا حسب روايته.

«لذلك استخرجتها أنا بنفسى بموسى حلاقة»، ذلك ما رواه لى صدام فيما بعد.

كان يروق لى أن أتذكر هذه القصة دائما عندما كان الرئيس يحتاج إلى تدخل طبى قد يكون مؤلما.

«لا داعى للقلق، فبإمكانى تحمل الألم جيدا!»، كان الرئيس يقولها حينها مبتسما.

بعد إسقاط الأسرة المالكة، ونورى السعيد فى عام ١٩٥٨، كان مبنى البرلمان القديم الذى نكنُّ له فى نفوسنا تقديرا عظيما، والذى يقع إلى جوار مدرسة الثانوية المركزية فى بغداد حيث كنت أقذف نورى السعيد وغيره من أعضاء مجلس الأمة (البرلمان) بالحجارة، كان قد تحول إلى مركز للاستجواب ومحكمة للشعب، فبعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد عبد الكريم قاسم كان هناك نشاط بالغ فى مبنى البرلمان؛ ففى قفص الاتهام كان هناك أكثر من خمسين شخصا من أنصار حزب البعث، وكذلك بعض الضباط الناصرين للقومية العربية والمؤيدين بدورهم للحزب.

ما زلت أتذكر كيف كنت أستمع باهتمام بالغ إلى مجرى المحاكمة برئاسة العقيد فاضل المهداوى فى الراديو.

فى الغالب الأعم لم يكن يسمح إلا للشيوعيين بحضور المحاكمة. كان هؤلاء يصفقون عاليا عندما يتحدث ممثلو الادعاء، ويشجبون ويصفرون ويرفعون أصواتهم بالشتائم عندما يسمح للمتهمين من البعثيين والضباط بالدفاع عن أنفسهم، كما كان كثير من الحاضرين يلوحون بالحبال ليذكروا المتهمين بما ينتظرهم من مصير محتوم.

حكم بالإعدام على سبعة عشر متهما ونفذ فيهم الحكم، أما بقية المتهمين فقد حكم



على معظمهم بالسجن لسنوات طويلة. كما أصدرت المحكمة حكمها بالإعدام على صدام حسين التكريتي غيابيا. كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسمه.

لم يسدل الستار على متاعب عبد الكريم قاسم تماما بفشل محاولة الانقلاب ضده في شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩، فقد كان الأمر يزداد تعقيدا بالنسبة له في التوفيق بين الشيوعيين من جهة، والضباط الناصريين لفكرة القومية العربية وأتباع حزب البعث من جهة أخرى، حيث كان دعاة القومية العربية يأخذون عليه أنه ما زال يرفض التحالف مع عبد الناصر في القاهرة، أما الشيوعيون فقد كان حجم التعاون مع موسكو لا يرضيهم بالرغم من أن العراق قد خرج من حلف بغداد فور الاستيلاء على السلطة.

وبالرغم من ذلك كنا نرى كل يوم محاولات عبد الكريم قاسم للتخفيف من وطأة الحياة، فكان جزء كبير من إيرادات النفط يخصص لمحاربة الفقر الذي تعاني منه الجماهير الكادحة، فأقيمت مدارس ومستشفيات جديدة مع أنه لم يكن من السهل دائما إيجاد الأكفاء من المعلمين والأطباء والممرضات. وفي بغداد والبصرة كانت تخصص الأموال لبناء المساكن الشعبية.

لكن بالرغم من أن رئيس الوزراء كان يتمتع بشعبية كبيرة، إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن الثورة قد قلبت معظم الأجهزة الحكومية رأسا على عقب، وهو ما لم يجلب لها بالضرورة نفعا، فقد بدأ الهيكل الإداري الذي كان يعمل بكفاءة عالية إلى حد ما في عهد الملكية في التصدع لأن عددا كبيرا من الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالنشاط كانوا قد عُزلوا من مناصبهم وألقي بكثير منهم في السجون، تحت ادعاء أنهم كانوا في ظل النظام السابق موالين لبريطانيا وخاضعين لسيطرة الملك.

كانت المشكلة الكبرى تكمن في الأسلوب المتسلط الذي اتسمت به إدارة عبد الكريم قاسم، وهو ما كان يثير حفيظة كثيرين وعلى رأسهم زملاؤه من الضباط. حيث عم التبرم والاستياء صفوفهم، ولم ينج قاسم من محاولات الانقلاب الكثيرة ضده إلا لأنه كان مُحكما قبضته على جهاز الشرطة السرية والجهاز الأمني.

لكن آجلا أو عاجلا كان سيكتب النجاح لإحدى هذه المحاولات.

كان ذلك في يوم الثامن من فبراير من عام ١٩٦٣، وما لبث أن دار القتال في

الشوارع وجرت أنهار الدماء فى بغداد . كان الثوار - وهم أنصار القومية العربية من ضباط وجنود ومعهم أعضاء وأتباع حزب البعث - فى كفة ، يقابلهم الضباط والجنود الموالين لقاسم ومعهم الشيوعيون فى كفة أخرى .

وجد والدى ، الذى كان نائب مدير شرطة النجدة فى حى الكاظمية ، نفسه محاصرا بين الجبهتين .

كانت تربطنى بمحمد الوردى علاقة يسودها التفاهم عادة . كنا ندرس الطب سويا فى جامعة بغداد ، ولأنه كان يقطن بالقرب منا تماما فإنه كان كثيرا ما يأتى للعشاء عندنا وللدردشة معى ومع أسرتى . كنت أعرف أن محمدا الوردى له منصب رفيع فى الحزب الشيوعى ، لكننا فى واقع الأمر لم نتحدث مطلقا عن هذا ، فلم يكن والدى يحب الشيوعيين ؛ فهو بوصفه مسلما متدينا لم يكن بمقدوره أن يتواءم مع فكرة أن هناك من لا يؤمن بالله ، وكان هو نفسه يتحاشى أى عمل سياسى ؛ فقد كان يرى أن ذلك هو الأفضل بالنسبة لضابط الشرطة .

بعد مرور ساعة واحدة من ذهاب والدى إلى قسم شرطة النجدة فى الكاظمية حيث تولى القيادة فى ظل غياب رئيس الشرطة ، طرق محمد الوردى ومعه مجموعة من زملائه المسلحين الباب . «الجميع يقدرون والدك ويحترمونه ، ولكنه الآن فى مأزق كبير» ، هذا ما قاله الوردى ، ثم روى لنا أن الآلاف المؤلفة من الشيوعيين تحيط بقسم الشرطة ، وعلى العكس من فرق القتال التابعة لحزب البعث التى تملأ الشوارع وتبدو مزودة بكميات هائلة من الأسلحة ، فإنه لم يكن فى حوزة هؤلاء الشيوعيين إلا قليل من الأسلحة والذخائر .

طالب الشيوعيون والدى بأن يفتح لهم مخزن الأسلحة ، فقد كانوا يريدون المدافع الرشاشة والبنادق والمسدسات . رفض والدى أن يعطيهم إياها .

قال الوردى : «عليك أن تتصل به ، فإن لم يفتح مخزن الأسلحة ، فأنا لا أضمن له شيئا» .

اتصلت بوالدى .

«بجوارى يقف محمد الوردى ويقول إنه لا جدوى من منعهم من الحصول على



الأسلحة»، قلتها مضيفا «فالآلاف من الشيوعيين يحتشدون أمام قسم الشرطة وهم ثائرون ثورة عارمة، فلتعطهم ما يريدون».

«لا. إنه من واجبنا أن نحافظ على النظام والهدوء. فإن أعطيتهم المدافع الرشاشة والبنادق فسوف يقتل بعضهم بعضا، وهذا يتعارض مع شرف مهمتنا».

ثم وضع سماعة الهاتف غاضبا.

كان من بين مدبرى الانقلاب العسكرى والمعارك الضارية فى الشوارع صديق ورفيق عبد الكريم قاسم منذ ثورة ١٩٥٨، عبد السلام عارف.

لم يرض عارف عن منصب المبعوث الدبلوماسى فى ألمانيا الغربية الذى أرسل إليه عقب محاولته الانقلاب، بعد أن صدر العفو عنه عقب ذلك فى نوفمبر من عام ١٩٥٨. فبعد شهرين من عمله سفيرا فى بون، عاد عبد السلام عارف إلى العراق، دون أن يُطلب منه ذلك. وعندما ظهر عبد السلام عارف فى مطار بغداد، طلب منه عبد الكريم قاسم أن يتوجه إلى مكتب رئيس الوزراء ليقدم تفسيرا لعودته.

وأغلب الظن أن رجال الأمن لم يقوموا بتفتيش السفير العائد تفتيشا دقيقا، فقد كان عارف يخفى مسدسا تحت السترة التى كان يرتديها، وقد يكون عبد السلام حاول استعمال مسدسه، لولا أن رجال الحرس الخاص برئيس الحكومة قد حالوا دون ذلك. ألقى عبد السلام عارف فى السجن مرة أخرى، ولكن عندما أصدر قاسم الحكم بالعفو عن عدد كبير من المعتقلين السياسيين فى عام ١٩٦٢، أطلق سراح عبد السلام عارف أيضا.

والآن ها هو ذا مرة أخرى يقود انقلابا ضد عبد الكريم قاسم بالاشتراك مع اللواء أحمد حسن البكر، الذى كان مسقط رأسه مدينة تكريت، وكان ابن عم خال صدام ومربيه خير الله طلفاح.

كان البكر - شأنه شأن ابن عمه - مناهضا متعصبا ضد الشيوعية، كما ألقى به خلف القضبان مثل عبد السلام عارف بعد محاولات الانقلاب التى لا تحصى والتى قام بها الضباط المتذمرون الذين كانوا يرغبون فى الإطاحة برئيس الجمهورية. كان البكر من أعضاء حزب البعث منذ أن كان فى السجن، وعندما شمله العفو العام الذى أصدره

رئيس الحكومة عن المعتقلين السياسيين واسترد حريته مرة أخرى، لم يتردد فى الإعداد لثورة جديدة.

ما زلت أتذكر أصوات تبادل النيران العنيف فى الحى الذى يقع فيه قسم الشرطة الذى يعمل فيه أبى، ثم إذا بمجموعة من الشبان صغار السن تأتى مهرولة وتقف أمام منزلنا.

«قتل جميع ضباط الشرطة. إنهم يسحلونهم فى الشوارع»، ذلك ما هتفوا به. أعطانى أحدهم مسدسا. كان مسدس والدى.

لكن والدى لم يقتل ولم يسحل فى الشوارع. فبعد مرور بعض الوقت سمعنا أن الشيوعيين قد وضعوا القيود الحديدية فى يديه هو و عديد من زملائه وأحضروهم إلى قسم الشرطة الرئيسى، وهناك قيل لهم إنهم سيعدمون عما قريب، وكانت الجماهير قد رمت ثلاثة أو أربعة من الضباط بالرصاص فأردتهم صرعى. لذلك فقد توجه واحد من أعمامى إلى قوات الثوار التى كانت قد بسطت سيطرتها شيئا فشيئا على أجزاء كبيرة من بغداد وتوسل إليهم أن يفعلوا شيئا.

فى الخامسة من صباح اليوم التالى كان الثوار قد انتصروا على الشيوعيين الذين قد احتلوا قسم الشرطة الرئيسى. أطلق سراح والدى ليعود إلى المنزل ملطخا بالدماء وقد بدت على جسمه آثار الضرب المبرح، كما أصيب برصاصة بندقية فى كتفه الأيسر، لكن أكثر ما آلمه هو تصرف أحد أفراد الشرطة المتقاعدين الأكبر منه سنا عند قدوم الشيوعيين.

لم يكن هذا الشرطى يحصل على مرتب كبير للغاية، وكان عليه مع ذلك أن ينفق على زوجته وكثير من الأبناء القصر، لذلك سعى والدى للسماح لهذا الشرطى بفتح كافيتريا صغيرة فى بهو القسم، عله يستطيع عن طريق بيع الشاى والقهوة للضباط والزوار أن يحسن من دخله.

كان يتلقى دائما بقشيشا كبيرا بالإضافة إلى الهدايا النقدية عندما كانت تسوء الحالة المادية له ولأسرته بشكل خاص.

«كان أول من صفعنى على وجهى بعد أن أصبت بالرصاصة وبعد أن وضعت الجماهير القيود الحديدية فى يدى»، ذلك ما رواه والدى مضيفا: «كان عليه أن يثبت للشيوعيين أنه ليس صديقى».

كان اللواء جلال الأوقاتى قائد السلاح الجوى العراقى شيوعيا. وقد قتل فى هذه الأحداث، وبذلك شُلت قدرة السلاح الجوى على الحرب قبل أن تبدأ أولى وحدات الثوار فى الجيش فى التحرك للسيطرة على مبنى الإذاعة والتليفزيون وغيرها من النقاط الاستراتيجية فى بغداد.

تحصن عبد الكريم قاسم ومعه حرسه الشخصى والضباط والجنود المخلصون له فى مبنى وزارة الدفاع، حيث جاء الآلاف من الشيوعيين لأنهم كانوا يأملون فى الحصول على سلاح من هناك، فقد كانوا يريدون المشاركة فى قتال الشوارع الدائر ضد قوات الثوار التى كانت تتقدم نحو مبنى الوزارة سويا مع أتباع حزب البعث الذين كانت لهم الغلبة فى السلاح. رفض قاسم أن يوزع الأسلحة عليهم، فقد كان على ما يبدو يحسب أن أقسام الجيش الموالية له ستسرع لنجدته، ولكن فى واقع الأمر لم يكن هناك أى أقسام فى الجيش تساند عبد الكريم قاسم، بل جاءت علاوة على ذلك أربع طائرات مقاتلة من قاعدة الحبانية التى تقع على بعد سبعين كيلومترا غربى بغداد وقامت بقصف مبنى وزارة الدفاع بالقنابل.

أصبح فهد السعدون ـ وهو واحد من هؤلاء الطيارين ـ من الذين عرفتهم فيما بعد. كان اسما على مسمى، وذلك فيما يتعلق به كطيار حربى أو فيما يتعلق بحياته الشخصية. كان شجاعا أيما شجاعة، كما عرفته مخلصا قويم الخلق للغاية. عندما قابلته لأول مرة فى عام ١٩٦٤، كنت لتوى قد أديت امتحان البكالوريوس فى الطب فى جامعة بغداد، وكنت أقضى فترة تجنيدى طبيبا لأهم قاعدة فى السلاح الجوى العراقى فى الحبانية. كان السعدون آنذاك برتبة نقيب، وكان يقود فى أغلب الأمور الطائرة المقاتلة البريطانية هوكر هانتر.

عندما سأله المقدم منذر الونداوى عما إذا كان يرغب فى المشاركة فى إسقاط عبد الكريم قاسم والنظام، وافق فهد السعدون، وهو لم يكن بعثيا. وكان السعدون يطير طيرانا منخفضا، أكثر انخفاضا من زملائه الثلاثة الآخرين، لدرجة مكنته من قصف

عدد أكبر من الأهداف. وفى إحدى هجماته على مبنى وزارة الدفاع أصيبت طائرته بواسطة المدفعية المضادة للطائرات، ولحسن الحظ تمكن من أن يقفز بالمظلة قبل أن تسقط الطائرة. وعندما وصل إلى الأرض - وكان قد هبط فى حى المأمون - استوقف سيارة أجرة وعاد إلى قاعدة الحبانية. وهناك أخذ قاذفة قنابل مقاتلة واستأنف إلقاء القنابل على قاسم وجنوده الذين كانوا يقاتلون فى موقف لا يحسدون عليه. كانت ضربات فهد التى يصوبها لهدفه بدقة شديدة هى التى دفعت عبد الكريم قاسم ومن معه من اللواءات وأصدقائه المقربين إلى مغادرة مبنى وزارة الدفاع فى اليوم التالى، وتسليم أنفسهم لقوات الثوار.

قامت دبابة مدرعة خاصة بنقل الجنود بإحضار رئيس الوزراء ووزير الدفاع المهزوم ومعه اللواءان طه الشيخ أحمد مدير الحركات، وهو من ألمع ضباط الجيش العراقى وعرف بنزاهته، وفاضل المهداوى الذى تولى رئاسة المحاكمة فى مبنى البرلمان القديم بعد محاولة الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٩.

أحضر ثلاثتهم إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون حيث كان فى انتظارهم أحمد حسن البكر وعبد السلام عارف. كذلك كان خضر عبد العزيز الدورى الحارس الشخصى لأحمد حسن البكر حاضرا، وقد روى لى أن اللواء عبد الكريم قاسم كان يرتدى زيه العسكرى فى أبهى صورة له عندما نزل من الدبابة المدرعة. كانت ثنيات البدلة وكأنها خرجت لتوها من عند الكواء. كان متماسكا جدا وقوى العزيمة، ولم يظهر عليه تعب قتال ليوم كامل.

«احترموا»، صاح عبد الكريم قاسم وهو يلوح للجماهير المحتشدة، مضيفا: «إن هذا الانقلاب ليس فى صالح العراق. إنه مؤامرة إمبريالية».

فى مبنى التليفزيون جلس عبد الكريم قاسم هو وطه الشيخ أحمد و فاضل المهداوى مع أحمد حسن البكر وعبد السلام عارف، الذى كان قد عين قبلها مباشرة رئيسا جديدا للجمهورية. وقد حكى لى خضر الدورى عن التلاسن المقتضب الذى دار بينهم قبل أن يعدم اللواءات الثلاثة:

«من منا الذى خطط لثورة الرابع عشر من تموز، أنت أم أنا؟»، ذلك كان السؤال الافتتاحى الذى ألقاه عارف.

أجاب قاسم: «أنا. وهذا ما سيكتب أيضا فى كتب التاريخ».

استأنف الرئيس الجديد: «يا لك من أثيم، لقد أمرتَ بإعدام تسعة عشر من الضباط الأبرياء فى عام ١٩٥٨. لماذا فعلتَ ذلك؟»

ـ «لأنهم كانوا مجرمين. فقد كانوا ضالعين فى مؤامرة ضدى وهو ما اعترفوا به أيضا. لقد تم إعدامهم كما ينص عليه القانون. وأنا بدورى مستعد بالمناسبة للمثول أمام المحكمة»، ذلك ما قاله قاسم.

ـ «لن يكون هذا ضروريا. علىّ أن أنفذ ما قررته قيادة الانقلاب».

ـ «فلترسلنى إذن إلى المنفى. فأنا فى آخر الأمر قد أرسلتك خارج البلاد».

ـ «لا أستطيع. ليس لدىّ تفويض بذلك».

انتهى الكلام، وسيق بقاسم وأحمد والمهداوى إلى أحد استوديوهات التليفزيون المجاورة، حيث رفض ثلاثتهم أن توضع عصابة على أعينهم قبل أن يطلق عليهم الرصاص.

ثم أضيئت الكشافات فى الاستوديو وأديرت الكاميرا. وفى هذا البرنامج الذى أعيد به بشكل مستمر عصرا وعشاء، رأينا كيف تقدم أحد الجنود إلى عبد الكريم قاسم وجذبه من شعر رأسه وبصق فى وجهه.

لم يصاحب الحارس الشخصى لعبد الكريم قاسم، العقيد وصفى طاهر، رئيسَه فى الدبابة المدرعة إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون، فقد انتحر قبلها.

وقد لقى العقيد الذى كان فيما قبل قد أطلق طلقات مسدسه الآلى على رأس نورى السعيد بعد أن قتل رئيس الحكومة فى ميدان الحرية فى بغداد فى أثناء ثورة تموز ١٩٥٨، لقى نفس الإهانة والإذلال الآن. لقد أحضرت جثته إلى مبنى التليفزيون وألقى بها فى حديقة المبنى، ثم أسرع أحد الضباط إلى هناك و وضع مدفعه الرشاش على صدغه وضغط على الزناد.

دفن عبد الكريم قاسم فى مكان مجهول فى جنوب بغداد، لكن أتباعه تمكنوا من العثور عليه ودفنه مرة أخرى، وهو الأمر الذى لم يَحْزُ استحسان حكومة البعث

الجديدة، وبالتالى فقد أخرج الجثمان مرة أخيرة من قبره وربط حجران كبيران فى ساقى قبل أن يلقى به فى نهر ديالى، أحد روافد نهر دجلة.

وفى وقت ما فى أواخر عام ١٩٩٨ زارنى صديقى فهد السعدون فى عيادتى الخاصة فى حى المنصور. كان الطيار قد أنهى خدمته العسكرية وهو فى رتبة لواء، وهو الآن من المتقاعدين.

«أنا غاضب وفى أشد الحاجة إلى أن أتحدث مع أحد»، هذا ما قاله لى.

كان ابنه الذى يؤدى لتوه فترة الخدمة العسكرية قد تشاجر مع رأس العُرَفاء على أمر تافه. وكان عقابه أن يسبح فى مياه الصرف الصحى الواقعة خلف الثكنة العسكرية. اتصل الابن بوالده بعد ذلك، وكان السعدون قد جاءنى لتوه من مكتب صدام حسين حيث قدم شكوى بذلك الصدد.

«هل هذا رد الجميل لى لأنى ساعدت فى إقصاء عبد الكريم قاسم عن السلطة فى فبراير ١٩٦٣؟»، ذلك ما سأله بعدما حكى لى عن هذا العقاب البشع الذى لقيه ابنه. طلب منه الرئيس أن يلتزم الهدوء، وأكد له أنه لا يسمح بمعاملة أى من الجنود بهذا الأسلوب.

«يمكن أن يقضى ابنك بقية فترة الخدمة العسكرية هنا فى مكتبى»، ذلك ما وعد به صدام حسين.

لكن اللواء كان ما يزال ثائرا عندما أتانى فى مكتبى.

«عندما أرى ما آل إليه حال العراق أجد نفسى نادما أشد الندم على دورى فى الانقلاب العسكرى فى عام ١٩٦٣»، ذلك ما أفضى به فهد إلىّ.

سألته: «لماذا إذن اشتركت فى هذا الأمر من أساسه؟»

ـ «كنت أريد الانتقام للواء نديم الطبقجلى وهو من أعز أصدقاء والدى».

كان هذا اللواء ينتمى إلى جماعة «الضباط الأحرار» الذين دبروا محاولة الانقلاب الفاشلة ضد عبد الكريم قاسم فى شمال العراق فى ربيع عام ١٩٥٩.

قدم للمحاكمة وأعدم.

الفصل الثالث

طعنـــة خنجـر

كان اللواء نعمة الدليمي آمر قاعدة الحبانية العسكرية، التي وصلتُ إليها في شهر يناير أنا واثنان من المهندسين الذين أدوا مثلي دورة تدريبية للضباط لمدة ثلاثة أشهر في الكلية الحربية في بغداد، حيث كان من المقرر أن نؤدي فترة الخدمة العسكرية كضباط في تلك القاعدة الجوية لمدة عامين.

لا شك أنه كان من الممكن أن يقذف بنا في أي مكان آخر أكثر سوءا من الحبانية. كانت القاعدة الجوية قد أسسها سلاح الطيران الملكي البريطاني في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، وكانت بمثابة واحة في غرب العاصمة بين مدينتي الفلوجة والرمادي. كانت أشجار الكافور ترمي ظلالها على المكان الذي تكسوه حشائش الزينة وأحواض الورود ويوجد به ملاعب تنس وحمام سباحة. كل شيء فيها منظم تنظيما رائعا.

بعد الإطاحة بالملكية انسحب العراق من حلف بغداد على يد عبد الكريم قاسم الذي أمر سلاح الطيران الملكي البريطاني بالرحيل. و في الحادي والثلاثين من شهر مايو من عام ١٩٥٩ رُفع العلم البريطاني لآخر مرة في الحبانية، لكن هذا لم يكن بالضرورة يعني نهاية وجود سلاح الطيران الملكي البريطاني في القاعدة العسكرية بشكل كامل، إذ كان المعلمون البريطانيون والهنود ما يزالون يواصلون تدريب طيارينا على طائرات فامباير والهوكر هنتر التي كانت تمثل آنذاك العمود الفقري للسلاح الجوي العراقي.

كان هناك أيضا معلمون سوفييت فى الحبانية، فبعدما تحلل قاسم بعض الشىء من ارتباط العراق بالقوى الغربية وأنهى التعاون العسكرى الحميم الذى كان بين نورى السعيد ولندن، قامت موسكو فى ظل الحرب الباردة بإمداد بغداد بطائرات ميغ المقاتلة وكذلك الطائرات قاذفات القنابل من طراز إليوشن وبادجر.

استقبلنا اللواء الدليمى فى مكتبه عند بداية فترة خدمتنا العسكرية. كان مهذبا وحازما فى الوقت نفسه. وأوضح لنا أن الأوامر التى نتلقاها يجب أن تنفذ دون أخذ ورد.

«يؤسفنى أن أقول ذلك»، قالها اللواء مضيفا: «لكنى هنا بوصفى القائد أفترض دائما الأسوأ فى تعاملى مع كل شخص حتى يثبت هو لى العكس. فمن تجربتى تعلمت أن كل إنسان متهم حتى يثبت العكس. إذا احتجتما إلى مساعدة، فيمكنكما أن تأتيا لى فى كل وقت».

ظلت كلمات الترحيب هذه عالقة فى ذهنى بشدة. وبعد ذلك بعدة أشهر عندما أصبحنا نعرف بعضنا عن قرب أكثر، تجرأت وسألت الدليمى: لماذا يشك فيمن حوله من الناس لهذه الدرجة؟!

- «لقد علمتنى الحياة أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى أقى بها نفسى من طعنات المقربين لى فى الظهر. فقد مررت على مدار السنين بتجارب كثيرة مريرة. كان الوثوق بالآخرين ثقة مفرطة من شأنه أن يهدد حياتى، فجاءت نظرتى للحياة متوائمة مع ذلك».

كانت الحبانية تتكون فى واقع الأمر من قاعدتين عسكريتين. كانت الأولى - والتى يقع بها مدرج طويل لقاذفات القنابل تقع على الجهة اليسرى من الطريق الرئيسى بين الفلوجة والرمادى، أما القاعدة الأخرى المزودة بممر صعود أقصر للطائرات الثقالة فكانت تقع على الجانب الأيمن. كان فى كل منهما برج مراقبة، حيث كنت أقضى أياما كثيرة ليلا عندما كنت أؤدى نوبة الحراسة ومعى المرشدون الجويون.

كان واجب هؤلاء التزام الصمت، ولكن ذات ليلة لم يكن بمقدورى أن أمنع نفسى من أن أنصت إلى ما دار فور قيام عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر والضباط

الناصريين للقومية العربية وأتباع حزب البعث بإسقاط عبد الكريم قاسم ونظامه في الثامن من فبراير من عام ١٩٦٣ ، ففي الوقت نفسه الذي تأكد فيه وقوع الانقلاب، ظهرت طائرات نقل حربية كبيرة كانت تقف عند نهاية ممر الهبوط الطويل ، حيث كان يتم إنزال الأسلحة ، وتزويد الطائرات بالوقود التي ارتفعت بعد ذلك محلقة مرة أخرى. كانت طائرات أمريكية عملاقة تهبط قادمة للعراق من إفريقيا .

هناك كثير من النظريات حول دور وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA في الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم، إذ لم تكن واشنطن راضية تماما عن محاولات تقربه من الاتحاد السوفيتي ، وعلى وجه الخصوص عندما تم عقد اتفاقية بين العراق وموسكو حول التعاون التقني والاقتصادي فور حل حلف بغداد. كما انخفضت أسهم قاسم في الغرب عندما بدأ يطالب بزيادة النفوذ الوطني فيما يتعلق بإنتاج البترول وزيادة حصة العراق في الإيرادات . فقد كان اقتصاد البلاد يعتمد اعتمادا كاملا على البترول، أما عمليات التنقيب والاستخراج فكان يهيمن عليها الاتحاد المالي الأمريكي البريطاني الفرنسي الهولندي المشترك (شركة البترول العراقية IPC).

لم يكن الأمريكيون في بادئ الأمر مساهمين في شركة البترول العراقية ، لكن بعد أن قامت الولايات المتحدة بقيادة المستشار القانوني الشاب ألين دالاس الذي كان يضع مسوغات وزارة الخارجية في واشنطن بممارسة ضغوطها، سمح لشركة إكسون جيرسي ستاندارد ومجموعة من شركات البترول الأمريكية الأخرى بالانضمام إلى الاتحاد ، وبعد جولة صعبة من المفاوضات في لندن في عام ١٩٢٨ - أي بعد عام من تدفق أول بترول عراقي في كركوك. تم تحديد نسبة حصة الشركة الأمريكية في الاتحاد بـ ٢٣,٧٥٪ .

وفي النهاية عند توقيع العقد كانت كل من شركة البترول البريطانية برتش بيتروليوم British Petroleum والشركة الهولندية رويال دتش شيل Royal Dutch Shell والشركة الفرنسية كومباني فرانسيز دي بترول Compagne Francaise des Petroles قد حصلت على حصص مماثلة. وقد حصل رجل الأعمال الأرميني البارع كالوست غولبنكيان Calouste Gulbenkian - الذي أدار المفاوضات حول ذلك العقد- على نسبة الخمسة بالمائة الباقية ، وأصبح بذلك من أغنى أغنياء العالم .

تولى ألين دالاس - وهو أخو جون فوستر دالاس الذى أصبح فيما بعد وزير الخارجيـة الأمريكى - منصب رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى عام ١٩٥٣ . وقد كانت مطالبة عبد الكريم قاسم بإعادة التفاوض حول عقد احتكار الاتحاد المالى المشترك للبترول العراقى من أواخر القضايا التى تناولها قبل أن يقدم استقالته .

«لقد وصلنا إلى السلطة بمساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية» .

يروى أن الأمين العام لحزب البعث فى العراق على صالح السعدى قد أعلن ذلك بكل صراحة وارتياح عندما تولى منصبى نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية بعد إسقاط عبد الكريم قاسم . وبذلك يمكن القول إن مواقف الحزب الواضحة المناوئة للشيوعية قد أتت بثمارها .

تم تأسيس مجلس قيادى وطنى للثورة يرأسه عبد السلام عارف ، ويتولى أحمد حسن البكر منصب رئيس الوزراء فيه . كان يضم ستة عشر عضوا ، منهم اثنا عشر عضوا من حزب البعث أو من المتضامنين معه . أما الأربعة أعضاء الباقون الذين كانوا على القمة مع الرئيس فكانوا فى المقام الأول من دعاة القومية العربية . وسرعان ما اتضح أن المجلس القيادى يسوده جو من المشاحنات العنيفة و التناقضات ، غير أن الجميع قد اتفقوا على نقطة واحدة : يجب أن يقصى أتباع النظام القديم عن مناصبهم ويساءلوا عما اقترفوه ، وفى المقام الأول أعضاء الحزب الشيوعى والمتضامنون معهم .

حينئذ بدأ استخدام الأسلحة التى أنزلتها طائرات النقل الأمريكية بعد وقوع الانقلاب فى قاعدة الحبانية فى جنح الظلام .

كان العقيد منذر الونداوى - والذى كان قد أصدر أوامره بضرب مبنى وزارة الدفاع بالقنابل عند حدوث الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم - هو الذى تولى تنفيذ عمليات التطهير الدموية فى عام ١٩٦٣ .

وقد تم تزويد الآلاف من أعضاء حزب البعث بالأسلحة وحملوا الشارات الخضراء حول أذرعهم . وبواسطة قوائم الأسماء التى أعطيت لهم قاموا بتمشيط الحى وراء الحى والشارع وراء الشارع والبيت وراء البيت فى بحثهم المحموم عن زعماء وأعضاء الحزب

الشيوعي ومناصريهم. وكما علمتُ بعد ذلك من الصحف والمجلات والكتب الأجنبية، فقد قام عملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بمساعدتهم في إعداد تلك القوائم.

لم يكن بمقدور كثير من الشيوعيين أن يختبئوا. فقد كانوا يخطبون في الناس على مرأى العين في أيام عبد الكريم قاسم، وذلك في المدارس والجامعات و النقابات وغيرها من الهيئات، ففي ذلك الوقت لم يكن من المحظور أن تكون شيوعيا، وكذلك كان الحال قبل إسقاط الأسرة الملكية ونوري السعيد. والآن ها هو ذا النظام الجديد لحزب البعث يطارد هؤلاء الناس المعروفين لديه ويقوم بإعدامهم أو إلقائهم في السجون.

أطلق على ميليشيا الحزب بقيادة الوندأوي اسم الحرس القومي، وقد استخدم قصر الملك فيصل المسمى «قصر الرحاب» كمركز للتعذيب و الاستجواب. كان الشعب قد أطلق على هذا القصر «قصر النهاية» لأن الأسرة الملكية قد لقيت فيه مصرعها المأساوي على غير انتظار في عام ١٩٥٨. كان قليل من الناس يغادرون مركز الاستجواب وهم على قيد الحياة. أما إذا ما وقع أحدهم في قبضة ناظم كزار، وهو شيعي قد انضم في منتصف الخمسينيات إلى حزب البعث، فإن القصر في أغلب الأمور يعني بالنسبة له في هذه الحالة المحطة الأخيرة قبل الموت.

كان كزار نادر الابتسام. كانت وحشيته ونزعته السادية غريبة حتى بالنسبة للمعهود في العراق. قام كزار بنفسه بتطوير مجموعة جديدة من وسائل التعذيب في قبو القصر، وقد اختاره صدام بعد ذلك ليتولى منصب مدير الأمن العام.

لقي الآلاف من الشيوعيين والمتضامنين معهم حتفهم في القتال الذي دار في الشوارع أثناء انقلاب فبراير ١٩٦٣. كما راح الآلاف ضحية أعمال التطهير في الأسابيع والأشهر التالية، وألقي بكثيرين في السجون، ولكن لا توجد أرقام محددة عن ذلك.

أما عن ماهية الدور الذي لعبه صدام في تلك المرحلة التي كانت أكثر المراحل دموية فلم تتضح بعد. ففي أعقاب محاولة الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم في عام ١٩٥٩ وهروبه إلى سوريا، توجه صدام إلى القاهرة، حيث واصل تعليمه الجامعي بفضل

مساندة جمال عبد الناصر والمنح التى قدمها له على انتظار أن تسنح له الفرصة بالعودة إلى بغداد.

وها هو ذا قد عاد مرة أخرى، لكنه لم يرد له ذكر سواء من أصدقائى الشيوعيين الكثيرين، أو من أفراد الحرس القومى ذوى الشارات الخضراء. كان صدام بكل تأكيد مشتركا فى حمام الدم، ولكنى لا أعتقد أنه كان ذا دور محورى فى تلك الأعمال، وإلا لكنت سمعت بشىء من هذا القبيل.

ألقى القبض على معظم الشيوعيين الذين كانوا قد احتلوا قسم الشرطة فى الكاظمية وقاموا بضرب والدى ضربا مبرحا وأطلقوا عليه النيران عندما لم يوافق على إعطائهم الأسلحة. تعرّف والدى عليهم عندما كان عليه أن يدلى بشهادته ضدهم فى المحاكمة التى عقدت لهذا الغرض.

«إننى آسف، لكننى لم أر أيًا منهم قبل ذلك»، ذلك ما قاله والدى.

اختبأ مصطفى الوردى لدينا فى المنزل. كان أتباع حزب البعث قد ألقوا القبض على ابن عمه وزميلى محمد الوردى، الذى قفز من الشاحنة أثناء ترحيله إلى السجن ليتمكن من الهرب، ولكن أطلقت عليه النيران.

كان مصطفى - وهو زميل لى أيضا - قد أتى إلينا لأنه يخشى التنكيل به، فقد كان مصطفى مثل ابن عمه محمد من النشطاء المتطوعين فى الحزب الشيوعى.

وبعد اختبائه لدينا بثلاثة أيام، طرق الباب لدينا بعض أتباع حزب البعث المسلحين ذوى الشارات الخضراء. كانوا يصطحبون أخت مصطفى وقد أجبروا والده أن يبوح لهم بالمكان الذى يختبئ فيه ابنه، وقد اصطحبتهم أخته لتريهم الطريق. كان أحد أتباع حزب البعث يعرفنى.

سألنى: «لماذا خبأت هذا الشيوعى؟»

قبل أن أستطيع الإجابة، كان مصطفى قد تولى الكلام.

- «علاء لم يخبئنى، لقد جئت إليه بالمصادفة لأسأله عما إذا كنا سنذهب سويا إلى المحاضرة غدا».

هذا الأمر يستحق المحاولة، لا شك أن هذا ما جال في خاطره.

وقد نجحت المحاولة، فقد تركني أتباع حزب البعث في سلام ولم يأخذوا إلا مصطفى الذي بقي عدة أشهر في السجن، ثم أطلق سراحه وواصل دراسته. وهو اليوم واحد من أهم الأطباء العراقيين المتخصصين في القلب.

جعلت قوات الحرس القومي مقرها في بيت كبير في حي الأعظمية. كان مقداد العاني واحدا من المعروفين فيها، وكان هو أيضا يدرس الطب في نفس الصف الذي كنت أنا فيه. كان الأستاذ الدكتور صادق الهلالي يلقي علينا محاضرات في علم وظائف الأعضاء، لكن بعد أن أشاع عنه بعض الزملاء في كل مكان أنه من المتعاطفين مع الشيوعيين، قُبض عليه وألقى به في السجن. ذهبت لذلك إلى حي الأعظمية لأتوسل إلى العاني ليفعل شيئا، فلابد أن هناك وسيلة ما لإخراج الأستاذ الهلالي من السجن.

«سأفعل كل ما بوسعي»، قالها العاني مضيفا: «انتظر بعض الوقت».

ثم بدأ يجري بعض المكالمات التليفونية.

كانت هناك مقاعد كثيرة في مكتب العاني، لكن لم يكن هناك غير مقعد واحد شاغر. جلست وقد لفت انتباهي عندئذ أني أجلس بين اثنين من أتباع حزب البعث ذوي الشارات الخضراء. وبينما أنا أنتظر، دخل واحد من أعز أصدقائي من المدرسة الثانوية المركزية. كان قد أصبح مهندسا، ولم أكن قد رأيته منذ زمن بعيد.

نهضت لأحييه وأعانقه كما يفعل الأصدقاء الحميمون. فإذا به يتراجع إلى الخلف ويتظاهر بأنه لا يعرفني. وبدا لي على الفور ظنه أنه قد أُلقيَ القبض علي وأحضرت إلى المقر الرئيسي للحرس، وإلا فلماذا أجلس هنا محاصرا بين اثنين من الحراس؟

بعد فترة من الوقت تمكن مقداد العاني - الذي أصبح اليوم أستاذا لأمراض الكلى وعميدا لكلية الطب في جامعة حضرموت باليمن - من أن يصل الى رئيس جهاز المخابرات على التليفون.

«حسنا»، قالها العاني عندما وضع السماعة وأضاف: «يمكنك أن تصطحب أستاذنا، سأعد لك سيارة وسائقا».

شكرته فى سعادة عارمة ونهض ليرافقنى حتى الباب، فإذا بزميل المدرسة القديم يهرول إلىّ ويود أن يحيينى وهو سعيد أيما سعادة لرؤيتى مرة أخرى!

لكنى أنا فى هذه المرة الذى تظاهرت بأنى لا أعرفه. فقد كان بمقدوره تماما أن يحيينى وربما حتى أن يساعدنى لو كان رجال الحرس القومى قد ألقوا القبض علىّ بالفعل. كان يعرف تمام المعرفة أنى لم أشارك قط فى أى اتجاه أو حزب سياسى. لكنى كثيرا ما قابلت أناسا على هذه الشاكلة فى حياتى.

فى مجلس قيادة الثورة فى العراق كان كلٌ مستعد لأن يستل خنجره وينقض به على الآخر. كان ذلك فى صيف وخريف عام ١٩٦٣ حيث كان حزب البعث منشقا فى معظم القضايا، وكان الوزراء لا يتركون فرصة ليغدر كل منهم بالآخر إلا واغتنموها، وقد عكست هذه التناقضات الانشقاق العميق داخل قيادة الحزب فيما يتعلق بالمسار السياسى.

هل سيفعل العراق، على سبيل المثال، كل ما بوسعه ليصبح دولة عربية عظمى بما يتطابق مع مُثُل القومية العربية؟ كان سائر أعضاء قيادة الحزب يشكون فى ذلك إلى حد بعيد، فقد ثبت أن الجمهورية العربية المتحدة التى كونتها مصر وسوريا غير قادرة على البقاء لتنهار بذلك فى عام ١٩٦١.

إلى أى مدى يجب أن يتجه العراق نحو اليسار؟ كان الأمين العام على صالح السعدى، الذى عزل من منصبه فى الصيف بسبب آرائه المتطرفة، قد تمادى واقترح الماركسية أساسا أيديولوجيا جديدا لحزب البعث فى العراق. وقد أثار هذا الاقتراح غضبا عارما بين المحافظين من أعضاء مجلس قيادة الثورة، أى ضباط الجيش.

ولم يكن الوضع يبدو أكثر وضوحا لدى جماهير الحزب.

كان الحرس القومى برئاسة الونداوى يكسب دائما أنصارا جددا، وكان هؤلاء الأعضاء الشبان كثيرا ما يسلكون سلوكا فظا خطيرا فى الشوارع، فقد كانوا فى الليل يقبضون على كثيرين بشكل تعسفى، وكانوا يأخذون بوجه عام كل من يشكّون فى أنه شيوعى أو متضامن مع الشيوعيين. وأصبحت هذه الميليشيا تمثل سببا للمعاناة ليس فقط للجماهير البسيطة، وإنما أيضا لعبد السلام عارف ومن يساندونه من الضباط.

وفى شهر نوفمبر كانت الخلافات الداخلية قد تفاقمت.

أطاح الجناح اليميني لحزب البعث بالسعدى، وطالب الأمين العام وأخلص أعوانه بمغادرة البلاد، حيث وضعوا فى طائرة أقلتهم إلى إسبانيا. وتدفق الشباب البعثيون فى الحرس القومى فى الشوارع بشاراتهم الخضراء ومدافعهم الرشاشة وهم الذين كانوا فى بادئ النزاع الداخلى حول السلطة أحباء ومؤيدين للأمين العام.

ووصلت حالة الفوضى العارمة إلى درجة خطيرة، وعندئذ وجد الرئيس والجيش أنه ليس هناك فى قوس الصبر منزع.

وفى الثامن عشر من شهر نوفمبر تحركت الدبابات مرة أخرى صوب بغداد. واحتلت وحدات الجيش الموالية للرئيس نقاطا مركزية فى جميع أنحاء العاصمة. قُصف مقر الحرس القومى، وصدرت الأوامر بنزع السلاح من أعضائه والقبض عليهم. ومع انقضاء اليوم كان قد قُضى فى جميع أرجاء البلاد على الميليشيا التى كان من الصعب قبل ذلك تلجيمها. وكان على معظم أعضاء حزب البعث مغادرة مجلس قيادة الثورة.

نجح الرئيس عبد السلام عارف بذلك أن يخمد انقلابا بانقلاب، حيث أصبح بعدها يحكم العراق بمفرده بمساندة الجيش بدلا من حزب البعث.

ومر ما يقرب من خمسة أعوام حتى استطاع حزب البعث أن يظهر على المسرح السياسى مرة أخرى.

كنت آنذاك طبيبا شابا، وكنت قد أديت لتوى امتحان البكالوريوس. كان بمثابة الخلاص بالنسبة لى أن أترك الفوضى وسفك الدماء وراء ظهرى فى بغداد، ففى أوائل عام ١٩٦٤ بدأت أؤدى الخدمة العسكرية تحت ظلال أشجار الكافور فى قاعدة الحبانية العسكرية بقيادة اللواء الدليمى. ولكنى أرانى هناك مجبر أيضا على أن أتذكر أعمال العنف التى تركت آثارها فى جميع أرجاء البلاد التى كانت قديما مهد الحضارات.

كان الملازم طيار عماد المشاط يسكن فى الحجرة المجاورة لى فى المعسكر مع الملازم هشام عطا عجاج الذى أصبح لاحقا بطلا من أبطال كرة القدم فى العراق، وكان عماد قد تزوج حديثا. وفى ذات صباح سقط بطائرته الفامباير البريطانية بالقرب من قرية بين

سامراء والفلوجة بالقرب من بحيرة الثرثار، ولم يفلح فى فك مقعد النجاة. أطلقت صفارات الإنذار وتوجهنا بالطائرات إلى بحيرة الثرثار. كان المشاط يرقد قتيلا فى حطام طائرته النفاثة المحترقة.

ما زلت أذكره وكأنى أراه أمامى. كان منكفئا على وجهه والدخان يتصاعد من ظهره. وكان سكان القرية يحيطون به. وعندما أدرت جسد الملازم حديث الزواج على ظهره، لفت انتباهى أن أحدهم قد قطع خنصره الذى يحمل خاتم الزواج، وكذلك ساعة اليد الخاصة به لم يكن لها أثر.

كانت المهمة الرئيسية لطيارى قاعدة الحبانية تكمن آنذاك فى قصف القرى الكردية بالقنابل، ففى عام ١٩٦١ بدأ هؤلاء من جديد تمردا فى المناطق الجبلية فى شمال العراق حيث طالبوا مرة أخرى بقيادة زعيمهم الأسطورى الملا مصطفى البرزانى بالحكم الذاتى. وكان لهذا المطلب مسوغه التاريخى؛ فعندما غربت شمس الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، وعدت القوى العظمى للحلفاء فى أغسطس عام ١٩٢٠ فى مدينة سيفر الفرنسية الأكراد بدولة مستقلة. لكن لم يدم هذا الاتفاق طويلا، فلم تمر ثلاثة أعوام إلا وقد حلت محله اتفاقية لوزان التى لم يرد فيها ذكر الدولة الجديدة بكلمة واحدة.

وبعد أن ارتكب العثمانيون خطأهم الفادح بمساندة ألمانيا، مما كان له عواقب وخيمة عليهم، نهضوا مرة أخرى فى ظل حكم كمال أتاتورك. وعندئذ لم ير الرئيس الجديد فى أنقرة داعيا لكى يتخلى عن الإقليم الكردى الخصب فى جنوب شرق الجمهورية.

وبعد تفكير عميق لم تعد كل من إنجلترا وفرنسا متحمستين تماما لتأسيس دولة كردية، فسرعان ما اتضح أن الإقليم الكردى من بلاد الرافدين غنى بالنفط فى المنطقة الواقعة بين الموصل وكركوك، لذلك كان فى مصلحة كل من القوتين الاستعماريتين الأوروبيتين أن تُبقى على حق الانتداب بالشكل الذى منحته إياها عصبة الأمم بعد زوال الدولة العثمانية.

إذن فقد غُدر بالأكراد!

وبدلا من الاستقلال فقد وقع الإقليم الذى يقطنه الأكراد منذ فجر التاريخ تحت

الحكم التركى والإيرانى والعراقى والسورى. ولم يكتب لجمهورية كردستان التى كانت ستتجاوز مساحتها مساحة فرنسا ـ مما كان من شأنه أن يجعلها واحدة من أكبر البلاد فى الشرق الأوسط ـ أن ترى النور مطلقا.

«ليس لنا صديق غير الجبال»، هذا ما يقوله الأكراد الذين يتراوح عددهم بين ثلاثين وأربعين مليونا، والذين يعيشون اليوم فى هذا الإقليم ما زالوا يحلمون بدولتهم المستقلة الخاصة بهم.

كانت المعارك التى بدأها الملا مصطفى البرزانى وجنوده الذين أطلق عليهم البشمرجة فى شمال العراق فى عام ١٩٦١ هى حلقة حزينة فى سلسلة دامية من الثورات المشابهة. وقد نشب أول تمرد للأكراد فى عام ١٩١٩، وقضى عليه من الجو بشكل وحشى.

إن مؤرخى السلاح الجوى البريطانى يتسمون بالزهو المفرط تجاه براعة سلاح الطيران الملكى فى ذلك الوقت. «إن أكثر الوسائل فعالية لتحطيم الروح المعنوية للسكان المحليين تكمن فى تركيز القصف بالقنابل على أكثر القرى المأهولة بالسكان للقبيلة التى نريد معاقبتها. فجميع الطائرات المتاحة يجب أن تشن مجتمعة الهجوم على القرية بالقنابل والمدافع الرشاشة. يجب أن تستمر هذه الغارات بدون هوادة ليلا نهارا، عليها أن تستهدف البيوت والسكان والزرع والماشية»، ذلك ما كتبه لواء السلاح الجوى المتنشى شاميير بعد عودته إلى لندن فى عام ١٩٢١.

وبعد ذلك بعدة أعوام شرح الرائد طيار آرثر هاريس الأمر بوضوح لا يدع مجالا للبس:

«إن العرب والأكراد يعلمون كيف يكون القصف. ففى خلال خمس وأربعين دقيقة يمكننا أن نسوى قرية بأكملها بالأرض وأن نردى ثلث سكانها قتلى وجرحى. لا نحتاج فى هذا الأمر أكثر من أربع أو خمس طائرات لا تدع لأحد مجالا للهرب. أضف إلى ذلك أن طائراتنا ليست هدفا يمكن أن يصيبه الأكراد فينالون بذلك الشرف العظيم».

فى الحرب العالمية الثانية حقق هاريس شهرة واسعة، حيث خطط للقصف الشامل

بالقنابل الذى تعرضت له المدينتان الألمانيتان هامبورج ودريسدن، وحصل فى المقابل على لقب النبيل، كما شيّد له تمثال يحمل اسمه فى شارع فليت ستريت فى لندن.

كان شبح هاريس ما يزال يخيم على القاعدة العسكرية عندما كنت أؤدى الخدمة العسكرية فى الحبانية. استمرت ثورة الأكراد بزعامة البرزانى بدون انقطاع حتى عام ١٩٦١، وذلك بصرف النظر عن بعض المرات القليلة التى تحققت فيها الهدنة ـ وإن كانت هشة ـ وبعض محاولات التفاوض الفاشلة فى بغداد. كان الضباط الذين يقودون القوات البرية لعبد السلام عارف فى الشمال يأمرون بقصف القرى بالقنابل عند اعتقادهم أن جنود البرزانى قد لجئوا إليها.

كان الطيارون يأتون إلى العيادة الطبية أو إلى حجرتى الواحد تلو الآخر يعبّرون عن سخطهم بمرارة، فقد كانوا على وعى تام بما يقترفونه خلال القصف من أعمال وحشية فى حق الأبرياء من كبار السن والنساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من الهروب بسرعة فى الجبال.

ولقى عبد السلام عارف مصرعه فى حادث سقوط طائرته المروحية فى عام ١٩٦٦. فتولى أخوه منصب رئيس الجمهورية. وبينما كان ضباط الجيش يكنون لعبد السلام عارف كل الثقة والاحترام، لم يكن الأمر كذلك فيما يتعلق بعبد الرحمن عارف، إذ كان يروى عنه أنه ضعيف الشخصية. كذلك ضاع المقدار البسيط من الثقة الذى كان عبد الرحمن عارف يحظى به لدى الشعب العراقى تماما بعد حرب النكسة فى عام ١٩٦٧؛ فقد أخذوا جميعا ـ ومن بينهم عبد الرحمن عارف ـ يلقنوننا أنها مجرد مسألة وقت حتى تطرد قواتنا ومعها القوات المصرية والسورية والأردنية هؤلاء الدخلاء الصهاينة من فلسطين نهائيا وترمى بهم فى البحر. وفى القاهرة عاد الرئيس عبد الناصر ليحلق فى أجواء من البلاغة والحماسة المفرطة وأعقب الكلمات بالأفعال، فأغلق حركة الملاحة فى البحر الأحمر فى وجه كل السفن المتجهة إلى مدينة إيلات الإسرائيلية على خليج العقبة.

أغلب الظن أنه لا يستطيع غير العرب فهم ما شعرنا به من إحباط ومهانة عندما أعلن أن إسرائيل ووزير دفاعها موشى ديان قد حسمت الموقف لصالحها. لم يكن ليعقل أنه



لم يمر سوى ستة أيام إلا وكان إخوتنا المصريون والسوريون والأردنيون قد هُزموا هزيمة نكراء. لم يكن بمقدورنا أن نصدق أن العلم الإسرائيلى يرفرف فوق شبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية من الأردن. كما أصبحت المدينة القديمة فى القدس الشرقية التى تضم مقدساتنا الإسلامية من المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى أيدى ألد أعدائنا.

غير أن أكثر ما فى الأمر سوءا كان أن نعرف أن الجيش العراقى لم يساند إخوتنا العرب مساندة كافية؛ فالوحدات القليلة الصغيرة التى أرسلت إلى الأردن لم تشترك اشتراكا حقيقيا فى القتال. وقد تحولت مشاعر الغضب من هذا الضعف إلى مشاعر غضب ضد الرئيس عبد الرحمن عارف.

«قريبا سيحدث انقلاب»، ذلك ما قاله ابن عمى فوزى فرمان بشير. كان ذلك فى ربيع عام ١٩٦٨، حيث كنت فى طريقى إلى إنجلترا لأستكمل دراستى التخصصية فى جراحة التجميل.

كان لدى فوزى حاسة شم قوية تجاه هذه الأشياء، فقد كان من الأتباع المتحمسين لحزب البعث الذى كان قد دخله منذ عام ١٩٥٧. كان يؤمن بأفكار الحزب الأساسية حول الوحدة العربية والحرية والاشتراكية، وكان يناضل من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان. كان لا يتردد أبدا فى إعلان رأيه.

كانت شرطة الأمن العام فى عهد عبد الكريم قاسم قد ألقت القبض عليه فى عام ١٩٥٩ واحتجزته لعدة أشهر لأنه قد انتقد أسلوب قيادة عبد الكريم قاسم المتسلط. وعندما تكرر ذلك فى عام ١٩٦٤ أمر عبد السلام عارف بحبسه هو واللواء أحمد حسن البكر ومجموعة من الأعضاء القياديين فى حزب البعث، حيث وجهت لهم تهمة تدبير انقلاب ضد الرئيس.

أطلق عبد الرحمن عارف بعد ذلك سراح كل من البكر وفوزى ومعظم أعضاء حزب البعث، وذلك بعد توليه السلطة بعد وفاة أخيه فى عام ١٩٦٦. وبدأت حركة جادة لإعادة بناء الحزب كان البكر قد بدأ يديرها من داخل السجن.

كان صدام حسين، هذا الشاب من أقرباء اللواء البكر الذى قد تولى منصب أمين

عام الحزب منذ عام ١٩٦٤، هو المنظم لهذه الحركة. وقد قبض عليه هو أيضا وألقى به فى السجن، ولكنه تمكن من الفرار بعد عامين قضاهما فى السجن، فقد كان آنذاك فى الطريق إلى محاكمته مع اثنين من الحراس اللذين إما لم يكونا على درجة خاصة من الذكاء أو أنهما قد تقاضيا الرشوة. كان صدام قد دعاهما إلى الطعام فى الطريق، وبينما كان الحارسان يأكلان ما لذ وطاب، كان صدام قد هرب من الباب الخلفى للمطعم.

«أعتقد أننا سنستولى على السلطة فى أثناء الصيف»، ذلك ما قاله ابن عمى.

سارت الأمور بلا أدنى تعقيدات على عكس ما تخيل الجميع.

روى لى برزان إبراهيم التكريتى - وهو الأخ غير الشقيق لصدام - عما حدث بعد ما قرر اللواء البكر وقيادات حزب البعث إقصاء عبد الرحمن عارف ونظامه العسكرى الذى يزداد يوما بعد يوم بُعدا عن السلطة.

«لم نواجه أى صعوبات، فالضباط الذين كانوا مسئولين عن أمن الرئيس طعنوه فى ظهره طعنة نجلاء».

كان اللواء إبراهيم عبد الرحمن الداوود هو قائد القوات الأمنية الخاصة بالرئيس والمعروفة باسم الحرس الجمهورى. وكان العقيد سعدون غيدان يقود كتيبة المدرعات الخاصة بالحرس الجمهورى. أما عبد الرحمن عارف فكان يثق ثقة ما بعدها ثقة بهذين الرجلين اللذين لم يترددا فى الضلوع فى انقلاب ضده.

كان من المقرر أن يحدث الانقلاب فى الصباح الباكر من يوم السابع عشر من يوليو من عام ١٩٦٨، لكنه كاد أن يبوء بالفشل. كان الداوود صديقا عزيزا للواء عبد الرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية. وكان القواد المدبرون للانقلاب قد حذروا اللواء الداوود من أن ينبس بكلمة عن خططهم إلى صديقه.

«لكنه فعلها، وبالتحديد فى عشية اليوم الذى أردنا أن نضرب فيه ضربتنا»، ذلك ما رواه لى برزان مضيفا «كانت صدمة لنا عندما أتى رسول من عبد الرزاق النايف يحمل تهديدا فحواه أنه إما أن يعين رئيسا للوزراء بعد الانقلاب وإما أنه سيحذر رئيس الجمهورية ويعلن حالة التأهب القصوى بكل ما تستتبعه من عواقب».

وأعلن البكر وقيادة الحزب موافقتهم على أن يصبح النايف رئيسا للوزراء.

«قال صدام: بمقدورنا أن نخلعه مرة أخرى بسهولة، فإن ذلك ليس بعسير».

كان سمير الشيخلي - الذى أصبح فيما بعد وزيرا للداخلية - عضوا من أعضاء قيادة الحزب. فى منزل والديه فى حى المنصور كان أحمد حسن البكر وصدام وبرزان وبقية منظمى الانقلاب يجتمعون قبل أن يبدءوا فى التحرك فى صباح السابع عشر من يوليو.

كانوا قد أعدوا بعض الملابس وأحضروا شاحنتين ليتحركوا بهما إلى القصر الرئاسى حيث سينتظرهم قائد اللواء الداوود والعقيد غيدان عند بوابة القصر المفتوحة.

«ما إن تحركنا حتى أوقفتنا دورية مرور»، ذلك ما رواه لى الشيخلى ذات ليلة عندما تطرق الحديث إلى ليلة الانقلاب التاريخية، ثم أضاف: «قام صدام بسرعة بتقييد الشرطى وتكميمه وأخذناه معنا على ظهر الشاحنة وواصلنا السير».

تم الاستيلاء على السلطة فى القصر الجمهورى وفقا للخطة وبدون إراقة للدماء؛ فقد أدرك عبد الرحمن عارف بسرعة أن الضباط الذين يضع فيهم ثقته الغالية قد خانوه وأنه لا جدوى من المقاومة. كان مبنى الإذاعة ووزارة الدفاع وأهم المنشآت المدنية والعسكرية قد أصبحت قبلها تحت سيطرة الثوار.

لكن الرئيس سُمح له بمغادرة العراق حيا بعدما تم إخباره أنه غير مرغوب فيه، ووضعوه فى طائرة متجهة إلى تركيا، ومن هناك واصل رحلته إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته المريضة مرضا شديدا للعلاج منذ وقت طويل.

عُين اللواء أحمد حسن البكر رئيسا جديدا لجمهورية العراق. وتقلد عبد الرزاق النايف منصب رئيس الوزراء كما وعد به. وأصبح اللواء الداوود وزيرا للدفاع والعقيد غيدان وزيرا للداخلية فى الحكومة الجديدة.

وبعد مرور عدة أيام على وقوع الانقلاب تذكّر البكر بالصدفة الشرطى الذى كان قد استوقفهم، والذى وضعه البكر فى زنزانته ونسى أمره فى خضم الأحداث.

«أعطى البكر أوامره لإيجاد هذا الشرطى وإحضاره إلى مكتبه. وهناك رقى البكر الشرطى. كان اللواء يجد فى هذا الموقف تسلية ما بعدها تسلية»، ذلك ما رواه الشيخلى.

كان برزان إبراهيم التكريتى قد بلغ سبعة عشر عاما فى صيف هذا العام. كان يقتفى الآن أثر أخيه الأكبر غير الشقيق فى كل مكان، وكان حاضرا عندما تم عزل عبد الرزاق النايف عن منصبه كما كان مقررا فى أقل من أربعة عشر يوما.

كان وزير الدفاع الداوود - وهو الصديق العزيز للنايف فى ذلك الوقت - فى زيارة للأردن، حيث كان يتفقد القوات العراقية التى كانت لا تزال موجودة فى المملكة الهاشمية بعد هزيمتها قبل ذلك بعام فى حرب عام ١٩٦٧، ولم يتحرك صدام وبرزان وصلاح عمر العلى الذى كان عضوا من أعضاء قيادة الحزب إلا بعد أن وصل وزير الدفاع إلى عَمان. كان ذلك بعد أن فرغ رئيس الوزراء من الغداء مع الرئيس البكر.

«اقتحمنا مكتب النايف وقد شهرنا مسدساتنا ووضعنا القيود الحديدية فى يديه»، قالها برزان مضيفا: «بعد ذلك وضعناه فى طائرة متجهة إلى الرباط، فقد كان يصلح بجدارة لمنصب سفير العراق فى الرباط».

ولم يكن مصير وزير الدفاع أفضل من ذلك، فقد علم من الراديو أنه هو أيضا قد عُزل عن منصبه، وأن عودته إلى بغداد غير مرغوب فيها.

وبدأت أعمال التطهير، وكان من المقرر أن تستمر لفترة طويلة.

صدق اللواء نعمة الدليمى فى قاعدة الحبانية فى كل كلمة قالها. فإذا لم يكن المرء يرغب فى أن يُطعن بخنجر فى ظهره، فإنه من العقل أن يفترض الشر والخداع فى جميع البشر بما فيهم الأصدقاء المقربون.

حقق الدليمى نجاحا كبيرا فى حياته حتى تقلد منصب القائد الأعلى للسلاح الجوى العراقى، إلى أن مات على إثر إصابته بورم خبيث فى المخ.

الفصل الرابع

عمليات تطهير

كان ناظم كزار مدخنا شرها، وكان يُحكى عنه أن من ضمن ما يتميز به أنه يطفئ سيجاره في عيون ضحاياه. كان صدام بنفسه هو الذى عينه مديرا للأمن العام بعد الانقلاب الذى قام به حزب البعث واستيلائه على السلطة فى السابع عشر من يوليو عام ١٩٦٨.

فى أواخر يونيو عام ١٩٧٣ حاول كزار نفسه أن يصبح رئيسا للبلاد.

كنت قد عدت إلى بغداد قبل ذلك بعام بعد أن انتهيت من دراستى التخصصية فى جراحة التجميل فى إنجلترا. وسرعان ما اكتشفت أنه قد حدثت أشياء كثيرة فى فترة غيابى التى امتدت لأربعة أعوام. روى لى ابن عمى فوزى فرمان بشير أن اللواء أحمد حسن البكر، وإن كان لا يزال رئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء، فإن الرجل الجديد القوى فى البلاد يدعى صدام حسين.

لم يكن صدام حسين يتقلد فقط منصب نائب رئيس الجمهورية وإنما أيضا منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الذى أصبح بعد انقلاب يوليو عام ١٩٦٨ يمثل أعلى جهاز حاكم فى العراق. لم يكن الشاب الحظىّ لدى اللواء البكر قد تقلد بعد أى منصب وزارى، ولكنه كان مسئولا عن أمن البلاد، وهو الموقع الذى أتاح له من النفوذ والسلطة ما استغله على أكمل وجه دون تردد.

كان يعمل بحذر على أن يوافق البكر على توليه مناصب جديدة فى الحزب وفى الجيش وفى الإدارة، وهو الأمر الذى كان يتم بشكل منهجى. وكان الضباط ومديرو

الإدارات ومديرو العموم الذين لا يعرفهم صدام أولا يراهم أهلا لثقته يُعزلون من مناصبهم حتى يعيَّن فيها بعد ذلك أبناء إخوته أو غيرهم من أقربائه الذين ينتمون لقبيلته أو عشيرته فى تكريت أو المناطق المجاورة لها. وكان هاشم حسن المجيد ـ وهو ابن عم صدام ـ عضوا فى لجنة مهمتها الإشراف على هذه العملية.

«ما زلت أتذكر أنه كان دائما معي، وكان يرغب دائما فى الاطلاع على الاقتراحات التى أعددناها». يمكننا الإبقاء على مدير الإدارة هذا لعدة أعوام أخرى، هذا الرائد يجب أن يطرد من الخدمة على الفور، يمكن أن يبقى رئيس القسم ذاك لمدة ستة أشهر أخرى حتى يكون لدينا متسع من الوقت لنبحث عن شخص جديد يحل محله. كان هذا مثالا لأحد توجيهاته. لم يكن يترك شيئا للصدفة. ذلك ما رواه لى المجيد ذات مرة عندما جاء إلىّ لأقوم بإجراء فحص بسيط له. كان فخورا بقريبه أيما فخر!

كان من المعتاد أن يتقلد أفراد من السُّنة المتعلمين الذين نشئوا فى أسر ميسورة الحال وينتمون للطبقة الوسطى العليا المناصب الرفيعة فى السياسة والجيش والإدارة فى العراق. أما الآن فإنه قد حل محلهم السُّنة من مسقط رأس صدام بشكل يزداد يوما بعد يوم. كان هؤلاء قد نشئوا نشأة بسيطة. وكان كثير من الذين وقع الاختيار عليهم لم يحصلوا إلا على قدر يسير من التعليم المدرسى أو لم يذهبوا إلى المدارس مطلقا.

كان ناظم كزار ـ ذلك المهندس الشيعى من مدينة العمارة فى جنوب العراق والذى قد أكمل دراسته فى بغداد ـ يتأمل هذه التطورات بشكل متزايد يوما بعد يوم. كان يبدو أنه لم يعد من المفضلين لدى صدام فى صراعه حول السلطة والمناصب.

روى لى واحد من ضباطه فى مديرية الأمن العام أن رئيسه كانت تساوره الشكوك أن البكر وصدام يتآمران مع الأمريكيين ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كان ضابط الشرطة هذا ابن واحد من أعز أصدقاء والدى، وهكذا عرف كلٌ منا الآخر. عند حديثنا هذا كان قد عاد لتوه من الديوانية فى جنوب العراق حيث كان فى صحبة كزار، وهناك كان رئيس الجمهورية ونائبه يتحدثان إلى الشعب.

«انظر إليهم»، ذلك ما قاله كزار لضابط الشرطة عندما كانا يقفان مع الجماهير أمام

المنصة وينصتان إلى البكر وصدام، ثم أضاف: «انظر إلى وجنتيهما. إنهما حمراوان ولامعتان مثل وجنات الأمريكان»! قالها عندما كانت الشمس آيلة للغروب.

قرر كزار أن يؤجل محاولته للانقلاب فى عصر اليوم الذى ينتظر فيه عودة الرئيس البكر من زيارة فى بولندا إلى مطار بغداد، وبصفة صدام نائبا لرئيس الجمهورية فإنه سوف يستقبل البكر عند عودته ويرحب به، كما ينص على ذلك البروتوكول، وبهذه الطريقة يمكن إطلاق النيران على كليهما فى الوقت نفسه. أرسل كزار مجموعة من الموالين له من أفراد مديرية الأمن العام إلى المطار ليقوموا بتنفيذ المهمة.

فى صباح ذلك اليوم كان رجال كزار قد ألقوا القبض على وزير الدفاع اللواء حماد شهاب ووزير الداخلية سعدون غيدان. فبعد قتل البكر وصدام كان من المقرر أن يتم الاستيلاء على مبنى الإذاعة والتليفزيون ليتمكن كزار بنفسه من إعلان نهاية «نظام التكريتيين».

تأخرت طائرة البكر لفترة طويلة. كانت قد أقلعت متأخرة من مطار وارسو واضطرت للهبوط فى صوفيا لتتزود بالوقود، وهناك انتهزت الحكومة البلغارية الفرصة لتستقبل الرئيس العراقى استقبالا رسميا. ومثل هذه الأمور تستغرق وقتا. لم تهبط الطائرة فى مطار بغداد إلا فى الساعة الثامنة، أى بعد أربع ساعات من الميعاد المقرر لوصولها.

اتضح بعد ذلك أنه قد لفت انتباه معاونى صدام المقربين وحرسه الشخصى فى المطار أن ضباط الأمن العام الحاضرين تزداد عصبيتهم وتوترهم كلما مر الوقت دون أن تظهر طائرة البكر. تم نقل أخبار هذه التصرفات المريبة إلى نائب الرئيس الذى تصرف على الفور.

أرسل الجنود لإلقاء القبض على كزار. كان مدير الأمن العام المهيب حينها فى طريقه للهرب إلى إيران بعدما أدرك أن محاولته للانقلاب قد باءت بالفشل، واصطحب معه وزير الدفاع شهابًا ووزير الداخلية غيدان رهائن له.

أرسل صدام وراءهم الطائرات والمروحيات الحربية التى لحقت بموكب السيارات وأوقفتها فى مدينة بدرة قبل الحدود مباشرة، وتلى ذلك معركة قُتل فيها شهاب رميا بالرصاص، وأصيب غيدان إصابات بالغة.

أعيد كزار إلى بغداد ثانية ليمثل أمام المحكمة العسكرية ويعدم. وقد لقى نفس المصير أكثر من ثلاثين ضابطا وعاملا فى مديرية الأمن العام، وكذلك بعض القياديين والأعوان المخلصين فى حزب البعث.

وقد ألقى بأعداد أكثر من ذلك بكثير فى السجون. كان ابن عمى فوزى واحدا من هؤلاء. لم يكن له فى محاولة الانقلاب الفاشلة لا ناقة ولا جملاً، لكنه لم يستطع أن يمسك لسانه من جديد...

ففى صيف عام ١٩٧٣ عقد بعد إعدام ناظم كزار مؤتمر قطرى طارئ لحزب البعث حيث كانت قاعة الخلد بالقرب من قصر الجمهورية تعج بأكثر من أربعمائة من قيادات حزب البعث. كان فوزى ابن عمى واحدا من الذين أرسلوا إلى المؤتمر للتغطية على أعمال التطهير الشاملة التى جرت فى صفوف الحزب بعد محاولة الانقلاب الفاشلة التى قام بها كزار، كما كان من المهم لصدام حسين أن يطمئن لولاء أتباعه لكى يتمكن من الإطاحة بعبد الخالق السامرائى، وهو واحد من مؤسسى الحزب ومفكريه العظماء.

كان السامرائى عالم اجتماع وواحدا من القليلين الذين ربما كان لا يزال بمقدورهم منع النائب الشاب للرئيس من أن يصل إلى قمة الحزب. كانت أفكار وآراء السامرائى حول الوحدة العربية والإصلاح الزراعى الجذرى والمطالبة بحقوق أكثر لطبقة العمال قد جعلته محبوبا للغاية لدى جماهير الحزب، وهو لم يكن متزوجا، وكان يعيش حياة زاهدة. ولم يكن ليخطر على بال أحد أن توجه له تهمة استغلال منصبه للربح المادى، إذ كان كثير من أعضاء الحزب يعتبرونه خليفة البكر بلا شك.

كان فوزى يقول آنذاك: «ليس هناك من يمكن أن يقارن به».

غير أن المشاركين فى المؤتمر القطرى فوجئوا بشىء غير ذلك يلقى على مسامعهم عند افتتاح المؤتمر فى قاعة الخلد. فقد عرفوا أن السامرائى قد قُبض عليه منذ قليل وألقى به فى السجن.

«لقد كان يساند ناظم كزار. إنه خائن»، ذلك ما صاح به طه ياسين رمضان الجزراوى الذى كان يترأس المؤتمر فى ثورة غضب عارمة، مضيفا: «إنه شخص فاسد يجب أن يعزل من جميع مناصبه»!

كان طه ياسين رمضان - الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وثلاثين عاما - من أعوان صدام المخلصين. كان يعمل قبل ذلك موظفا فى إحدى البنوك فى الموصل، وضُم فور قيام ثورة ١٩٦٨ إلى مجلس قيادة الثورة. وقد كان رمضان ينفذ كل ما يطلبه منه صدام ولم يضع أى قرار لنائب الرئيس محل نقاش.

وبعدما انتهى رمضان من خطبته التى عرّض فيها بالسلوك الخائن لمفكر الحزب، طلب فوزى الكلمة.

«إن تلك الاتهامات ضد عبد الخالق ما هى إلا سخف فى سخف. إن كل من يعرفه يعلم ذلك. إن هذه مؤامرة لإخراجه»، ذلك ما قاله ابن عمى.

خيم على القاعة صمت القبور. لم يجرؤ أحد من سائر الحاضرين على تأييد رأيه.

وعندما عاد فوزى بعد المؤتمر القطرى إلى منزله، ألقى القبض عليه.

زرته بعد ذلك بفترة وجيزة فى «المعتقل رقم ١» فى معسكر الرشيد، وهو الاسم الذى كان يطلق على المؤسسة العقابية فى بغداد، حيث كان يبقى المعتقلون السياسيون تحت حراسة مشددة. كانت الزنزانة لا تزيد مساحتها على أربعة أمتار طولا فى أربعة أمتار عرضا، وكان يشاركه فيها ستة أو سبعة من المعتقلين. لم يكن لديهم مراتب ليناموا عليها، بل كانوا ينامون على الأرض مباشرة ويتغطون ببعض الأغطية الصغيرة. كانت تبدو عليه آثار الضرب المبرح.

سألته: «لماذا دافعت عن السامرائى؟»

- «كان صديقى، وكان رجلا لا يفكر أبدا فى نفسه. ذات مرة عندما كنت أرافقه فى زيارة رسمية لألمانيا الشرقية، اشتريت له فى برلين جوارب جديدة و قميصا، فقد كانت جواربه مليئة بالثقوب وكان قميصه باليا، شىء لا يُعقل. ثم علينا بعد ذلك أن نصدق أن هذا الرجل فاسد وأنه يشكل خطرا على العراق»؟

كان فوزى ينظر إلىّ محبطا.

حاولت عدة مرات بعد ذلك أن أحصل على تصريح لأزور ابن عمى، لكن دون جدوى؛ فقد كان معظم من فى «المعتقل رقم ١» لا يزورهم أحد. كانوا يعدمون أو يختفون فجأة دون أن تعلم أسرهم شيئا عن مصيرهم.

كانت زوجة فوزى، أمل الجنابى، نشطة سياسيا أيضا. كانت قد درست بالجامعة وكانت مثقفة مثل زوجها وناجحة نجاحا كبيرا. وفى عام ١٩٥٩ انضمت لحزب البعث وكانت نائب رئيس الاتحاد العام لنساء العراق التابع للحزب عندما دخل زوجها المعتقل. كانت قيادة الاتحاد تجتمع بصدام بشكل دورى.

«لم أسأله قط عما إذا كان ينوى العفو عن زوجى، ولم يتحدث هو نفسه عن هذا الأمر مطلقا»، ذلك ما روته لى أمل.

بعد مرور عام سألها نائب الرئيس لماذا لم تطلب منه إطلاق سراح زوجها؟

«أجبت بأنه يعرف جميع التفاصيل. ولابد أنه يعرف أن زوجى برىء». فهو فى آخر الأمر لم يقل غير رأيه».

«حسنا. يمكنك الذهاب إلى السجن واصطحابه. فقد أطلق سراحه الآن»، هكذا كان رد صدام.

انسحب كلٌ من فوزى وأمل من حزب البعث بعد أن خرج فوزى سالما من «المعتقل رقم ١».

بالرغم من كل ذلك فإنه لا يمكن إنكار أن العراق قد تقدم فى بعض المجالات فى عهد البكر وصدام. ففى الأول من يونيو من عام ١٩٧٢ انتهى الشد والجذب بين العراق من جهة وبين شركات البترول العالمية التى تمتلك شركة النفط العراقية IPC من جهة أخرى؛ فقد تم تأميم النفط، وهو الأمر الذى كان تعقد عليه الآمال فى مضاعفة إيرادات العراق من البترول. وسرعان ما نشبت حرب أخرى بين إسرائيل من جهة ومصر وسوريا من جهة أخرى، وهو ما حقق رخاء اقتصاديا كبيرا فى بغداد لم يحلم به أحد عند تأميم البترول وطرد شركات البترول البريطانية BP وشل Shell وإكسون Exxon وموبيل Mobil.

كان اليهود يحتفلون فى إسرائيل فى السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ بعيدهم «يوم كيبور» عندما عبرت القوات المصرية قناة السويس وتوغلت بسرعة البرق فى صحراء سيناء، وهو الأمر الذى باغت الحكومة الإسرائيلية على عكس ما كان فى حرب النكسة عام ١٩٦٧.



فى بداية الحرب استطاع الجيش السورى أيضا أن يحرز نجاحات فى مرتفعات الجولان؛ فقد منحت الكميات الكبيرة من الأسلحة المتطورة القادمة من الاتحاد السوفيتى الرئيس أنور السادات فى القاهرة والرئيس حافظ الأسد فى دمشق قوة حربية كبيرة لم تكن وزارة الدفاع فى إسرائيل مستعدة لها بعد.

لم تتحول دفة الحرب إلا بعد أن تم إمداد إسرائيل عبر جسر جوى بكميات هائلة من الأسلحة الأمريكية، فبدأت القوات المصرية والسورية تتقهقر إلى الوراء، وهو ما كان له آثاره على الاقتصاد العالمى.

وردا على إمداد أمريكا إسرائيل بالأسلحة، قرر أغلب أعضاء منظمة الأوبك بقيادة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية حظر توريد البترول لأمريكا ولهولندا لمنع تزويد دول غرب أوروبا بالبترول، وهو الأمر الذى كان من شأنه أن ترتفع أسعار البترول الخام فى بورصة المواد الخام فى نيويورك ولندن ارتفاعا جنونيا، فقبل حرب أكتوبر كان العراق والدول الأعضاء فى منظمة الأوبك يحصلون على ما يربو على ثلاثة دولارات للبرميل، أما الآن فهم يحصلون على أحد عشر دولارا لنفس الكمية.

كان تأميم إنتاج البترول مع الارتفاع الهائل فى أسعار النفط بمثابة الفوز بالجائزة الأولى فى اليانصيب بالنسبة للبكر و صدام. وقد أتاحت لهما الإيرادات الهائلة إمكانات جديدة تماما، فاستطاعا أن يَفِيا بكثير من وعود حزب البعث، ورأينا كيف عم الرخاء بسرعة أرجاء العراق كله.

شيدت الجامعات و المدارس والطرق السريعة ومحطات توليد الطاقة ومحطات المياه ومحطات التحلية والمنازل والشقق على نطاق واسع. وفى المستشفيات الجديدة أصبح العلاج والدواء بالمجان. بدأت الكهرباء تدخل قرية وراء الأخرى، كما تم تدعيم أجهزة الثلاجات والتليفزيونات حتى أصبح فى مقدور الجميع أن يحصلوا عليها. ارتفع مستوى المعيشة وانخفضت نسبة البطالة. وأعلنت الحكومة أن محاربة الأمية هى هدفها الرئيسى.

وفجأة أصبح العراق دولة يشار لها بالبنان بين دول الشرق الأوسط. وعاد كثيرون يحلمون بالمستقبل، وفاقت شعبية حزب البعث وعدد أعضائه كل التصورات.

كان الجميع يعلمون أن صدامًا له مساوئه أيضا، ولكن العراق كان فى آخر الأمر على الطريق السليم، أو ربما لا؟

كان طه ياسين رمضان يقوم بتكليف من صدام بجزء كبير من التخطيط الاقتصادى. كانت خبرته السابقة كموظف فى أحد البنوك فى الموصل وإتمامه لتعليمه الثانوى فى المدرسة الثانوية فى مسقط رأسه عوامل جعلت كفته ترجح فى مقابل كفة كلّ من عزة إبراهيم الدورى وعلى حسن المجيد اللذين لم يحصلا على حظ وافر من التعليم، وهما اللذان كانا أكثر الناس قربا لنائب الرئيس.

ولد عزة إبراهيم فى عام ١٩٤٢، وكان والده يعمل بائعا لقوالب الثلج فى مدينة تكريت.

وربما لم يقرأ عزة إبراهيم شيئا فى حياته سوى القرآن الكريم!

كان هذا الأمر ينطبق أيضا على على حسن المجيد، وهو ابن عم صدام من قرية العوجة بالقرب من تكريت. كانَ يكبر عزة إبراهيم بعام، ونجح فى عمله كعسكرى مهمات على دراجة بخارية فى الجيش قبل أن يدخل دائرة المقربين حول ابن عمه الذى أصبح فى أثناء ذلك هو الحاكم الناهى الحقيقى فيما يتعلق بالعراق وإيراداته الجديدة الهائلة من البترول.

عندما تدفقت أموال البترول على البلاد، تلقيتُ الأوامر بتوفير كل ما يستلزمه مستشفى الواسطى من تجهيزات وأدوية وأجهزة. قام وزير الصحة رياض إبراهيم بإرسال منشور إلى جميع المستشفيات يطالبهم فيه بإعداد قوائم بمتطلباتهم؛ فعلى ما يبدو لم تعد هناك أية قيود على الواردات عبر قنوات الشراء الحكومية.

وبالرغم من ذلك، لم تكن هناك خطة عامة لتطوير القطاع الصحى آنذاك، فقد كان كثير من مديرى المستشفيات والأطباء يشترون المعدات و الأجهزة الخاصة بالتحاليل وأجهزة العلاج بالإشعاع والتى لم يكتب لها أن تستخدم أبدا لأنه لم يكن فى العراق من يمكنه استخدام وصيانة هذه المعدات من المتخصصين من فنى المعامل أو مهندسى التكنولوجيا الحيوية أو الممرضات.

ربما لم يكن الأمر يبدو أفضل من ذلك فى المجالات الاجتماعية الأخرى؛ فكانت

الاستثمارات التى تبلغ قيمتها المليارات تضيع هباء لأن مستوى التخطيط والتنفيذ كان سيئا للغاية. وكان الأمر يرجع فى كثير من الأحوال إلى أن الموظفين ذوى الخبرة الكبيرة فى الهيئات قد عُزلوا من مناصبهم وحل محل معظمهم أناس من تكريت ممن ينتمون إلى قبيلة نائب الرئيس ويخضعون له، وبذلك فإنهم يستوفون الشرط الأهم للحصول على وظيفة!

وعلى سبيل المثال كان برزان - الأخ غير الشقيق لصدام - مسئولا عن تكوين ورئاسة جهاز المخابرات العراقية. وكان عدنان خير الله، وهو ابن خير الله طلفاح وابن خال صدام، قد عين وزيرا جديدا للدفاع. وكان علاوةً على ذلك صهر نائب الرئيس، حيث كان صدام قد تزوج أخته ساجدة فى بداية الستينيات عند عودته من المنفى فى مصر. وكان عدنان خير الله هو الآخر متزوجا من إحدى بنات البكر.

وشيئا فشيئا بدأت تتضح معالم هذا النظام الأسرى القائم على الحميمية القبلية، والذى كتب له أن يمسك بمقادير حكم بلادنا فى الثلاثين عاما السالفة إلى حد بعيد.

كانت هناك أصوات داخل حزب البعث ترى أنه يجب أن يوضع حد لنفوذ صدام، لكنهم لم ينجحوا فى لمّ شملهم قبل فوات الأوان، فقد سيطر نائب الرئيس على الجيش أيضا.

كان معظم الضباط راضين عن صدام وعن وزير دفاعه الجديد. فقد كانت الإيرادات الهائلة للنفط التى كانت فى نهاية السبعينيات ما تزال تتدفق على البلاد لا يقتصر إنفاقها على إقامة الشوارع ومحطات الكهرباء وخطوط التغذية بالتيار وغيرها من مشروعات البنية التحتية المدنية، وإنما كان معظم هذه الإيرادات ينفق على الأسلحة؛ فقد صرح لواءات الجيش وبعض الضباط برتبة عقيد - وقد رُسمت الابتسامة على وجوههم - أن صدامًا وعدنان خير الله قد قاما بتسليح الجيش والسلاح الجوى كما لم يحدث قبل ذلك فى التاريخ الحديث للعراق؛ فقد أتت الدبابات ومركبات نقل الجنود المدرعة والمدافع والطائرات المقاتلة والطائرات قاذفات القنابل من الاتحاد السوفييتى كجزء من اتفاقية للصداقة والتعاون بين الحكومتين فى بغداد وموسكو. وقد دخلت فرنسا اللعبة مثل الاتحاد السوفييتى وقامت ببيع الطائرات المقاتلة والمروحيات للعراق، وحتى الأجزاء التى كانت تنقص العراق لبناء أول مفاعل نووى له، فقد

وفرتها باريس دون أن تسأل عن مجالات استخدام هذا المفاعل، أو تتأكد من النوايا الفعلية لاستخدامها.

وفي منتصف صيف عام ١٩٧٩ ضرب صدام ضربته.

في السادس عشر من يوليو أعلن في الإذاعة والتليفزيون أن اللواء البكر قد تنحى «لأسباب مرضية»، وأن صدام حسين التكريتي أصبح الرئيس الجديد للعراق ورئيس مجلس قيادة الثورة.

وعُين عزة إبراهيم الدوري نائبا للرئيس ورئيسا ثانيا لمجلس قيادة الثورة.

وسُجلت هذه المعركة الحاسمة من معارك صدام على شريط فيديو، ففي قاعة الخلد التي كانت تعج بالحاضرين حتى المقعد الأخير فيها، اجتمع الثقات من أعضاء حزب البعث وكذلك أعضاء مجلس قيادة الثورة لمؤتمر قطري طارئ من جديد، وكان ذلك بعد مرور أسبوع من استيلاء صدام على السلطة.

وبعدما طلب صدام من الأمين العام للحزب، عبد الحسين المشهدي، أن يتولى إلقاء الكلمة، «اعترف» بأنه كان يتآمر هو وزملاؤه منذ أعوام طويلة على إسقاط البكر والنظام الحاكم، وأعلن أن هدفهم كان الوحدة مع سوريا وأن الرئيس حافظ الأسد كان يقدم لهم النصيحة.

وقد أظهر التسجيل الذي عرضه عليّ صديق لي كيف تُوج هذا «الاعتراف» المدبر بطلب الأمين العام أن يسمح له بذكر أسماء زملاء الحزب المشاركين معه.

«من يسمع اسمه، يقف ويغادر القاعة»، ذلك ما قاله صدام.

بدأ المشهدي يقرأ.

وعندما انتهى من ذلك، كان قد قام أكثر من ستين من أعضاء الحزب البارزين. حاول بعضهم أن يتكلم ليؤكد براءته قبل أن يؤخذ من القاعة، لكن لم تكن هناك فرصة لذلك؛ فقد أخذ كثير منهم بالقوة. كان برزان - الأخ غير الشقيق لصدام - قد زج بضباط المخابرات في كل مكان في القاعة ليتمكنوا من التدخل إذا لزم الأمر.

في أثناء هذا العرض كان صدام يدخن السيجار. وكان غير مرة يخرج منديلا من



جيبه ليمسح به دمعة نزلت على خده عندما يؤخذ أحد المتآمرين القريبين إلى نفسه قربا شديدا، وكان كثير منهم أعضاء فى مجلس قيادة الثورة ومن الأعضاء المؤسسين لحزب البعث فى العراق. وفى النهاية تحدث على حسن المجيد ـ الذى كان فيما قبل عسكرياً مهمات على دراجة بخارية ـ وصاح:

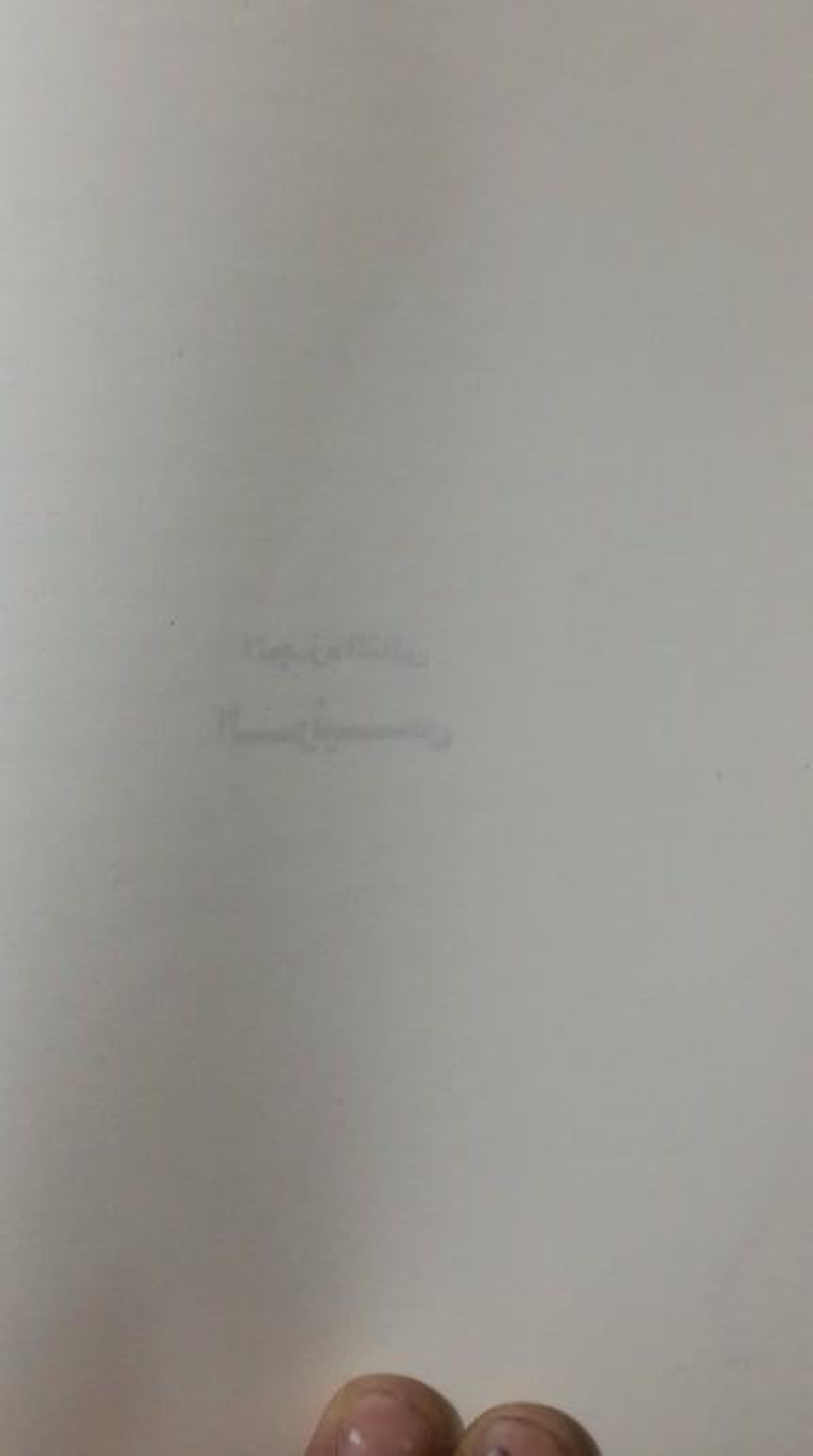
«يجب أن تقطع رأس الأفعى»!

كان يقصد مفكر الحزب عبد الخالق السامرائى الذى كان لا يزال فى السجن منذ أن اتهمه طه ياسين رمضان أنه قد اشترك مع ناظم كزار فى محاولة الانقلاب فى مطار بغداد.

«صبرا جميلا»، ذلك ما قاله صدام مضيفا: «لم يأت الدور عليه بعد».

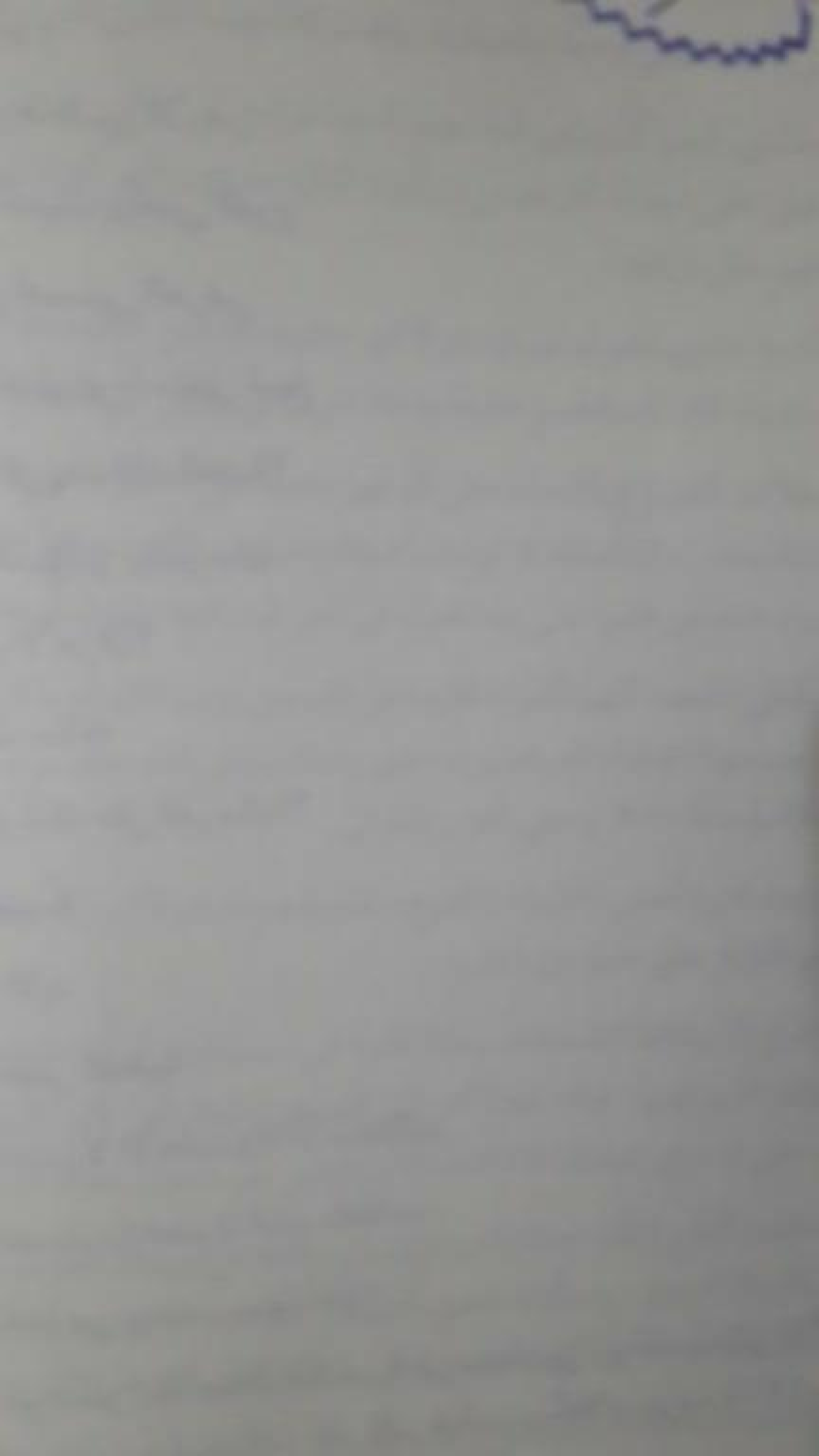
حكم بالإعدام على واحد وعشرين من الستين مشاركا فى المؤتمر القطرى الذين أخرجوا من قاعة الخلد، وكان من بينهم عبد الحسين المشهدى الذى كان قد وُعد بإعفائه من العقوبة، ونُفذ فيهم حكم الإعدام. أما الباقون فقد حكم عليهم بالسجن لسنوات طويلة. وكان السامرائى ممن راحوا ضحية عمليات الإعدام الديمقراطية كما كانوا يطلقون عليها.

لقد تبدت الديمقراطية فى أبهى صورها فى تشكيل فرقة الإعدام. لم يُختَرْ غير مندوبى الحزب البارزين الذين كانوا قد اشتركوا فى المؤتمر، إذ لم يتردد أحدهم لحظة فى إطلاق النيران على أصدقائه القدامى وزملائه فى الحزب!



الجزء الثانى

الـــرئيـــس



الفصل الخامس

رقصة المـــوت

فى حدود الساعة الخامسة صباحا من يوم الثالث والعشرين من سبتمبر من عام ١٩٨٠ أيقظنى صوت انفجار هائل . كنت قد قضيت الليل فى مستشفى الواسطى فى بغداد، فقفزت من سريرى ونظرت من النافذة لأرى النيران والدخان الأسود فوق حى زيونة، وهو من الأحياء الخاصة بالجيش . كانت بشائر أشعة الشمس قد بدأت على استحياء تشق الظلام فى هذا الوقت المبكر من الفجر، حيث انعكست ذهبية لامعة على أجنحة قاذفات القنابل التى كانت تحلق فوق هذا الحى من المدينة وتلقى بأحمالها المميتة .

كان أول خاطر يخطر لى هو أنها محاولة انقلاب، ولكننى رأيت بعد ذلك أن الطائرات إيرانية . ففى اليوم السابق كان صدام حسين قد أمر السلاح الجوى من جهة، والجنود بدباباتهم من جهة أخرى، أن يتوغلوا فى الأراضى الإيرانية فى الجبهة الشمالية والجنوبية فى شرق البلاد والتى يبلغ طولها خمسمائة كيلومتر .

ها هو ذا إذن رد طهران .

بعد ذلك بعشرين دقيقة وصلت أولى سيارات الإسعاف لتنقل الموتى والجرحى . كان أول الضحايا ولد فى الخامسة من عمره، كان قد قضى الليلة مع والديه وإخوته الكثيرين فوق سطح المنزل ليستمتعوا بنسمات الخريف الباردة . كانت رأسه قد فصلت عن جسمه، لا يربطها به سوى بعض الجلد المغطى بالدماء والطين والغبار . وكان والده ووالدته وأخته قد لقوا أيضا حتفهم بعدما أطاح بهم الضغط الشديد الناجم من انفجار قنبلة بالقرب من السطح أطاح بهم إلى حديقتهم الصغيرة . كان منظر الدم المتجلط

والطين الأحمر والغبار يستدعى فى النفس صورة التماثيل السومرية من الطين المحروق.

فى الراديو الذى أدرته على برنامج الموجة القصيرة «صوت أمريكا» كان أحد المحللين فى وكالة المخابرات الأمريكية يعلق على اندلاع الحرب. ما زلت أتذكر أنه قد تنبأ بصراع طويل، دموى لأقصى الحدود، مضيفا أن هذا الصراع سيستمر لسنوات طويلة ولن يخرج منه أى من العراق أو إيران مكللا بالنصر.

لا أعتقد أن محلل وكالة المخابرات الأمريكية كان يدرك أنه مُحقٌ فيما قاله.

أذهلتنى مفاجأة الحرب تماما. لكن فى واقع الأمر ربما كان علىّ أن أستشعر أن شيئا ما سيحدث؛ فقبل ذلك بستة أشهر كنت عضوا فى لجنة طارئة كانت مهمتها التحرى عن مدى حاجة المستشفيات المدنية والعسكرية فى العراق إلى الأدوية والمعدات وغيرها من التجهيزات الطبية. كان نصف أعضاء اللجنة من وزارة الصحة والنصف الآخر عينته وزارة الدفاع، وكان يتكون من الضباط والأطباء على حد سواء، وحتى عندما طُلب منا بعد عدة أشهر من تشكيل اللجنة أن نعطى بيانات محددة عن مدى النقص فى المحاليل وبلازما الدم ومراهم الحروق والمضادات الحيوية الضرورية فى حالة حدوث «كارثة وطنية» قد تخلف من الجرحى ما قد يصل إلى عشرة آلاف جريح، حتى عندها لم أدرك أننى أشترك فى الإعداد للحرب ضد جيراننا!

علمنا أن شط العرب هو السبب وراء هجوم القوات المسلحة العراقية على إيران. ففى الشمال من مدينة البصرة يلتقى نهرا دجلة والفرات ليكونا هذا النهر العظيم الذى يواصل سيره لمسافة مائة كيلومتر حتى يصب فى الخليج العربى لتكوّن بذلك آخر ثمانين كيلومترا من مجراه الحدود بين العراق وإيران. يمثل شط العرب المنفذ الوحيد للعراق على الخليج العربى. ويحكى أن السندباد فى «ألف ليلة وليلة» قد أبحر من شطّ العرب فى رحلاته الأسطورية.

حارب العرب فى الغرب والإيرانيون فى الشرق لمئات السنين من أجل السيطرة على هذا النهر المهم استراتيجيا والمتعرض لظاهرة المد والجزر، والذى يشهد حركة ملاحية نشطة. كانت الحدود بين العرب والإيرانيين تسير فى الجزء الأكبر من النهر بمحاذاة ضفة النهر فى الجانب الإيرانى.



فى شهر مارس من عام ١٩٧٥ أعلن فى اجتماع الوزراء فى منظمة الأوبك فى الجزائر أن صدام حسين والشاه الإيرانى محمد رضا بهلوى قد اتفقا على تعديل الحدود لتسير بمحاذاة أعمق نقطة فى عرضه.

كانت إيران تساند حينها بالمال والسلاح زعيم الأكراد مصطفى برزانى ومحاربيه المعروفين باسم البشمرجة الذين قاموا بتمرد جديد ضد القوات الحكومية فى شمال العراق، وذلك بعد أن ساد جو من الهدوء النسبى فى المناطق الجبلية، وهو ما يرجع الفضل فيه إلى اتفاقية مهمة بين صدام وبرزانى فى عام ١٩٧٠، حيث اتفق كل من الطرفين على أن يحصل الأكراد فى خلال الأعوام الأربعة التالية على ما يشبه الحكم الذاتى الكامل. لكن كالمعتاد كان هذا وعدا زائفا، ففى مارس من عام ١٩٧٤ انتهت المهلة المحددة لتشكيل حكومة الحكم الذاتى دون أن يمنح صدام الأكراد استقلالهم الذى كان قد وافق عليه كتابيا.

فى بادئ الأمر لم يجد مصطفى برزانى أية صعوبات فى أن يحرك الشاه الإيرانى الذى تجمعه علاقة طيبة بالولايات المتحدة الأمريكية إلى مساندة ثورة الأكراد التى بدأها بعدما تبين له أنه قد خُدع من قبَل صدام. كانت واشنطن لا تزال تتابع تقرب العراق من الاتحاد السوفيتى بعظيم الارتياب، لذا لم يكن مضرا بالمصالح الغربية أن تسهم ثورات جديدة وحرب أخرى فى إضعاف النظام فى بغداد اقتصاديا وسياسيا. ذلك ما كانت تعتقده كل من وكالة المخابرات الأمريكية والبيت الأبيض.

لكن الشاه طعن الأكراد فى ظهورهم عن طريق اتفاقية الجزائر فى عام ١٩٧٥، فلم يعد المتمردون يحصلون على السلاح والمال، وذلك عندما أعلن صدام موافقته على تحديد الحدود الجديدة فى وسط شط العرب. عندها وجد برزانى نفسه مجبرا على وقف الأعمال القتالية إلى أجل مسمى، وهرب إلى إيران حيث كان يقيم هناك مائة ألف لاجئ كردى، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ.

كان من المقرر أن تنهى اتفاقية الجزائر التى وقَّع عليها كل من العراق وإيران الصراع بين الشعبين الشقيقين إلى الأبد. ذلك ما ورد فى الاتفاقية. لكن لم تمر سوى أعوام قلائل حتى أخذت الاتهامات تنهمر من جديد بسبب انتهاك الحدود فى شط العرب، سواء من جانب بغداد أو من جانب طهران. وفى أثناء ذلك تم إسقاط الشاه المريض

بالسرطان، واستولت الأصولية الشيعية بعد ثورة ١٩٧٩ على السلطة بقيادة آية الله روح الله الخمينى.

ولم تتحسن العلاقة بين «الشعبين الشقيقين» عندما عاد خمينى يساند بالمال والسلاح برزانى والبشمرجة الذين بدءوا تمردا من جديد فى المناطق الكردية فى شمال العراق.

كانت الأخبار المستمرة حول انتهاك إيران للحدود فى شط العرب أو فى أماكن أخرى بمحاذاة خط الحدود الطويل تلقى بظلالها على فصل الصيف السابق لاندلاع الحرب، فقام الجيش العراقى ببعض الأعمال الانتقامية فى الأراضى الإيرانية ردا على ذلك. ولكننى لم أكن أرى - مثلى مثل معظم العراقيين - أن هذه المناوشات من شأنها أن تصبح حربا حقيقية.

إذن بدأت الحرب.

أعلن الجانب الرسمى أن انتهاكات إيران المستمرة للحدود جعلت شن هجوم على إيران أمرا لا مفر منه، لكننا كنا نظن أن هناك أسبابا أخرى خفية لهذا الاندلاع الفجائى للحرب.

وعند التأمل العميق يمكن أن نفهم بسهولة أن خمينى وأتباعه كانوا يسببون الخوف والرعب لصدام والنخبة السنية المحيطة به، حيث كان معظم العراقيين فى آخر الأمر شيعة مثلهم مثل الأصوليين الذين استولوا على السلطة فى إيران. ولم يكن أحد يعلم إذا ما كانت الثورة الإسلامية يمكن أن تمتد إلى العراق العلمانى أم لا؟

كان نزار الخزرجى واحدا من أهم قادة صدام العسكريين، حيث عين رئيسا لأركان الحرب فى نهاية الحرب مع إيران التى امتدت ثمانية أعوام. كان نزار لا يخفى على أبدا أن الرئيس كان يرى أن الهجوم على إيران أمر ضرورى ليتقى به هجوما مستقبليا من إيران. «كان لابد من الهجوم قبل أن يتمكن آية الله ومن معه من الموالى أن يستعيدوا القوة الحربية الكبيرة للجيش الإيرانى الذى كان قد شهد ضعفا كبيرا فى صفوفه بسبب الفوضى التى عمت بعد سقوط الشاه وبعد عمليات التطهير التى قام بها الضباط بين بعضهم وبعض. كانت نصيحة المخابرات الحربية العراقية لصدام واضحة»

كانت العلاقات بين الرجلين القويين فى بغداد وطهران قد تجمدت بعدما ألقى بخمينى فى شهر أكتوبر من عام ١٩٧٨ خارج مدينة النجف فى العراق ـ المدينة المقدسة لدى الشيعة ـ حيث كان آية الله يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاما. كان قبلها بأربعة عشر عاما قد عبر الحدود إلى العراق ونزل بالقرب من ضريح الإمام على بعدما احتدم الخلاف بينه وبين الشاه، واضطر إلى الذهاب للمنفى.

كان الشاعر والأديب الذى تقلد منصب وزير الإعلام والثقافة، شفيق الكمالى، قد كُلف بإبلاغ خمينى برسالة صدام التى فحواها أن استمرار بقاء آية الله فى النجف من شأنه أن يصبح خطرا على أمن العراق ومصلحته القومية، وأنه بالنظر إلى الحالة غير المستقرة والمتوترة فى إيران، وحفاظا على العلاقة بين البلدين، عليه أن يرحل.

دخل الكمالى ومعه وفد كبير شقة الخمينى فى المدينة المقدسة. وقبل أن يسمح لهم بالدخول على الخمينى، ظهر سكرتيره الخاص وأخبرهم أن آية الله الخمينى لا يرغب فى مصافحة أحد، وأن عليهم أن يكتفوا بتحية الإسلام المعروفة «السلام عليكم». وعندما دخلوا الحجرة التى يستقبل فيها الخمينى ضيوفه، كان الخمينى يجلس مع المترجم على الأرض. قال الكمالى: «السلام عليكم»، لكن آية الله رد عليه السلام ببرود ولم ينهض أيضا، فكان على أعضاء الوفد العراقى أن يجلسوا هم أيضا على الأرض، قبل أن يصرح وزير الإعلام والثقافة برغبة صدام.

كان الخمينى يحملق فى سقف الحجرة أو فى مترجمه أو سكرتيره بشكل ملفت للانتباه، فلم يكن لينعم على وزير الإعلام أو أى من المبعوثين من بغداد بنظرة واحدة. كان يجيب على الأسئلة بنعم أو بلا، أو يترك مهمة الإجابة عنها لسكرتيره الخاص. ولم ينظر الخمينى إلى الرسل القادمين من بغداد إلا بعد أن انتهى الحديث الذى لم يدع فيه الكمالى مجالا للشك أنه لا يوجد حل آخر سوى أن يغادر الخمينى العراق فى أقرب وقت ممكن.

«كان ينظر إلينا الواحد تلو الآخر دون أن ينبس بكلمة، كان له حضور قوى. كنت أشعر كما لو كنت أقف فى مهب محرك نفاث عندما كان يصوب عينيه نحوى. بدأت أرتعد»، ذلك ما رواه لى الكمالى فيما بعد مضيفا: «كان لدينا جميعا نفس الشعور عندما خرجنا من عنده».

كان شهر رمضان المعظم قد بدأ عندما بدأ آية الله وأتباعه يتحركون من النجف إلى البصرة ليعبروا من هناك الحدود إلى الكويت. غير أنه لم يسمح له بالعبور فى أول محاولة بسبب بعض المشاكل المتعلقة بالتأشيرة الخاصة به، فاضطر إلى الرجوع وقضاء الليل فى فندق قريب من مطار المدينة.

كان مدير الصحة فى المحافظة آنذاك، نزار شاهبندر، عضوا فى لجنة مهمتها الإشراف على كل شىء يخص فترة إقامة الخمينى والاعتناء به. «كان الخمينى غاضبا وثائرا بشكل جنونى»، ذلك ما قاله لى شاهبندر فيما بعد. لم يكن يرغب فى التحدث مع أحد، كما امتنع عن تناول وجبة الإفطار فى الفندق. لم يتناول الخمينى شيئا من الطعام إلا عندما عبر الحدود إلى الكويت فى مساء اليوم التالى، حيث أراد البقاء هناك إلى أن يستقل الطائرة إلى فرنسا.

وربما لم يكن غريبا على صدام، الذى كانت تنقل إليه بالطبع كل التفاصيل - أن يتوقع وفق تصوراته البدوية أن الخمينى سوف ينتقم لنفسه إن آجلا أو عاجلا. كان لابد على صدام إذن أن يسبقه.

تحولت مستشفى الواسطى إلى مستشفى عسكرى صرف فور نشوب الحرب. ولأننا كنا متخصصين فى جراحة التجميل وإعادة التأهيل، فإن أصعب حالات الجرحى وأكثرها تعقيدا كانت ترسل من الجبهة إلينا. ويتضح من ملفات المرضى أننا قد قمنا بأكثر من اثنين وعشرين ألف عملية جراحية فى هذا المستشفى فى أثناء الأعوام الثمانية التى استمرت فيها الحرب. أما حجم الموت والمعاناة فإنه لا يمكن لأحد أن يقدر أبعاده إلا إذا كان هو نفسه قد شهد مثل هذه المأساة الإنسانية العظيمة لفترة طويلة.

ما زالت بعض الحالات المأساوية تسلبنى فى الليل نومى، مثل حالة الملازم ذى الواحد والعشرين ربيعا الذى أتى إلينا فى خريف عام ١٩٨٢ من الجبهة مباشرة إلى مستشفى الواسطى ومعه خمسة عشر آخرين من الضباط والجنود المصابين. كانوا قد احتموا تحت شاحنة كبيرة عندما تعرضوا لوابل من قصف المدفعية الإيرانية المكثف، غير أن الشاحنة قد قصفت على الفور. بترت شظية كبيرة الذراع الأيمن للملازم تماما.

كان يعطى انطباعا بأنه أصغر من سنه كثيرا، وكان يبدو أنه يتوق لحياة عادية مثل أى شاب فى عمره، غير أن ذراعه التى ضاعت سلبته كل أمل فى المستقبل.

حاولت أن أسرّي عنه.

«لقد كنتَ شجاعا وقدمت كثيرا لبلادنا. ستحصل الآن على وسام تقديرا لشجاعتك، ويمكنك أن تحمله طيلة حياتك فى فخر»، هذا ما قلته.

نظر إلى عينى ثم أعقبها بنظرة إلى ذراعى الأيمن. وهنا لم يعد بمقدور الملازم الشاب أن يمسك دموعه.

فهمتُ قصده.

كان الجيش العراقى قد تمكن فى بداية الحرب من إحراز بعض النجاحات، غير أن الإيرانيين فى خلال عام ١٩٨٢ كانوا قد دحروا قوات صدام المهاجمة. وسعت دول عربية عديدة للتوصل إلى وقف إطلاق النار، لكن الخمينى الذى كان مزهوا بالانتصارات التى أحرزها فى معظم الجبهات قرر ألا يوقف القتال الذى تحول إلى حرب استنزاف كبدت الجانبين خسائر فادحة.

ومع الوقت تم استدعاء جميع الرجال الذين كانوا قادرين على حمل السلاح والذين كان يمكن الاستغناء عنهم فى وظائفهم الأساسية، ففقدت الأسرة وراء الأخرى عائلها، وعاش كثيرون فى فقر مدقع.

حكى لى أحد أقربائى عن أسرة كانت قد انتقلت فى أثناء الحرب من البصرة إلى إحدى الضواحى فى الجنوب الشرقى من بغداد. كانت الأسرة تتكون من رجل وزوجته وطفل رضيع يبلغ من العمر ثلاثة أشهر، وما إن انتقلوا إلى تلك الضاحية حتى كان مندوب حزب البعث هناك قد أتى إليهم وطلب من الرجل أن يسجل نفسه بأقصى سرعة ممكنة للمشاركة فى الحرب مع قوات الجيش الشعبى.

«أرجوك، كن كريما وساعد زوجتى»، هكذا توسل الشاب إلى الرجل قبل أن يذهب للحرب، فهو لم يكن يعرف أحدا فى بغداد.

بعد ذلك بأسبوعين رأى الجيران زوجته تجلس على السلم باكية، فلم يكن لديها ماء أو أى شىء يؤكل فى شقتها. كان الطفل قد فارق الحياة. ولم تجرؤ الأم على أن تغادر المنزل وتطلب المساعدة.

تولى الجيران دفن الطفل الرضيع واهتموا بالأم الشابة القادمة من البصرة، وبعد ذلك بشهر وصل نعش الزوج من الجبهة.

كان صدام يدرك أن عليه أن يخفف من المصير المر للحرب، فشرع يوزع السيارات على أسر الجنود الذين سقطوا فى الحرب.

حصلت كل أسرة على سيارة جديدة ومبلغ عشرة آلاف دينار، وهو ما كان يعادل آنذاك ثلاثين ألف دولار أمريكى. وكان نادرا أن يتم تسليم السيارة ودفع مبلغ التعويض بلا مشاكل. ففى حالة إذا ما كان المتوفى متزوجا، فقد كانت اللوائح تنص على أن زوجته هى المستحقة، وهو الأمر الذى كان والدا المتوفى وإخوته نادرا ما يقبلونه. كانت هذه الخلافات كثيرا ما ينجم عنها الضرب وإطلاق النيران والقتل إذا ما استعانت أرملة المتوفى بوالدها وإخوتها وأبناء أخواتها ليساعدوها!

كذلك فقد واحد من الممرضين فى مستشفى الواسطى ولده فى جبهة القتال. ما زلت أراه أمامى. كان منهارا تماما على الأرض من شدة الحزن بحيث لا يمكنك مواساته. لم يمر سوى أسبوعين إلا وكان يقود سيارة تويوتا كورونا جديدة وقد لطّخ أبواب السيارة بالدماء، فقد ذبح خروفا وسكب دماءه على السيارة ليدفع عنها الحسد. وها هو ذا الأب يضحك الآن ملء شدقيه!

فى بادئ الأمر كانت توزع سيارات تويوتا كورونا يابانية الصنع. وعندما ارتفع عدد الضحايا، انخفض مستوى السيارات إلى السيارة فولكس فاغن باسات التى كانت تصنع فى البرازيل وتستورد من هناك. كانت السيارات تأتى إلى باب المنزل، غير أن معظم الأرامل والأسر لم تكن تستطيع قيادة السيارات.

وبالرغم من ذلك فقد كانت السيارات تستخدم على الفور، فتصاعد عدد الحوادث بشكل جنونى، وساهم عدد ضحايا حوادث المرور فى ارتفاع تلال القتلى. وقد سمعت أن ذلك كان أحد الأسباب التى جعلت صدام يوقف مشروع «سيارة فى مقابل الابن» فى وسط الحرب.

تم أيضا استنفار ما عرف بالجيش الشعبى فى بدايات الحرب المبكرة. كانت هذه الميليشيا يسيطر عليها حزب البعث، وكانت قد أسست فى عام ١٩٧٠ لتتولى التدريب



العسكرى الأساسى لكوادر الحزب، فمثلت بذلك ثقلا مضادا للجيش النظامى فى حالة تدبير ضباطه لمحاولة انقلاب.

فى خريف عام ١٩٨١ طُلب من أعضاء حزب البعث فى جميع أرجاء العراق أن يكونوا قدوة لغيرهم وأن يتطوعوا للخدمة العسكرية فى الجيش الشعبى. سرى هذا الأمر أيضا على ممثلى الحزب البارزين، غير أن كثيرا منهم رفض تنفيذ الأمر بدعوى أنهم ليس بمقدورهم الذهاب إلى الجبهة لأسباب مختلفة، صحية أو شخصية على حد سواء.

كان الدكتور هاشم جابر واحدا من هؤلاء. كان أستاذا فى طب الأسنان ورئيسا لجامعة بغداد، وكان يعانى منذ وقت طويل من متاعب فى الكلى ومن ضغط الدم المرتفع. وكانت عيادته الخاصة تقع بجوار عيادة جراحة التجميل الخاصة بى. كنا زملاء على علاقة جيدة وأصدقاء. وفى ديسمبر عام ١٩٨١ تلقى الخبر بأن عليه أن يسجل اسمه للخدمة العسكرية فى قاعة الخلد بجوار القصر الجمهورى مع أربعمائة وعشرين عضوا من أعضاء حزب البعث ذى النفوذ الكبير.

كان صدام رقيقا، وكان صوته حنونا عندما افتتح الاجتماع.

«فى بادئ الأمر أود أن أدعو كل هؤلاء الذين ليسوا فى حالة صحية جيدة أو الذين يشعرون بأنهم منهكو القوى أو لديهم غير ذلك من الأعذار القهرية التى تمنعهم من الانضمام لصفوف الجيش الشعبى كغيرهم، أن يتفضلوا بالجلوس فى هذه القاعة إلى اليسار»، ذلك ما قاله صدام.

نفذ دكتور جابر ومعه مائتان وثلاثون من أعضاء حزب البعث ما طلب منهم. كان من بينهم عديد من نواب الوزراء وأعضاء كثيرون فى مجلس الشعب.

«هنا أعلن إقالتكم بلا سابق إنذار. لا أريد أن أراكم مرة أخرى فى حزب البعث»، ذلك ما قاله صدام.

وفى آخر الأمر أرسل هؤلاء الأعضاء البالغ عددهم مائتان وثلاثون إلى الجبهة.

كان من المقرر أن يعقد لقاء القمة لرؤساء حكومات دول عدم الانحياز فى عام ١٩٨٢ فى بغداد. تكلفت الاستعدادات مبالغ طائلة، فقد أمر صدام ببناء فندق جديد،

وهو فندق الرشيد، للمشاركين فى القمة من أكثر من مائة دولة. كما قام بشراء عدد كبير من السيارات المرسيدس الليموزين للتنقلات، وغير ذلك الكثير.

وبسبب الحرب والحالة الأمنية غير المستقرة فى بغداد، حيث كانت تتعرض المدينة بشكل مستمر للهجمات الإيرانية بالقنابل والصواريخ، أجلت القمة لمدة عام آخر وتقرر انعقادها فى العاصمة الهندية نيودلهى. فتفتق ذهن أحد الخبثاء من معسكر الرئيس عن فكرة استخدام السيارات المرسيدس الفاخرة الجديدة كهدايا للأكفاء من المهندسين والمعماريين والأطباء والمعلمين والكتاب والممثلين والنحاتين وغيرهم من ممثلى الثقافة لمكافأتهم على ما أسدوه من خدمات فائقة لوطنهم فى أثناء الحرب التى كانت لا تزال مستمرة.

طُلب منى أن أتوجه لأحد قصور صدام لأستلم مكافأتى المتحركة على عجلات، وذلك ليس بوصفى فنانا، وإنما بوصفى طبيبا بعد أن قابلنا صدام، وكنا خمسة وعشرين طبيبا من جميع أنحاء العراق، لتكريمنا بسبب معالجتنا للجرحى. أدهشنى ذلك بعض الشىء لأن السكرتير الخاص بصدام، أرشد ياسين، كان فى الأعوام السابقة كثيرا ما يتصل بى تليفونيا أو يأتى إلىَّ ليخبرنى كيف أن الرئيس معجب بإنتاجى الفنى الذى لفت انتباهه فى برامج التحقيقات التليفزيونية، أو فى المقالات النقدية فى الصحف والمجلات.

كان ياسين طيارا ولواء فى السلاح الجوى، وكان هو نفسه مهتما اهتماما كبيرا بالفن والتحف، لكن هذا الاهتمام لم يكن مجردا تماما من الأغراض الشخصية. كان قد عزل من منصبه كسكرتير شخصى لصدام عندما نُشرت فى الجرائد مقالات فحواها أن العديد من التحف العراقية النادرة التى يبلغ عمرها آلاف السنين قد سرقت وهربت خارج البلاد وبيعت بالملايين فى السوق السوداء الدولية للآثار. كان اسم اللواء قد ذُكر فى هذه الفضيحة التى أنكرها اللواء أرشد عدة مرات، ولكن لأنه كان متزوجا من أخت صدام، نوال، فقد قدر له أن يبقى على قيد الحياة، بعد عزله عن منصبه.

كنا زهاء خمسة وعشرين طبيبا ممن أمروا بالذهاب إلى قصر الرئاسة ليتسلم كلٌّ منا واحدة من السيارات الباقية كمكافأة لنا على خدماتنا فى الحرب. كان ذلك بعدما تقرر عدم انعقاد قمة دول عدم الانحياز لعام ١٩٨٢ فى بغداد. وقد أكد صدام على أهمية

الدور الذى قمنا به «بالنسبة للجنود والضباط فى الجبهة، وبالنسبة لأسرهم الذين كان عليهم أن يتركوها ليحاربوا العدو.

إن الرجال من أمثالكم هم الذين سيخلدون فى تاريخ العراق، وليس رجال الأعمال وأصحاب الملايين الذين لا يعنيهم سوى التربح».

ثم سلم على كلٍّ منا وصافحنا باليد، كما أخذت لنا صورة جماعية بجانبه. وعندما وصل إلىّ، توقف بعض الوقت أمام اسمى.

سألنى: «هل أنت بالصدفة الفنان علاء بشير؟».

«شىء لا يعقل»، قالها صدام عندما أجبته إنه أنا. «لا تنصرف بعد ذلك لكى يمكننا التحدث سويا».

بعدما انصرف بقية الأطباء، أخذ صدام يثنى على لوحاتى وتماثيلى أيما ثناء. لم يكن يعنيه فى المقام الأول أننى أنا وزملائى فى مستشفى الواسطى قد حققنا بعد اندلاع الحرب تقدما رائدا، وطورنا أساليب جديدة فى مجال جراحة التجميل وجراحة إعادة التأهيل، وأن أبحاثنا قد قُبلت ونشرت فى الصحف العالمية البارزة.

«طالما قرأت أن أطباء فى أوروبا كانوا فى الوقت نفسه من مشاهير الكتاب والموسيقيين والمثّالين. وعلى ما يبدو فإن لدينا الآن لأول مرة فى تاريخ العراق جراح فذ وفنان عظيم فى نفس الوقت. أنا سعيد وفخور أن يكون فى بلادنا شخص مثلك». وبعد ذلك بثلاثة أيام اتصل بى أحد العاملين فى مكتب صدام وأخبرنى أنى قد صرت عضوا فى فريق الأطباء الخاص بالرئيس.

عند التحاقى بفريق الأطباء الخاص بالرئيس، كان الفريق يتكون من عشرة من الأطباء المتخصصين الذين يتولون علاجه هو وأفراد أسرته القريبين منه. وبالتدريج أصبحنا من عشرين إلى خمسة وعشرين طبيبا. كان صدام يهتم دائما اهتماما بالغا أن يدفع قيمة الاستشارات والخدمات التى طلبها، إذ لم يكن يحب أن يكون مدينا لأحد بشىء. كان صدام يعبّر عن احترامه لى وتقديره فى كل مناسبة ألتقيه فيها. كان يحمينى من كل الذئاب المحيطة به، والذين كان ارتيابهم وعدم رضائهم عن أن احترامى لدى الرئيس يزداد يوما بعد يوم. كان ذلك له قيمة الذهب.

كان هناك كثيرون لم يواتهم الحظ مثلى ؛ ففى أثناء الحرب كانت قوات الأمن والمخابرات تقتفى أثر من يعارض الرئيس ونظامه أو من تظن فيه ذلك . وكانت هذه الأعمال تزداد ضراوة يوما بعد يوم . كان فايق ولائق وصادق ثلاثة من أقربائى ، وقد تجاوز كلٌ منهم العشرين من عمره . أخذوا ذات ليلة واتهموا بأنهم من المتضامنين مع حزب الدعوة الإسلامى المحظور . لم يكن هناك حديث عن محاكمة لهم أو لغيرهم من الآلاف المؤلفة من العراقيين الذين كانوا يوارون بعد إعدامهم فى المقابر الجماعية .

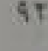
كان وزير الإعلام والثقافة ، الكمالى ، واحدا من قليلين للغاية على قمة الجهاز الحاكم ممن كانوا يحاولون الحد من أعمال التطهير هذه . كان واحدا من مؤسسى حزب البعث ، وكان عضوا فى القيادة القطرية . فى أحد اجتماعات المجلس تساءل الكمالى عما إذا كان من الصواب قانونيا أن تظل المخابرات مصرة على ما تقترفه من أعمال اعتقال وتعذيب للأبرياء من آباء وإخوة المتهمين من المعارضة التى لم تتمكن من إلقاء القبض عليهم . ثم قال : «إن هذا من شأنه أن يضر بسمعة الحزب والحكومة» . كان صدام ينظر إليه ولم يقل شيئا ، وبعد انتهاء الاجتماع أخذ صدامٌ الكمالىَّ جانبا .

«اسمع أيها الرفيق . إذا كنا نرغب حاليا ومستقبلا فى الاحتفاظ بالسلطة فى العراق ، فيجب أن نحكّم العقل وليس العاطفة» .

ولم يمر وقت طويل حتى جاء وزير جديد للإعلام والثقافة فى العراق . أما الكمالى فقد ألقى به فى السجن ، وكان يعانى من هزال شديد بعد إطلاق سراحه بعد بضعة أشهر . وقبل وفاته بفترة وجيزة حكى لى الكمالى عما كان يدور فى القيادة القطرية .

كانوا يتعقبون أناسا من جميع الطبقات ويقتلونهم دون تمييز . ذلك ما حدث للدكتور رياض إبراهيم أيضا . كان فى رأيى أفضل وأذكى وزير صحة فى العراق على الإطلاق . كان واحدا من الأعضاء الأوائل فى حزب البعث ، وقد ألقى القبض عليه فى عام ١٩٥٨ بعد المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس عبد الكريم قاسم فى بغداد ، حيث كان قد ساعد فى إخفاء الأسلحة التى استخدمها صدام حسين والمتآمرون معه فى محاولة الاغتيال . لكنه خرج من ذلك الأمر بعقوبة السجن فقط .

ولأن شأنه شأن كثيرين من الذين انضموا لحزب البعث ، كان رياض رجلا مخلصا



مستقيما. كان يؤمن بالأفكار الأساسية للحركة من تعاون بين الدول العربية وتقسيم عادل للأموال والثروات المعدنية. عرفته رجلا يهتم اهتماما حقيقيا بمصلحة الشعب العراقي. وقد منحته لقب الدكتوراه في الطب - والذي حصل عليه من إنجلترا - المقومات التخصصية الضرورية التي بسببها تقلد منصب وزير الصحة.

لكنه كان يحيا حياة خطرة. كان يسخر من غباء وعجز زملائه الوزراء، كما كان ينتقد هؤلاء الذين كانوا من الموافقين دائما في مجلس الشعب، ويتحدث عن الطرق الغريبة التي وصلوا بها لمناصبهم.

وفي يوم من أيام صيف عام ١٩٨٢ طُلب مني أن أذهب لوزير الصحة رياض إبراهيم في الوزارة. لم أكن أعرف سبب استدعائي، لكنني عندما دخلت عليه في مكتبه، قال لي إن اثنين من رجاله سوف يصطحباني عما قريب لرجل له مكانة مهمة جدا.

لم يصرح لي إبراهيم مَن يكون الرجل أو ما هو سبب المقابلة.

«لا تتردد في أن تقول رأيك عندما تقابله، فأنت غير مقيد بشيء»، ذلك ما أكده لي وزير الصحة.

أخذتني سيارة مرسيدس سوداء بزجاج غامق إلى بيت صغير واطئ في حي الجادرية. كان هناك من ينتظر قدومي. قُدم لي الشاي، وعلمت أن رئيس القسم المختص بسوريا في المخابرات هو الذي يرغب في إجراء هذا الاستجواب معي.

دخل على الفور في الموضوع.

«هناك سوري يقيم الآن في بغداد ونود أن نعيده إلى دمشق لينفذ عملية اغتيال هناك. لكن السلطات السورية تعرفه جيدا. لذلك نرجوك أن تغير ملامح وجهه تماما».

شكرته على ثقته الكبيرة في مهاراتي الجراحية، ولكني رفضت معتذرا.

«ليس بمقدوري أن أنفذ هذه الرغبة، لأنها ضد مبادئي الشخصية وضد تصوراتي عن أخلاق المهنة».

أجاب: «حسنا». «فلتنس هذا اللقاء ولا تبس بكلمة عنه لمخلوق أبدا».

فى صباح اليوم التالى توجهت إلى رياض إبراهيم وحكيت له عن هذا المطلب.

«هل كنت تعلم بما سيطلبونه منى؟»

«نعم»، أجاب رياض مضيفا: «وقد أوضحت لهم أنك لن تقوم بشىء من هذا القبيل أبدا. لذلك فقد قلت لك بالأمس على سبيل الاحتياط أنك حر فى التصرف كما يحلو لك».

كان بمقدورنا أن نتحدث بصراحة عن كل هذه المواضيع فى مكتب رياض إبراهيم، أما عند بقية الوزراء فقد كان المعتاد تجنب الخوض فى أحاديث تمس الدولة وأمنها.

لا أعرف مَن من ذوى النفوذ العالى لم يعد يرغب فى نهاية المطاف فى بقاء رياض إبراهيم. فقبل أنَّ يعزل عن منصبه فى عام ١٩٨٢، كان قد روى لى أن هيئة أركان الرئيس ترغب فى إرسال طبيب بيطرى إلى الخارج ليتخصص فى الأساليب الوقائية فى حالات التسمم. كان الطبيب البيطرى قد حصل على منحة فى معهد طبى فى الولايات المتحدة الأمريكية، وما ينقصه الآن هو فقط أوراق من وزارة الصحة تشهد بأنه طبيب بشرى وليس طبيبا بيطريا.

ورفض الدكتور إبراهيم ذلك.

«ستفقد وزارة الصحة للأبد مصداقيتها إذا وافقنا على شىء من هذا القبيل»، ذلك ما قاله الوزير وهو فى ثورة عارمة عندما اتصل به أحد العاملين فى القصر الجمهورى، وسأله لماذا يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى يجعلوا من الطبيب البيطرى طبيبا بشريا؟!

وسبق السيف العذل بسرعة فاقت تصورات رياض!

وجهت له فجأة تهمة تحمل المسئولية عن سلسلة من حالات الوفاة حُقن فيها المرضى فى الوريد بكميات من كلوريد الكالسيوم عالية التركيز. وعُزل إبراهيم عن منصبه، وشكلت لجنة للتحقيق. وبعد ذلك بعدة أسابيع قُبض عليه وألقى به فى السجن.

وقد زرته فى داره قبل اعتقاله. كان مندهشا من حرسه الشخصى الذين كانوا لا يزالون يحرسون منزله، فقد كانوا عادة ما يسرعون إليه ليفتحوا له باب الجراج عندما



كان يريد الخروج بسيارته الرسمية قبل عزله. وها هم الآن ساكنون فى أكشاك حراستهم بلا حراك مثل الأصنام.

ثم قال لى: «لقد كنت أحضر إليهم الطعام بنفسى كل ليلة».

أجبته أنه ليس من المفروض أن يدهشه شيء هكذا؛ «فهؤلاء الناس على هذه الشاكلة».

ضحك رياض إبراهيم. وبعدها بعدة أسابيع اتهم بقضية الدواء وسجن.

وقد برأت لجنة التحقيق الوزير من كل التهم المنسوبة إليه؛ فقد اتضح أن صلاحية كلوريد الكالسيوم المصنوع فى شركة أدوية فرنسية لم تكن قد انتهت، لكن نسبة تركيز كلوريد الكالسيوم فى المحلول كانت أعلى من النسبة المعتادة، ولم يعرف العاملون فى المستشفى أن المحلول كان يجب أن يخفف قبل أن يأخذه المريض كما تنص على ذلك نشرة التعليمات.

لكن نتيجة التحقيق لم تجد شيئا. فقد قُتل إبراهيم بعد ستة أسابيع من بقائه فى السجن. كنت قد زرت زوجته قَبل أن يقتله النظام بيومين للاستفسار عنه، فقالت إنها استلمت رسالة كتبها زوجها على قصاصة من الورق واستطاع أن يهربها من السجن. كان مكتوبا فيها أنه سعيد لأنه سيرى زوجته وأولاده مرة أخرى بعد أن ثبت أن الاتهامات الموجهة له لا أساس لها من الصحة. وأضاف أن الرئيس سيطلق سراحه فى اليوم التالى فور أن يتسلم تقرير اللجنة ويقرأه.

تولى أخوه أمر الجنازة مع الدكتور غازى الهبش، وهو من أنبل الأطباء الذين عرفتهم، والذى أخبرنى بأن فك الدكتور رياض إبراهيم كان مهشما، وأن جسمه كانت تغطيه البقع الزرقاء. كما روى لى أن النيران قد أطلقت عليه من مكان قريب جدا، فأصابته رصاصة فى رأسه، وفى منطقة الحوض وفى فخذه. كما انُتزعت عيناه.

كانت مستشفى ابن الهيثم فى بغداد تتلقى دائما مددا طازجا من ضحايا الإعدامات، وقد أنقذ قسم العيون فى المستشفى كثيرا من المرضى المصابين فى قرنياتهم من أن يفقدوا نور أعينهم عن طريق استبدالها بقرنية تم التبرع بها!

فى بغداد كانت هناك كثير من الشائعات حول من قام بقتل رياض إبراهيم. كانت أكثر الشائعات خيالية تلك التى تقول بأن صدام هو الذى أطلق عليه النيران بنفسه بعد أن طلب منه فى أحد الاجتماعات الحكومية أن يذهب معه إلى الدهليز للحظة. لكن من المستبعد أن يكون رياض إبراهيم قد اشترك فى اجتماع كهذا، لأنه كان قد عزل عن منصبه كوزير للصحة قبل مقتله بعدة أسابيع.

كانت هناك شائعة أخرى تقول بأن برزان التكريتى، وهو الأخ غير الشقيق لصدام، هو الذى قتل رياض إبراهيم. كان برزان يتقلد آنذاك منصب رئيس المخابرات عندما قتل رياض.

فى عام ١٩٨٥ أتى إلىّ برزان فى مستشفى الواسطى لأجرى له عملية بسيطة، وبعد ذلك تحدثنا سويا لبعض الوقت. أشرت إلى الأجهزة الحديثة فى غرفة العمليات. قلت إن الفضل فى حصولى على هذه الأجهزة يرجع إلى الدكتور إبراهيم.

أجاب برزان: «كان إعدامه خطأ فادحا وجريمة وخسارة كبيرة للحزب والعراق»، لكن أخا صدام غير الشقيق لم يكن يرغب فى الحديث أكثر من ذلك عن هذه القضية. وظل الأمر كذلك فى جميع أحاديثنا الطويلة التى جمعتنا بعد ذلك.

لم يكن الدكتور إبراهيم الشخص الوحيد من بين زملائى الذى دفع حياته ثمنا لصراحته. فقد صُفى كلٌ من زميلىَّ الماهرين الدكتور هشام السلمان، والدكتور إسماعيل التاتار، حيث لم يكن لدى كل منهما القدرة على الإمساك بلسانه.

كان التاتار طبيب أمراض جلدية، وكان واحدا من الفريق الطبى الخاص بالرئيس. أما السلمان فقد كان واحدا من أفضل أطباء الأطفال فى العراق.

وفى إحدى الاحتفالات التى كان يعمها جو من الفرح والمرح، ألقى الطبيبان بعض النكات البريئة التى لا تخلو مع ذلك من إيحاءات خادشة للحياء العام عن صدام حسين، وكانت عن تطبيق قواعد جديدة أكثر صرامة لمكافحة الإيدز. كان كل منهما معروفا بحبه للدعابة دون تحفظ، لكنهما لم يعرفا أن واحدا من المشاركين فى الاحتفال كان ممن يتعاونون بشكل واضح مع رجال الأمن، حيث سلط كاميرا الفيديو الخاصة به عليهما خلسة.

أحضر التسجيل إلى الرئيس الذى أمر على الفور بإعدام كلا الطبيبين لأنهما شهرا به.

اعتدت على تدوين كثير من الأحاديث التى كنت أجريها مع الضحايا من الشباب الذين كانوا يأتوننا من الجبهة. لكننى أدركت مع مرور الوقت أننى ألعب بالنار، فقمت بإحراق جميع المذكرات قبيل نهاية الحرب حتى لا أدخل فى مغامرة لا داعى لها، فسقوط هذه الروايات فى أيدى المخابرات ومخبرى الشرطة السرية الذين لا حصر لهم كان سيعنى الموت المحقق.

فقط عندما كانت الوفود الرسمية بصحبة مرافقيها من الصحافيين تأتى إلى مستشفى الواسطى لمنح المرضى جوائز لشجاعتهم، كان المرضى يمتلئون بالعزيمة القتالية، والرغبة العارمة فى العودة إلى الجبهة ليقاتلوا الإيرانيين من جديد. وفيما عدا ذلك كانت الروح المعنوية للمرضى منخفضة للغاية.

وعندما كان الجنود والضباط ينفردون بى، كانوا يتحدثون بصراحة وباطمئنان، فقد كانت أهوال المعارك بعيدة كل البعد عن المستشفى، وكانوا على ثقة من أن أحاديثنا ستخضع لواجب الصمت تجاه أسرار المرضى.

كانت أغلبيتهم الساحقة ضد الحرب، فلم يكن فى مقدورهم تفهم السبب فى أنهم يقاتلون مسلمين مثلهم.

فى عام ١٩٨٣ قمت بإجراء عملية جراحية لمصور كنت أعرفه جيدا. كانت قد أصابته رصاصة فى يده اليمنى، وبعد أن تماثل للشفاء أرسل للجبهة ثانية. فى صيف عام ١٩٨٥ اشترك فى واحدة من أكثر المعارك دموية فى الأراضى الإيرانية، ليس بعيدا عن نفط خانة. اندلعت المعارك فى منتصف الليل، وتكبدت كتيبة المصورين خسائر فادحة، ولكن هذا المصور تمكن من الاختباء هو وجندى آخر فى أحد الخنادق، حيث رقدا فى صمت وسكون آملين ألا يكتشف وجودهم.

وسرعان ما قفز جنديان آخران فى الخندق، ليتلوهما ثلاثة آخرون. كان الظلام دامسا حتى أنه لم يكن فى مقدور أحدهم أن يرى يديه هو نفسه. ولم يجرؤ أحدهم على الهمس مخافة أن يسمعهم جنود الأعداء ويكتشفوا مكانهم.

وعندما طلع الصباح تبين أن اثنين ممن اختبئنا معهم في الخندق كانا من الجنود الإيرانيين، وأن الثلاثة الآخرين كانوا عراقيين.

«نحن جميعنا مسلمون، ولا يجوز أن يقتل كلٌّ منا الآخر»، كان ذلك ما قال الإيرانيون.

هرب الإيرانيون، وكذا فعل العراقيون.

في فبراير من عام ١٩٨٤ أقمت في نفس الوقت معرضا فنيا في جاليري الرواق في شارع سعدون في وسط بغداد، حيث تناولته الصحف والبرامج التليفزيونية بالعرض تفصيليا.

وذات يوم سألني أحد المرضى أثناء الكشف عليه في مستشفى الواسطي، وكان يدعى كريما، يسكن مدينة صدام التي تسمى اليوم مدينة الصدر، عما إذا كان يمكنه الحصول على نسخة من كتالوج المعرض مذيلا بتوقيعي. اندهشت، فلقد كان غريبا أن يفكر أحد الجرحى العائدين من الجبهة في الفن، ناهيك عن الفن الحديث. لكن كريمًا كان قد قرأ المقالة الخاصة بالمعرض في الجريدة، وشاهد صورة لإحدى لوحاتي: حجرة خالية بها نافذة صغيرة، يتخللها شعاع خافت من ضوء الشمس سقط على رأس رجل مغلفة بقطعة من القماش، ومعلقة في السقف. وفي نهاية الحجرة يوجد باب يقود إلى حجرة جانبية، ومنها إلى حجرة أخرى، وهكذا دواليك حتى يقود الباب الأخير إلى مشهد طبيعي خلاب، سماؤه تامة الصفاء.

كان كريم من أبطال الحرب، حيث حصل تقديرا لعملياته في أرض العدو على ما لا يقل عن خمسة أنواط للشجاعة. كان قد أصيب بطلق ناري في ساقه اليمنى، وكان علىَّ أن أنقل بعض الأنسجة الجلدية من فخذه، وبعض العضلات من ظهره، لأسد بها الفجوات في النسيج المتهتك والناجمة عن الطلق الناري.

حققت العملية نجاحا أكبر من المتوقع. وبعد أن ظل كريم راقدا في المستشفى لمدة ثلاثة أسابيع تمكن من السير مرة أخرى، وخرج من المستشفى. لذلك تملكتني الدهشة عندما وجدته يترقب ظهوري أمام المدخل الرئيسي لمستشفى الواسطي بعدها بستة أسابيع.



سألته: «هل عاودتك المتاعب فى ساقك؟»

أجاب كريم: «لا، لكننى أود أن تقرأ هذا».

أعطانى ورقة كتب عليها قصيدة يمتدحنى فيها كطبيب وفنان. كان مكتوبا عليها فى أسفلها أنه يريد الاعتراف بشىء ما، ويريد أن يتحدث معى على انفراد.

وافقت ودعوته لدخول مكتبى.

قال كريم: «منذ رأيت لوحتك لم أذق للراحة طعما. لقد أعيانى الشعور بالذنب، وتأنيب الضمير. إن النتائج المترتبة على ما سأقصه عليك الآن لم تعد تهمنى فى شىء».

أجبته أن ما سوف يعترف به لن يطلع عليه سوى الله وسواى.

قال كريم: «لقد أطلقت النار بنفسى على ساقى».

فى نهاية الأمر لم يستطع التحمل أكثر من ذلك.

لم يكن يخشى مواصلة القتال، فقد كان شجاعا مقداما. أفضل دليل على ذلك هو أنواط الشجاعة التى حصل عليها. لكنه كان يشعر أن إرادته قد خانته تماما، فلم يعد يتحمل فكرة مواصلة القتال أكثر من ذلك. كان يرقد فى الخندق ويصارع نفسه، فى حين كانت الوحدة التابع لها تعد لإجراء توغل جديد فى المواقع الإيرانية التى كانت تبعد بضع مئات من الأمتار.

وبعدما صدرت الأوامر وبدأ زملاؤه الهجوم وشعر فجأة أنه لم يعد يستطيع التحمل.

«صعدت إلى ما يزيد على حافة الخندق، وأطلقت أنا نفسى الرصاص من بندقيتى الكلاشينكوف على ساقى. لا بد أن عدد الطلقات كان قد تعدى عشر طلقات».

فقد كريم الوعى، ونُقل إلى مستشفى عسكرى فى مدينة الكوت فى منتصف الطريق بين البصرة وبغداد، حيث عاد إلى وعيه مرة أخرى. وهناك نُقل إلى مستشفى الواسطى بصفته بطل حرب.

قال لى: «يمكنك أن تروى ما حكيته لك للسلطات».

بدا عليه أنه باعترافه هذا قد حطم كل جسور الخوف بداخله.

قلت له إن هذه التجربة التى عاشها ما هى إلا رد فعل إنسانى طبيعى، وأضفت أنه أمر جيد أن يدرك بنفسه أنه ربما كان عليه أن يتصرف بشكل آخر.

«لكن هذا الأمر الذى تحدثنا عنه سيبقى بيننا نحن الاثنين وبين الله. لن يعلم به شخص آخر. لا تخش شيئا»، كان ذلك ما وعدته به.

وفى يوليو من عام ١٩٨٤ وصل إلينا جاويش مصاب بحروق فى المنطقة القطنية. لم يخطر على بال أحد فى المستشفى الميدانى البدائى التى وصل إليها فى بادئ الأمر أن يديره فى السرير على جنبه الآخر، إذ لم يكن بمقدوره الحركة حيث أصابته رصاصة فى النخاع بالشلل فى المنطقة القطنية. كان مسقط رأسه محافظة الديوانية فى وسط العراق، وكان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما. كان قوى البنية، مفتول العضلات، وكان أحد أفراد سرية العمليات الخاصة التابعة لواحدة من وحدات القوات الخاصة فى الجيش العراقى.

طلبت منه أن يقص علىّ ما حدث، وعلمت أنه كان وأربعة من الجنود الآخرين من فريق الاستطلاع التابع للقوات الخاصة فى قارب مطاطى فى واحدة من أكبر مناطق الأهوار فى جنوب العراق. كانت مهمة شديدة الخطورة. وكان واحد من الأربعة صديقا حميما له، حيث كانا من نفس القرية، وكانا يجلسان فى نفس الفصل فى المدرسة الابتدائية، وفى المدرسة الثانوية، كما تقدما سويا فى الوقت نفسه لأداء الخدمة العسكرية، وقد اجتاز كلٌ منهما اختبارات القبول التى تتطلب لياقة بدنية عالية، وقُبلا فى وحدة العمليات الخاصة التى كانت تحظى بمكانة رفيعة. وفى نهاية المطاف انتهى بهما الأمر إلى نفس السرية التى تحركت بعد منتصف الليل بقليل لتنفيذ مهمتها الخطرة بالقرب من خطوط العدو فى منطقة الأهوار.

تمكنوا لفترة طويلة من الاختباء فى القصب الكثيف، ولكن بعد عدة ساعات اكتُشف موقعهم وأطلقت عليهم النيران. كان هذا الجاويش أول من أصيب، وفقد الوعى على أثر ذلك. وعندما أفاق، اكتشف أنه ليس بمقدوره تحريك ساقيه. وفى أثناء



ذلك كان الصبح قد بزغ، وكان القارب المطاطى يرقد فى القاع على عمق نصف المتر. أما الأربعة الباقون الذين كانوا معه فى القارب فقد طفت جثثهم فى مياه الهور بين سيقان القصب الكثيف، وكان صديق عمره يبعد عنه بمقدار ذراع.

ارتفعت الشمس فى كبد السماء وارتفعت معها درجة الحرارة. كانت درجة الحرارة على الأقل خمسين درجة مئوية فى الظل، إذا كان هناك ظل. نفد ماء الشرب الذى كان مع الجاويش. وكانت قربة المياه الخاصة بصديقه التى وصل إليها بعد عناء قد ثقبتها رصاصتان. كانت فارغة. إذا كان يريد النجاة فعليه أن يشرب من ماء الهور الذى كان قد اصطبغ باللون الأحمر، لون دماء صاحبه. فى النهاية أصبح لا يقدر على تحمل العطش، ولم يعد يستطيع أن يسيطر على نفسه. شرب، وكان يحاول فى أثناء ذلك يائسا بما تبقى عنده من قدر يسير من القوة أن يدفع زميله، ودمه، بعيدا عنه.

«لم يجهزنا أحد لمثل هذا عندما أنهينا تدريبنا فى القوات الخاصة»، ذلك ما قاله لى الجاويش. الزمن وحده أجبرنا على شرب دماء أصدقائنا.

كان سلوك الجاويش حريا بالإعجاب فى مجالات عديدة. كان قد تزوج قبيل الحرب ابنة عمه التى تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعا. كانت رائعة الجمال. ولم يكن لهما أولاد بعد. عندما جاء والده ليزوره، طلب الجاويش منه أن يطلب من زوجته رفع دعوى للطلاق.

«إذا لم تقم هى بذلك، فسأفعله أنا».

لم يكن هذا يعنى أنه لم يعد يحبها، بل على العكس، فقد كان يحلم طيلة الوقت بها. لكنه لم يكن يرغب فى أن تزوره.

«لا يمكن أن أجعلها تخدمنى طيلة حياتى. فلو فعلت ذلك، لكان جرما منى حقا».

كان مثل هذا التفكير غير مسبوق فى المجتمع القبلى فى وسط العراق الذى نشأ فيه هذا الجاويش، فما كان واحد من المرضى الآخرين الذين لقى الآلاف منهم نفس المصير ليقول شيئا من هذا القبيل، إذ كانت مثل هذه الأفكار غريبة على المجتمع القبلى التقليدى فى وسط العراق. لقد كان شابا نبيلا وشهما واستثنائيا حقا!

كان صدام يتوجه من حين لآخر إلى الجبهة، ولكن هذا لم يكن أبدا يعنى أنه بالضرورة سيصل إلى هناك، فقد كان صدام ـ شأنه شأن أقاربه القريبين ـ متطيرا، فإذا رأى قطة سوداء فجأة فى الطريق فإن ذلك من شأنه أن يجعله يغير مسار موكب السيارات الخاص به ويأمر بالعودة إلى بغداد. كانت حتى رؤية كيس بلاستيك يفهفف فى وسط الشارع تُعد فألا سيئا بالنسبة لصدام وتجعله يعود دون أن ينجز ما كان يعتزمه.

كان يبدل السيارة التى يستقلها باستمرار، فكان أحيانا يجلس فى آخر سيارة، ثم يعود ليجلس فى سيارة فى منتصف الموكب. وكان يحدث أيضا أن تصطحبه طائرة مروحية من منتصف الطريق وتطير به إلى هدفه.

كان لا يقضى وقتا طويلا فى مكان واحد فى الجبهة. وقد حدث أن قُصف ذات ليلة مركزين للقيادة بالقنابل كان صدام قد زارهما الواحد تلو الآخر. حدث ذلك فور مغادرة صدام، فإن الحذر الشديد والشك كانا حليفيه طيلة حياته.

كان صدام عادة ما يأخذ معه صباح مرزا فى زياراته لبعض المواقع على الجبهة. كان مرزا رئيس الحرس الشخصى لصدام، وكان على سبيل التغيير يأخذ استراحة لبعض الوقت من واجبه فى هذه الزيارات بأن يشارك فى واحدة من فرق الإعدام التى كانت تطلق الرصاص على الجنود الذين تجرءوا على الانسحاب من أنفسهم أو على الفرار لصفوف العدو.

كان صدام يزور من الحين للآخر المستشفيات العسكرية والجنود المصابين، لكنه لم يكن يهتم كثيرا بالأطباء الذين كانوا يصارعون ليلا ونهارا، وعاما بعد عام، من أجل حياة وأجساد ضحايا الحرب. كان ينظر لمهنة الطبيب باستعلاء، شأنه شأن إخوته الثلاثة وطبان وسبعاوى وبرزان.

وأعتقد أن الاستياء الذى كان الرئيس يشعر به تجاه الأطباء له ارتباط وثيق بما كان من بعض الأطباء الذين رفضوا مساعدة صدام بعد محاولته الفاشلة لاغتيال عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٥٩، مما اضطره إلى أن يستخرج الرصاصة التى أصابته فى بطن ساقه بنفسه بموسى حلاقة.



«إن الأطباء ينظرون دائما لمصلحتهم الشخصية، فهم فى صراع دائم أيهم يمكنه أن يحقق أكبر قدر ممكن من الثراء»، ذلك ما قاله لى الرئيس فى أحد الأحاديث الودية التى دارت بيننا فى بداية تعارفنا.

«إنهم غير صادقين فى معظم الأحيان»، قالها صدام مضيفا: «عندما يحاولون أن يصبحوا أصدقاءك، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لأنهم يأملون فى منفعة شخصية. خاصة إذا كنت شخصا ذا نفوذ وسلطة فإنهم يستغلون صداقتك فى التربح».

ذات يوم وصل صدام فى الصباح المبكر إلى مستشفى الكرخ فى بغداد. كان ذلك قبل تغيير نوبة الأطباء بربع الساعة، وطلب من الطبيب الذى يعمل فى نوبة الليل أن يعطيه قائمة بأسماء الأطباء الذين سيحلون محله. تلقى جميع الأطباء الذين وصلوا متأخرين، حتى إذا كان هذا التأخير لمدة خمس دقائق فقط، الأمر بأنه لا يرغب فى رؤيتهم فى العام التالى فى المستشفى. حدث ذلك الأمر لستة أو سبعة من زملائى.

كان معظمهم لديهم عذر قهرى منعهم من الوصول فى موعدهم، فقد كان لديهم ما يقومون به فى مستشفيات أخرى فى بغداد. كما كانت القائمة التى أعطاها طبيب الخدمة الليلية لصدام غير صحيحة. فكتبوا خطابا للرئيس وشرحوا فيه ما حدث من لبس، لكن بدون جدوى. هكذا كان الحال مع صدام، إذا اتخذ قرارا، فإنه لا يرجع فيه، ولا يعنيه إذا كان محقا أو مخطئا فى هذا القرار.

ربما لن ينسى أحد الأطباء فى مستشفى الكرخ هذا الصباح طيلة حياته. فقد تقدم نحو الرئيس ومعطفه غير مزرر وسماعته تتأرجح حول رقبته هنا وهناك. وإذا كان هناك شىء لا يتحمله صدام، فكان ذلك هو السلوك غير اللائق فى حضوره. لكن حدث ما هو أسوأ من ذلك. فقد خاطب الطبيب الشاب الرئيس بلقب «أستاذ».

«هل خاطبتنى بـ «أستاذ» أم بالرئيس»؟، سأله صدام مستنكرا.

«أنا آسف يا سيدى الرئيس. فقد اعتقدت أننى استخدمت صيغة الخطاب المناسبة».

أخذ الطبيب الشاب فى عصر ذلك اليوم وألقى به فى السجن لمدة ستة أشهر.

فى منتصف الحرب التى استمرت ثمانية أعوام قتلت عروس يافعة فى ليلة الزفاف

فى هجوم إيرانى بالقنابل على مدينة مندلى فى شرق العراق . كانت ساقاها وذراعاها مبتورتين عندما عثر عليها هى والعريس الذى لقى حتفه أيضا .

أقام صدام مسابقة ، دُعى فيها فنانو العراق للتعبير عن هذه المأساة ، على أن يكون التصوير تمثيليا تماما . كان عليهم أن يصوروا السيدة الشابة فى ملابس الزفاف بدون ذراعين أو ساقين ، حتى يمكن للأجيال القادمة فى جميع العصور أن تعى دون صعوبة هذه الشهادة الفريدة على وحشية الإيرانيين .

كان يظهر كل ليلة فى التليفزيون العراقى بعض الفنانين الذين كانوا يقدمون لصدام أعمالهم المشاركة فى المسابقة ، غير أن الرئيس لم يكن راضيا عن أى منهم ، وهو ما أظهره على شاشة التليفزيون . لكنه اقتنع بعمل قدمه النحات سهيل الهنداوى .

فى نفس وقت المسابقة كنت أقيم معرضا فنيا جديدا فى جاليرى الرواق . كنت قد أطلقت على إحدى اللوحات اسم «الشَّهادة» . كانت تظهر فى اللوحة صحراء وسماء . كانت هناك قدمان مبتورتان عند الكاحلين تبرزان من الرمال ، كان هناك نبات به بعض الأوراق ينمو بينهما . ورسمت أمام السماء يدين مبتورتين أيضا . كانت الأصابع بعيدة عن بعضها . عندما يتأمل المرء اللوحة ، يبدو الأمر كما لو كان هناك إنسان يقف رافعا ذراعيه نحو السماء فى الصحراء ، لكنه بلا جسد .

زار المعرض اللواء أرشد ياسين الذى لم يكن قد تعرض بعد لمشاكل بسبب ولعه بالآثار العراقية القديمة ، ولذلك كان لا يزال يحتفظ بمنصب السكرتير الخاص لصهره . ويبدو أن ما رآه هناك قد أعجبه أيما إعجاب ؛ فقد اتصل بى بعد ذلك بيومين وطلب منى أن أحضر اللوحة إلى صدام الذى يود رؤيتى .

كان الرئيس لتوه فى نقاش مع بعض اللواءات العائدين من الجبهة . اضطررت أن أنتظر لمدة ساعة فى مكتب ياسين حتى جاء صدام . قال إنه يؤسفه أننى انتظرته ، ثم وقف طويلا أمام «الشَّهادة» .

«إنه لعمل فنى قوى ومعبر» ، قال ذلك صدام مضيفا : «لقد تركت الجسم واحتفظت بما فقدته العروس الشابة» .

أردت أن أعترض قائلا إننى لم أكن أستدعيها فى ذهنى عندما رسمت اللوحة قبل المسابقة بفترة طويلة، لكنه لم يتح لى فرصة لذلك.

قال صدام: «إنها واضحة تماما ولا تحتاج إلى توضيح منك».

طلبت بالرغم من ذلك أن يسمح لى بأن أقول شيئا عن الحرب والشهداء، وعندما أومأ، قلت إن هذا الذى ربما نراه، ليس بالضرورة مطابقا للواقع. وما يقوله الناس، ليس دائما حقيقيا.

«إن أهم شىء أن نفهم ما لا نراه أو لا نسمعه».

لم أجرؤ على مواصلة محاولتى فى أن أوضح لصدام أن المعلومات التى تلقاها من اللواءات والمقربين من أعوانه عن مجرى الحرب ليس لها علاقة بالواقع الذى أراه كل يوم فى المستشفى العسكرى.

قلت: «إن الشهيد هو الذى يصمد من أجل شىء يؤمن به، وهو الذى يضحى من أجل الآخرين. لذلك يَسمون عن الأرض إلى السماء».

صمت صدام. شعرت أنه لا ينصت إلىّ.

عندما أردت الذهاب، قال لى: «ليس لدينا الآن وقت فى منتصف الحرب لأن نحصى قتلانا وجرحانا. يجب أن نركز على هدف واحد لا غير، وهو أن ندحر الأعداء وأن نخرج منتصرين من المعركة. وعندما نصل إلى هذا الهدف ونحقق النصر، يكون بمقدورنا أن نحصى الخسائر التى تكبدناها ونرعى الجرحى بالأسلوب الأمثل».

ثم عاد مرة أخرى إلى اللواءات.

عندما اصطحبنى اللواء ياسين إلى الخارج، أسرع خلفى واحد من حرس صدام الشخصى ومعه علبة صغيرة. كانت هدية لى من الرئيس، ساعة يد رخيصة. كانت صورة صدام على ميناء الساعة.

احتفظ لنفسه بـ «الشهادة».

لكن على ما يبدو كان يتم إحصاء من سقطوا فى الحرب.

فى أثناء المعارك الضارية التى دارت فى منطقة الحدود فى أواخر عام ١٩٨٣،

وبدايات عام ١٩٨٤ بالقرب من المدينة الإيرانية البسيتين، أحضر جندى إلى مستشفى الواسطى وأذنه اليسرى مبتورة تماما. سألته كيف حدث هذا. أجاب أن الضباط والجنود في وحدته كانوا قد وقعوا في كمين، حيث حاصرهم العدو وحصد أرواحهم حصدا. وأضاف إنه قد تم إعدام كثير من الأسرى العراقيين في تلك المعركة.

«حتى عندما كنا نرفع أيدينا ونصيح بأننا نريد الاستسلام، كان الإيرانيون لا يتوقفون عن القصف».

كان الظلام دامسا، فقد كان ذلك في الثالثة فجرا. تظاهر الجندى بأنه قد أصيب وزحف تحت اثنين من زملائه الموتى. في أعقاب ذلك بدأ الجنود الإيرانيون في الانسحاب تحسبا لهجوم عراقى مضاد. غير أن أحدهم بقى، كان يسير بين الجثث وفي إحدى يديه مصباح جيب، وفي اليد الأخرى مدية. كان قد علق جرابا مفتوحا في حزامه.

«رأيته يسلط الضوء على الجنود القتلى، واحدا وراء الآخر ويمثل بهم. كان يضع الأذن في الجراب الصغير»

أذن من كل جثة عراقية. هكذا كان يمكن أن يعبروا بالأرقام عن مدى نجاح الكمين الذي نصبوه.

«ثم قطع من كل جثة من جثتي الزميلين اللذين كنت قد اختبأت تحتهما أذنا. لم يلفت انتباهه أنى ما زلت على قيد الحياة عندما حان الدور عليّ. فقد كان الظلام دامسا في آخر الأمر، وعلى ما يبدو فإنه لم يكن لديه فسحة من الوقت».

استدعى واحد من أبناء أعمامي كمجند احتياط. كان عليه أن يؤدى الخدمة في مشرحة مستشفى الرشيد العسكرى في بغداد، حيث كان يأتى القتلى من الضباط والجنود من الجبهة الممتدة التي تجرى فيها الدماء أنهارا. كانوا يأتون على شاحنات: أجسام ممزقة، رءوس مفصولة عن الأجساد، أذرع وسيقان كثيرة كومت بعضها فوق البعض.

كانت مهمة ابن عمى أن يتعرف على الضحايا ويضع كل واحد في نعش خاص به، ثم يرسله إلى أسرته. لكن هذا لم يكن سهلا بالمرة. فأن تجد الرأس المناسب لكل جثة،



ثم الأذرع والسيقان الخاصة بها، كان مثله مثل اللغز الصعب الذى عليك أن تحله وتجميع أجزاءه، وكل ذلك فى وقت وجيز.

«كنا نبذل قصارى جهدنا قبل أن ندق المسامير فى غطاء النعش. لكنه كثيرا ما كان يحدث أن نرسل ساقين يمينين أو ذراعين أيسرين إلى أسر الضحايا. كنا نعمل بلا انقطاع حتى تأتى الشحنة الأخرى».

ذات يوم سألنى عما إذا كان يمكننى عن طريق علاقاتى أن يحصل على نقل فى مكان آخر، بما فيها أسوأ الأماكن فى الجبهة. لم يعد يتحمل أكثر من ذلك. نجحت فى نقله إلى مكان آخر ليس على هذه الدرجة من الكآبة فى مستشفى عسكرى آخر. لكنه لم يعد أبدا كما كان قبل الحرب، كما أصيب بمشاكل نفسية عصبية بعد نهاية الحرب.

كانت النعوش تغطى بالأعلام العراقية، عندما كان يتم نقل الشهداء الذين سقطوا فى الحرب إلى مدافنهم. كان هذا مشهدا يوميا فى بغداد والبصرة والناصرية وكربلاء والكوت والحلة وسامراء وتكريت والموصل وجميع القرى والمدن فى العراق. فلا يكاد يخلو حى من الأحياء من خيمة العزاء التى أقامها الأقارب حتى يتسنى للقريب والبعيد من الأهل والجيران والأصدقاء أن يقدموا العزاء ويقرءوا الفاتحة للمتوفى. فى جميع الشوارع تقريبا كانت تعلق الأشرطة السوداء على جدران المنازل، وقد كتب عليها اسم الأبناء القتلى باللون الأبيض.

فى ذات يوم كنت أستقل سيارتى أنا وزوجتى وابنتى الصغيرة فى بغداد. كنا نسير خلف سيارتين تحمل كل منهما نعشا فوقها. نظرت ابنتى إليهما ثم قالت إنها تتمنى أن تموت هى الأخرى.

«لم أعد أتحمل أن أرى ذلك كل يوم»، ذلك ما قالته.

أخذت زوجتى تبكى.

«كيف لها أن تفكر بهذه الطريقة؟ إنها لم تتجاوز السادسة بعد».

فى هذه اللحظة مر صاروخ إيرانى من فوق رءوسنا. سقط قريبا للغاية من فندق الرشيد وانفجر. تأرجحت سيارتنا من شدة الضغط الجوى. لقد كتب الله تعالى لنا النجاة.

في شهر مايو من عام ١٩٨٥ جاء لي فريق من التليفزيون العراقي ليجري معي حوارا حول أعمالي كفنان وحول الإنجازات العظيمة التي أحرزناها في مجال الجراحة في مستشفى الواسطي والتي استخدمناها في علاج الآلاف المؤلفة من الضباط والجنود المصابين إصابات خطيرة الذين كانوا يأتوننا من الجبهة. كانت السيدة التي ستجري معي الحوار من أفضل المذيعات في العراق، وأكثرهن شهرة. تم التصوير في الأتيليه الخاص بي. كنت قد انتهيت لتوي من لوحة رجل يحاول أن يمنع طائرا كبيرا من أن ينقره في وجهه. كان يمسك بالطائر من جناحيه فوق رأسه. كانت الألوان المستخدمة في اللوحة هي اللون الأحمر واللون الأسود.

سألتني المذيعة: «ماذا يفعل هذا الطائر الجارح»؟

أجبت أن الفكرة هنا تمثل صراع الإنسان مع القدر.

«يتضح من اللوحة أن القدر هو الذي سينتصر. فالرجل لن يتمكن من أن يظل رافعا ذراعيه لأعلى لفترة طويلة».

«فهو إذن الخاسر»؟، ذلك ما سألتني إياه.

«نعم. إنه ينهزم عندما يموت. لكن الحياة تسير وتتقدم. هذا ما يعطي الحياة معناها».

«لكن لا مجال للادعاء بأنك لا تعبأ بالحياة»؟

«في الواقع يوجد دائما قَدْر من المرارة، شئنا أم أبينا». قلت لها ذلك، مذكرا إياها بالملاكم الأمريكي الشهير محمد علي الذي سئل ذات مرة عما إذا كان لا يزال يعد نفسه الأسرع والأقوى في هذا العالم.

أجاب بطل الوزن الثقيل: «لقد اكتشفت أن الزمن أكثر قوة وسرعة وبقاء».

وأضفت من جانبي أنه بمقدور الوقت فقط أن يعلمنا حقائق الحياة أو على الأقل جزءا منها.

«ما دمنا شبابا وأقوياء وأغنياء وذوي نفوذ، فإننا ننسى كم نحن ضعفاء وعندنا قابلية لأن نُجرح. هذه هي مأساة البشرية».

طلبت المذيعة من المصور أن يصور عديدا من اللوحات الأخرى المعلقة على حوائط الأتيليه. كان هناك كثير منها، فبعد فترة وجيزة كنت سأقيم معرضا جديدا.

«إن الناس الذين تحدثت إليهم يجدون لوحاتك تبعث على الكآبة».

«إن واجبى ليس إضحاك الناس أو نقل مشاعر السعادة للناس بأن أخفى عنهم حقيقة الحياة».

«هل تقرأ الشعر؟ هل يمكنك أن تلقى شيئا علينا؟»، كان ذلك هو سؤالها التالى.

أجبت أنى أحمل بداخلى دائما بيتا للشاعر العراقى العظيم المتنبى الذى توفى منذ كذا ألف عام. فهذا البيت ملائم لوجهة نظرى وهو يقول:

جِيرانُهـا وَهُمُ شَـرُّ الجِوارِ لَهـا   وَصَحْبُـها وَهُمُ شَـرُّ الأَصاحيبِ

والآخر:

ومن نكد الدنيـا على المرء أن يرى   عـدوا له مـا من صـداقـتـه بُـد

ثم ارتكبت المذيعة خطأ ولكنها لم تدركه إلا فيما بعد.

«أنت جراح تجميل وتقوم دائما بعمليات زرع شعر. لماذا لم تزرع لنفسك شعرا فأنت لم يعد لديك كثير من الشعر»؟

«لم يشكل هذا الأمر مطلقا مشكلة بالنسبة لى. بصراحة أنا لا أفكر فى هذا الأمر مطلقا».

«لكن ألا ترى نفسك كل يوم فى المرآة»؟

«بلى، لكن فقط للحلاقة، وليس لأتأمل نفسى بإعجاب، إذا كان ذلك ما تقصدين».

فى اليوم التالى اتصل بى سكرتير الرئيس. «لقد أعجب سيادته بالحوار، ويود أن يراك بشدة». فى الحجرة المؤدية إلى حجرة صدام عرفت أنه قد شاهد البرنامج من أوله لآخره، وهو ما يحدث نادرا.

«لكنه ثار ثورة عارمة عندما سألتك المذيعة عن زراعة الشعر وعن ضعف نمو شعرك».

علمت بعد ذلك أن صدام أمر بمعاقبة المذيعة.

لم يسمح لها بالظهور على الشاشة لمدة ستة أشهر.

فى أواخر عام ١٩٨٧ اتصل بى أحد اللواءات من مكتب صدام وطلب منى أن أحضر إلى قصر الجمهورية. فقد أصاب ابن أحد المسئولين نفسه عن طريق الخطأ ببندقيته الكلاشينكوف فى قدمه. تم إدخالى عن طريق الخطأ إلى الحجرة المؤدية لحجرة صدام.

كان صدام يستعد للخروج. تأسف لى على أن الحرس لم يعرفوا إلى أين يذهبون بى.

«لكن فلتتفضل فى مكتبى، فيمكننا أن نشرب الشاى سويا»، ذلك ما قاله واستدار فى اتجاه حجرته.

تحدثنا عن الحرب وسألنى الرئيس عما إذا كان لدينا كثير من الجرحى فى مستشفى الواسطى. أجبت أن عدد الجرحى الذين يأتون إلينا قد لا يكون كبيرا مقارنة بالمستشفيات العسكرية الأخرى فى بغداد، لكن أصعب الحالات هى التى تأتى إلينا.

فسألنى إذا ما كان كثير من الضباط والجنود يأتون إلينا بعد أن يكونوا قد فارقوا الحياة. أجبته أن ذلك أمر نادر الحدوث أن يرسل إلينا جرحى من الجبهة إذا لم تكن فرصتهم جيدة فى تحمل مشاق الطريق.

«بعضهم وليس كثير منهم يفارق الحياة، ولكن لأى طريق».

صمت صدام. ثم قال: «إنه لأمر مؤسف أن يلقى كثير من الشباب هذا المصير، لكنه لم يكن أمامنا طريق آخر. فلو أننا لم ندخل الحرب، لكانت الأجيال القادمة ستدينا على مر العصور».

لم أجرؤ على أن أعارضه.

لم يكن هناك سوى قليلين ممن يجرءون على انتقاد الرئيس حتى بينه وبين نفسه.



كان ذلك الصافى الذى أعده صديقا حميما مخلصا واحدا من هؤلاء. كانت له أراض زراعية وانضم لحزب البعث عندما بدأ شيئا فشيئا يثبت أقدامه فى العراق فى الخمسينيات. لحق بصدام عبر الصحراء إلى سوريا عندما اضطر أن يغادر البلاد هاربا بعد محاولة الاغتيال الفاشلة التى قام بها ضد عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٥٨. استغرق الهرب أسبوعا تقريبا. كانا يختبئان فى النهار ثم يسيران أو يركبان عندما يحل الظلام. كان البدو يساعدونهما فى الطريق.

عندما وصل حزب البعث للسلطة عرض صدام على صاحبه عدة مناصب وزارية، لكن الصافى كان دائما ما يرفض. كان يتمنى الديمقراطية للعراق وليس الحكم الأسرى الذى كان يزداد استبدادا يوما بعد يوم فى قصور الرئيس على نهر دجلة.

وبالرغم من ذلك كان صدام يتحدث بشغف مع صديقه القديم. كان على مدار السنين يزوره كل يوم خميس ليتعشى معه فى منزله فى حى المنصور.

«كنت دائما ما أقول له إن أفضل شىء للعراق هو الانتخابات الحرة. يجب أن يحصل العراقيون على حقوقهم الديمقراطية وأن تكون لديهم الفرصة لممارستها».

كان صدام فى بادئ الأمر مستعدا لأن ينصت لى ويتناقش معى.

«لكنى بمرور الوقت لاحظت أنه كان يتوتر ويشعر بعدم الارتياح عندما أتطرق لهذا الموضوع وغيره من الموضوعات السياسية المشابهة».

فى ليلة صيف فى عام ١٩٨٧ احتدم بينهما الخلاف تماما. كان الرئيس عائدا من الاجتماع السنوى لنقابة المحامين. كان القضاة والمحامون يصفقون فى أثناء الخطاب الذى ألقاه وبعده تصفيقا طويلا يصم الآذان. عندما قدم الحساء فى منزل الصافى، كان يعرض فى نشرة أخبار المساء فى التليفزيون العراقى تقريرا تفصيليا عن هذا الاجتماع.

قال صدام: «هل تعتقد أننى طلبت منهم أن يهللوا لى هكذا؟ كان ذلك بمحض إرادتهم. لم يرغمهم أحد على ذلك».

سخر الصافى منه.

«هل تصدق ذلك حقا؟»

«نعم».

«إذن فأنت مخطئ. ما هؤلاء إلا جماعة من الكذابين المنافقين».

نهض صدام وألقى بملعقته على المائدة، وغادر منزل الصافى. فى هذا المساء قطع كل علاقته بصديقه القديم. لم يأت قط للعشاء مرة أخرى.

اتضح فى صيف عام ١٩٨٨ أن محلل وكالة المخابرات الأمريكية الذى تحدث فى إذاعة «صوت أمريكا» عندما سقطت قنابل الخمينى على بغداد فى سبتمبر عام ١٩٨٠ كان محقا. فلن يتمكن أحد من الانتصار فى هذه الحرب.

بالرغم من أن الجيش الإيرانى كان متفوقا بعدما تمكن فى عام ١٩٨٢ من دحر القوات العراقية الغازية إلى الحدود مرة أخرى، لم يتمكن الخمينى قط من إحراز الهجوم المضاد الحاسم الذى من شأنه أن يلحق الهزيمة بالعراقيين، ويسقط صدام.

فبفضل إمداد فرنسا والاتحاد السوفيتى للعراق بكميات كبيرة من الأسلحة أصبح العراق هو المتقدم مرة أخرى. لكن النصر الحقيقى لم يكن باديا فى الأفق. هذا ما أدرك فى النهاية صدام والخمينى.

فى الثامن من أغسطس سكتت المدافع.

أعلن صدام انتصاره، لكن الحدود بقيت على ما هى عليه قبل حمامات الدم السخيفة. هكذا كان الحال أيضا فى شط العرب، فقد أصبحت أعمق نقطة فيه لا يمكن اجتيازها تقريبا بسبب الحطام الغارق فى القاع الذى خلفته القنابل من ورائها.

الفصل السادس

وقف إطلاق النار

تهيدة من الارتياح سرت عبر الشرق الأوسط كله عندما انتهت الحرب بين العراق وإيران فى أغسطس من عام ١٩٨٨ . أرسل الرئيس حسنى مبارك زوجته سوزان إلى بغداد مع أرق الأمنيات . كانت قرينة الرئيس المصرى على علاقة جيدة مع ساجدة زوجة صدام . فى أثناء الزيارة أقامت كلتا السيدتين فى واحدة من دور الضيافة الرسمية التابعة للنظام بالمقربة من القصر الجمهورى المطل على نهر دجلة على ضفته الغربية .

كانت حديقة الأعراس تقع غير بعيدة عن دور الضيافة العشر على جزيرة غناء تملؤها الحدائق والأشجار الجميلة فى بحيرة شاطئية ضحلة تكونت من أحد فروع نهر دجلة . كان هناك جسر يعبر بك إلى الحديقة التى كان يحيط بها ما يقارب من أربعين بيتا من بيوت الضيافة ، والتى كان يمكن تأجيرها للمناسبات الاحتفالية . كانت هناك قاعة خاصة محجوزة لاحتفالات الزواج .

فى نهاية جزيرة الأعراس كانت هناك ستة دور أخرى للضيافة ، وكانت تتمتع بمزيد من الفخامة عن الأخريات . كان لكل دار منها حمام سباحة ، وكانت هذه الدور مقصورة على الرئيس وعائلته ، والعاملين المقربين ، أى الوزراء وكبار القوم من مجلس قيادة الثورة .

من أمام إحدى هذه الدور كانت هناك سهرة انبعثت منها أجواء من الارتياح الشديد ، حينما قررت كل من ساجدة وسوزان مبارك الخلود إلى النوم فى دار الضيافة الرسمية التى كانت لا تبعد سوى بضع مئات من الأمتار ، حيث أخذت الأجواء بعدها تزداد صخبا على صخب . كان كامل حنا يقيم احتفالا لأحد أقربائه الذى كان يحتفل

بعيد ميلاده المتمم لعقد من عمره . لم يُحرم في هذه الليلة من ليالي أغسطس أيّ من الضيوف الذين كان يقارب عددهم الخمسين من أن ينال ما شاء من الخمور .

كان حنا الخادم الخاص لصدام . كان مسيحيا من الشمال ، ولم يكن من عائلة الرئيس ، ولم يكن أيضا من تكريت ، غير أنه كان شديد الولاء . كان يقوم بتوفير الخدمة للرئيس ، بدءا من تحضير الملابس والأحذية مرورا بإعداد الطعام وانتهاء بإدارة المجموعة الضخمة من الخدم التي كانت تحيط بصدام . كان الرئيس يقدر حنا تقديرا عظيما . كان كامل حنا من القلة القليلة التي كان صدام يوليها ثقته . كان الاحترام والثقة متبادلين من الطرفين .

كان عدي يقيم هو أيضا بجوار القصر الجمهوري ، حيث انتقل ابن الرئيس البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما للإقامة الدائمة في إحدى دور الضيافة الرسمية . كان عدي يجلس هناك مع صديقه ظافر محمد جابر أمام النافذة مسترخيا كعادته بصحبة زجاجة من الفودكا حينما سمع دوي طلقات عالية آتية من العرس .

أرسل عدي حارسا من الحرس الخاص إلى هناك ليعرف ماذا يدور ، حيث أخبرهما حنا أن الاحتفال الحقيقي لم يبدأ لتوه سوى الآن . أخرجت بنادق الكلاشينكوف ، وأطلقت منها طلقات في الهواء تعبيرا عن عظيم الفرح وانبهار كل من المضيف والضيوف الذين كانوا مستمتعين استمتاعا يفوق الوصف والذين ازدادوا سكرا على سكر .

«اذهب إلى هناك واطلب منهم أن يتوقفوا عن إطلاق النار» ، قالها عدي مضيفا : «وإلا فإنهم سيوقظون أيضا أمي وسوزان مبارك» .

عاد الحارس الخاص إلى حديقة العرس وأخبرهم الرسالة . إلا أن إطلاق النار من البنادق الرشاشة استمر .

كان ظافر محمد جابر من عُمر عدي وكان يعرفه منذ كانا يذهبان للمدرسة الثانوية . بمرور الوقت أصبح السكرتير الخاص لابن الرئيس . قفز الاثنان في تلك اللحظة مع بعض الحرس الخاص في سيارة ، وذهبا إلى كامل حنا لحثه على الهدوء ولوضع نهاية للموسيقى الراقصة الصاخبة ، وللطلقات الطائشة هنا وهناك بلا توقف .



كان عدى يلبس الدشداشة. عندما غادر المنزل أخذ معه أيضا عصا مشى من العاج اتخذ مقبضها شكل رأس الثعبان ولُفت بالخيزران. أما الثعبان نفسه فقد كان فاغرا فاه، ذا أنياب سم قوية.

«كان عدى يرى أن عصا المشى تليق على دشداشته»، أخبرنى بذلك جابر فيما بعد، مضيفا: «كانت تمنحه وجاهة شيوخ دول الخليج».

كان ابن الرئيس يمتلك ١٥٠ عصا مشى بمختلف الأشكال والتصميمات. لم يتعلم أبدا أن يروض نفسه. إذا أعجبه شىء ما لم يكن ليقنَع بنسخة وحيدة منه. فى منزل عمه وطبان رأى شيشة أعجبته. بعدها ببضعة أسابيع أتت شحنة كاملة من الشِّيَش من الهند.

«كانت كبيرة ومرتفعة ارتفاع الباب».

كان هذا ينطبق أيضا على الساعات اليدوية، الحلى، الخواتم، النقود، النساء والسيارات الفارهة. لم يكن أى شىء يملأ عينى عدى. فى إحدى الكراجات بالمقربة من القصر الجمهورى كان هناك مئات السيارات من طراز بى. إم. دبليو، ليكسوس، مرسيدس، فيرارى ورولس رويز. وعندما اتخذ عدى طريقه مع جابر ومع اثنين من الحرس الخاص إلى كامل حنا كان هناك فى الوقت نفسه مزيد من السيارات المتوجهة إلى بغداد.

كانت جزيرة الأعراس بمساحتها الخضراء وبأشجارها الواقعة على تلك البحيرة تمثل واحة فى عراق تزداد حالته المأساوية يوما بعد يوم. كان يمكن مشاهدة الجراح التى خلفتها الحرب بوضوح فى كل مكان.

قبل عام ١٩٨٠ لم يكن فى بغداد أى من الشحاذين إلا قليلا، أما الآن فقد كانت ناصية كل شارع تعج بهم. أمَر صدام بطبع النقود ليستطيع تمويل الحرب. كانت النتيجة ارتفاعا متسارعا فى الأسعار حطم مستوى المعيشة للناس تحطيما كاملا. قبل الحرب كان الدينار العراقى يساوى ما يزيد على ثلاثة دولارات. أما الآن فقد ساد الاضطراب أسعار الصرف. كان عليك أن تدفع ألف دينار للحصول على دولار واحد فقط، غير أن أجورنا ـ بالدينار ـ ظلت على حالها.

لم يعد فى مقدور موظفى الدولة أن ينفقوا على أنفسهم وعلى عائلاتهم مما يدفع لهم شهرياً، فكان أن بدءوا فى طلب الرشاوى لأداء ما لديهم من أعمال، ومنها إنجاز الطلبات. لم يعد هناك مكتب من المكاتب، أو إدارة من الإدارات، أو وزارة من الوزارات إلا واستفحل الفساد فيها، وعلى كل المستويات.

بدأ الأمر أول ما بدأ مع الضباط ذوى الرتب العالية الذين تلقى كثير منهم فى أثناء الحرب رشاوى محترمة لكى ينقلوا الجنود من قطاعات الجبهة إلى أماكن أقل دموية، بل إن بعضهم استطاع أن يبنى منازل ومزارع مما حصلوا عليه من رشاوى فى مقابل نقل وحدات كاملة من الجيش. اهتز ما كان لدى الشعب من تقدير كبير للجيش العراقى فى الماضى اهتزازاً عنيفاً منذ أن انقض صدام على نظام الخمينى الإسلامى فى الشرق.

بالنسبة لعائلات كثيرة كانت الدعارة هى السبيل الوحيد عندما لم يعد هناك ما يكفى من المال، وعندما كان هناك هذا العدد الهائل من الأفواه التى يجب أن تُطعم، بعدما سقط الأخ أو الأب ليختفى بذلك عائلهم.

مع الفقر زادت أيضاً معدلات السرقات وغيرها من الجرائم.

غير أن الميراث المأساوى للحرب كان يكمن فى هذا العدد الكبير من المعاقين. ما يقرب من ١٥٠ ألفاً من العراقيين قضوا نحبهم فى الأعوام الثمانية التى استمرت فيها الحرب وجُرح ٧٥٠ ألفاً، كثير جداً منهم تعرض لإصابات وعاهات مستديمة، سواء الجسدية منها أو النفسية.

لم يكن العراق على أدنى استعداد لرعايتهم. كان مستشفى ابن القف هو المستشفى الوحيد المتخصص، وكان قد شيد بمساعدات دنمركية فى أثناء الحرب لإعادة تأهيل مصابى الحرب شديدى الإعاقة. لم تكن طاقته الاستيعابية كافية بأى شكل من الأشكال. كان الآباء والزوجات المنهكون يحضرون أبناءهم المعاقين بعد منتصف الليل خاصة ليضعوهم فى جنح الظلام فى حديقة المستشفى حيث كان العاملون به يجدونهم فى الصباح. ومع ذلك لم يكن من المتاح تقديم العون لهم، ناهيك عن أن الأطباء وفنيى العلاج الطبيعى الدنمركيين كانوا خائرى القوى من العمل الكثير.

أما إمكانات العلاج بالنسبة لعشرات الآلاف من الجنود الذين كانوا يعانون من

مشاكل نفسية نشأت من جراء الخوف الذى تعرضوا له فى ساحة القتال فكانت أسوأ كثيرا، حيث لم تكن هناك ببساطة أىٌ من الإمكانات لمعالجتهم. وليس من المألوف فى العراق كما هو الحال فى الشرق الأوسط الحديث عن المشكلات النفسية من أساسه، كما ينظر إلى المرضى الذين يخضعون للعلاج النفسى نظرة دونية، حيث تحاول العائلات ما أمكن لها ذلك أن تخفى ما تعتبره فى داخلها عارا ليس دونه عار.

وقتها كان يوجد فى كل مدينة، فى كل قرية، وفى كل حى تقريبا شباب يعانون من مشاكل نفسية مستعصية. كان يحز فى نفسى كطبيب أن أشاهد ذلك دون أن أفعل شيئا.

أشك أن يكون أى من الحاضرين لاحتفال كمال حنا فى العرس الذى أخذ يتزايد صخبا على صخب مهتما بما عليه العراق من حالة سيئة.

غير أنه عندما ظهر عدى بصحبة عصا المشى الخاصة به المصنوعة من العاج ساد المكان صمت القبور. أخذت الطلقات، والموسيقى، والرقص فى التوقف من فورها. يبدو أن حنا كان قد شرب كميات كبيرة من الويسكى حتى أنه اضطرَّ للتسند على غيره حتى يستطيع مواجهة زائره. حسبما يتذكر جابر فإن عدى كان قد افتتح النقاش متوعدا.

«اخجلوا من أنفسكم»، قالها عدى مضيفا: «رجوتكم عبر الحرس الخاص أن تهدءوا قليلا. لكنكم لم تعيروا الأمر اهتماما. تاه حظك، لتنزل عليك كل مصائب الدنيا! أدب سز (من التركية، تعنى دون أدب) يا لك من خصى معدوم الخلق»!

«إنه حفلى الخاص»، أجابه حنا مضيفا: «إنك تدس أنفك فى كل شىء. أخرج نفسك منها هذه الليلة»!

رفع عدى العصا المصنوعة من العاج عاليا.

«يا كلب. كيف تجرؤ على مجرد التفكير فى الحديث معى بهذا الشكل»؟

وعاجل عدى حنا بضربة على رأسه ليخر الخادم الخاص على الأرض.

«سأحكي ذلك لوالدي»، قالها عدى قبل أن يغادر هو وجابر، والحارسان الخاصان الحفل بعد أن توقف صخب الحفل!

اعتقد أربعتهم أن كمال حنا سقط لأنه أفرط في الشراب وأن الضيوف الآخرين سيساعدونه على النهوض.

اتصل صدام بابنه مع أول خيوط الفجر. كان عدى مندهشا، فقد كان من غير المعتاد على الإطلاق أن يقيم الرئيس اتصالا مباشرا معه على هذا النحو. بدأ يروى لوالده عن كامل حنا وعن أحداث الليلة، غير أن صدامًا لم يمهله الفرصة للحديث.

«لقد قتلته»، قالها صدام في برود شديد مضيفا: «ستبلغ الشرطة الآن عن الحادث لتلقى الجزاء الذى تستحقه».

عندما نُقل خبر قتل كمال حنا على يد عدى إلى الرئيس خرج صدام عن شعوره تماما.

«سأقتله بيدى هاتين»، خرج صوت صدام راعدا في حضرة زوجته ساجدة. كان قد نُقل إليها خبر ما حدث، فما كان منها إلا أن غادرت دار الضيافة التى كانت تقضى فيها ليلتها مع قرينة الرئيس المصرى متوجهة إلى البيت على عجل.

أفزعت ثورة الغضب العارمة التى انتابت صدام والدة عدى، التى اتصلت في يأس بصهرها برزان وروت له ما هدد به صدام. «لا بد أن تأتى حالا وتهدئه».

عندما ظهر الأخ غير الشقيق في قصر الرئيس كان صدام لا يزال في ثورة غضبه، ولا يمكن التحدث إليه. في ذات مرة أسرّ برزان إلىّ بأن العائلة كانت تستطيع أن ترى متى كان الرئيس غاضبا حقا؛ فإنه حين يغضب كان شعر رأسه يقف مثل القنفذ، كما هو الحال الآن.

فيما بعد أخبرنى برزان بالآتى: «لو كان عدى بالمقربة منه لكان قد قتله بلا شك. لم أره أبدا غاضبا وخارجا عن شعوره بمثل هذه الدرجة».

شيئا فشيئا أخذ الرئيس يهدأ، وكان في مقدور برزان أن يتحدث معه.

«الآن دعنا نفكر في الأمر في هدوء شديد. إذا قتلت ابنك، فإن هذا لن يعيد كامل

حا إلى الحياة، ولن نجنى وقتها سوى الخسارة، خسارة مزدوجة سواء فى حجمها أو فى تأثيرها. من الأفضل تقديم عدى للمحاكمة، وعلى القضاء تقرير مصيره».

قال صدام: «سأقدمه للمحاكمة».

أصابت عدى صدمة عندما تكشف له ما جنت يداه. تناول أنبوبا من حبوب منومة، وابتلع كل ما فيه.

عندما بدأت الحبوب تأتى مفعولها، وسقط عدى على الأرض نقله حرسه الخاص إلى مستشفى ابن سينا. كان هذا المستشفى الصغير فى الأصل عيادة خاصة، تم تحديثها وتوسعتها بعد الانقلاب واستيلاء حزب البعث على الحكم. كان فى المستشفى عشرون سريرا وغرفتان للعمليات، كما كان حسب المعايير الغربية مجهزا تجهيزا لا بأس به بالأجهزة الطبية الفنية. كان الأطباء والممرضات الأكفاء يعملون تحت رقابة أمنية. عادة ما كان يقوم جراح وطبيب باطنى بالاشتراك مع عشر ممرضات بالخدمة ليل نهار.

كان زحام المرضى يتصاعد باستمرار. لم يكن عدد الذين يزورون هذا المستشفى الصغير الراقى قليلا بأى حال من الأحوال، إذا ما انضم لحسبتنا كل الزوجات، والأطفال، والأقارب والخليلات للنخبة العراقية.

أفرغت معدة عدى باستخدام الشفاط فى الوقت المناسب.

لم أكن فى مجموعة الخدمة عندما نُقل الابن الأكبر للرئيس إلى مستشفى ابن سينا، غير أن زملائى حكوا لى بعدها ببضعة أيام أنه حاول الانتحار، لكنهم أنقذوه. أما صديقه جابر فقد روى لى تفصيليا فيما بعد ماذا وقع من أحداث قبل، وأثناء، وبعد الحادث المؤسف فى حفل كامل حنا.

ظل عدى طوال الليل تحت الملاحظة فى مستشفى ابن سينا، ليعود بعدها إلى دار الضيافة التى كان يقيم بها. أعطى حرسه الخاص والخدم إجازة وتحصن بأجولة الرمل فى التراس أمام الباب. عندما أتى بعض من حرس صدام الخاص ليأخذوه أطلق عدى النار من مدفع كلاشنيكوف على سياراتهم. عادوا أدراجهم وأخبروا الرئيس أن الحالة النفسية لابنه ما تزال مقلقة.

تُرك عدى حتى اليوم الذى يليه على حاله. بعدها أتت والدته وأخوه الأصغر قصى

ليعيدوه إلى صوابه. أتوا وحدهم، بلا حرس، واستغرق الأمر زمنا غير قصير إلى أن استطاعوا إقناعه بتسليم نفسه.

لم يقبض لا على عدى ولا على جابر على الفور. أراد صدام أن يعرف كل شيء عن هذه المأساة الشائكة قبل أن يُشرك الهيئات القضائية فى الأمر. كان هناك قدر لا بأس به من الشائعات تلف العراق والتى كان يتلقفها خصوم عدى فى نهم. كان أعضاء الأسرة يدور بينهم باستمرار معارك حول المناصب المهمة والوجيهة، إذا استثنينا منصب الرئيس نفسه.

كان زوج ابنة صدام، أى حسين كامل، من أكثر الضالعين فى المؤامرات. كان حسين كامل ابن أخت على حسن المجيد، أحد أبناء عمومة صدام، يشغل منصبا مهما هو وزير الصناعة والتصنيع العسكرى، وكان مسئولا عن برامج تطوير الأسلحة للعراق. كان حظىّ صدام، وكان زواجه من ابنة الرئيس رغد هو دليل دامغ على ذلك.

حظى أيضا أخوه صدام كامل بثقة كبيرة. زوجه صدام من رنا أخت رغد، كما كان واحدا من أخلص حرسه الخاص. وقد لعب الدور الرئيسى لصدام فى «الأيام الطويلة»، وهو فيلم مدته ست ساعات عن حياة الرئيس، والذى كان يُعرض مرارا فى التليفزيون العراقى وفى دور السينما فى البلاد لسنوات كثيرة. أخرج هذا الفيلم المخرج الإنجليزى تيرينس يانج والذى كان قبلها مخرجا لثلاثة من أفلام جيمس بوند، إلى أن دخل التاريخ مجددا فى بغداد.

استقبل الإخوة الثلاثة غير الأشقاء، سبعاوى، وبرزان، ووطبان زواج الشقيقين من ابنتى الرئيس بالرفض التام والانزعاج. أثار تزويج صدام لابنته رغد بحسين كامل تحديدا البغضاء فى الأسرة. كل الإخوة غير الأشقاء كانوا يرون أن ابن سبعاوى ياسر هو الوحيد الأصلح لها، حيث كان سيعنى هذا الزواج أيضا توطيد روابط الدم بين فرع عائلتهم وفرع عائلة الرئيس، وهو الأمر الذى رفضه صدام.

كان فى هذا إشارة واضحة لبرزان.

فى عام ١٩٨٠ أصبح برزان الأخ الأوسط من بين الإخوة غير الأشقاء رئيسا



للمخابرات، حيث تولى مهمته بجدية شديدة. تم توسيع عمليات هذه الهيئة، وشبكة المخبرين سواء فى خارج البلاد أو فى العراق توسيعا كبيرا. ولم يكن عندهم فرق بين الخصوم العراقيين لصدام المشتبه بهم، وبين الحقيقيين منهم.

كثيرا ما كان برزان يتفاخر أمامى بأن جهاز المخابرات فى ظل قيادته كان له عملاء ومخبرون فى كل أنحاء العالم وأنه لم يكن أبدا فى يوم من الأيام بمثل هذه الفعالية.

«لا يوجد حتى عراقى واحد يجلس فى حانة فى أى قرية مهجورة فى اليابان ويتحدث بسوء عن صدام ونظامه يمكنه أن يتوهم لنفسه الأمان»، هكذا كان رأيه.

فى المدارس الشعبية كان المدرسون يسألون تلاميذهم عما إذا كان آباؤهم قد أداروا جهاز التليفزيون عندما كان يُعرض برنامج عن الرئيس. فإذا أجاب أحدهم بالنفى كان يمكن أن ينتهى الأمر بالأب إلى التحقيق والمساءلة.

كان رئيس المخابرات برزان يعتبر ثانى أقوى رجل فى العراق، وهو الأمر الذى لم يعجب عدى، وقصى، وحسين كامل، وعمه على حسن المجيد. أخذوا يتابعون نشاطه بمزيد من الحسد والتشكك وانتابهم اليأس من أنهم لم يعد لديهم المقدرة على المنافسة فى السباق الدائر للفوز بالحظوة لدى الرئيس. بتحفيز من حسين كامل بدءوا يزرعون الشك فى دوافع برزان، هامسين أن على الرئيس أن يكون على حذر، وأنه من المتصور أن هذا الأخ غير الشقيق القوى يريد حتى الاستيلاء على السلطة فى العراق.

شيئا فشيئا بدأ صدام يعتقد فى أنهم ربما يكونون على حق، وأن رئيس المخابرات ربما يمثل تهديدا. وعندما تجاهل صدام احتجاجات إخوته غير الأشقاء وزوّج ابنته رغد من حسين كامل أدرك برزان ما حل به: لم يعد رقم واحد عند صدام. فقد أعفاه من منصبه عام ١٩٨٣. وقال لى فيما بعد:

«قبل أن ينقضى اليوم كنت قد قدمت استقالتى من منصبى كرئيس للمخابرات. وقبل أن أذهب قذفت مفاتيحى على مكتبى من الغضب الذى كان لا يزال يتملكنى».

كانت إحدى لوحاتى معلقة على حائط فى مكتبه، وصورة صدام الإجبارية على الحائط الآخر.

«كنت غاضبا للدرجة التى أنستنى أن آخذ لوحتك معى إلى المنزل، وهو الأمر الذى ما زلت نادما عليه إلى الآن».

أما وأن برزان أصبح خارج الصورة فقد وجد حسين كامل أن الدور قد حان على عدى، وانطلق من فوره نحو هدفه المنشود.

مع خروج برزان من اللعبة سنحت الفرصة أخيرا لضرب عدى فى إطار الصراع الداخلى حول السلطة. لم يدع حسين كامل هذه الفرصة تفوته. انهمك حسين كامل بروحه ودمه فى كشف ملابسات ما حدث فى تلك الليلة التى قتل فيها كامل حنا. لم يتردد ولو للحظة.

كان موت كامل حنا بالنسبة للابن الأكبر للرئيس غير مفيد على الإطلاق.

فى هذا الوقت كان عدى ذو الأربعة والعشرين ربيعا قد بدأ صعوده فى سلم السلطة فى عهد صدام. قبلها بأربع سنوات كان قد عين مسئولا للشباب، وأسس أول جريدة له، جريدة «البعث الرياضى». مكنته هذه الجريدة من مهاجمة الوزراء الآخرين، وغيرهم من الشخصيات المهمة، إما لأنه كان لا يحبهم أو لأنهم اعترضوا طريقه بشكل أو بآخر. كان الهجوم يتم فى المقالة الرئيسية أو فى التحقيقات التى تتناول عجزهم بالتفصيل. كان الشباب يجوبون الشوارع فى مسيرات رافعين لافتات تقول: «عدى فخرنا الكبير»، و«عدى أملنا».

كما أسس ناديا جديدا لكرة القدم، وهو الرشيد، حيث أدرك أفضل لاعبى العراق سريعا أنهم حسنا فعلوا عندما انتقلوا إلى هذا النادى، حيث كانت أجورهم أفضل، وكانوا يحصلون على بدل تدريب جديدة، وأحذية كرة جيدة، ومن حين إلى آخر دعوة لتناول خروف كامل مشوى على العشاء. أما أهم شىء فهو أن عدى كان يحول بينهم وبين أن يرسلوا إلى جبهة القتال. كان كل اللاعبين يرسلون إلى وحدة خاصة تتبع الحرس الجمهورى كانت بغداد هى محل خدمتها.

كان مشجعو النوادى العريقة غاضبين من سرقة عدى الدنيئة لأفضل لاعبيهم. كل العراقيين تقريبا من مشجعى كرة القدم، وكثير منهم لا يزال يتذكر جيدا أول مباراة لفريق عدى ضد فريق العاصمة، نادى الطلبة، المرشح الأكبر للفوز، فى ملعب الشعب فى بغداد فى ليلة من ليالى الشتاء فى مطلع عام ١٩٨٥.



بُنى هذا الملعب لممارسة الرياضة وكرة القدم فى عام ١٩٦٦ بأموال الهيئات الخيرية لبارون البترول الأرمنى كالوست جولبنكيان . كان هناك ستون ألفا من المشاهدين فى ملعب الشعب عندما أطلقت صافرة البداية . كان خمسة وتسعون بالمائة من المشاهدين يساندون نادى الطلبة ، أما الألف المتبقية من المشاهدين فقد دفع لهم ليشجعوا الرشيد على قدر ما أوتوا من قوة . أما المذيع فقد أمره ابن الرئيس بأن يحذر أعضاء الفريق المقابل لفريق الرشيد من اللعب بصورة جيدة وترك لنفسه الحبل على غاربه فى استعمال مكبرات الصوت فى الاستاد لتشجيع الوافدين الجدد (الرشيد) على أرض الملعب تشجيعا ناريا ، فقد كان عليهم أن يعطوا كل ما عندهم لسحق الخصم .

سرى القلق إلى المدرجات ، وأخذ الناس فى رمى اللاعبين الذين خانوا نادى الطلبة ، وفروا إلى عدى . كان على وحدات كبيرة من الشرطة التدخل لإيقاف القاذفين بالحجارة والقضاء على التمرد الوليد .

أما المأساة الكبرى فكانت الحكم . فى كل مرة كان يحتسب فيها ضربة حرة ضد الرشيد كان ينظر فى رعب إلى منصة الشرف ليرى رد فعل ابن الرئيس . تقدم نادى الطلبة لفترة كبيرة من عمر المباراة بهدف . احتسب الحكم فى آخر دقيقة ضربة جزاء لفريق الرشيد . لم ير المتفرجون أحدا من لاعبى نادى الطلبة يرتكب أى خطأ ، غير أن جميعهم أدرك أن هذا الحكم المسكين كان عليه أن يفعل أى شىء للنجاة بحياته .

انتهت المباراة بالتعادل بهدف لكل فريق .

مع نهاية عام ١٩٨٥ نجح عدى فى إقصاء آخر وزير للشباب والرياضة عبد الفتاح الياسين . كان الوزير شخصيا هو من أعد مشروع القانون الذى كان يهدف إلى ضم كل الوزارة إلى اللجنة الأوليمبية الوطنية للعراق . كان الأمين العام لهذه اللجنة هو كريم المولى ، لعدة شهور على أية حال .

لم يدم الأمر طويلا حتى كان عدى رئيسا للجنة الأوليمبية . كل الاتحادات الرياضية بأعضائها البالغ عددهم عدة ملايين عضو سقطت خاضعة فى حلبة عدى . كانت اللجنة تعد منصة قفز لا مثيل لها للوثوب على مزيد من السلطة وعلى مناصب أهم كثيرا .

أما الآن فقد أدت ضربة عصا غير محسوبة في الفجر، في العرس إلى إفساد كل شيء على ابن الرئيس.

أخذ صدام يبحث كالمجنون عن تفسير لما جد من أحداث وأخذ يتدبر إجراءات مناسبة بالنظر إلى الموقف المتغير. بعد يومين من موت كامل حنا استدعى جابر وما يقرب من خمسين من أصدقاء عدى لاستجواب جماعي في القصر الجمهوري. أراد الرئيس أن يتحقق عما إذا كان ابنه قد وقع فريسة لجماعة سوء وعما إذا كان ذلك هو السبب في المشاكل التي ظهرت له وللمحيطين به.

كانت هناك ورقة استبيان في انتظار هؤلاء الشباب. كان زوجا ابنتي صدام، أي حسين وصدام كامل، يمران عليهم ويراقبان ما إذا كان كلهم يجيبون على الأسئلة. هذا ما قام به أيضا كل من قصى وأرشد ياسين الذي كان مرافق، وزوج أخت صدام، والسكرتير الشخصي للرئيس. جلس صدام إلى مائدة زجاجية خلف القاعة متفحصا الوجوه، الواحد بعد الآخر. كان من الواضح أنه لا يزال ثائرا جدا بسبب المصير المأساوي للخادم الخاص به.

«كيف قابلت عدى»؟ كان هذا هو السؤال الأول.

تعرف معظمهم عليه مثل جابر في المدرسة الابتدائية، في المدرسة الثانوية، أو بعدها في الجامعة. بعضهم ربطتهم به علاقة صداقة لأنهم كانوا يسكنون في نفس الحي، وتبادلوا الحديث معه بالمصادفة. كثيرون تعرفوا عليه في الملاهي الليلية لبغداد. كلهم اتفقوا على أنه كان من السهل والمثير الدخول في زمرته، ولكن ما كان أصعب بكثير هو الخروج منها مرة أخرى.

كانوا حاشيته، وكان من واجبهم نحوه أن يسعدوه بوجودهم معه. وفي عصر كل يوم كان يُعلم حرسه الخاص مع مَن من أصدقائه يود قضاء السهرة، حيث كان هؤلاء يتلقون تليفونيا التوجيهات الخاصة بالمكان الذي يجب أن يوافوه عنده بلا تأخير. لم يجرؤ أحدهم على الرفض.

«ربما كان هذا العجب العجاب. ولربما كان يتمعن في البحث عن أكثر العقوبات جنونية لأصدقائه الذين كانوا يتحاشون لقاءه».



عبد الوهاب كان واحدا من هؤلاء الذين عرفوا عبر ما أصابهم منه كيف كان عدى غادرا. بوصفه صديقه كانت مهمته هى جمع الشابات لجلسات ابن الرئيس. أما كيف حل به غضب عدى فالسبب ليس واضحا تماما. غير أن جابر يتذكر أنه طلب منه التوجه إلى مزرعة تقع خارج بغداد بعض الشيء. كانت المزرعة مخصصة لتدريب كلاب الحراسة.

أمر عدى عبد الوهاب بالقفز فى حمام السباحة الخالى، وبإشارة من أحد مدربى الكلاب قفز من ورائه اثنان من الكلاب من فصيلة كلب الراعى، وانقضوا عليه. لم يُقض على عبد الوهاب، ولكن عندما طلب عدى من مدرب الكلاب إيقاف العقوبة التى كانت تنفذ فى حمام السباحة كان عبد الوهاب فى حالة يرثى لها.

فى اليوم التالى زاره عدى فى المستشفى ليستعلم عن حالته الصحية.

ابتسم عبد الوهاب وأجابه أن الأمر ليس خطيرا.

بطبيعة الحال كان الأصدقاء يرتعدون من استدعاء عدى لهم. كان يحدد لهم على سبيل المثال مقدار ما كان عليهم أن يشربوه من العرق، وفى أى مدة. كان يخلط لهم المشروبات الكحولية. بعضها كان يتكون من مقدار الثلثين من الويسكى مع مقدار الثلث من الصودا، وبعضها الآخر كان أكوابا ممتلئة بالفودكا. وعلى أية حال كان عليهم أن يتجرعوا هذا أو ذاك.

أما إذا رفض أحدهم أو أراد أن يغادر الغرفة فكان عدى ينادى على حرسه الذين كانوا يصبون العرق صبا فى جوف هذا البائس المسكين. طبقا لما قاله جابر كان عدى لا يمكن التنبؤ بأفعاله خاصة إذا بدأ فى أثناء السهرة بتناول الفودكا حتى الثمالة. وحينما كان الرشيد أو الفريق الوطنى يخسر بعض المباريات المهمة التى كان يتابعها فى التليفزيون كان من الممكن أن تكون العواقب وخيمة بالفعل.

أضاف عدى لمقتنياته عصا خاصة كتلك التى يستعملها زبانية التعذيب فى الشرطة السرية لتعذيب ضحاياهم فى أثناء الاستجواب بالصدمات الكهربائية. كان عدى يطيح بها هنا وهناك، ويفرغ ما بها من شحنة زائدة فى أصدقائه، كما كان كثيرا ما يحضر بندقية صيد، ويطلق عليهم النار ليتسلى.

«صحيح أن المقذوفات الصغيرة المصنوعة من الرصاص كان يتم نزعها من الخراطيش ، لكن الحلقات البلاستيكية الصغيرة التى توضع بين الطلقة والبارود كانت لا تزال موجودة فى الخراطيش الفارغة. عندما كان يبدأ عدى فى إطلاق النار ، وكانت هذه الحلقات البلاستيكية تصيبنا كانت تؤلمنا عظيم الألم ، مخلفة وراءها أوراما دموية قبيحة».

مثله مثل والده وبقية الأسرة كان عدى متطيرا بشكل لا يصدق.

«عندما كان الفريق الوطنى العراقى يفوز فى مباراة، وكنا فى أثناء نقل التليفزيون للمباراة جلوسا على أريكة ما، كان يطلب عدى منا فى المباراة القادمة أن نجلس على ذات الأريكة مرة أخرى».

«من حين لآخر كان عدى يطلب أن نقيم مباريات فى الملاكمة كان يلعب فيها دور قاضى الحلبة. كان يطلب من اثنين من الأصدقاء الموجودين أن يرتدوا قفازات الملاكمة، ولم تكن المباراة تُنهى إلا إذا سقط الواحد منهما مغشيا عليه من الضرب وأحيانا يستلزم الأمر أن يُنقل الاثنان إلى المستشفى».

«بمرور الوقت كنا نتظاهر بأننا هُزِمنا بالضربة القاضية».

لا شك أن من أعد ورقة الاستبيان كان هو حسين كامل. كان نشطا جدا وجمع معلومات من كل مكان بعد أن قتل عدى كامل حنا. وبالفعل استطاع كامل حسين أن يكون صورة لا بأس بها عن صهره.

«كم مرة ألقى بك فى السجن»؟ كان هذا أحد الأسئلة التى كان على الخمسين شابا أن يجيبوا عنها، والذين أخذوا يرتعدون تحت نظر الرئيس خوفا على حياتهم.

فى ساحة الثور فى وسط بغداد كان يقيم الحرس الخاص لصدام فى معسكر الجيش الصغير المسمى بالحارثية، والذى كان يقع بجوار المقر الرئيسى لجهاز المخابرات تماما. فى أرض المعسكر اكتشف حسين كامل ست زنزانات من الخرسانة تقع تحت الأرض، كان عدى قد أمر ببنائها فى سرية تامة لأصدقائه الذين لم يكن راضيا عنهم. كانت الزنزانات لا تزيد ارتفاعا وطولا وعرضا على المتر ونصف المتر. كان الهواء وبعض الضوء يدلف إليها من خلال فتحة صغيرة فى الخرسانة. كان من المستحيل أن ترقد أو تقف فيها، أما الجلوس فكان ممكنا شريطة فرد الساقين إلى آخرهما.



هبط جابر نفسه فى واحدة من تلك الزنزانات، بعدما شرب فى بيت عدى بعد جولة فى الحانات شيئا من الخمر. قامت واحدة من السيدات المتحررات بعض الشىء فى هذه الجلسة. وكان لا يزال بها بعض آثار السكر، بصب كأس من العرق فوق رأسه فى الساعات المبكرة من الصباح. تبادل معها السباب، وكان فى هذا الكفاية. اشتكت لعدى فكان أن أرسل حرسه الخاص ليعاقبوه بالسجن لعدة أيام فى الحارثية. بينما كان جالسا هناك تم إحضار صديق آخر من الأصدقاء. كان هذا المسكين قد تسبب فى حدوث «خبطة» فى سيارة استعارها من عدى، فكان أن أحضر إلى زنزانة من هذه الزنزانات.

أظهر ما قام به حسين كامل من تشمم وبحث مزيدا من الأمور. على سبيل المثال: هام عدى من رأسه حتى أخمص قدميه حبا بطالبة فى الجامعة التكنولوجية ببغداد. كانت رائعة الجمال. اعتاد ابن الرئيس أن يتقابل معها سرا. بلغت العلاقة درجة شديدة من الحدة والجدية أثارت قلق بعض أقربائه، إلى أن علم صدام فى آخر الأمر بهذا الحب المتأجج.

«هل كنت تعرف عن علاقة الاثنين»؟ كان هذا السؤال مكتوبا فى ورقة الاستبيان.

بالطبع كانوا يعرفون. لم يخف عدى أبدا مدى اهتمامه الشديد بهذه الفتاة.

ما مقدار ما يشرب من الكحوليات؟ ما مقدار ما يقدمه من الكحوليات؟ هل يتناول المخدرات؟

جلس الأصدقاء والعرق يتصبب منهم، وأخذوا يجيبون كما لو كان هذا امتحان البكالوريا.

جمع حسين كامل أوراق الاستبيان المكتوبة وأعطاها لصدام الذى لم يعد بمقدوره السيطرة على أعصابه أطول من ذلك.

«سأتخلص من عدى»!، قالها صدام صائحا ليهوى بقبضته على اللوح الزجاجى. انكسر اللوح، وانطلق الدم زخات.

أصيب صدام بقطع سطحى فى باطن اليد. اكتفيت بغرزتين عندما أتى إلى مستشفى

ابن سينا بعد الاستجواب الذى تم فى القصر الجمهورى لكثير من الأصدقاء الذين كان قسمٌ منهم مكرها على هذه الصداقة.

كل الخمسين صدر إليهم توجيه بما لا يدع مجالا لسوء الفهم بألا يتقابلوا مع عدى مرة أخرى. كان عليهم أن يوقعوا على إقرارات بهذا الخصوص تم جمعها من أيضا منهم. بعد ذلك أرسل صدام واحدا من حرسه الخاص إلى والد الطالبة الجميلة، حيث أخبر بأنه يجب أن يوضع حد لمقابلات ابنته السرية مع ابن الرئيس.

من سيتزوج عدى؟ هذا ما سوف يقرره صدام وحده وليس غيره.

فى اليوم التالى سحبت من عدى كل المناصب العامة. تم استدعاؤه هو وجابر إلى الرئيس. كان للفرقة الخامسة من الجيش سجن فى أراضى القصر الجمهورى، حيث تم هناك إعداد زنزانات لهما. أو هذا ما أكدوه لصدام على الأقل. غير أن صداماً لم يضع فى حسبانه أن رئيس السجن من أقرباء عدى طلب من ستة من الجنود أن يُخلوا غرفهم فى واحدة من العنابر بسيطة البناء، حيث انتقل بعدها عدى، وجابر للإقامة هناك.

أقاما فى تلك الغرفة أربعة عشر يوما. كان عدى طوال الوقت مكتئبا وسريع الاستثارة. حاول جابر مرارا وتكرارا أن يجره للحديث، لكنه لم يستطع إليه سبيلا. لم ينبس عدى ببنت شفة لصديقه فى أثناء إقامتهما هناك.

فى ذات يوم عج المعسكر بالاضطراب؛ فالشائعات تقول إن صدامًا يخطط لزيارة مفاجئة. فى عجالة تم شحن عدى وجابر إلى زنزانة لكل منهما، لكنه سمح لهما بالعودة إلى غرفتيهما بعد ذلك بعدة ساعات. فما أعلن من زحف للرئيس عليهم لم يكن سوى إنذار كاذب.

فى أثناء ذلك كان يجرى تجهيز سجن خاص لعدى. واحد من البيوت الكثيرة للرئيس كان يقع على تل فى حى الرضوانية، حيث كان يوجد تحتها بعض الكهوف القديمة. تم إعادة بنائها على شكل زنزانة نقل إليها عدى.

فى ذات مساء أتى صدام وقضى الليل أمام باب الزنزانة، كما باتت ساجدة ليلة أخرى فى زنزانته. أراد الاثنان أن يظهرا له أنهما ما يزالان يعتبرانه ابنهما. بعد ٤٦ يوما أطلق سراح عدى، أما صديقه الذى كان ما يزال يقضى عقوبته فى راحة تامة عند الفرقة الخامسة للجيش فى قصر الجمهورية فقد خرج بعده بيومين.

لم يكن بطبيعة الحال من الممكن إخفاء قتل عدى لكامل حنا عن الرأى العام. انتشرت الشائعة فى كل العراق انتشار النار فى الهشيم. لذلك أخذ صدام أيضا زمام المبادرة ودعا أقرب أقرباء الخادم الخاص إلى القصر الجمهورى. اتخذ الصلح الذى وردت أنباؤه فى التليفزيون الشكل التقليدى المتعارف عليه فى المجتمع العراقى الذى تحكمه الأسرة والعشيرة:

«وقعت مشكلة بين عائلتينا يجب حلها فى وئام»، قالها الرئيس. بعدها كاد أقارب كامل حنا أن يستعطفوا الرئيس فى أن يشمل ابنه الأكبر مرة أخرى برحمته.

أربعة عشر يوما بعد الإفراج عنه تلقى عدى الأمر من والده بالسفر إلى جنيف، حيث كان عمه برزان يشغل منذ بداية العام منصب سفير العراق فى الأمم المتحدة. كُلف العم بأن يأوى ابن أخيه فى محل إقامته وبأن يتولاه بالرعاية. كانت طائرة من طائرات الخطوط الجوية العراقية من طراز بوينج ٧٢٧ تقف على أهبة الاستعداد للطيران به من بغداد إلى سويسرا.

أما عدى الذى عين بوظيفة سكرتير أول فى ممثلية العراق الدائمة لدى الأمم المتحدة فى جنيف فلم يكن ينهض بأى أعباء دبلوماسية، لا لعمه ولا لوطنه. كان لا يظهر مع الوفد ولم يستطع تحمل الإقامة فى سويسرا سوى أربعين يوما. بعدها هرب عدى لعظيم ارتياح شرطة جنيف إلى باريس، فقد كان عندها من تجاوزاته المفرطة فى البارات والملاهى الليلية وما شابهها من أماكن الترفيه ما يكفى ويفيض.

من باريس سافر عدى إلى إسطنبول، وبعد إقامة لمدة ثلاثة شهور فى الخارج ظهر عدى مرة أخرى فى مطار بغداد، دون أن يسمح له صدام بذلك، وهو الأمر الذى بقى محل شك.

لم يقدم صدام ابنه أبدا للمحاكمة. تم تكليف اثنين من القضاة بفحص القضية والحكم عليه بعقوبة ما. لكنهم لم ينهوا عملهم أبدا.

أما الاستخبارات الخاصة بالرئيس عن كامل حنا فقد أظهرت ما كان خافيا عليه. استغل الخادم الخاص منصبه ليؤسس واحدا من دور الضيافة الستة الفاخرة كعش للغرام. كما أنه بنى حمام سباحة مغلقا ملحقا بحمام السباحة المفتوح وغيره.

وهنا أخذ يلهو فى المقام الأول مع الوصيفات، والجرسونات، ومديرات المنازل من مجموعة خدم الرئيس، وهذا ما آلم صدام ألما عميقا.

الفصل السابع

عاصفة الصحراء

في مساء الأول من فبراير من عام ١٩٩١ كنت جالسا إلى المائدة مع زوجتي وأبنائنا الثلاثة وابنتي، حينما سقطت القنابل على بغداد، وحيث كانت القذائف تنفجر في كل مكان. لم يكن هناك كهرباء منذ فترة طويلة، وكنا لا نزال نجلس على ضوء الشموع كما كان الحال دائما في غرفة في منتصف المنزل. إما أن ننجو في هذه الليلة، أو أن العائلة كلها ستمضي نحبها سويا، إذا أتى الدور علينا. وهكذا ربما كان من الأفضل - كما دار الفكر بنا - أن نفعل مثل كثير من العائلات التي دفع الخوف أفرادها إلى البحث عن الملاذ فيما بينهم أنفسهم.

كان دوي قذائف القنابل مصدئ الرنين فوق رءوسنا أشبه بالصوت المصم للآذان لمثقاب طبيب الأسنان. بعدها نسمع صوت الانفجارات. تهشمت النوافذ، وارتج بيتنا ارتجاجا عنيفا. كشفت صفارات الإنذار أن سيارات الإسعاف كانت في طريقها إلى القتلى والمصابين.

كانت هجمات الطيران العنيفة قد بدأت قبلها بأربعة عشر يوما تمهيدا «لعملية عاصفة الصحراء» التي كانت رد الأمم المتحدة على غزو الكويت في أغسطس من العام السابق. كان الهدف هو طرد جنود صدام من الكويت، ولكن قبلها عزمت قوات التحالف التي كانت تجري استعداداتها في المملكة العربية السعودية، بمختصر العبارة على قصف كل شيء بالقنابل، المراكز العسكرية الرئيسية للعراق، مراكز القيادة المركزية والمطارات، والمباني الإدارية الحكومية، والوزارات، ومراكز الاتصال، والشوارع، والجسور ومحطات الطاقة.

فى هذه الليلة من ليالى الحرب لم يدم تناول الطعام مع الأسرة طويلا. فى الساعة العاشرة والنصف طرق اثنان من حرس صدام الخاص بابى. كان معهما سائق. كانوا مضطربين عصبيا وأمرونى بالتوجه معهم فورا إلى مستشفى ابن سينا.

اخترقنا بسرعة شديدة شوارع مدينة بغداد الغارقة فى الظلام. لم تكن رؤية أى شىء ممكنة إلا عندما كانت إحدى القنابل أو أحد الصواريخ ينفجر بالمقربة منا. كنت على ثقة أن هذا المشوار سينتهى بكارثة، وشكرت الخالق عز وجل عندما وصلنا إلى هدفنا بلا خدوش.

كان المستشفى محاطا بالجنود. الممرات أيضا كانت تعج بهم. عندما سجلت اسمى فى دفتر الحضور أصاب صاروخ البناء المبنى من الطوب الذى اتخذه جهاز الأمن للرئيس مقرا له، والذى كان لا يبعد سوى بضع مئات من الأمتار من مستشفى ابن سينا. كان الانفجار شديدا للغاية حتى أن عديدا من النوافذ على ناحية من نواحى المستشفى قد تطايرت إلى الداخل.

فى غرفة العمليات الواقعة فى الطابق الأرضى كان يرقد صدام. كان منظر وجهه لا يسر عدوا أو حبيبا.

«رجوتهم ألا يفعلوا شيئا حتى تأتى»، قالها صدام مضيفا: «لقد تعرضت لحادث سيارة».

كان الرئيس شاحب الوجه وملطخا بالدماء، غير أنه كان هادئا، رابط الجأش.

دار الحديث عن اصطدام سيارة صدام فى تقاطع مع سيارة أخرى فى الظلمة الحالكة لبغداد. كان نصف وجهه الأيسر تحديدا قد تعرض للإصابة. كان يسيل الدم منه من جرح فى جبهته وسحجة فى خده الأيسر. كان هناك قطع أكثر غورا فى ذقنه حتى العظم.

كانت أنملة الخنصر الأيمن للرئيس تكاد تكون مقطوعة، فقد أخذت تتأرجح على كفه هنا وهناك، وقد تعلقت فقط بطبقة رقيقة من الجلد. أما الظفر فلم يكن موجودا. بعد أن نظفت الجراح، وأمرت بإجراء أشعة على الرأس واليد اليمنى بدأت - بعد أن خدرته موضعيا - فى ترقيع جروح الرئيس. أعدت أنملة الخنصر إلى مكانها، خيطتها بإحكام ووضعت جبيرة على الأصبع. بعدها وضعت له ضمادة.

سألنى: «هل تستطيع أن تتجنب وضع ضمادات على وجهى»؟

أجبته بالإيجاب، وقلت له إننى أستطيع أن أخيط بعض الغرز الصغيرة تحت أول طبقة خارجية للجلد، بحيث لا يكاد يُرى شيئا.

«يجب أن تعرف أننى سأقابل غدا بريماكوف، ولا أريد أن تظهر جراحى فى الصور التليفزيونية التى ستبث فى العالم كله».

كان يفجينى بريماكوف، وكان مستشار السياسة الخارجية للرئيس السوفييتى ميخائيل جورباتشوف، قد توجه إلى بغداد فى مهمة خاصة تتمثل فى دفع العراق للانسحاب من الكويت والتوصل لحل سلمى يرضى عنه صدام دون أن يفقد ماء وجهه.

كان يتحدث العربية وتعرف على صدام فى الستينيات عندما كان يعمل مراسلا صحفيا فى الشرق الأوسط لجريدة الحزب «برافدا». كان يحظى بثقة كبيرة، ليس فى بغداد فحسب، بل إن عاهل الأردن الملك حسين والرئيس السورى حافظ الأسد كانا يستأنسان بمقترحات بريماكوف.

لم يُجرح فى هذا الحادث الرئيس العراقى فحسب، بل أيضا حارسه الخاص، وزوج ابنته صدام كامل. فقد أصيب بجرح نافذ فى شفته السفلى، بحث يمكن رؤية أسنانه من خلاله.

«هل تستطيع أن تعتنى به هو الآخر»، سأل حماه.

أجبت قائلا: «بالطبع».

كنت منهمكا فى الإعداد للعملية حينما ظهر الرئيس عند الباب.

«هل يمكن لى أن أدخل»؟

«تفضل».

جلس وأخذ بيد صدام كامل.

«اعمل على إخفاء الندبة بقدر ما تستطيع».

طوال العملية التى استغرقت ما يقرب من الخمس والأربعين دقيقة كان صدام يمسك بيد زوج ابنته. لم أره يفعل مثل هذا الشىء مع أى من أقربائه لا من قبل ولا من بعد.

كان لا يزال هناك فى السيارة المنكوبة أشخاص آخرون. ما إن انتهيت من صدام كامل حتى اختلى الرئيس بى جانبا وطلب منى أن أتوجه بأسرع ما يمكن إلى مستشفى الكاظمية فى بغداد.

قال لى: «هناك ترقد مواطنة أصيبت هى الأخرى فى الاصطدام. أرجو أن تعمل قصارى جهدك من أجلها إذا تكرمت».

كان هناك واحد من الحرس الخاص للرئيس يقف أمام غرفتها عندما وصلت إلى هناك. أدركت على الفور أن الأمر لا يمكن أن يكون له علاقة بأى مواطنة عادية؛ كانت شقراء، زرقاء العينين، ما بين الأربعين والخمسين.

كانت عظمة الخد اليسرى مكسورة، كما كان هناك جرح قطعى غائر فى جبهتها. أعددت كل شىء حتى يتسنى إجراء الجراحة لها فى صباح اليوم التالى، وحكيت لها أن الرئيس كلفنى أن أعتنى بها على قدر طاقتى. عندما كنت فى غرفتها سألت الحارس الخاص إذا كان فى إمكانه توفير بنزين لسيارتى. فى هذه الأيام العصيبة من أيام الحرب كان من شبه المستحيل العثور على وقود.

قالت السيدة وهى تنظر إلى الحارس: «وفر له خمسين لترا».

فى هذه اللحظة أدركت أنها على علاقة أكثر حميمية بصدام عما كنت أظن فى بادئ الأمر.

كانت سميرة شاهبندر، الزوجة الثانية للرئيس.

تقابل الاثنان بالمصادفة فى بداية الثمانينيات. كانت شركة الخطوط الجوية العراقية قد اشترت آنذاك طائرة جامبو عملاقة. اصطحب رئيس الشركة فى لندن زوجته إلى بغداد لكى تشهد مراسم تسليم الطائرة وما يليها من احتفال. وكان عليه ألا يفعل ذلك؛ فقد وضع صدام عينيه عليها.

كانت هناك شائعات، غير أن قليلين كانوا يعرفون عن الصديقة الجديدة للرئيس، ولا حتى ولداه عدى وقصى كانا يعلمان بالأمر، لكنهما كانا يشكان أن والدهما قد عاد للحب من جديد. أضاف إلى مقتنياته سيارة ليموزين كبيرة لها جدار معتم عازل للصوت يفصله عن السائق والحارس الخاص.

ظافر محمد جابر - صديق عدى وسكرتيره الخاص - كان له أقارب يقيمون بالمقربة من السفارة الصينية فى حى العامرية الذى يبعد كثيرا عن القصر الجمهورى. كانت سميرة شاهبندر قد انتقلت للإقامة فى منزل يقع قريبا جدا من هناك.

شيئا فشيئا بدأ الحديث يكثر بين الجيران يتحدثون بطبيعة الحال عن المرسيدس الكبيرة والحرس الخاص اللذين كانا يقلانها باستمرار. كما لم يغب عن الجيران أيضا الطريقة التى عادت بها بعد العملية فى عظمة الخد المكسورة من المستشفى إلى البيت.

فى أحد الأيام كان جابر ومعه عدى فى زيارة لأقاربه. بدأ فى الحديث عن الجارة المضمد وجهها التى أعادها الحرس الخاص للرئيس إلى المنزل. كان يبدو عليها أنها تعرضت لحادث. لم يدم الأمر طويلا حتى ربط ابن الرئيس الأحداث بعضها ببعض.

«لقد جرحا فى نفس الحادث».

طبقا لما رواه جابر توجه الاثنان بعدها مباشرة إلى أحد أماكن إقامة قصى بالمقربة من القصر الجمهورى، حيث روى عدى لأخيه ما اكتشفه.

قال عدى: «أظن أن والدنا يلعب بذيله كما نفعل نحن تماما».

رد عليه قصى قائلا: «إياك أن تخرج منك كلمة عن هذا الموضوع».

سرعان ما تحولت بغداد إلى مدينة للأشباح بعدما بدأت الهجمات الجوية وبعدما خلت الشوارع من المارة.

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع. إن القذيفة التى تطير فى الهواء تتميز بتأثيرها القاتل عندما تنزل مرة أخرى إلى الأرض. كل مرة كانت فيها الطائرات الأمريكية والبريطانية تظهر فى السماء، كان رجال المدفعية يبدءون عملهم. فى العادة كانت تستعمل مدافع رشاشة ثقيلة. بالرغم من أن مدى التأثير لهذه الرشاشات كان مضحكا



قياسا على بعد الأهداف إلا أن الجنود الذين كانوا يشكلون طواقم هذه الرشاشات كانوا يطلقون النار. كانوا يتتبعون الطائرة بنيرانهم إلى أن تختفى فى الأفق، دون أن يضعوا فى حسبانهم أن مسار القذائف كان منخفضا للغاية حتى أن الطلقات كانت فى الغالب الأعم تصيب المنازل. كانت إصابات معظم الجرحى الذين كانوا ينقلون إلى مستشفى الواسطى والمستشفيات الأخرى هى من طلقات عراقية.

آن الأوان لنا نحن العراقيين أن نحصد الثمار المرة التى زرعها صدام بالاشتراك مع على حسن المجيد، وقصى، وحسين كامل. أمر الرئيس باحتلال الكويت. تولى ابن عمه على حسن المجيد، وابنه الأصغر قصى، وزوج ابنته إرسال القوتين الخاصتين للرئيس - أى الحرس الجمهورى والقيادة الخاصة للحرس الجمهورى - عبر الحدود إلى تلك الإمارة الصغيرة، غير واضعين فى حساباتهم أن العراق سيواجه المشاكل مع الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الأخرى.

كان على حسن المجيد هو القائد الأعلى، بينما كان حسين كامل نائبه. طبقا لأقوال نزار الخزرجى فإنه لا وزير الدفاع عبد الجبار شنشل ولا هو بصفته رئيس أركان الجيش كان لديهما علم مسبق بهذا الهجوم.

روى لى الفريق الركن نزار الخزرجى فيما بعد الآتى: «لم نعرف بالأمر إلا عن طريق أخبار الصباح فى المذياع».

هكذا كان هيكل السلطة العسكرية فى العراق. كان الحرس الجمهورى مستقلا استقلالا تاما، ولم يكن لا وزير الدفاع ولا رئيس أركان الجيش يتم إبلاغهم بعمليات القوات الخاصة. فإذا ما طرحا الأسئلة كان الرد هو انعدام الثقة، وكان هذا فى أسوأ الأحوال يرتبط بحياتهما.

فى صيف عام ١٩٩٠ كان العراق يواجه مشاكل اقتصادية متزايدة الضخامة. أدت الحرب ضد إيران التى استمرت ثمانية أعوام، والمبالغ الباهظة التى دفعت لشراء الأسلحة والذخائر وغيرها من مواد الحرب التى كانت ضرورية لهذه الحرب إلى إغراق النظام الحاكم فى الديون التى لم يكن من سبيل للفرار منها إلا بزيادة العائدات من بيع النفط. غير أن فتح صنابير النفط لم يكن له أى معنى ما لم تنجح منظمة الأوبك فى منع تدهور جديد لأسعار السلعة التصديرية الأهم والوحيدة تقريبا لصدام.

كان النصف الثانى من الثمانينيات صعبا على المنظمة . كان الإنتاج العالمى للنفط أعلى من الطلب عليه، كما أن كثيرا من الدول الأعضاء فى المنظمة كانت تغش وتنتج نفطا أكثر مما هو متفق عليه فى اجتماعات وزراء النفط فى جنيف وفيينا . وصلت أسعار النفط إلى أدنى مستوى لها، ولم ترتفع الأسعار مرة أخرى إلا عندما عملت السعودية وإيران معا على تحقيق الانضباط فى صفوفهما وعلى تخفيض إنتاجهما .

غير أن الكويت كادت أن تفسد الأمر الآن؛ فقد كانت الإمارة تنتج مجددا ما يزيد على المتفق عليه، كما طالب وزير النفط الكويتى، عندما تقابل هو وزملاؤه من الدول الأعضاء الأخرى فى اجتماع الشد والجذب فى يوم الخامس والعشرين من شهر يوليو فى جنيف، أن تمنحه الأوبك حصة جديدة وأكبر من الإنتاج . غامر الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح بكثير من الأمور . فى اجتماع قمة الجامعة العربية فى بغداد فى الشهر الذى سبقه وجه إليه صدام تحذيرا واضحا: إذا استمرت الكويت فى تجاوز الحصة المقررة من الإنتاج فإنه سيعتبر هذا إعلانا للحرب .

وعلى الرغم من ذلك لم يعتقد سوى قليلين أن الرئيس العراقى سيكون جادا فى تهديده، عندما أرسل ٣٠ ألفا من جنود القوات الخاصة إلى الحدود مع الكويت، وذلك قبل اجتماع منظمة الأوبك فى جنيف . وعندما هدأت الكويت من ثورة العراق فى اجتماع وزراء النفط، وتعهدت بتحسين الأمور، ووعدت أنها ستلتزم فى المستقبل بحصص الإنتاج التى قررتها المنظمة خفت حدة التوتر بشكل واضح .

علاوة على ذلك عادت المفاوضات المباشرة مرة أخرى بين العراق والكويت بوساطة من السعودية . كانت المفاوضات متعلقة بمسار الحدود، أسعار النفط، والديون الكبيرة التى تراكمت على بغداد لدى الكويت فى أثناء الحرب ضد إيران .

ظننا كلنا أن صوت العقل قد انتصر، وتنفسنا الصعداء .

لكننا تعجلنا الفرحة . فى يوم الثانى من أغسطس فى الساعة الثانية صباحا والساعات التى تلتها عبر الحرس الجمهورى - والقوات الخاصة التابعة له - الحدود فى اتجاه الكويت بمساندة من الطائرات ومن المروحيات . لم يلق الغزو سوى مقاومة محدودة .



كان قائد سرب المروحيات فى الحرس الجمهورى هو اللواء حكم التكريتى، وهو واحد من أصدقائى القدامى الذين تعرفت عليهم حينما كنت أؤدى خدمتى العسكرية فى منتصف الستينيات كمسئول صحى فى قاعدة الحبانية الجوية الواقعة بين الفلوجة والرمادى شمال غرب بغداد.

قبل الهجوم تم استدعاء كل طيارى المروحيات إلى حسين كامل لتوزيع الأوامر. كان حسين كامل مشاركا مشاركة رئيسية فى التخطيط دون أن يكون لديه أى خلفية عسكرية تستحق الذكر عن هذا النوع من المهام.

«أريدكم أن تطيروا فى أثناء الهجوم طيرانا منخفضا بقدر الإمكان. غير مسموح لكم أن تطيروا على ارتفاع يزيد على الخمسة عشر مترا»، قالها زوج ابنة صدام.

اعترض حكم التكريتى.

«لا يمكن أن ننزل إلى هذا الارتفاع دون أن نثير زوبعة من رمال الصحراء والتراب، إذ إن الرؤية ستكون عندها معدومة تماما. ولن نتمكن وقتها من رؤية أى شىء من كابينة القيادة».

سأله حسين كامل مستنكرا: «لماذا تحاول أن تثبط من همم الطيارين»؟

أجابه اللواء حكم التكريتى: «هذا ليس قصدى. كل ما هنالك أنى أخاف أن أفقدهم فى حال ما إذا طاروا أقل من خمسة عشر مترا ارتفاعا».

فرض زوج ابنة صدام إرادته، كما روى لى حكم التكريتى عندما قابلته بعد انتهاء حرب الخليج.

فى غضون الساعة الأولى من الغزو سقطت ٥٨ طائرة، إما لأنها اصطدمت بعضها ببعض أو اصطدمت فى ظل الرؤية السيئة بأسلاك الضغط العالى.

فى بغداد ارتفع المديح فى قنوات الإذاعة والتليفزيون وفى الجرائد التى تسيطر عليها الدولة جميعا حتى بلغ عنان السماء تمجيدا للاحتلال على أنه ضربة عبقرية تكتيكية استراتيجية للرئيس، أما فى الكويت فقد بلغت أعمال النهب الواسعة حدا يقترب من هذا الذى نعرفه من العصور الوسطى. قاد على حسن المجيد المسمى بـ «على

الكيماوى» وسبعاوى التكريتى هذه الأعمال، فقد عُين الأخير حاكما على المحافظة العراقية الجديدة.

لم يستطع الأمير، وعائلته، وأقاربه وغيرهم من نخبة الإمارة أن يأخذوا معهم الكثير عندما دقت صفارات الإنذار. مع أول خيوط الفجر اُضطروا إلى الهرب إلى المملكة العربية السعودية فى عجلة شديدة من أمرهم. تملكت الدهشة الشديدة على حسن، وسبعاوى، وبشكل أو بآخر أيضا حسين كامل، وقصى عندما أخذا يتنقلان بحرسهما الخاص من قصر إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، وأخذا يجمعان كل ما تركه الكويتيون المتخمون ثراء من الذهب، والألماس، والأموال وسيارات الليموزين الفارهة، والأثاث الإيطالى رفيع المستوى، حيث نقلت قافلة من سيارات النقل هذه الأسلاب إلى بغداد. أما الضباط ذوو الرتب الصغيرة ورجال الأعمال العراقيون المغامرون الذين تدافعوا على الكويت فقد وضعوا أياديهم على ما ترفع عنه علية القوم.

غير أن صدامًا أمر بعدها باعتقال وتصفية بعض الضباط الجشعين، أما اللصوص الكبار، أى أقاربه، فقد نجوا بفعلتهم.

كان عبد السلام محمد سعيد فى زمن الغزو والنهب هو وزير الصحة. وتنفيذا للأمر اتصل بى فى مأموريتى كمدير لمستشفى الواسطى وأخبرنى أننا نحن أيضا علينا التوجه إلى هناك.

«هناك فى الكويت مستشفى بها وحدة جديدة تماما لإصابات الحروق مجهزة تجهيزا راقيا. يجب أن تسافر إلى هناك وترى ما قد تحتاجه مستشفاك».

لم أسافر إلى هناك. بعدها بأسبوعين اتصل بى وزير الصحة من جديد.

«هل ذهبت إلى هناك؟»

«لا».

«ولم لا؟»

«لم أستطع إرغام نفسى على فعل ذلك. اسأل أحدا غيرى».

لم يكن جميعنا مثل ترددى. كثير من زملائى نفذوا بلا تردد مطلب وزير الصحة



وسافروا إلى الكويت، رامين بالاعتبارات الأخلاقية عرض الحائط، حيث أخذوا معهم إلى العراق من المستشفيات والمرافق الصحية كل الأدوية، والتجهيزات الصحية الفنية، والأدوات، وغيرها من الوسائل المساعدة. كان رئيس نقابة الأطباء العراقيين نفسه المرحوم الدكتور راجي التكريتي قد نفذ أمر تجريد نقابة الأطباء في الكويت من كل الكتب العلمية، والمجلات الطبية، والكراسي، والمكاتب والحاسبات الإلكترونية. ونفس هذا الشيء قام به الأساتذة والعلماء في جامعاتنا وغيرها من المعاهد العليا ما إن وطأت أقدامهم المؤسسات العلمية وأماكن الدراسة في الكويت. هم أيضا تلقوا التوجيهات من وزرائهم بالسفر إلى هناك وأن يأخذوا راحتهم.

أما رئيس نقابة الأطباء العراقيين - والشيء بالشيء يذكر - فلم يستمتع كثيرا بما سلب. فقد قدم للمحاكمة، هو ومجموعة من الضباط الذين شك صدام في أنهم يخططون لانقلاب ما، حيث أعدم د. راجي التكريتي مع هؤلاء الضباط.

كان لا بد أن ينتهي الأمر بأهوال؛ ففي يوم الغزو ذاته ندد مجلس الأمن الدولي بالاجتياح العراقي وطالب بالانسحاب الكامل. بعد ذلك بأربعة أيام فرض مجلس الأمن عقوبات اقتصادية شاملة ضد العراق. أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى السعودية للدفاع عن المملكة إذا ما أمر صدام قواته بمواصلة الزحف من الكويت في اتجاه الجنوب. كانت تنتظرنا من جديد حرب كبيرة، تسيل فيها الدماء أنهارا.

في يوم الثامن عشر من سبتمبر، أي بعد شهر ونصف من احتلال الكويت، استدعى صدام القيادة العامة للقوات المسلحة لمناقشة الوضع. وعندما أصبح جليا أن الولايات المتحدة الأمريكية ستلجأ إلى قوتها العسكرية الهائلة لطرد صدام من الكويت، ما لم يأمر بنفسه بسحب الجنود غير المشروط. كان هناك أكثر من ثلاثين دولة راغبة في المشاركة بطائراتها، وسفنها الحربية، وقواتها في التحالف، وعملية الأمم المتحدة التي عمدها الأمريكان باسم «عملية عاصفة الصحراء».

كان رئيس أركان الجيش نزار الخزرجي هو أول المتحدثين. وضح للرئيس أن أفضل شيء للعراق هو سحب الجنود فورا.

قال: «لقد لقنا الأمير درسا، ولذلك فإنه ليس من الضروري البقاء هناك لفترة أطول».

بوصفه رئيس أركان الجيش لم ير الخزرجى أى وسيلة لإيقاف القوات المتحالفة التى تجمعت فى الخليج.

«الوضع واضح. إنهم يتفوقون علينا حتى من وجهة النظر الفنية فقط تفوقا هائلا. بالإضافة إلى ذلك فإن طرق الإمدادات بالنسبة لنا طويلة للغاية. فإذا ما بقينا فى الكويت تعرضنا لخسائر فادحة».

جن جنون صدام من الفريق الركن الخزرجى:

«أيعنى هذا أنك لا تريد أن تقاتل؟»

«لا يا ريس. أنا جندى وسأطيع الأوامر التى ستوجهها لى. لكنك سألتنى عن تقييمى للموقف، وها هو ذا بين يديك».

نهض الرئيس وغادر المكان دون أن ينبس ببنت شفة. فى صباح اليوم التالى - هكذا روى لى الخزرجى بنفسه - سلمه أحد الضباط خطابا من صدام.

كتب صدام فى الخطاب: «يؤسفنى أن أخبركم أنكم بوصفكم رئيس أركان الجيش أصبحتم غير مرغوب فيكم. أشكركم على مجهوداتكم فى الخدمة، ومستقبلا ستكونون فى خدمة مكتبى كمستشار».

لم يفهم الخزرجى تماما ماهية وظيفة المستشار التى كان من المقرر أن يؤديها، ومن ثم فقد اتصل برئيس ديوان رئاسة الجمهورية.

«هذا يعنى أنك ستظل فى بيتك. وفى حالة ما إذا احتجنا لنصيحتك سنتصل بك».

لم يتصل أحد بنزار الخزرجى إلى أن انتهت حرب الخليج وتمرد الأكراد فى الشمال والشيعة فى الجنوب.

فى يوم التاسع والعشرين من نوفمبر أصدر مجلس الأمن الدولى قرارا جديدا بناء على طلب الولايات المتحدة الأمريكية والذى أعطى لقوات الائتلاف الضوء الأخضر لاتخاذ ما تراه من إجراءات ضرورية لإعادة «السلام والأمن» فى منطقة الخليج، ما لم تنسحب القوات العراقية فى موعد أقصاه الخامس عشر من يناير.

أما النقلة الدبلوماسية لصدام المتمثلة فى رغبته عقد مؤتمر دولى لبحث هذا



الانسحاب متضامنا مع بحث النزاع المستمر بين اليهود والفلسطينيين فى الأرض المحتلة فقد رفضتها الولايات المتحدة رفضا قاطعا .

بوصفى مديرا لمستشفى الواسطى تلقيت فى اليوم التالى للعام الجديد ، أى فى الثانى من يناير من عام ١٩٩١ ، الأمر بتجهيز المستشفى لاستقبال ضحايا القنابل فى حال ما إذا هوجمت بغداد من الجو . كانت هذه الاستعدادات بسيطة ؛ فالخبرة والروتين المكتسبين من الحرب ضد إيران التى انتهت قبلها بعامين ونصف فقط كانت ما تزال حاضرة حضورا قويا . أما الذى كنا متأكدين منه تماما فكان هو هذا الكم الهائل من الموت والبؤس الذى ينتظرنا .

فى الأتيليه الخاص بى ، وهو يعود للفنانة المرحومة سهام السعدى ، كنت أعمل فى تمثال جديد عبارة عن حمامة تطل من رأس رجل . كانت تعبر عن الأمل اليائس فى أن يحصل السلام فى آخر الأمر برغم كل شىء على أن يكون واقعا وينسحب الجيش العراقى من الكويت . ما إن انتهيت من وضع اللمسات الأخيرة على هذا التمثال المنحوت حتى اتصل بى وطبان التكريتى ، الأخ الأصغر غير الشقيق لصدام . كان يشكو من آلام فى إحدى قدميه وأراد منى أن أعوده فى مكتبه فى القصر الجمهورى لفحص هذه القدم .

قال لى : «يؤسفنى أننى ليس عندى وقت للذهاب إلى مستشفى ابن سينا» .

أسرعت بإنهاء العمل فى التمثال ووقعت عليه اسمى : «علاء بشير ، ١٤/١/١٩٩١» . بعدها خزّنته فى مكان أمين ؛ فربما يستغرق الأمر وقتا إلى أن أستطيع العودة إلى الأتيليه مرة أخرى . كنت قد أغلقت عيادتى الخاصة فى حى المنصور وسرحت العاملين بها .

كان وطبان مدير دائرة الشكاوى للرئيس ، أى نوعا من محققى الشكاوى التى يتقدم بها الناس إذا ما شعروا بالتخويف أو المعاملة الظالمة . غير أن هذه الدائرة للشكاوى لم يكن لها بالكاد أى قيمة فى الممارسة العملية ، فوضع وطبان على رأس إدارة كانت تزداد فسادا وعجزا يوما بعد يوم كان كمن جعل الذئب حملاً . كان الفساد والتعسف متفشيين فى أوساط الشرطة بصفة خاصة .

فى أحد الأيام جاء أحد ممرضينا باحثا عنى فى مكتبى فى مستشفى الواسطى. كان وجهه محتقنا من البكاء، وكان فى حاجة لمن يتحدث معه.

سألته: «ماذا حدث»؟

روى لى أن دورية شرطة قد استوقفته فى اليوم السابق بعد انتهاء دورية الليل وهو فى طريقه إلى محطة الباص.

قالوا لى: «أنت متهرب من الجيش».

أجاب الممرض: «لا، ها هى ذى بطاقتى ودفتر تعييناتى، ومنه يتضح أننى قد أنهيت خدمتى العسكرية وأننى أعمل كممرض فى مستشفى الواسطى».

قالوا له: «الأوراق مزورة. حاليا سنضعك فى السجن إلى أن يتم التحقق من الأمر».

هكذا كانت تجرى الأمور فى العادة، وإذا ألقى بك مرة فى سجن من سجون صدام لا يمكن أن تكون على ثقة من أنه سيكتب لك الخروج بعدها. كان يحدث أن يضربوا معتقلا حتى الموت أو ينسوه ببساطة فى السجن. كان على الإنسان أن يثبت أن أوراقه سليمة، وقد كان هذا مستحيلا، إذا كان يجلس وراء القضبان.

قال رجال الشرطة: «ولكن هناك حل لمشكلتك. كم من النقود معك»؟

«ما يكفى للباص فقط».

لحسن الحظ كان الممرض فى هذه الليلة من ليالى الشتاء القارص مرتديا سترة جلدية جيدة، ومرتفعة الثمن.

«سنأخذ سترتك».

تجمد هذا الممرض من البرد حينما اضطر إلى العدو إلى منزله بدون سترة، وبدون نقود للباص.

لم يكن من الواضح ما هو بالضبط الداء فى قدم وطبان. ويكاد يكون من المستحيل أن يطلب منى وطبان أن آتى بسبب ذلك فقط. هو أيضا كان فى حاجة لمن يستطيع أن يفتح له قلبه.



سألنى: «هل ستقوم الحرب»؟

أجبته بقولى: «ليس المسئول بأعلم من السائل. غير أننى لا يساورنى الشك من أن الرئيس سيتخذ كل الإجراءات الكفيلة بألا يتعرض العراق للشلل، وألا تتوقف هذه النهضة وهذا التقدم. إننى على قناعة من أنه سيجد مخرجا».

«آمل أن تكون على حق». كان حزينا ومهموما.

كانت المدة المحددة للانسحاب غير المشروط من الكويت ستنتهى فى الخامس عشر من يناير دون أن يتراجع صدام عن موقفه، كما كان متوقعا. انتهت زيارة أمين عام الأمم المتحدة خافيير بيريز دى كويلار إلى بغداد قبلها بأسبوع بلا نتيجة. ساعات قليلة بعد منتصف ليل السادس عشر من يناير، وفى الساعة الثالثة والنصف صباحا بدأت طائرات بريطانية وأمريكية فى الهجوم بالقنابل والصواريخ على البنية التحتية العسكرية، والمدنية للعراق.

سافر عدى، وخاله لؤى، وسكرتيره الخاص ظافر محمد جابر فى يوم الثالث عشر من يناير سويا مع حسين كامل فى زيارة خاطفة إلى الكويت. كانت هذه هى الزيارة الأولى والأخيرة للابن الأكبر لصدام للكويت المحتلة. أما القصف بالقنابل فقد كان مفاجأة لعدى.

طبقا لأقوال جابر كان عدى فى حالة ذهول من أن الحرب تدق بالفعل طبولها. دبر لهم اللواء إياد تايه المأوى والرعاية فى أثناء زيارتهم للمقر الرئيسى لجيش بغداد. فى يوم التاسع عشر من يناير أتى حسين كامل إلى عدى.

«أمر الرئيس بإطلاق صواريخ على تل أبيب».

ما زال جابر يتذكر كم كان عدى مرعوبا من هذا الخبر.

أجاب عدى: «إذن سينهار كل شىء؛ فإسرائيل هى الطفل المدلل للولايات المتحدة. فلنحاول أن نصل إلى بغداد بأسرع ما يمكن».

فى طريق العودة بعدها بثلاثة أيام أصيب ظافر محمد جابر بجراح خطيرة، عندما أصاب صاروخ أمريكى سيارته المرسيدس المصفحة.

أما عدى، وخاله لؤى، وحسين كامل فقد واصلوا المسير خلف القافلة وعادوا سالمين إلى العاصمة.

تسببت صواريخ صدام من طراز سكود البدائية إلى حد ما فى إحداث كثير من الجلبة، غير أن تأثيرها العسكرى كان متواضعا. أُطلق إجماليا ٣٧ صاروخا منها على إسرائيل، و٣٥ على الرياض وغيرها من مدن السعودية. فى إسرائيل قُتل شخصان، أما فى السعودية فقد قُتل ثمانية وعشرون جنديا أمريكيا وجُرح مائة حينما أُصيبت ثكنة عسكرية أمريكية. مقارنة بالضحايا من جراء الهجوم الأمريكى والبريطانى بالقنابل وبالصواريخ كان هذا العدد قليلا للغاية.

فى أثناء الخمسة والأربعين يوما التى استمرت فيها هذه المعركة بما فيها من حرب برية تالية استمرت مائة ساعة نفذ الحلفاء ١٠٠ ألف طلعة جوية، ملقين بـ ٢٥ ألف قذيفة وصاروخ. هذا ما قرأته بعد ذلك فى المجلات العالمية العسكرية المتخصصة.

كما انطلقت من السفن الحربية الأمريكية الرابضة فى الخليج العربى، وفى البحر الأحمر إضافة إلى ما سبق ذكره، نحو مائة من صواريخ كروز.

كنت دائما مغرما ببغداد، ولكم آلمنى أن أرى يوما بعد يوم القنابل والصواريخ وهى تدمر المدينة. أما المبانى التى لم تدمر فقد أصابتها الأمطار الغزيرة السوداء. كانت قطرات المطر ممتلئة بالسخام.

كان عملى كمدير لمستشفى الواسطى، وخدمتى فى مستشفى ابن سينا، والعلاج المكلف المستمر لإصابات الرئيس التى تعرض لها فى حادث السيارة فى يوم الأول من فبراير قد تسبب فى أن أكون يوميا، وفى أى وقت من أوقات اليوم متنقلا فى شوارع بغداد. كنت أستعمل سيارة نقل قديمة من طراز سكانيا كانت تتبع مستشفى الواسطى وتعمل بالديزل. كان عندنا منها الكثير. كنا قد خزنّا فى الوقت المناسب احتياطيات كبيرة من وقود الديزل، أساسا لتشغيل مولدات الطاقة الاحتياطية فى المستشفى. فى أثناء ذلك كان من المستحيل بمكان العثور على بنزين.

تواجدى فى الشارع كان مصحوبا عادة بمخاطر كبيرة. فى ذات يوم أصيبت سيارة النقل التى كنت فيها بطلقات المدفعية المضادة للطائرات، ولحسن الحظ استقرت فى قائم الباب بالقرب منى، وكان أى انحراف لسنتيمترات قليلة فى أى اتجاه سيكون مميتا.



عندما كنت مستقلا سيارة النقل عائدا من مستشفى الواسطى إلى منزلى عبرت الجسر الشهير المعلق فوق نهر دجلة. بعدها بساعتين انهار الجسر بعد إصابته إصابة مباشرة من الحلفاء. وعندما رأيت فى صباح اليوم التالى بقايا الجسر المعلق الذى سقط جزؤه الرئيسى كاملا فى الماء، وغطس فيه، فقدت أعصابى، وانفجرت فى البكاء.

كان يفجينى بريماكوف لا يزال يسعى بكل جهده من أجل إيجاد حل دبلوماسى لهذه الأزمة العالمية التى تسبب فيها اجتياح العراق للكويت. بعد بدء الهجمات الجوية تقابل بريماكوف مجددا مع الرئيس العراقى.

لم يلحظ أى من مشاهدى التليفزيون أن صدام كان به شىء غير عادى فى أثناء لقائه مع مبعوث السلام السوفيتى؛ فقد خطته فى الليلة السابقة خياطة جيدة. كان ماكياجه بارعا. أما لماذا كان الخنصر الأيمن لصدام مضمدا فلم يكن محل اهتمام أحد.

فى ذات عصر أزلت الخيوط التى كنت قد خطت بها الطبقة الخارجية من الجلد. للأسف تسبب هذا فى فقدان مدير مستشفى ابن سينا لوظيفته. كان اسمه سمير الشيخلى، كاسم وزير الداخلية العراقى آنذاك. كان قد استقبل الرئيس كالمعتاد عندما وصل إلى المستشفى.

لسبب ما دخل طبيب آخر وحدة الطوارئ عندما كنت أزيل الخيوط. وقف فى أحد الأركان، وأخذ ينظر. لم أستدعه، ولاحظت أن صدامًا الذى كان هادئا حتى لحظتها قد بدأت عضلات وجهه فى الانقباض. لكنه ظل صامتا إلى أن انتهيت من عملى. عندها انفجر صدام غاضبا وقال للشيخلى الذى كان ينتظر أمام الباب:

«أنت تعرف جيدا أننى فى أثناء العلاج لا أسمح بوجود أحد لا ضرورة لوجوده».

أجاب الشيخلى: «يا ريس، ربما كان أحد أفراد حرسك الخاص هو الذى طلب من هذا الزميل الشاب أن يأتى لفحصك».

غادر صدام الطوارئ سويا مع سكرتيره الخاص وصهره أرشد ياسين دون أن يرد. بعدها بدقائق رجع أرشد ياسين، وتوجه مباشرة إلى مدير المستشفى التعيس.

«أمامك خياران. إما أن تتقاعد أو تقبل وظيفة طبيب فى وزارة الصحة».

أجاب الشيخلى: «هل يمكن أن أتدبر الأمر حتى صباح باكر؟»

خرج ياسين مسرعا إلى الرئيس الذى كان ينتظر فى سيارته، ليقتحم علينا المستشفى مرة أخرى قائلا: «أنت محال إلى التقاعد».

ظللت بعض الوقت مع الشيخلى وهو يحاول أن يستعيد توازنه. كان مديرا شريفا، ونشيطا. كانت إلى حد ما ضربة موجعة له أن يفقد وظيفته المرموقة كمدير لمستشفى صدام الخاص.

قلت له: «كان يجب عليك بطبيعة الحال أن تجيب ياسين بأنه أمر يحدده الرئيس عما إذا كنت ستتقاعد أو تعمل مرة أخرى فى وزارة الصحة».

أجابنى: «كنت متسرعا. كنت غبيا».

ذكرنى هذا الموقف من جديد كم كان من السهل أن يسقطك صدام من حسابات رحمته.

عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء فإن ليلة الثالث عشر من فبراير كانت هى الأسوأ فى حرب الخليج كلها، ولذلك أيضا فهى أقواها بقاء فى ذاكرتى. كانت الهجمات الجوية تتوالى، الواحدة بعد الأخرى. من بواكير المساء حتى أواخر الصباح كانت السماء تمطر قنابل، وبدا الأمر كما لو كان شخص ما فى سماء بغداد يلعب بكرات ضوئية عملاقة. مع أصوات الانفجارات المدوية، ومع الضوضاء معدنية الرنين القادمة من الطائرات المميتة، كان الأطفال يتعلقون بنا نحن الكبار أكثر وأكثر. كان التنفس صعبا بسبب التراب والدخان المتصاعدين من الانفجارات.

فى الساعة الرابعة والنصف فجرا سمعنا صوت انفجارين هائلين كالرعد. تسبب الضغط الجوى للقذائف المنفجرة فى ارتجاج المنزل كله. بعدها بساعات قليلة علمت أن ملجأ لا يبعد سوى أربع كيلومترات من منزلنا قد أصيب. قررت أن أتوجه إلى هناك لأقف على حجم الدمار.

بنى ملجأ العامرية - كما روى لى ساكنو المنطقة - فى الأصل ليكون ملجأ لهيئة أركان حرب صدام. غير أنه فُتح للعامة أياما قليلة قبل اندلاع الحرب. كان السقف، والحوائط تتكون من خرسانة مسلحة سمكها متران. من ذهب فى تلك الليلة إلى الملجأ كان يشعر أنه فى مكان أكثر أمنا من بيته نفسه.



اثنتان من القنابل «الذكية» الموجهة بالليزر التي أطلقتها قاذفة قنابل أمريكية من طراز ستيلث أصابتهم في مقتل. استهدفت القنبلة الأولى صمام التهوية للملجأ، محدثة بانفجارها فتحة في الحائط قطرها ما بين مترين وثلاثة أمتار. انفجرت القنبلة الثانية بعدها في الملجأ نفسه. تصاعد الدخان من الفتحة الخرسانية التي ضربتها القنبلتان.

كان الملجأ محاطا بسياج من حديد. أمام الباب الذي أغلقه رجال الشرطة والجنود وقف مئات من الآباء وغيرهم من أقارب الضحايا الذين كانوا في الملجأ. بعضهم كان يصيح، وبعضهم كان يبكي، غير أن معظمهم وقف في ذهول وصمت كاملين. أتى بعض الصحفيين، والمصورين برفقة مراقبيهم من وزارة الإعلام. اقترب موكب رسمي من السيارات، وعلمت أن الأمر يتعلق بالمفاوض الروسي بريماكوف الذي أراد أن يرى المأساة بأم عينيه.

لقي ٤٢٠ شخصا من المدنيين العراقيين الأبرياء - معظمهم من النساء، والأطفال - حتفهم هذا الصباح في الملجأ. كثير منهم قذف بهم في الحائط بقوة لا تصدق ليسحقوا عليها قبل أن يتفحموا من جراء الجحيم المستعر الذي أعقب الانفجار. على واحد من الحوائط يمكن إلى اليوم مشاهدة معالم إحدى الأمهات وطفلها، فأثرهما على الجدار لبس مسودا تماما كبقية الحائط.

كنت لا أزال واقفا حينما أخذ في نقل الضحايا إلى الخارج. كانوا محترقين لدرجة جعلت من المستحيل بمكان التعرف عليهم. كان بعضهم لا تزال جراحه تسيل دما اختلط بالسواد.

«وزارة الإعلام قامت بعمل رائع»، قالها صدام عندما زرته بعدها بيومين لأتفحص خنصره. «صور هذا العمل الإجرامي من جانب الولايات المتحدة ظهرت في كل تليفزيونات العالم».

في بادئ الأمر كنت خائفا من إمكانية فقدان صدام لأنملته التي انفصلت بشكل شبه كامل في حادث السيارة. كان يمكن أن يلتهب الجرح، وفي هذه الحالة كان سيكون من المستحيل إنقاذ الأنملة. ولكن لحسن الحظ شُفي الأصبع، وكذا الإصابات في الوجه. كما استعاد أيضا زوج ابنة صدام حسين كامل، وسميرة شاهبندر عافيتهما من جديد.

المشكلة كانت فقط في أن الرئيس لم ينجح في الإبقاء على جفاف الضمادة التي وضعت حول أصبعه بعد العملية. كان على تغييرها كل يوم تقريبا، في الوقت الذي كانت فيه الهجمات الجوية للحلفاء تنهال علينا على نفس الوتيرة من الحدة، والحرب البرية، وساعة الحسم على أرض الكويت تقترب أكثر فأكثر.

اعتذر قائلا: «أحاول على قدر الإمكان، لكن مهما فعلت تبتل الضمادة؛ فأنا لا أستطيع الاستحمام جيدا باليد اليسرى فقط».

في يوم الثالث والعشرين من شهر فبراير ابتلت الضمادة المربوطة حول الخنصر مرة أخرى. اصطحبني الحرس الخاص للرئيس إلى منزل صغير في حي الجهاد بالمقربة من المطار الدولي. لم يكن المنزل يبعد كثيرا عن منزلي أنا. كان يتكون من غرفة معيشة، ومطبخ، وثلاث غرف صغيرة، تم تحويل إحداها إلى عيادة خاصة متناهية الصغر من أجل صدام. لم يعد الرئيس يجرؤ على الذهاب إلى مستشفى ابن سينا إذ إنها كانت تقع قريبة للغاية من المباني التي بها المكاتب في القصر الجمهوري الذي كان عرضة للهجمات بالقنابل بصفة خاصة.

كان صدام في أحسن حالة مزاجية، أخذ يمزح ويضحك، عندما وصل في الساعة التاسعة مساء. كالمعتاد غسلت يدي وعقمتها، قبل أن أرفع الضمادة المبتلة. بينما كنت منهمكا في ذلك أتى المدير الجديد لمستشفى ابن سينا، د. حسن التكريتي في زيارة ووقف عند الباب المفتوح. سأله الرئيس لماذا لم يغسل هو أيضا يديه غسيلا جيدا ويعقمهما.

أجاب المدير المعين حديثا: «يا ريس، لم آت سوى للزيارة. لم يكن عندي نية التدخل في مغامرة د. علاء».

«اغسل يديك مع ذلك غسيلا جيدا»، هذا ما طلب منه الرئيس، فما كان منه إلا أن فعل ما أمر.

في عصر هذا السبت، في هذا المنزل الصغير في حي الجهاد، بدا لي كل شيء أقرب إلى الخيال. قبل الظهيرة كنت قد استمعت على الموجة القصيرة لـ «صوت أمريكا». رفضت الولايات المتحدة والحلفاء في التحالف التابع للأمم المتحدة آخر محاولة سوفيتية لمنع الحرب البرية. وجه الرئيس جورج بوش الإنذار الأخير لصدام.



كان على القوات العراقية البدء بالانسحاب على طول الجبهة من الكويت فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة بتوقيت واشنطن، وإلا فإن الجنرال نورمان شوارتزكوف وما يزيد على ٥٠٠ ألف من جنود التحالف الذين تم تعبئتهم فى منطقة الخليج سيبدءون «العملية عاصفة الصحراء».

كان هذا يعنى - مع اعتبار فرق التوقيت الذى يبلغ ثمانى ساعات - الساعة الثامنة مساء بتوقيت بغداد، أى أن الإنذار النهائى ينتهى بعد أربع ساعات، وهنا جلس بلا توتر، وفى هدوء، الرئيس الذى كان همه الأكبر يتمثل فيما يبدو فى تغيير ضمادة خنصره بواحدة جديدة جافة.

قال صدام: «أمريكا ترفض أن تعطى السلام فرصة، ثم إنهم لا يدخلون الحرب إطلاقا لتحرير الكويت، بل لديهم دوافع أخرى، لكننا مستعدون للقتال. الله معنا».

«عندما انتهيت من الرئيس طار بى اثنان من حرسه الخاص إلى سميرة شاهبندر. كانت قد نقلت قبلها إلى مستشفى ابن سينا. كل الناس كان يعرف من هى. التأمت عظمة الخد بشكل طيب، وهو ما انطبق أيضا على الجرح القطعى فى جبهتها الناجم عن حادث السيارة.

قبل ظهيرة اليوم التالى كانت «عملية عاصفة الصحراء» تجرى على قدم وساق، فى حين كان صدام يلقى خطابا فى الإذاعة والتليفزيون. دار الخطاب حول خواطر مسهبة ومتكلفة عن حضارة وتاريخ العراق الأبيين وحول أهمية أن ندحر سويا قوى الشر والإمبريالية التى تهدد شعبنا. أنهى الرئيس خطابه بنداء إلى الجنود العراقيين فى الكويت وفى الصحراء على الحدود مع السعودية أن يحاربوا حتى آخر نفس.

قال: «هذه المعركة هى أم المعارك».

فى يوم الخامس والعشرين من فبراير تسببت مزيد من الانفجارات فى نشأة سحابة كثيفة، رمادية اللون، كثيبة من الدخان والتراب فوق أجزاء كبيرة من بغداد. تسببت الهجمات الجوية للتحالف فى المزيد من الموت والخراب يوما بعد يوم. بعد انقضاء ما يزيد على أربعين يوما من العمليات المكثفة بدا جليا أن الطيارين والجنود الذين كانوا يبرمجون الصواريخ قد بدءوا يخطئون أهدافهم، فأخذوا يطلقون صواريخهم على المبانى، ومحطات الطاقة، والجسور التى كانوا قد سحقوها أو دمروها من قبل.

ظل معظم الذين يُنقلون إلينا فى مستشفى الواسطى هم المدنيين الأبرياء. كانت غالبيتهم الساحقة من النساء والأطفال، كما هو الحال فى جميع الحروب.

فى فترة ما بعد الظهر ظهر كالمعتاد حرس صدام الخاص ليُقلونى إليه. توجهنا إلى المنزل الصغير فى حى الجهاد. بدلت الضمادة المبتلة حول الخنصر الأيمن للرئيس بواحدة جديدة.

من فوره بدأ صدام فى حديث مطول عن التاريخ الأبى للعراق، وعن أهميته لانتماء الأمة، ولعريمتها القتالية. كان قد تحدث عن ذلك أيضا ما يقرب من ربع ساعة بأكملها فى محاضرته بالأمس فى المذياع والتليفزيون.

سألته من أين يتأتى له أن يتحدث طويلا عن موضوع ما، وقلت له إننى شخصيا لا أجد عادة بعد خمس دقائق ما أقوله. تمنيت لو أن لسانى لم ينطق بشىء حينما تمعنت فيما قلته له للتو.

حملق صدام فىّ للحظة صامتا.

أجاب: «السبب فى ذلك يكمن فى أننى قرأت كثيرا جدا من الكتب عندما كنت فى السجن».

دائما ما كان يعود للحديث عن القبض عليه، واعتقاله فى عهد عبد السلام عارف فى منتصف الستينيات.

«بصراحة كنت أتمنى أن أظل فى السجن أطول من ذلك، فقد كان هناك فى زنزانتى كثير من الكتب التى لم تُقرأ بعد».

بدأ الرئيس فى إلقاء موعظة طويلة حول أهمية قراءة الكتب لتطور الإنسان. قال لى إنه يفضل قراءة سير السياسيين والأعمال التاريخية عما سواها، غير أن الأعمال الأدبية والشعر تثير اهتمامه أيضا.

قال صدام بينما كنت أرفع الضمادة المبتلة فى حذر مبدلا إياها بواحدة جديدة جافة: «بعد كل ما قرأت عن التاريخ والسياسة وصلت إلى نتيجة مفادها أن أمريكا أسوأ بلاد العالم الغربى قاطبة. سبب هذا أن الأمريكيين ليس عندهم تاريخ يفتخرون به

ويستندون عليه. صحيح أنهم حققوا تقدما تكنولوجيا كبيرا، ولكنهم ليس عندهم المقومات التاريخية والثقافية لحضارة حقيقية. كما أنهم كأمة متباينة الأطياف؛ فالأمريكان أتوا من كل أنحاء العالم، فلا يمكنك الوثوق بهم».

«في أثناء الحرب مع إيران كانت وكالة المخابرات الأمريكية CIA وغيرها تمد جهاز مخابراتنا بمعلومات عن تحركات قوات العدو. لكنني قلت لهم آنذاك: لا تثقوا بالأمريكان».

كان الإنجليز أفضل حالا بعض الشيء.

«إنهم جيدون في التنظيم وهم أكثر خبثا بمراحل من الأمريكان، وهو الأمر الذي يستند على ما لهم من تاريخ طويل. لكنهم بلا أصدقاء، فهم يفكرون في أنفسهم فقط».

سألته: «وماذا عن الفرنسيين»؟

«إنهم أفضل كثيرا من الإنجليز؛ فهم صريحون وعندهم أساس حضاري وإنساني متين، غير أن الأمريكان يسمونهم شيئا فشيئا، ولكن لديهم قادة دول جيدون ينتبهون إلى ذلك. إن الجنرال شارل ديجول هو ربما أعظم رجل دولة عرفه العالم، بطل حرب، ووطني، وقومي حقيقي كما لا يمكن لفرنسا أن تنجب خيرا منه. كما أن قراره بسحب القوات الفرنسية من الجزائر ليس آخر ما يستحق لقاءه عظيم الاحترام».

«كانت هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها صدام عن رأيه في الدور البارز للرئيس الفرنسي في التاريخ العالمي. في أحاديثنا اللاحقة كان دائما ما يعود للحديث عنهم.

كان أدولف هتلر على غير هوى صدام تماما: «كان ينظر إلينا نحن العرب نظرة دونية». أما عن جوزيف ستالين الذي كتبت عنه كتب كثيرة أنه كان المثل الأعلى للرئيس العراقي فلم يتحدث عنه معي مطلقا.

كان صدام يكره الشيوعيين.

قال لي: «إنهم ملحدون».

أعلن في المساء أن الرئيس أصدر أوامره للقوات العراقية بالانسحاب من الكويت،

غير أن هذه القوات كانت قد بدأت حتى قبل هذا الأمر فى الفرار فرارا محموما. كان الهجوم العنيف لقوات التحالف يحصدهم فى الصحراء بأحدث الأسلحة بلا رحمة.

لقد ذبحوا ذبحا.

كانت الحرب البرية قد أوشكت على الانتهاء حينما أتى صدام بخنصره الصغير بعد الساعة السابعة مساء فى يوم السابع والعشرين من فبراير إلى العيادة المصغرة فى حى الجهاد. كل الدبابات العراقية، ودبابات نقل الجنود، وسيارات الجيب، وسيارات النقل دمرتها قوات التحالف جوا، وبرا. فى طريق الموت الممتد من الكويت إلى البصرة كان هناك طابور لا نهائى من حطام محترق عن آخره.

الأعداد غير مؤكدة، غير أن ما يقرب من ثلاثين ألفا من جنود صدام فقدوا حياتهم فى المائة ساعة التى استغرقها هجوم قوات التحالف، إلى أن قرر الرئيس بوش إيقاف القتال وأعلن تحرير الكويت.

عم بغداد الاضطراب الشديد. نشأ فراغ فى السلطة. ترك المديرون من الموظفين مقار أعمالهم. اختفى فجأة أفراد حزب البعث الذين كانوا يسيطرون فيما مضى على كل حى فى المدينة. لم يظهر أفراد الشرطة فى أماكن عملهم.

بشكل أو بآخر كانت نذر النهاية الوشيكة للنظام تلوح فى الأفق. إما أن يتدخل اللواءات ليعملوا على استيلاء الجيش على السلطة، أو أننا سنرى عما قريب جنودا أمريكان فى بغداد. لم تكن بوادر الانهيار خافية. فى العاصمة لُطخت صور ولوحات صدام باللون الأسود.

كنت أتوهم أن آثار هذه الكارثة العسكرية ستكون بادية على صدام، غير أنه كان هادئا ومبتسما كالمعتاد، حينما صافحنى. كان يحمل فى يده راديو ترانزستور، وكان لا يزال يستمع لبقية الأخبار من «صوت أمريكا»، قبل أن يدخل. وضع المذياع جانبا، وأعطانى الحزام وبه مسدسه. انزلق بنطلون زيه العسكرى، وقبل أن يرفعه عاليا مرة أخرى، لفت نظرى أنه فقد كثيرا من وزنه. كانت عظام فخذه الأعلى بارزة فى وضوح من وراء قميصه.



ناوله أحد حرسه الخاص سجادة صلاة. بعد أن أنهى صلاته ارتمى بجسده خائر القوى بجانبي على الأريكة.

قال لي: «أنا متعب جدا».

أضاف أنه ليس عنده طاقة لينهض أو ليذهب إلى غرفة العلاج المجاورة. كان عليّ أن أداويه، في حين كان راقدا على الأريكة.

تجرأت على سؤاله: «ربما لم تنم جيدا بسبب الإرهاق، والهموم»؟

رد الرئيس: «لا، أنا لا أعاني أبدا من السهاد، مطلقا. وحتى عندما يجب عليّ اتخاذ بعض القرارات الصعبة قد يحدث أنني لا أقدر على النوم. لكن ما إن أتخذ القرار أذهب إلى النوم في غضون خمس دقائق».

كان عليّ أن أجثو على ركبتي لأستطيع تغيير الضمادة التي على خنصره، إذ إن الأريكة كانت منخفضة جدا.

قال لي صدام: «لكن كن متأكدا من شيء واحد، لم يكن أنا من اتخذ قرار احتلال الكويت، بل هو الله».

اتخذت فلول الجيش المحطم طريق عودتها سيرا على الأقدام. أتوا بمئات الآلاف، محني الظهر، ممزقة ثيابهم، طويلي اللحى. لم يقدروا على مواجهة الناس.

كان مرورا مهينا عبر البصرة، والعمارة، والناصرية، والكوت، وغيرها من كل المدن والقرى التي كانت تقع على الطريق. نُهب الجنود، سُخر منهم، وأهينوا. انتزعت منهم أسلحتهم، وأغراضهم الشخصية. كان معظمهم لا يرتدون حتى حذاءهم، عندما وصلوا أخيرا إلى بيوتهم.

لقد كانت مهانة ليس دونها مهانة.

الفصل الثامن

انتفاضة

يقع مطار بغداد الدولى فى حى الرضوانية، على بعد ٢٥ كيلومترا من وسط المدينة، كما أنه لا يبعد كثيرا عن واحدة من أكبر القواعد العسكرية للنظام. كان أحد أجزاء القاعدة يتكون من معسكر عقاب للجنود الذين ارتكبوا مختلف الجنح. إذا اقتضى الحال كان يُرمى فى زنزاناته أيضا بالمجرمين، وبالمساجين السياسيين ممن اعتقلتهم الشرطة والمخابرات.

فى الوقت الذى كان فيه الشيعة فى الجنوب، والأكراد فى الشمال يقومون بثورتهما بعد الهزيمة الثقيلة لصدام فى الكويت، كان سائق سيارة نقل قيد الاعتقال هنا فى بغداد. والحكاية أن هذا السائق فى محاولته لنقل شحنة بمقطورته إلى المطار فى العام الذى قبله تم القبض عليه ورُمى به إلى هناك.

كانت سيارة النقل ممتلئة عن آخرها عندما مرت من تحت جسر على أحد الطرق السريعة. لم يقدر السائق ارتفاعه تقديرا صحيحا، فحدث انفجار، ليتحول كل من الجسر، ومن السيارة النقل إلى قطعتين من الخردة.

لسوء الحظ لم يكن هذا الجسر أى جسر، لقد كان الجسر المؤدى مباشرة إلى واحد من قصور صدام الكبيرة فى الرضوانية. ولذلك لم تمر سوى دقائق معدودات حتى كان سائق السيارة النقل يتخذ مكانه فى إحدى الزنزانات فى معسكر الاعتقال المجاور.

وهناك تَــوه.

كانت الفلول المهزومة والمهانة من القوة العسكرية لصدام التى توجهت لمعسكراتها وثكناتها مشيا على الأقدام، إشارة واضحة إلى أن ركائز النظام أخذت فى التأرجح.

لم يأت الأول من مارس حتى كانت الانتفاضة فى البصرة تشتعل على قدم وساق، منتشرة انتشار النار فى الهشيم. وفى أيام معدودات سقطت النجف، وكربلاء، والناصرية، والعمارة، والكوت، والحلة، ومعظم المدن العراقية الأخرى فى جنوب العراق فى أيدى الثوار.

انطلقت الانتفاضة فى بدايتها من الجماعات الإسلامية المعارضة ذوات العصابات الخضراء على الجبهة. غير أن الأمر لم يدم طويلا حتى استطاع النشطاء أن يضموا الجماهير الشيعية الجاهلة إلى صفوفهم. وجد كثير من الناس الفرصة سانحة للانتقام من القمع، والفقر اللذين طالما كتب عليهم أن يتحملوه. وكأنهم تلقوا أمرا بذلك، بدأت حملة مسعورة من النهب والبحث المحموم عن رجال صدام وأتباعه. كان من يمسكون به إما أن يقتلوه فى الحال، أو يقطعوه إربا بالمدى.

اثنان من أولاد عمومتى كانا من ضمن قواد التمرد فى طويريج، وهى مدينة متوسطة المساحة تقع ما بين كربلاء وما بين الحلة.

حكيا لى عقب التمرد الآتى: «فقدنا السيطرة كلية، ولم نستطع إيقاف عجلة الإعدام بلا محاكمة بعدما دارت».

كانت الغوغاء ثائرة ثورة عمياء، تنهب كل ما يقابلها فى طريقها، أقسام الشرطة، ومعسكرات الجيش، والمبانى والمكاتب الإدارية، ومنازل نشطاء حزب البعث وأعضائه البارزين. أخذ الغضب الجماعى العارم المتفجر ينتقل كالعاصفة الهوجاء التى تقطر دما من مدينة إلى مدينة، ومن حى إلى الذى يجاوره، ومن شارع إلى الآخر.

ما إن انتهينا فى مستشفى الواسطى من أمطار صواريخ وقنابل الحلفاء على بغداد حتى بدأ أول المصابين من مناطق الشغب فى جنوب العراق فى التوافد علينا.

ما زال عالقا فى ذاكرتى صورة أحد الجنود الذى هاجمته الجموع الثائرة من الناس عندما كان يقوم على حراسة جسر خالد فى البصرة. كان زميله قد قتل رميا بالرصاص، أما هو فقد جُرح فى إحدى ساقيه واقتيد إلى أحد رجال الدين الشيعة الذى

كان يقوم بشكل ما بدور قاضي التحقيقات، حيث أمر رجل الدين هذا بحبسه في أقرب سجن منهم. كان الثوار قد اقتحموا هذا السجن، وحرروا رواده، غير أنه سرعان ما عاد ليمتلئ من جديد. في الطريق إلى السجن حاول الجندي الفرار، لكن أصيب مجددا في ساقه الأخرى، وانتهى به الأمر خلف القضبان.

قال لي الجندي وهو يروي حكايته: «لم أفهم لماذا هاجموني؛ فأنا لم أكن سوى مُجندا عاديا، ولا لماذا ألقوا بي في السجن، فإنني حتى لم أحاول إيذاء المقاومة حينما ظهرت الغوغاء».

في صباح اليوم التالي اقتادوه مع ثمانية من زملائه إلى العمارة التي تقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر من البصرة.

«هناك عُرضنا على رجل دين آخر، حكم عليّ وعلى ثمانية من الجنود الآخرين بالإعدام. لم ندر على الإطلاق لم؟».

على مشارف المدينة كانت هناك فرقة إعدام منتظرة قامت بإطلاق النار عليهم من مدفع رشاش.

«كانت يداي موثوقتين من خلف ظهري، وسقطت على الأرض. واحد من الثوار قام بعدها بجولة تفقدية بمسدسه، وأطلق النار على كل الرءوس للتأكد من عدم وجود ناجين. واحدة من الطلقات حكت جبهتي، فكان أن ذهبت في غيبوبة. وعندما استيقظت وجدت نفسي راقدا في مستشفى عسكري».

بوصفي جراحا عسكريا رأيت، وعاينت معظم الأشياء، أما أن ينجو هذا الجندي بحياته فقد كانت إحدى أكبر عجائب الطبيعة. كان جسده كله إلا بعض مواضعه مثخنا بالطلقات، فقد كان هناك ما يزيد على الخمسة والعشرين طلقة وجدت طريقها إليه».

كانت الانتفاضة تعبيرا عن كُرْه عميق تراكم عبر سنين طويلة؛ ففي عهد صدام كان يُضيّق الخناق على الشيعة في جنوب العراق اقتصاديا واجتماعيا يوما بعد يوم. كان كل من البطالة، والفقر يتنامى في المدينة، وفي الريف باطراد. تزايد عدد العائلات التي تقتات الكفاف تزايدا مستمرا. انتشرت الأمراض، والأوبئة، وبلغت الوفيات بين



الأطفال معدلات غير مسبوقة، ومتزايدة، ومخيفة يوما بعد يوم، كما أن الحرب ضد إيران لم تزد طينهم سوى بلة؛ فكل العائلات تقريبا فقدت فى خلال هذه السنوات الثمانية الأب أو الابن أو الأبناء.

أما أكثر ما ضايق المتدينين من المسلمين فكان تضييق النظام عليهم ممارسة شعائرهم الدينية. لم يسمح لهم حتى بإقامة شعائر الحج السنوية فى مدينة كربلاء المقدسة فى ذكرى مقتل الإمام الحسين بحرية كاملة. كانت السلطات إما تعيق حركة الملايين من المؤمنين أو ببساطة شديدة تلغى الطواف بما فيه من شعائر استغفار.

سقط الحسين ابن الإمام على - رضى الله عنهما - وحفيد الرسول ﷺ شهيدا فى موقعة كربلاء ضد الخليفة يزيد بن معاوية فى أحد السهول على مشارف المدينة فى عام ٦٨٠ بعد الميلاد. دُفن الإمام الحسين فى كربلاء، وكان قتاله البطولى حتى النهاية المريرة ضد قوات يزيد المتفوقة تفوقا كاسحا لا أمل للحسين فى الانتصار عليها هو أهم الأحداث فى أساطير وقصص الشيعة الشعبية. لذا لم يكن هناك عقاب أكثر وحشية للشيعة من أن يحظر النظام الحج إلى ضريح الإمام الحسين فى هذه المدينة المقدسة.

وقفت منذ بداياتى المبكرة على حجم القمع الذى تعرض له الشيعة فى الجنوب؛ فقد كانت أول وظيفة لى أتولاها فى العراق بعد إنهائى لدراستى التخصصية فى لندن فى عام ١٩٧٢ هى فى مستشفى البصرة.

ذات مرة كنت فى خدمة الطوارئ عندما أحضر اثنان من رجال الشرطة معتقلا من السجن لأفحص يديه اللتين كانتا محترقتين احتراقا شديدا. كان الجرح فى ظهر اليد مثلث الشكل، وكان كل من الجلد، والأوتار، والعضلات محترقا حتى العظم.

«استعملوا مكواة عادية جدا»، قالها المريض، وهو يحكى عن الوسائل التى تستخدمها الشرطة السرية. كان محاميا بارزا أوقف نفسه للدفاع عن حقوق الشيعة.

فى ذات يوم أتانى ضابط برتبة نقيب يعمل فى الشرطة السرية. كان مكتئبا وحزينا.

قال، وهو يحكى: «لقد تلقينا الأوامر بالنزول إلى الشارع، ومنع الناس من إعداد الطعام للفقراء فى ذكرى الحسين».

فى ذكرى أربعين الإمام الحسين يعد الشيعة ميسورى الحال الطعام لغيرهم من إخوانهم الأقل حظا من المال. فى يوم الجمعة هذا يتم وضع قدور كبيرة من اللحم المطبوخ، والأرز، والمرق فى الشارع.

قال لى النقيب: «عند إعداد الطعام علينا قلب المراجل رأسا على عقب لإفساد الطعام. لا أعرف لماذا؟ إن هؤلاء البؤساء لا يشكلون أى تهديد للسلطات؛ فهم لا يستطيعون حتى إيذاء ذبابة».

لم تمر أيام طوال بعد الانهيار العسكرى فى الكويت حتى أدرك صدام وبقية نظامه أن القوات المتحالفة لن تزحف على بغداد، فقد كان الرئيس الأمريكى جورج بوش راضيا بما حققه. لم تتحرك القوات المتحالفة إلى الخطوط الأمامية بعدما حررت الإمارة الصغيرة. كما لم يكن هناك بوادر لانقلاب قد يقوده بعض اللواءات الغاضبين، ولذلك ظهر - وكأنه كيد ساحر - الوزراء، وغيرهم من موظفى الدولة، ورؤساء الشرطة، وممثلو حزب البعث مرة أخرى فى مكاتبهم.

عاد صدام مرة أخرى إلى سدة الحكم، ولم يتردد فى التعامل الفورى مع الشيعة فى الجنوب. استطاع صدام فى الوقت المناسب سحب قطاعات كبيرة من الحرس الجمهورى قبل «عملية عاصفة الصحراء» من منطقة العمليات الحربية، مما سمح له وقتها باستخدام تلك القوات الخاصة ضد الثوار الذين افتقروا إلى التنظيم المطلوب، والذين لم يكن بحوزتهم أسلحة ثقيلة. لقد كان التعامل معهم بالنسبة لصدام لعبة سهلة.

كان البيت الأبيض مترددا لبضعة أيام، لكن سرعان ما أتت من واشنطن إشارات أكثر من واضحة من أن الولايات المتحدة لن تتحالف مع الثوار.

قبل بدء التمرد أرسل صديقى الفريق ركن نزار الخزرجى إلى جنوب العراق ليتولى القيادة العسكرية فى الناصرية. تذكروه وقتها من جديد، وعينوه «مستشارا» للرئيس.

قال له صدام: «من المحتمل أن الأمريكان يريدون الاستيلاء على المدينة بمساعدة قوات الإنزال الجوى. لا بد أن تتوجه إلى هناك، وتتولى إجراءات التنظيم الدفاعية».

توجه الخزرجى إلى هناك مع هيئة مكونة من ثلاثين ضابطا، وقائدا، ومن بينهم أيضا ابنه نفسه. وما إن وصلوا إلى الناصرية، حتى بدأت الانتفاضة.



«ما إن نصبنا معسكرنا فى بيت من بيوت المدينة حتى فوجئنا بأننا محاصرون، وبأن النيران تُصب علينا من كل الاتجاهات. فقدت معظم رجالى، وأصبت أنا أيضا فى البطن. وكل ما أستطيع تذكره أننى ألقيت رأسى فى حجر ابنى. اتشح كل شىء بالسواد. لم يكن هناك سوى ضوء نجم لامع اخترق الظلماء، قبل أن أفقد الوعى».

استيقظ الخزرجى فى مستشفى الناصرية. قام أحد الجراحين بخياطة البطن بقدر ما استطاع؛ فقد كان محاصرا بكثير من الثوار. كان واحد منهم ذا لحية طويلة و عصابة خضراء على الجبين.

«قال إننى على جانب كبير من الأهمية، وإنهم يريدون الإبقاء علىّ حيا».

بعدها بيومين استولى الجنود على المستشفى، وعثروا على الخزرجى. كان ابنه كذلك على قيد الحياة، وتم تحريره. نقل الخزرجى بالطائرة الهليكوبتر إلى بغداد، حيث أحضر إلى مستشفى ابن سينا. ذهب صدام لزيارته على الفور للوقوف على ما حدث.

قال له الخزرجى: «إنه شىء لا يكاد يصدقه العقل إلى أى مدى رهيب يكرهنا هؤلاء البسطاء. حتى النساء هجمن علينا ببنادق الكلاشينكوف. لا بد أننا أمعنا فى ظلمهم إمعانا كبيرا».

رأيت كيف شحُب وجه صدام؛ فلم يرق له ما سمعه، فمنذ دهر سحيق لم يحدث أن قيل له فى وجهه إن النظام لم يكن محبوبا على نفس الدرجة فى كل مكان، وأن الناس لم يكونوا بالضرورة يحبوه كما كان يتوهم.

«د. علاء سيوليك عنايته على أفضل ما يكون»، كان هذا كل ما قاله لرئيس هيئة الأركان السابق قبل أن يدلف من الباب محتجبا.

لم يتحدث صدام مطلقا عن الأمر، لكننى كنت واثقا من أن الانتفاضة كانت صدمة له؛ فكل التقارير التى تلقاها من قيادات حزب البعث، والأمن، والمخابرات كانت لا تنقل له سوى أخبار شعب راض وسعيد فى كل أنحاء العراق مغفلة ما دون ذلك من أخبار.

كانت حالة الخزرجى سيئة للغاية؛ فالإصابة التى لحقت به فى منطقة البطن لم تُخيّط بشكل صحيح، حيث خرجت الأمعاء والأحشاء من جدار تجويف البطن.

باستعمال الداكرون، وهو نسيج صناعى ، وبكل ما لدىّ من خبرة فى مجال جراحة الحروب، وُفقت فى إعادة خياطة الإصابة وفى إنقاذ حياته.

وحينما وقف الخزرجى على قدميه مرة أخرى بعدها بعدة شهور لم يعد صدام مهتما بخدماته كلواء، فركن الخزرجى على الرف.

فى يوم السابع من مارس، والحرب الأهلية على أشدها، أقلنى فى الضحى اثنان من حرس صدام الخاص لأتفقد حالة خنصر الرئيس.

فى بادئ الأمر أقلانى إلى منزل صغير بالمقربة من الجسر المعلق فوق نهر دجلة الذى حطمته القنابل، حيث كان ينتظر هناك اثنان آخران من الحرس الخاص، وتوجهاى إلى قصر الرئيس فى الرضوانية. أما الجسر المدمر الذى يمر فوق الطريق السريع للسيارات والمؤدى إلى المطار الدولى فقد تم إصلاحه بعد الحادث المؤسف الذى تسبب فيه سائق سيارة النقل فى العام السابق له.

فى صالة الانتظار بالقصر كان علىّ الانتظار بعض الوقت سويا مع عبد حمود، سكرتير الرئيس، وأصغر أبنائه قصى. ظهر صدام علينا مرتديا معطفا حربيا أسود اللون. صافح صدام ابنه وعانقه بطريقة تنم عن أنه لم يره منذ فترة طويلة.

بعدها تحول صدام إلىّ:

«كيف حالك، يا طبيب، يا عظيم»؟

أجبته: «بخير»، لألقى بعدها نظرة متفحصة على خنصره الذى كان فى أثناء ذلك قد شُفى شفاء كاملا.

«ما هو تعليق العراقيين على الأحداث»؟

«آسف يا ريس، لكننى لم أتحدث مع ما يكفى من العراقيين حتى أستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة شافية».

لم يُسَلِّم الرئيس بالأمر، وقال لى: «إذن احك لى على الأقل عما يقوله هؤلاء القليلون الذين تحدثت معهم».

«ينتابنى الشعور بأن ما لقيه الجيش العراقى من مصير ومهانة يخلفان لديه المرارة.



ولكننى إذا ما سألت عن غير ذلك من الأمور فإننى عادة ما يساورنى الشك فى أن ما يقال لى هو الحقيقة فعلا».

قبل أن يقلنى الحارسان الشخصيان كنت قد تحدثت مع كبار الأطباء، وكبار الممرضات فى مستشفى الواسطى. أردت أن أعرف ما تبدو عليه الصورة فى مختلف الأقسام. هل كان فى مقدورنا الاعتناء بكل المصابين الذين نُقلوا إلينا تباعا بشكل مُرض؟ بطبيعة الحال كان كل شىء على أتم وجه، فقد كان هناك ما يكفى من الأدوية ومن بقية التجهيزات، كما لم يكن هناك نقص فى الأفراد العاملين.

واصلت حكاياتى قائلا: «لكننى عندما قمت بنفسى فى أعقاب ذلك بجولة تفتيشية اتضح لى أن ثمانين بالمائة مما أخبرونى به لم يكن صحيحا».

ابتسم الرئيس، مضيفا: «أو ربما أكثر من ذلك بكثير».

واصلت حديثى قائلا: «إن انعدام الصراحة مشكلة كبيرة فى عموم الإدارة. لو أننى كنت قد صدقت ما قاله لى العاملون من معلومات لكان قد غُرر بى، ولوقعت أخطاء فيما أقوم به من خطط قائمة على هذه المعلومات. وكما قلتُ من قليل يا ريس، فإننا يجب أن ننتبه إلى أفعال الناس، وليس أقوالهم».

صمت الرئيس على إثر ذلك.

نقل صدام لابن عمه على حسن المجيد المسئولية الرئيسية لقمع انتفاضة الشيعة. كان المجيد قد تولى قيادة القوات التى زحفت على الكويت. ربما كان ما قام به من قتل لا هوادة فيه فى شمال العراق هو الأمر الذى رشحه فى نظر صدام لمهمته الجديدة فى جنوب العراق.

فى مارس من عام ١٩٨٧، أى بُعيْد الحرب ضد إيران، تولى ابن العم على حسن المجيد ذو الستة والأربعين عاما التفويض الكامل بقمع حرب العصابات الدائرة لتحرير المناطق الكردية فى الشمال بقيادة مسعود برزانى وجلال طلبانى.

لا توجد أرقام مؤكدة، ولكن بعد عامين ونصف العام كان على حسن المجيد قد أمسك بما يقرب من ٥٠ ألفا إلى ١٠٠ ألف من الذكور الأكراد ما بين الخامسة عشرة والخمسين عاما، وصفّاهم جسديا. أُحرقت ما يقرب من ألفى قرية، وسويت

بالأرض. شُرد مئات الآلاف من البشر، كما دُمرت جميع خطوط الكهرباء، والمدارس، والآبار، والمساجد فى هذه المناطق.

فى أثناء إحدى العمليات التى حملت الاسم الحركى «الأنفال» لم يتورع ابن العم عن استعمال الغاز السام، ففى يوم السادس عشر من مارس من عام ١٩٨٨ دخل المجيد التاريخ من أوسع أبوابه حينما قصفت الطائرات العراقية قرية حلبجة الكردية بخليط من غاز الأعصاب وغاز الخردل. كانت النتيجة أن فقد ما يقرب من ٣٢٠٠ إلى ٥٠٠٠ شخص حياتهم.

بهذه المناسبة حصل على حسن المجيد أيضا على اسم الشهرة «على الكيماوى».

كثير من أقارب صدام، وأقرب معاونيه كان لديهم الرغبة فى المشاركة فى قمع التمرد فى جنوب العراق، فقد كان من مقتضى الحال أن يثبتوا للرئيس أن على حسن المجيد ليس وحده من يمتلك من العنف والقوة ما هو مطلوب لتلقين الشيعة درسا لن ينسوه سريعا.

كان كلا زوجى الابنتين، حسين، وصدام كامل، وابنه قصى، وسكرتير الرئيس عبد حمود، ونائب الرئيس طه ياسين رمضان، وعزة إبراهيم الدورى، نائب الرئيس لأعلى جهاز حكومى، أى مجلس قيادة الثورة، قد أعلنوا على الرحب والسعة عن خدماتهم عندما تأكد أن لا الولايات المتحدة، ولا أى بلد آخر سيتدخل فى الحرب الأهلية الدائرة.

كان عدى هو الوحيد الذى رفض المشاركة. روى لى صديقه وسكرتيره الخاص أن قصى حاول جاهدا أن يقنع أخيه.

«لا بد أن تقود أنت أيضا إحدى الوحدات»!

أجاب عدى: «لا، ليس عندى الرغبة فى اغتيال الشيعة».

بدا صدام لى فى ضحى هذا اليوم من أيام شهر مارس - والحرب الأهلية على أشدها - فى قصره فى الرضوانية هادئا، ومسترخيا. بعدما فحصت خنصره، بادرنى بالقول: «ما رأيك فى الذى حدث»؟ فوجئت بهذا الاستفسار. وقلت أرجو أن تسمحوا لى بجمع عددى الطبية ومن ثم أجيبكم، وفى الحقيقة كنت أريد أن أحظى

بضعة دقائق لأستجمع فيها أفكاري قبل الإجابة. قلت «لو أنكم دخلتم إلى غرفة ووجدتم فيها قتيلان بالرصاص وصف أحدهما بأنه شهيد والآخر بكونه خائن. فكيف يمكنك معرفة صفة أي منهما»؟ قال: «طبعا لا أعرف». فاسترسلت قائلا: «مظاهر الأشياء لا تدلل على جوهرها، وإن كلام الناس هو المظهر وليس جوهر الحقيقة. والواقع أن مسئولي الدولة اعتمدوا على كلام الناس في تقييم الحقائق والبشر، في حين أن العمل هو المقياس الحقيقي. لذلك فإن ما جرى هو نتيجة هذا الخلط». حملق صدام في وجهي طويلا، وشعرت أنه كان يحاول أن يسبر غور أفكاري بعد الذي قلته. وبعد برهة من الوقت استفسر صدام عما إذا كنت في عجالة من أمري. فإذا لم يكن الأمر كذلك فإنني مدعو لأرافقه في التمشي في الحديقة ليناقشني في أمر من الأمور.

كانت الأمطار قد هطلت طوال الصباح، غير أن الشمس أطلت بعد ذلك بأشعتها من بين السحب. أمام البوابة الرئيسية للقصر كان هناك جدار جديد من الطوب قد تم بناؤه.

قال الرئيس: «من شأن هذا الجدار أن يشتت صواريخهم المبرمجة من قبل من طراز كروز».

من وقت لآخر كان علينا تجنب نُقَر كبيرة من الماء الموجودة على الطريق. تبعنا قصي وعبد حمود بمسافة قدرها ثلاثون مترا تقريبا.

قال صدام: «كان عليّ أن أفكر في شيء ما في الأيام الثلاثة الأخيرة. إن عرب المستنقعات ليسوا عربا بمعنى الكلمة».

كان ما يقرب من نصف المليون من عرب المستنقعات يعيشون في مناطق المستنقعات المغطاة بالبردي التي لا مثيل لها في تاريخ الطبيعة والواقعة شمال البصرة حيث يلتقي نهرا الفرات ودجلة. ولكن في نهاية الثمانينيات اتضح أن هذه المجموعة السكانية كان يزحف عليها مستقبل مجهول للغاية.

كان من المخطط تجفيف المنطقة بأكملها، ومعها المستنقعات. بدأ العمل بالفعل في هذا المشروع الذي كان سيرغم غالبية عرب المستنقعات الذين يعيشون هناك منذ مئات السنين على ترك أكواخهم المصنوعة من البردي وقُراهم.

يتسبب كل من أسلوب الري، وزراعة الحبوب والخضراوات تحت شمس الشرق

الأوسط الخارقة في تبخر كميات هائلة من الماء، وفى تصاعد الأملاح الموجودة في التربة إلى سطحها. تؤدى ظاهرة البزل إلى غسل الرواسب الملحية فى اتجاه الأنهار، حيث ينتهى بها المطاف فى الظروف الطبيعية من النهر إلى البحر. غير أن المستنقعات فى العراق كانت كإسفنجة كبيرة تحول بين الاثنين، وتمنع الماء القادم من مناطق الزراعة الرئيسية فى داخل البلاد من الوصول إلى الخليج العربى. منذ عام ١٩٤٨ نصح الباحثون الإنجليز بفعل شيء تجاه ذلك الأمر، ومنه تحويل مسار كلا النهرين العظيمين الواهبين للحياة من حول المستنقعات إلى البحر، وإلا فإن العاقبة ستكون تصاعدا مستمرا فى محتوى الملح فى نهرى الفرات ودجلة تصل إلى مستوى الكارثة.

بالطبع كانت هناك أيضا أسباب سياسية لموافقة صدام على مشروع الصرف الشامل لهذه المحمية الطبيعية البالغ مساحتها ما بين ١٥ ألف إلى ٢٠ ألف كيلومتر مربع؛ فلم يكن عنده مانع من أن يضرب عصفورين بحجر ليتخلص نهائيا من عرب المستنقعات.

فقد كانوا يمثلون له منذ زمن بعيد كالغصة فى الحلق.

قال صدام: «منذ ألف ومائتين وخمسين عاما أتوا بثيرانهم السوداء من الهند لأن العباسيين كانوا فى حاجة لأيد عاملة. ولكن منذ ذلك الوقت لم يطوروا من أنفسهم، هم ليسوا مثل غيرهم من العراقيين، فهم بلا أخلاق».

فى أثناء الحرب ضد إيران فر كثير من جنود الجيش العراقى ليختبئوا بالذات فى هذه المستنقعات المليئة بالبردى والقصب الطويل والمستعصى عادة على الاختراق، حيث وجد كثير منهم العون من أهالى المنطقة التى لجئوا إليها بحثا عن الملاذ.

لم يغب هذا أيضا عن الرئيس. فى أثناء ذلك أعلن أيضا أن عرب المستنقعات ضالعون فى التمرد.

«لقد شجعوا التمرد، فهم لا يشعرون بالانتماء إلى وطننا»!

قالها بلا مواربة، لكننى شعرت أنه كان يبحث عن تفسير للتمرد المحترم فى الجنوب، وعن كبش فداء.



«لا يمكن الوثوق بعرب المستنقعات هؤلاء. إنهم يكذبون، ويسرقون، وليست عندهم نخوة. إنهم ليسوا مثلنا. كما أن نساءهم يتسمن بالإباحية المطلقة وبانعدام الأخلاق. إن حياتهن غير محترمة».

توقفنا عند غدير صغير فى الحديقة. أضاءت أشعة الشمس الرئيس من الخلف. لم نكن نبعد عن بعضنا البعض إلا بمسافة نصف المتر أو ما دونها. أثارت أذناه إعجابى فجأة حتى أننى لم أعد أسمع ماذا كان يقول. كانتا شحمتى أذنيه شفافتين بفعل ضوء الشمس، كما لو كانتا مصنوعتين من شمع رمادى اللون، وكما لو كانت الدماء لم تعد تجرى فيهما مطلقا. لم أستطع أن أمنع نفسى من تأمل جفنيه عن كثب. كانا ثقيلين، مرتخيين، وقد غطيا رموشه تقريبا. لكن عيناه لا تزالان تحملقان وتشعان بريقا من عدم الثقة والتوجس.

بعدما انتهى موضوع «عرب المستنقعات الغدارين والخونة» بدأ الرئيس فى طريق العودة إلى القصر فى إلقاء محاضرة عن مدى تقديرنا العظيم لأنفسنا كعراقيين من كوننا عربا من ناحية، ومن تمسكنا بالدين الإسلامى من ناحية أخرى.

قال لى: «لأننا عرب، فنحن أمة عظيمة، زاد من عظمتها كثيرا أنها بُنيت على الإسلام».

بعد ذلك أراد الرئيس أن يعرف لماذا سميتُ ابنى الأكبر سومر.

سألنى: «لماذا بالذات هذا الاسم»؟

أجبته بقولى: «لأقرنه بمهد الحضارات، مملكة السومريين». لا أستطيع إلى الآن تخيل أن أجدادنا الأوائل منذ خمسة أو ستة آلاف عام قد بدءوا بالفعل فى الكتابة، وفى زراعة الأرض، وفى بناء المدن وسن القوانين واحترامها.

لا أحد يعرف كم من الناس قُتلت أو اعتُقلت حينما تم بشكل كامل سحق التمرد العفوى للشيعة فى غضون أسابيع قليلة. لكن كما كان متوقعا فإن على حسن المجيد، وقصى، وعبد حمود، وعزة إبراهيم الدورى، وطه ياسين رمضان، والأخوان حسين وصدام كامل، وبقية خلصاء صدام كان الأمر بالنسبة لهم لعبة سهلة.

لم تردعهم لا الولايات المتحدة الأمريكية، ولا الأمم المتحدة عن استعمال المدافع،

والعربات المصفحة، والمروحيات المقاتلة فيما اقترفوه من مذابح شاملة. كان النظام صدام بشعا مثله مثل بشاعة تعقب الشيعة المحموم لرجاله فى بداية الحرب الأهلية.

لما كان عدد كبير من عشيرة الجبور التى أنتمى إليها هم من الشيعة فقد كنت أطلع سريعا على ما يجرى من أحداث. واحد منهم، صالح الجبورى، كان يقيم فى الإسكندرية التى تقع على ما يقرب من ستين كيلومترا جنوب بغداد. سُميت هذه المدينة الصغيرة على اسم الإسكندر الأكبر الذى أمر جنوده بنصب معسكرهم هناك حينما زحف بجيشه من ٢٣٣٠ عاما، أو يزيد نحو الشرق لغزو دولة الفرس.

كان الجبورى واقفا أمام منزله حينما مرت من أمامه سيارة نقل عسكرية متوجهة إلى أرض بوار شمال المدينة. كان يقف على ظهر السيارة نساء ورجال وشباب يبلغ عددهم نحو الخمسة والعشرين، كان يحرسهم جنود الحرس الجمهورى. وبعد مرور ساعتين شاهد سيارة النقل عائدة.

روى الجبورى: «كان ظهر السيارة فارغا».

بعد ذلك بأربعة أيام عرف الجبورى من جيرانه فى الإسكندرية أنهم سمعوا نباح كلاب متوحشة فى الصحراء، وبالأحرى فى المكان الذى شوهدت فيه أيضا سيارة النقل. توجه الجبورى إلى هناك، ورأى الجثث. لم تكن مدفونة دفنا صحيحا مما جعلها وليمة للكلاب.

كان هؤلاء الضحايا من مدينة كربلاء، حيث تعامل الحرس الجمهورى مع الأحياء الرئيسية بالمقربة من الضريح البهى تعاملا وحشيا للغاية. سُويت الأسواق الفريدة من نوعها بجوار الضريح تسوية كاملة بالأرض. اغتيل عدد لا حصر له من الأبرياء من النساء والأطفال. لم يراع جنود القوات الخاصة لا البشر، ولا الآثار الحضارية حينما هاجموا المدينة بمروحياتهم ودباباتهم. خلّف هؤلاء الجنود وراءهم أضرارا فى المقدسات والآثار لا يمكن إصلاحها، سواء أكان هذا فى كربلاء، أو فى النجف، ثانى مدن جنوب العراق قداسة.

دُفن الإمام على - ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته - فى النجف، ويعتبر ضريحه الأثرى بقبته الذهبية الذى يعود إلى القرن التاسع الميلادى واحدا من أكبر الأماكن المقدسة عند الشيعة بعد مكة والمدينة.



منذ ما يزيد على ألف عام يحج الشيعة إلى مرقد الإمام. غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك؛ فبالنسبة لملايين المؤمنين أصبح أعز أمانيهم أن يُدفنوا هم أيضا فى النجف. فكلما كان مرقد أحدهم أقرب إلى الإمام كلما كان احتمال أن يشفع له وأن يصطحبه معه إلى الجنة أكبر وأكبر. أما مقبرة المدينة المسماة بـ «وادى السلام» فهى أكبر مقبرة فى العالم.

عندما تدخل الحرس الجمهورى ضد الثوار فى النجف هرب بعضهم إلى «وادى السلام»، فما كان من ملاحقيهم إلا أن فتحوا نيران مدفعيتهم الثقيلة ودباباتهم على أجزاء كبيرة من المقبرة لمنعهم عن الهرب.

إن والدى الذى توفى فى عام ١٩٦٦ على إثر أزمة قلبية مدفون فى «وادى السلام» الذى يمتد فى الصحراء امتدادا لا تدركه العيون. فوق القبر كنا قد شيدنا بيتا صغيرا ليقينا الشمس والحر عندما كنا نذهب لزيارته. يوجد فى هذه المقبرة عشرات الآلاف من هذه المبانى فوق القبور بأحجام متفاوتة. من السهل أن تضل طريقك فى هذه الكثرة من الطرق ومن الحارات التى هى أيضا أماكن يسهل الاختباء فيها.

ما أن انتهت المعارك حتى سافرت إلى النجف لأعاين ما حدث لقبر والدى. كانت زيارتى لـ «وادى السلام» من أكثر الأحداث التى حزت فى قلبى وفى حياتى كلها.

لم ينج حتى الموتى من الانتقام.

أدت نيران المدافع إلى تحويل أجزاء من الوادى إلى صحراء حقيقية مرة أخرى. لم يبق شىء لا من القبور، ولا من شواهد القبور، ولا من البيوت، ولا من الأكواخ التى فوقها.

لحسن الحظ وجدت فى غمار كل هذا البؤس قبر والدى. لم يتحطم سوى جزئيا. غير أن ما لم تحطمه دبابات، ونيران الحرس الجمهورى، أخذ أكثريته فى أعقاب ذلك غيرى من أهلى. سُرق كل من الباب، ومن النوافذ، بما فيها أطرها، كما لم يكن هناك أثر للعوارض الحديدية الحاملة للسقف. بل إن لصوص المقابر أخذوا معهم أيضا إطار صورة والدى التى كانت معلقة على الحائط.

كان من المقرر أن أفحص خنصر الرئيس فى ضحى يوم الرابع عشر من مارس فى

الساعة العاشرة، غير أنه لم يظهر أى من حرس صدام الخاص إلا فى الساعة التاسعة مساء ليقلنى إليه.

سرنا فى اتجاه أرض القصر الواقع بجوار المطار الدولى الرضوانية، غير أننا انحرفنا قبله، لنتوقف أمام ربوة صغيرة كثيفة الأشجار. اكتشفت بابا يقود إلى مخبأ صغير جدا لم تزد مساحته ربما على ثلاثة أمتار طولا فى ثلاثة أمتار عرضا. فى المخبأ كان صدام جالسا إلى المكتب.

قال الرئيس: «السلام عليكم، يا د. علاء». كان يرتدى نظارة كبيرة سوداء اللون، وانهمك فى الكتابة بقلم حبر على قطعة من الورق. على الحائط الذى كان وراءه كانت هناك خريطة للشرق الأوسط، كانت الكويت مرسومة فيها كبقعة بيضاء بدون اسم.

بعد ربع ساعة رفع الرئيس نظارته ووضع قلم الحبر جانبا.

قال لى: «انتهيت».

اعتنيت بالخنصر، حيث كان فى مكان الندبة التى خيطت فيها الأغلة بعض الاحمرار، لكنه لم يكن بالأمر الخطير.

«ربما لأننى أطلت فى الكتابة عما هو مطلوب».

هدأت الرئيس، وقلت له أن كل شىء فى أفضل حال.

فى مساء اليوم التالى نقل كل من الإذاعة والتليفزيون الخطبة التى كتبها الرئيس قبلها فى المخبأ. أثنى صدام فيها على الجيش، وعلى الحرس الجمهورى لما قاما به من إعادة للنظام فى جنوب العراق، حيث حاولت «عناصر إجرامية» استغلال الموقف الصعب بعد الانسحاب من الكويت لتحقيق «مآربهم الغادرة». ولكن حمدا لله أن «رجال العصابات» هؤلاء قد نالوا ما يستحقونه. لقد خرجت الأمة قوية، و«منتصرة» من تلك الأزمة.

أما المشاكل التى كانت ما تزال تواجهه فى المناطق الجبلية فى الشمال فلم يشر صدام إليها، حيث أخذت البشمرجة الكردية تستولى على مدينة بعد أخرى، فى الوقت الذى كان فيه على حسن المجيد والحرس الجمهورى منشغلان بقمع انتفاضة الشيعة فى الجنوب. استولوا على أربيل، وعلى السليمانية، وعلى دهوك، وعلى زاخو.

فى العشرين من مارس سقطت أيضا مدينة النفط كركوك فى أيديهم. بدا أن حلم دولة كردستان المستقلة فى طريقه للتحقق.

كان مسعود برزانى، وجلال طلبانى، وقوات البشمرجة التابعة لهما قد سيطرت تقريبا على كل المناطق الكردية فى شمال العراق.

لكن عندما هُزِم الشيعة فى العراق بدأ على حسن المجيد والحرس الجمهورى نشاطهما من جديد فى شمال العراق، حيث استعمل صدام وابن عمه المروحيات المقاتلة، والدبابات، والمدفعية الثقيلة ضد الثوار دون تدخل لا من الولايات المتحدة الأمريكية، ولا من الأمم المتحدة. وفى زمن قياسى تم استعادة كل المدن والمناطق الكردية.

فى يوم الثالث من أبريل أُعلن أن السلطات استعادت كامل سيطرتها على كل المحافظات فى العراق. عشرات الآلاف من مقاتلى البشمرجة التابعين لمسعود البرزانى، وللطلبانى، سقطوا فى حربهم مع القوات الحكومية المتفوقة تفوقا كاسحا لا أمل معها فى تحقيق الانتصار. كانت أعداد كبيرة من المدنيين قد هربت إلى الجبال الواقعة على الحدود مع إيران، وتركيا مخافة التعرض لجريمة حرب الإبادة الجماعية على يد «على الكيماوى» من جديد.

لم يستيقظ الضمير العالمى إلا عندما بُث تقارير تليفزيونية فى جميع أنحاء العالم عما يقرب من مليونين من الأكراد اليائسين والبائسين الذين اتخذوا طريقهم إلى المعابر الحدودية بأطفالهم، وآبائهم الطاعنين فى السن عبر الصقيع، والثلوج، والوحل. كان الحديث يدور عن كارثة إنسانية، حيث كان المئات يموتون يوميا بسبب المشاق التى يواجهونها فى الجبال الباردة القاحلة.

غير أن الأزمة الطاحنة لم تقع؛ فقد تحركت قوافل الإغاثة، وشيئا فشيئا بدأ إعداد ملاجئ آمنة للنازحين تحت رقابة أمريكية، وبريطانية، وفرنسية. كان صدام يتفاوض شخصيا مع زعيم الأكراد جلال طلبانى، ومع ممثل لمسعود البرزانى. وافق الرئيس على منحهم حكما ذاتيا موسعا، وأعطى فى الوقت نفسه الأمان لكل من هرب إلى الجبال فى العودة. قبل أن يمر العام كان تسعون بالمائة من النازحين إلى إيران، وإلى المنطقة الحدودية مع تركيا قد عادوا إلى ديارهم.

انسحبت القوات الحكومية من المحافظات الثلاثة الواقعة فى أقصى شمال العراق، حيث تقرر أن يتولى الحزب الديمقراطى الكردستانى بقيادة برزانى، والاتحاد الوطنى لكردستان بقيادة طلبانى الحكم بشكل موسع.

فى الجنوب واصل جنود الحرس الجمهورى تعقبهم للثوار من الشيعة طوال الصيف كله. كان كثير منهم مختبئ فى المستنقعات. كانت هناك تقارير متصلة عن معارك طاحنة فى هذه المناطق. شارك أيضا عرب المستنقعات فى هذه المعارك، فقد كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم من مصير، لأنهم بناء على مشروع الصرف العملاق لصدام سيجدون أنفسهم فى بضع سنين جالسين على أرض بوار، وقد أصبحوا مشردين فى أرضهم هم أنفسهم.

أما ابنا عمى هاشم كريم وقاسم كريم بشير فلم يستطع لا الحرس الجمهورى، ولا الشرطة السرية أن تعثر لهما على أثر. لقد نجيا من عمليات التطهير واسعة النطاق؛ فعندما بدأ فى طوبريج البحث المحموم عنهما، وعن غيرهم من قادة الانتفاضة كانا قد فرا إلى بغداد. أعطيتهما مالا، ومكنتهما من أن يظلا مختفيان لعدة أعوام، ومن أن يعودا فيما بعد إلى ديارهما.

فى معسكر الاعتقال العسكرى بالمقربة من المطار الدولى الرضوانية كانت فرق الإعدام حتى أواخر الخريف منشغلة إلى الأذقان بالعمل، حيث كان يُحضر إلى هناك كل الشيعة المعتقلين المقرر تنفيذ حكم الإعدام فيهم، وهو الأمر الذى يدين له سائق السيارة النقل التعيس بالفضل فى نجاته هو نفسه فى آخر الأمر، هذا السائق الذى كان قد حطم بعربته فى العام الذى قبله الجسر المؤدى إلى قصر الرئيس.

كان زوج ابنة صدام، أى صدام كامل المجيد، يشارك فى عمليات الإعدام المتواصلة. روى لى أحد حرسه الخاص أنه فى ضحى يوم من الأيام سيق بمجموعة جديدة من الشيعة إلى ميدان الإعدام. أخذ أحدهم يلوح بيديه فى يأس ويصيح من بعيد بصدام كامل أنه ليس له علاقة بالآخرين، وأنه برىء تماما.

اتضح أن الأمر يتعلق بسائق السيارة النقل؛ ففى مساء اليوم الذى قبله قذف إلى زنزانته ببعض الثوار كان من المقرر إعدامهم رميا بالرصاص. فى الصباح أخرجوه بكل بساطة معهم، ليخرجوه بذلك من دائرة النسيان.



الفصل التاسع

الجــوع

بعد انتهاء حرب الخليج، وقمع الانتفاضة فى الجنوب، والشمال، بدأ زحف الفضائيات، حيث اقتنيت أنا الآخر جهاز استقبال معه طبق كبير فوق السطح. لم يكن هذا مسموحا به تماما من وجهة النظر القانونية، غير أن النظام أغمض عينيه عامدا عن أنا وسعنا دائرة برامجنا الإخبارية، والمغامرات المسلية بعض الشىء، ولم نقنع بما تفرضه علينا التليفزيونات الحكومية، وتليفزيون الشباب التابع لعدى.

بعد فترة من الوقت تحولت الأطباق فوق أسطح منازل بغداد إلى غابة حقيقية. هنا قرر صدام أن الأمر قد تجاوز الحد، وأعطى توجيهاته لأخيه غير الشقيق سبعاوى التكريتى، الرئيس الجديد للمخابرات، بالتدخل. قام سبعاوى بدوره بتحويل هذه المهمة إلى عامله المخلص إبراهيم علاوى.

كانت مدينة الفلوجة هى مسقط رأس علاوى الذى كان واحدا من أكثر سفاحى النظام فسادا ودموية. ترقى إلى رتبة اللواء، وأصبح مديرا لأمن بغداد. فى ذات عصر يوم من الأيام وقف رجاله أمام بابى لقطع الإرسال الفضائى.

«نما إلى سمعنا أنك تملك جهاز استقبال فضائى»، قالها ضابط الشرطة. كان برتبة النقيب، وارتدى مثل مرافقيه من الضباط الزى المدنى.

رددت عليه بقولى: «ليس هذا سرا، فما عليك سوى النظر إلى السطح».

لم نحاول مطلقا إخفاء الطبق كبير الحجم.

قال: «هذا غير مسموح به».

«وكيف لى أن أعرف هذا؟ فحسب ما أعرف فإن مثل هذا الحظر لم يُعلم به أبدا لا فى الجرائد، ولا فى التليفزيون».

«إن هذا محظور».

دخلوا إلى المنزل، وأخذوا جهاز الاستقبال معهم.

«سنحضر غدا لأخذ الطبق».

بعدما رحلوا عنا أرسلت ابنى الأوسط تحسين إلى السطح. بالطبع كنا نعرف ماذا كان يحدث. كان أخو صدام غير الشقيق، وإبراهيم علاوى يجنيان مبالغ طائلة من حظر الإرسال الفضائى.

من كان عنده استعداد لدفع بعض المال كان يُسمح له بالاحتفاظ بجهاز الاستقبال والطبق. أما من كان يرفض فلم يكن أمامه إلا أن يرضى صاغرا بأن يُصادر جهاز الاستقبال والطبق، وأن يباع بعد ذلك لمشاهد جديد لديه استعداد أكبر للدفع. وبما أننى كنت على علاقة جيدة مع الرئيس فلم يجرؤ النقيب فى هذه الحالة على أن يقترح حلا عمليا لهذا الأمر.

حلّ تحسين مسامير القلاووظ الممسوك بها طبق الاستقبال، وتركه يهوى هكذا بكل بساطة على الأرض.

ثار رسول اللواء علاوى ثورة عارمة حينما وجد الطبق فى صباح اليوم التالى محطما.

انتشرت الشائعات فى بغداد حول هذه الأحداث. وفى ذات يوم عندما كنت أعالج ساجدة، الزوجة الأولى للرئيس، أثارت معى الموضوع.

«سمعت أن رجالا من الشرطة السرية كانوا عندك ليصادروا جهاز الاستقبال الخاص بك. لقد كان فعلا شيئا رائعا أنك حطمت الجهاز فى وجودهم، هكذا بكل بساطة».

«لم يكن الأمر هكذا تماما، فالصحيح أن الطبق تحطم قبل أن يستطيعوا أخذه».

«ومع ذلك فقد كان عملا رائعا منك».

لم أقتن جهاز استقبال جديد. كان يمكنني في الغالب تركيبه والاحتفاظ به أيضا، لكنني كنت سأعطي وقتها قطيع الذئاب المحيط بالرئيس فرصة سانحة للطعن فيّ، فدائما ما كان هذا القطيع يبحث عن نقاط ضعف يمكن أن يستغلوها في هذه الدوامة الأبدية من الحقد، والمؤامرات، والصراع حول النفوذ.

كان علي السبتي واحدا من العاملين في السلك الدبلوماسي. كان سفير صدام في طرابُلس. وعندما عاد في منتصف التسعينيات من ليبيا إلى بغداد اقتنى جهازا لاستقبال الإرسال الفضائي. كان منتقدا، لاذعا في سخريته، وكان لا يترك شيئا تقريبا مما يحدث من حوله إلا وأبدى عليه تعليقه. أصبح مدير إدارة في وزارة الخارجية حيث وقع في دائرة اختصاصه العلاقات مع إيران بالذات. لم يلق أسلوبه وتعليقاته هوى خاص لدى الوزير محمد سعيد الصحاف.

ذات يوم «اكتشف» الأمن كل من الطبق وجهاز الاستقبال الخاصين بعلي السبتي. دخل مدير الإدارة إلى السجن، حيث أُفرج عنه بعد ثلاثة شهور ليمثُل أمام الرئيس الذي قال له: «لقد عاقبتك حتى يرى الناس أنني أعاقب أيضا. إذا اقتضى الأمر. المقربين مني. لا بد أن تدرك أنني جاد فيما أقوله من حتمية احترام القوانين والقواعد».

في أعقاب ذلك ربت صدام على كتف السجين المفرج عنه في حنو، وأرسله سفيرا إلى البحرين.

لي ابن عم اسمه معين قاسم. كان معين مقاولا، حيث كان يقوم قبل حرب الخليج، وانتفاضة الشيعة بعدة أعمال مقاولات في مدينة العمارة في جنوب العراق. في أثناء الحرب، وفي أثناء الاضطرابات كان يقيم في بغداد. وحينما عاد بعد الانتفاضة إلى العمارة مرة أخرى اكتشف اختفاء إحدى سيارات النقل من موقع العمل الذي كانت شركته تتخذ منه مقرا لها. اندهش لذلك الأمر لأنه كان قد اتفق مع العشيرة قوية النفوذ التي تفرض كلمتها على المدينة أن لا تدع سيارات النقل الخاصة به تغيب عن ناظريها. وعندما سأل شيخ العشيرة عما حدث أجابه قائلا: «أتى رجال من الشرطة السرية، وقالوا إن اللواء علاوي في حاجة إلى سيارة النقل هذه».

أتاني معين سائلا العون. ذهبنا إلى أحد المكاتب الواقعة في حي الجادرية. كان

إبراهيم علاوى يدير من هذا المكتب إمبراطورية أعماله الخاصة التى كانت متشابكة تشابكا دقيقا مع مهامه الرسمية كرئيس للشرطة السرية فى بغداد.

كان رجلا طويل القامة، بدينا بشكل غريب، فى منتصف الخمسينيات من عمره. كان يخف شعره، وكانت رأسه مستديرة ككرة القدم. كان معظم أجزاء جسده، الذراعان، والساقان، والأصابع تستدعى إلى الذاكرة منظر السجق الطويل المتنفخ. كانت بطنه العظيمة مسترخية من تحت حزام بطنه.

كان اللواء يمتلك طائفة كبيرة من الشركات، وأخذ يعمل الآن أيضا بهمة ونشاط فى مجال مقاولات البناء. بعد القصف الذى وقع فى أثناء حرب الخليج كان هناك كثير من الطرق، والجسور، ومحطات الطاقة فى حاجة إلى إعادة البناء أو الإصلاح. انتشر رجاله ممن يعملون فى الشرطة السرية فى طول العراق وعرضها ليجمعوا ما كان يعوزهم من سيارات النقل، ومن معدات البناء. كانوا يستولون هكذا بكل بساطة على ما كانوا فى حاجة إليه.

اكتشف ابن عمى سيارة النقل الخاصة به فى أحد مواقع العمل الخاصة بعلاوى.

«هل يمكن أن أستعيدها؟»

«لقد دفعت ثمنها. اشتريتها من رجل من الرمادى».

سألته: «هل يمكنك أن تخبرنا باسم الرجل ومحل إقامته؟»

بطبيعة الحال كان اللواء قد «رمى للأسف» قصاصة الورق التى تحتوى على اسم وعنوان البائع.

قلت: «أظن أن علينا الآن التوجه إلى دائرة شكاوى الرئيس لكى نجد من يساعدنا».

كان لهذه الجملة أثرها؛ فقد رأيت كيف بدا الخوف عليه.

«بما أن الأمر يتعلق بك يا د. علاء، فإننى سأدفع تعويضا لابن عمك».

اصطحبنى إلى غرفة مجاورة. كانت غرفة كبيرة، فى حجم غرفة النوم، اصطفت فيها علب وكراتين امتلأت بالدينار العراقى. بالرغم من أن قيمة الدينار كانت تتناقص

يوما بعد يوم بسبب التضخم كان اللواء يحتفظ بكميات هائلة من النقود السائلة فى الغرفة الخلفية الخاصة به.

حصل ابن عمى فى مقابل سيارة النقل الخاصة به على ٧٥٠ ألف دينار، أى ما يعادل ٢٥٠ دولارا أمريكيا، فى حين أن قيمتها السوقية كانت تعادل ١٠ آلاف دولار.

«يمكننا أن نكتب للرئيس»، كان هذا ما اقترحته على ابن عمى.

أجابنى بقوله: «لا، أنا لن أعرض حياتى للخطر من أجل سيارة نقل».

كان عند اللواء إصابة فى الظهر أبت على الشفاء. رجانى أن ألقى عليها نظرة، وكشف عن نصفه العلوى. لم أكن مهتما أدنى اهتمام بعلاج جبل الدهون هذا، لذا أخذت أجيبه عن أسئلته بخصوص ما يجب فعله إجابة مائعة ومتهربة.

كان من المثير للغرابة فعلا أن يكون مثل هذا الرجل المفرط فى بدانته لا يزال يعمل فى الخدمة العامة، بينما سنَّ صدام قواعد واضحة بخصوص تمتع الموظفين، والضباط بوزن مثالى بعينه يرتبط بطول الجسد، والسن، ولا يُسمح بتجاوزه إلا بعدد معين من الكيلوجرامات. فإذا زاد وزنهم عن ذلك فإنهم كانوا يتلقون إنذارا بإنقاص وزنهم فى غضون ستة أشهر من تاريخه.

فإذا لم يُوفقوا فى إنقاص وزنهم فإنهم كانوا يتلقون إشعار فصلهم من العمل.

قلت للواء: «أرجو المعذرة، ولكن كيف تمكنت من الالتفاف على الرقابة الإجبارية على الوزن»؟

أجابنى بقوله: «شفع سبعاوى لى عنده».

اتضح أن علاوى كان قد فُصل، غير أنه حينما عُيِّن أخو صدام غير الشقيق رئيسا للأمن العام تدخل هذا الأخير لصالح علاوى. استُدعى اللواء علاوى ليمثُل أمام الرئيس الذى طالبه بتفسير لبدانته.

«ضربت بيدى على بطنى الكبيرة، وقلت له: ها هنا فى الداخل دماء أعدائكم»!

تهللت أسارير علاوى عندما حكى لى هذه القصة. لم يتفوق عليه فى تعذيب وقتل

العراقيين فى أثناء الخدمة سوى قليلين، ففى الفترة التى قضاها اللواء علاوى فى منصبه لا شك أن عدد الضحايا قد تجاوز الآلاف.

لم يمر كثير من الوقت بعد حلول أول أيام عام ١٩٩٢ حتى كان صدام قد حدد تسعيرة إجبارية لبيع الأرز، والقمح، والسكر، وغيرها من المواد الغذائية الرئيسية.

كان خطر فقدان السيطرة الكاملة على التضخم يتهدد العراق، مما دعا الرئيس الى اللجوء لهذا الإجراء المعروف، الفاشل اقتصاديا فى معظم الأحوال لكبح جماح التضخم.

سرعان ما اتضح أن كثيرا من التجار تجاهلوا هذا الأمر الإدارى تجاهلا كاملا؛ فلو أنهم التزموا بالأسعار التى تحددها السلطات لما استقامت حساباتهم فى ظل عدم انسحاب هذا الأمر الإدارى على أسعار تجارة الجملة.

لذلك استدعى الرئيس سبعاوى، وكلفه بأن يقدم مثالا على سبيل الإنذار يكون عظة للآخرين، يخيفهم ويرعبهم.

انشغل اللواء علاوى ومعه الشرطة السرية بهذا الأمر.

كان ابنى سومر يدرس وقتها فى الجامعة التكنولوجية ببغداد، وكان له زميل بارع الذكاء اسمه محمد رحيم من عائلة فقيرة. أخذت الأسرة والأصدقاء يجمعان المال سويا حتى يحقق حلمه بأن يكون مهندسا. كان لوالد أحد أصدقائه بقالة صغيرة. كانت فرصة لهذا الطالب الفقير أن يتكسب بعض المال من العمل هناك ليلا.

فى مساء أول يوم كان فيه محمد وحده فى العمل، دخل واحد من ضباط علاوى من الشرطة السرية البقالة. سأله عن ثمن كيلو الأرز. ذكر له الطالب السعر الذى حدده له صاحب البقالة. تجاوز هذا السعر ما كان محددا رسميا من تسعيرة إجبارية.

قُبض على الطالب، ولم يشفع له قسمه بأنه برىء، وقوله إنه لم يكن يعرف إنه كان يفعل شيئا محرما. أوسعوا الطالب ضربا وربطوه بالأغلال الحديدية لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة أمام البقالة، وقد عُلقت يافطة حول عنقه تقول إنه لص يخدع الشعب.

فى اليوم التالى شنقوا محمدا.

ذهب ابنى سومر لوالدى محمد ليقدم لهما واجب العزاء. كانوا من الفقر لدرجة أنه لم يكن عندهم حتى أى أثاث.

فى بغداد وحدها أعدم ما يزيد على أربعين من تجار السلع الغذائية فى أعقاب الرقابة على الأسعار. لم يكن هناك ما يمكن أن نسميه محاكمات لا للطلبة، ولا لغيرهم ممن قبض عليهم خلف طاولة البيع فى المحل. كان عددا لا بأس به ممن شُنقوا أقارب وأصدقاء طيبين لصاحب الدكان، قاموا بالإشراف عليه فى الوقت الذى كان فيه صاحبه للحظات فى الخارج.

لم تُرفع العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة بعد غزو صدام للكويت حتى بعد انتهاء حرب الخليج. أدت هذه العقوبات إلى مزيد من التسريع بالانهيار الاقتصادى الذى ظهرت بداياته بعد الحرب ضد إيران. لم تفرض الأمم المتحدة فى القرن العشرين مثل هذه العقوبات الهائلة على أى بلد آخر من قبل. أصابت العقوبات أهم قطاع اقتصادى للعراق بالشلل، ألا وهو تصدير النفط.

بدون عائدات تصدير النفط لم يعد فى إمكان النظام الإبقاء على مستوى معيشة مقبول للعراقيين. أخذت الأمراض والفقر فى الاستفحال يوما بعد يوم. ازداد عدد الآباء اليائسين والبائسين الذين اضطرتهم الظروف إلى أن ينام أطفالهم من غير عشاء. فى كل أنحاء العراق الذى نزل إلى خط الفقر نمت بيوت المزادات كالأعشاب الشيطانية التى كان الناس فيها يتصرفون فى كل ما لديهم من حلى، ومن أشياء ثمينة، ومن أجهزة كهربية، ومن أثاث، وأحيانا أنفسهم.

كان مجلس الأمن قد عرض بالفعل فى عام ١٩٩١ أن يقوم صدام ببيع كمية محددة من النفط ليشترى فى مقابلها المواد الغذائية والأدوية للفقراء من السكان المدنيين. غير أن الرئيس رفض. كان يريد أن تُرفع العقوبات كلية، ولم يرض بأى حل جزئى كان فى إمكانه أن يجعل حياتنا أيسر.

كُتب علينا أن يمر ما يقرب من خمس سنوات حتى أدرك صدام حقيقة الحالة الاجتماعية، ووافق على شروط برنامج «النفط مقابل الغذاء». وإلى أن حدث ذلك كان على عشرين مليونا من العراقيين تحمل أهوال يمكن بالفعل مقارنتها بتلك التى

كانت أثناء الحرب ضد إيران، وضد الكويت، وبتلك التى كانت أثناء الحروب الأهلية فى الجنوب، والشمال.

لم يكن لتحديد الأسعار الذى اتخذه صدام أى تأثير عميق الأثر، بل ربما أى تأثير على الإطلاق. أخذت أسعار المواد الغذائية، وغيرها من ضرورات الحياة ترتفع يوما بعد يوم، فى حين ظلت الأجور على حالها. كان سمير على الشافى يتحصل شهريا من عمله كمحرر للأخبار الثقافية، وكناقد فنى فى صحيفة «ألف باء» الأسبوعية التى كانت تصدرها وزارة الإعلام على ٢٨٠٠ دينار. فى ذلك الوقت كان الدولار الأمريكى الواحد عند بائع العملة على ناصية الشارع يساوى ٣٠٠٠ دينار.

لكى يستطيع محرر الأخبار الثقافية هذا أن يشترى الطعام لزوجته، ولبناته الثلاث، ولنفسه اضطر لأن يبيع سيارته أولا. بعدها تصرف فى ذهب وفى حلى زوجته، وفى جهاز التليفزيون، وفى الأثاث. حتى أسرة الأطفال آلت إلى بائع العاديات. فى نهاية المطاف أصبح الأثاث يتكون من أربع مراتب فحسب. كما نجحوا فى الإبقاء على موقد صغير يعمل بالكيروسين استطاعوا أن يستخدموه فى الطبخ وفى التدفئة، بالإضافة إلى إناء صغير وأربعة أطباق.

«كانت الأطباق كبيرة للغاية، أضف إلى ذلك أن الحصة اليومية من المكرونة كريهة الرائحة التى كانت الشىء الوحيد الذى نستطيع شراءه كانت تبدو قليلة جدا على الطبق».

أما الخبز فلم يعرف طريقه إلى أفواههم، لأن ما كان فى مقدورهم شراؤه من الخبز كان أسود اللون، بغيض الرائحة، ويستدعى إلى الذاكرة ذلك الخبز المقدد الرقيق الجيد من الأيام الخوالى.

«تكوّن لدىّ الانطباع أن دقيق المطاحن الحكومية كان يُخلط بأى شىء كان يمكن خلطه به بشكل أو بآخر»، هذا ما تذكره الشافى.

كل يوم كان الشافى يقطع مسافة ستة كيلومترات من مسكنه فى حى المنصور إلى مكتبه فى وزارة الإعلام بالمقربة من قصر الجمهورية فى وسط العاصمة بغداد سيرا على الأقدام، وهكذا كان يعود دائما. لم يكن عنده نقود للباص أو لسيارة الأجرة، أو مال لشراء دراجة.

«حتى البيضة لم نكن نقدر على ثمنها. بطبيعة الحال لم تكن الفاكهة أيضا محل تفكير. غير أن أسوأ شيء بالنسبة لي كان هو إحساسي بفشلي كأب، لأن الأطفال كان عليهم أن يذهبوا إلى النوم بدون شُبعة من طعام».

أما النخبة الحاكمة فلم تعرف الجوع. ففي أوقات العوز هناك دائما ما يمكن تكسبه من التهريب، وتجارة السوق السوداء. فقد اغتنم عدى - الابن الأكبر للرئيس - فرصته في نعيم التجارة الذي تنامى أثناء العقوبات.

أصبحت هذه القصة الليلية المؤسفة التي ضُرب فيها كامل حنا - الخادم الشخصي لأبيه - في أغسطس من عام ١٩٨٨، ولقي فيها حتفه ورقة مطوية من زمن بعيد في أوساط العائلة، حينما انتهت حرب الخليج، وحينما تم قمع الانتفاضة في جنوب وشمال البلاد. شيئا فشيئا بدأ الابن الأكبر للرئيس في استعادة اعتباره مرة أخرى. قدمت له السوق السوداء وصفقات التهريب التي أخذت في الازدياد السريع يوما بعد يوم بعد العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة فرصا لا تُعد ولا تحصى لتحقيق ثروة طائلة.

«الأمير وشركاه»، كان هذا هو اسم الشركة التي أسسها عدى وقريبه حسين كامل في هدوء شديد مع نهاية عام ١٩٩١ لاستيراد السلع والتجهيزات الخاضعة للحظر الاقتصادي من قبل الأمم المتحدة. تم اختيار الاسم بعناية؛ فقد كانت لكلمة «الأمير» أهمية خاصة للغاية عند الشيعة. كان المقصود بالأمير هو الإمام علي، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته، المدفون في النجف، تلك المدينة المقدسة لدى الشيعة، والتي تقع على بعد ٢٠٠ كيلومترا تقريبا جنوب غرب بغداد. إن الإيرانيين شيعة، وقد أراد الاثنان عقد الصفقات مع الإيرانيين.

كان حسين كامل وزيرا للصناعة، والمسئول الرئيسي للتسليح الحربي للعراق آنذاك. سرعان ما أقامت الشركة على الناحية الأخرى من الحدود ما يلزم من الاتصالات، وعقدت الصفقات. بهذا أصبح في مقدور حسين كامل التحايل على العقوبات، والحفاظ على استمرار العمل في المصانع التي تتبع وزارته. أما عدى فكان يحصد الأرباح.

لا تهم عقوبات الأمم المتحدة أو غيرها، فلم يكن لدى الأئمة في إيران مانع من تولي

مسئولية فتح ما هو ضرورى من المنافذ الحدودية، طالما درّ هذا عليهم فوائد مالية. كانت شركة الأمير وشركاه تشترى وتستورد كل شىء تقريبا مما كان ينقص الصناعة وغيرها من قطاعات الاقتصاد، والمستهلكين، وكانوا فى حاجة إليه. سيارات من ألمانيا، آلات الحصاد والدراس، وأرز من تايلاند، وكونياك من فرنسا، كل هذا استطاع عدى وحسين كامل بمساعدة أصدقائهم الإيرانيين توريده بأسعار السوق السوداء الباهظة. وعن طريق نفس القنوات التى كانت تعمل بكفاءة فى إيران وجد النفط، والأسمنت، واليوريا، والبلح طريقهم من العراق إلى إيران.

«استطاع عدى أن يحقق من هذه الصفقات أموالا طائلة»، هذا ما رواه لى فيما بعد سكرتيره الخاص ظافر محمد جابر مضيفا: «مئات المئات من ملايين الدولارات من هذه الصفقات مع الإيرانيين وضعها عدى فى جعبته».

كانت حياة محرر الأخبار الثقافية سمير الشافى وعائلته صعبة، إلا أنه كان مع ذلك لا ينتمى إلى طبقة المُعدمين؛ فهو فى نهاية المطاف كان لديه عمل فى هذه الوقت العصيب حتى عام ١٩٩٦ حينما اتفق صدام أخيرا مع مجلس الأمن الدولى بعد شد وجذب طويل الأمد على أن يسمح للعراق ببيع كمية لا بأس بها من النفط مقابل الحصول على المواد الغذائية، والأدوية للسكان المدنيين الذى أخذ فقرهم، وجوعهم، ومرضهم يتزايد.

حينما بُدئ أخيرا بالعمل وفقا لبرنامج النفط مقابل الغذاء فى ربيع عام ١٩٩٧، وبُدئ شهريا بتوزيع الأرز، والقمح، والسكر، والشاى، وزيت الطعام، والصابون فى كل أنحاء العراق وضع هذا حداً للمجاعة العامة. غير أن العقوبات، والفساد، وسوء الإدارة من قبل النظام أصاب العراقيين بمعاناة لا يمكن وصفها. كان أكثر المتضررين هم من كانوا بلا عائل.

كانت تسكن مع سمير الشافى فى نفس الحى أرملة وبناتها الأربعة اللواتى تتراوح أعمارهن ما بين الخامسة والسادسة عشرة. كان عائل الأسرة قد توفى فى عام ١٩٨٩، حيث كان عقيدا فى الجيش. لم يكن فى مقدور الباقين من أسرته العيش من معاش الزوج من الجيش.

«كان بشعا أن تشاهد كيف كانوا يتضورون جوعا، وكيف أنهم بعد وقت قصير

كانوا يعانون من نقص فى كل شىء. لكننا نحن أنفسنا فى نهاية المطاف لم يكن لدينا أى شىء، ولم يكن باستطاعتنا الوقوف بجانبهم».

فى ذات يوم دخلت الابنتان الأكبر سنا إلى الحمام، صبا فوق رأسيهما البقية الباقية من الكيروسين، وأضرما فى نفسيهما النار. وجدوهما، وقد احتضنت كل منهما الأخرى.

«زحفت الأم بأصغر بناتها الثلاث إلى الموصل. لا أعرف ماذا حدث لهما هناك، لكنهما لم يعودا إلى بيتهما ثانية على الإطلاق».

مظفر العلى كان واحدا من كثيرين ممن افتتحوا محلا لبيع العاديات. كان لواء متقاعدا، وتعود معرفتى به إلى أيام كنت طبيبا شابا فى السلاح الجوى.

ذات مساء أتى رجل شاب إلى بائع العاديات ليبيع جهاز فيديو.

«هل يمكنك أن تأتى معى، وتلقى نظرة عليه؟ أنا أسكن هنا عند ناصية الشارع».

عندما وصل العلى إلى المنزل الصغير لفت انتباهه أنه بلا أبواب أو نوافذ. حتى الإطارات بيعت، كما لم يكن هناك أثر للأثاث أو غيره من المتاع.

على سجادة بجوار موقد من الكيروسين جلست امرأة شابة. كان بجوارها طبقان من الصفيح، أما جهاز الفيديو الذى كان من طراز غير مألوف فى العراق فكان موضوعا فى إحدى زوايا الغرفة. كان هذا الجهاز فيما يبدو من غنائم الحرب ضد الكويت.

قال العلى: «أنا آسف، لكن هذا الجهاز لن يشتريه منى أحد».

نظر إليه الرجل الشاب نظرة يائسة.

«حسنا، ولكن إذا أردت يمكنك النوم مع زوجتى»، وأشار إليها.

ذهب اللواء العلى.

«شعرت أن الدنيا تدور بى، وكاد أن يُغمى علىّ. بدا لى أن ما وصل إليه الناس من معاناة شىء لا يمكن للعقل أن يتصوره»، هذا ما قاله لى العلى حينما روى لى عن زيارته لهذه العائلة الشابة.

منذ زمن الحرب ضد إيران غادرت أفواج من المشردين العراق. كان الشباب الذين لا يريدون الذهاب إلى الجبهة يتصرفون فى جواز سفر مزيف ليهربوا عبر المناطق الكردية فى الشمال إلى تركيا أو سوريا. لكن قبيل حرب الخليج الثالثة سُمح فى عام ١٩٩٩ لكل العراقيين بالسفر إلى الخارج باستثناء الأطباء، والمهندسين، وأساتذة الجامعات، والباحثين، والضباط. استغل آلاف العراقيين الفرصة للسفر إلى الأردن؛ فلم يكن الملك حسين يطلب منهم تأشيرة دخول. فالأردن كان دائما ملاذا للعراقيين.

غير أن القدرة على مغادرة البؤس فى العراق كانت تتطلب مالا. كان استخراج جواز السفر يتكلف ٤٠٠ ألف دينار، بينما كان الأجر الشهرى المعتاد يبلغ ما بين ألفين وثلاثة آلاف دينار.

لكن المال لم يكن كل شىء. كانت حياة شرارة أستاذا للغة الروسية فى جامعة بغداد. كانت لبنانية الأصل، مؤلفة لكتب عديدة، وكانت متزوجة محمد سميسم الذى كان جراح عظام بارزا فى مستشفى الواسطى وصديقا عزيزا علىّ. فى عام ١٩٨٩ مات الرجل بالسكتة الدماغية، وبمرور الوقت شق عليها أن تعيش هى وابنتاها من مرتب الجامعة المأساوى. شعرت بضرورة عودتها إلى لبنان حتى يمكنها أن تحافظ على مستوى معيشة شبه إنسانى لها ولبنتيها.

عندما توجهت حياة إلى إدارة الجوازات فى بغداد رُفض إعطاؤها تصريحا بالسفر إلى الخارج؛ فبناء على الشريعة الإسلامية التى كانت مرجعا لهم لم يكن مسموحا للمرأة أن تغادر البلاد دون مرافقة محرم. غير أن هذه الأستاذة الجامعية لم يعد لها فى العراق بعد وفاة زوجها أحد.

لكى أساعدها طلبت لقاء أخى الرئيس غير الشقيق وطبان التكريتى الذى كان فى أثناء ذلك قد ترك منصبه كرئيس لإدارة شكاوى الرئيس ليرتقى إلى منصب وزير الداخلية. غير أن اللقاء معه لم يكلل بالنجاح.

قال لى: «القانون واضح، ولا بد أن ألتزم به».

لذلك ساعدت السيدة الأستاذة الدكتورة شرارة فى كتابة خطاب لصدام انتهى به المطاف كالعادة إلى دائرة الشكاوى فى القصر الجمهورى. غير أن هذا الخطاب لم

يساعدها في شيء، فالمسئول عن فحص الشكاوى لم يجد الأمر ملحا، ولذلك لم يصعد الخطاب إلى صدام. كان على حياة شرارة أن تستمر في الإقامة في بغداد لأنها لم يعد لها رجل يمكنه أن يرافقها إلى خارج البلاد. بعدها بعدة شهور علمت أنها أخذت ابنتيها معها إلى الحمام، حيث قامت بإحكام سد فتحة التهوية، والنوافذ، والباب، وفتحت أسطوانة الغاز الموجودة في المطبخ. نجت واحدة من ابنتيها. فعندما سقطت أمها وأختها على الأرض عادت إلى رشدها، وقررت أن تواصل الحياة.

تمت ترقية وطبان إلى منصب وزير الداخلية على حساب سمير الشيخلي الذي أصبح عضوا في مجلس قيادة الثورة منذ الانقلاب الذي وقع في السابع عشر من يوليو من عام ١٩٦٨، والذي أوصل حزب البعث إلى سدة الحكم. في عام ١٩٨٩ أصبح الشيخلي وزيرا للداخلية، غير أنه أثار بدون أن يقصد ذلك حفيظة علي حسن المجيد بسبب قضية تافهة في ظاهرها وضعت على مكتبه.

كانت الشرطة تتبع وزارة الداخلية والشيخلي باستثناء أجهزة المخابرات. في واحدة من الحالات التي وصلت إلى مكتبه قبيل حرب الخليج تعلق الأمر بفيللا في واحدة من أرقى أحياء بغداد. في هذه الفيللا كانت مجموعة من عاهرات علية القوم تقوم بعملها متجاهلة في ذلك غضب الجيران.

أراد رئيس شرطة المنطقة أن يغلق هذا المكان الأنيق، والمحبوب، وأن يرمي بالسيدات في الشارع. شاركه الشيخلي الرأي، ووقع بالموافقة على ما أوصى به رئيس شرطة المنطقة. غير أن الشيخلي لم يكن واضحا له أن النشاطات المكثفة في الفيللا كانت تحظى بالموافقة غير المعلنة، وبالحماية من مستوى سياسي أعلى من ذلك الذي كان وزير الداخلية يتحرك عليه.

«غيّر القرار»، كان هذا هو مطلب أحد حرس «علي الكيماوي» بعدما اقتحم غرفة الانتظار بلا استئذان ليواجه الوزير.

رفض الشيخلي. لم يمنع رئيس شرطة المنطقة، وضباطه من التعامل مع النشاط المزدهر في هذا الحي الذي كان يتسم باستثناء ذلك بالهدوء والخمول الشديدين.

لكن كما كان متوقعا فإن مصير وزير الداخلية كان قد حُسم بهذه الواقعة. في سبتمبر من عام ١٩٩١ اجتمعت قيادة الثورة في أول جلسة لها بعد انتهاء حرب الخليج. اتخذ التليفزيون العراقي مكانه، وأخذ بعض اللقطات التي أُذيعت في أحسن أوقات إرساله.

بدأت الجلسة كالمعتاد بتصفيق مدو، وأناشيد من الثناء عما كان لدى صدام من قدرة فريدة في ظل التضحية بالذات على حكم البلاد في تلك الأوقات العصيبة التي استطاعت الأمة مع ذلك الخروج منها منتصرة. بعدها استهل «علي الكيماوي» هجوما محموما على الشيخلي قال فيه:

كان سلوك وزير الداخلية مأساويا؛ فهو لم يتخل عن الشعب العراقي بسبب عجزه قبل، وفي أثناء، وبعد الحرب فحسب، بل جلب العار أيضا على حزب البعث، مما جعله لا يستحق بتاتا أن يظل عضوا في القيادة القطرية لأنه أثبت عدم قدرته على تحمل المسئولية، وانعدام ولائه، وعجزه تجاه الرئيس والشعب. وأومأ صدام برأسه موافقا.

بعدها بعدة شهور قابلت الشيخلي مصادفة في الشارع، وسألته مستغربا عن عدم إبدائه أية معارضة، حيث رأيته مطأطأ الرأس، محملقا بناظريه في الأرض في سكوت، بينما كانت الاتهامات تنهال عليه إلى أن تم عزله من منصبه في نهاية المطاف.

قال لي: «كل شيء كان محددا من قبل. ولاشك أن أوامري بإغلاق بيت الدعارة كانت السبب الحقيقي في أنني لم أعد الآن وزيرا، أو عضوا في القيادة القطرية لحزب البعث».

عندما غادر الشيخلي في مساء أحد أيام شهر سبتمبر هذا المؤتمر لم يجد هناك سيارة مرسيدس بسائقها في انتظاره، حتى سيارة حرسه الخاص لم يكن لها أثر. استقل سيارة أجرة إلى المنزل، إلا أن مقر إقامته كوزير كان قد أُخلي قبلها، ورُمي بزوجته، وأطفاله إلى الشارع.

لم تكن إهانة طرده أمام كل الناس في أحسن أوقات الإرسال في التليفزيون العراقي هي المصيبة الوحيدة التي حلت بوزير الداخلية الشيخلي، فقد انقض عدي هو الآخر عليه.

كان للشيخلى ، هذا الرائد القديم من رواد حزب البعث ، مزرعة صغيرة جميلة
قع فى حى الجادرية على نهر دجلة ، لا تبعد كثيرا عن جامعة بغداد . كان الشيخلى
يد الانسحاب إلى هناك بعد أن انتهت حياته السياسية . لكن كانت هناك مشكلة ، إذ
المزرعة كانت تحدها فيللا بناها ابن الرئيس منذ وقت ليس بالبعيد . غير أن عدى لم
غب أن يكون الشيخلى جاره ، فطلب منه أن يترك له المزرعة التى يملكها بثمن
س . رفض الشيخلى هذا الطلب . بعدها أخذ الحرس الخاص لعدى فى مضايقته .
ى ذات صباح وجد خرافه وماعزه مذبوحة . كانت نوافذ وأبواب المنزل الصغير فى
زرعة تُقذف بالحجارة وتُركل بالأقدام . كان فى زيارته للمزرعة خطورة على حياته ؛
قد كان الحرس الخاص بعدى يتصرفون بما يوحى للشيخلى بخطورة القدوم لمزرعته .

بسط على حسن المجيد يد الحماية لبعض السيدات فى العاصمة العراقية اللاتى لم
كنّ يلتزمن تماما بالخلق القويم . فى إحدى ليالى الشتاء فى وقت مقارب لهذه
لأحداث تلقى استقبال الطوارئ فى مستشفى الواسطى حالة امرأة فى العشرينيات من
عمرها مصابة بحروق شديدة .

حاولت هذه الشابة أن تشعل فرنا يعمل بالغاز ، فانفجر . أتت معها فى سيارة
لإسعاف أختها التى كانت تتمتع بجمال يأخذ الأبصار . كان معروفا عن الاثنتين أنهما
كانتا من الصفوة المنتقاة فى حرس اللهو فى بغداد .

بينما كنا نبذل قصارى جهدنا لإنقاذ حياة المرأة المحترقة كانت المرأة الأخرى تعيق
حركتنا . لم تستجب بتاتا لتوجيهاتنا لها باحترام لوائح المستشفى ، لا فى بادئ الأمر ،
ولا بعدها عندما أتت لزيارة أختها . كانت تروح وتجىء كما كان يحلو لها .

فى نهاية المطاف رأى العاملون بالمستشفى أنه من الحتمى أن يُضيق عليها حرية
حركتها . لم تمر بالكاد ساعة من الزمن حتى كان على حسن المجيد معى على الهاتف
الذى أخبرنى بلا مواربة أننى يجب أن أنتبه لدورى كمدير مستشفى ، وأننى يجب علىّ
أن أهتم بكلتا الأختين بشكل أفضل مما كان . من الواضح أن الأخت السليمة قد
اشتكت لهذا القريب من أقارب الرئيس ، وحكت له أننا لا نبدى لهما ما يستحقانه من
الاحترام ، ثم إنهما فى نهاية المطاف من صديقاته المفضلات والحميمات .

أجبت ابن عم الرئيس أنه ليس هناك ما يدعو إلى إلقاء التهم علينا ، فالمستشفى

وفرت للمريضة المصابة بالحروق كل ما يمكن تصوره من مساعدات. أما أختها فقد عوملت هي أيضا باحترام وترحاب مثلها مثل كل الأقارب في الحالات المماثلة. غير أن الأمل ضعيف في إنقاذ المصابة لأن الحروق أكبر من أى محاولات للإنقاذ؛ فتسعون بالمائة من حروق جسدها كانت من الدرجة الثانية. إلا أن تصرفات أخت المريضة لا تنسجم مع تعليمات المستشفى.

بعدها بثلاثة أيام توفيت المصابة. /

أخذ حجم الفساد والظلم في الإدارة يزداد يوما بعد يوم. لم يكن في مقدور أحد أن يشعر بالأمان، ولا حتى الوزراء أو الأعضاء البارزين في القيادة القطرية لحزب البعث، أو مجلس قيادة الثورة.

وهذه المناصب وإن كانت تجلب معها بطبيعة الحال المكانة الكبيرة، والثروة، والسيارات، وعددا هائلا من الامتيازات، إلا أن فترة البقاء على القمة لمن نجحوا في الوصول إليها كانت تزداد قصرا يوما بعد يوم، فدائما ما كانت صغار الأحداث كافية لتجعلهم من المغضوب عليهم من قِبل صدام والدائرة القوية من أقاربه غير القابلة للاختراق.

فسواء كان الأمر يتعلق بالرئيس أو بالدائرة الداخلية التي تضم عدي، وقصي، وعلى حسن المجيد، وعبد حمود، وعزة الدوري، وطه رمضان على قمتها، فإنهم كلهم كانوا سريعي الاستثارة.

بل إن أدنى اختلاف في الرأى، أو أمر أتفه من التفاهة كان يمكن أن يكلف أحدهم رأسه.

لقد كان الأمر أشبه بالسباحة في حوض مملوء بأسماك القرش!

في عام ١٩٩٥ اتسع مدى صفقات «الأمير وشركاه» اتساعا جعل صدام أيضا يعلم بالأمر. تم استدعاء عدى وحسين كامل إلى مكتب الرئيس في القصر الجمهوري، وسئلا عن حقيقة ما يدور.

طبقا لأقوال ظافر محمد جابر فإن الاثنين أجابا قائلين: «نحن نعمل ذلك لصالح الأمة». شكرهما صدام، غير أنه أمر بإغلاق الشركة فورا، وبإنهاء كل الصفقات.

قبل أن ينهى والده نشاطات الأمير وشركاه كان عدى قد أنشأ عديدا من مراكز الثقل التجارية، من ضمنها المصنع الوحيد لتصنيع البيبسى كولا فى العراق. اشتراه بثمن زهيد بعدما حظر صدام فى عام ١٩٩٢ تصنيع مشروب الليمون بسبب النقص الشديد فى السكر فى البلاد.

كان عدى يعرف أن هذا الحظر لن يدوم إلى الأبد، ولذا أحضر المعدات الفنية التى وفق فى شرائها إلى مزرعة صغيرة كان يملكها فى أطراف مدينة بغداد. هنا بنى عدى معمل إنتاج جديد كان جاهزا للعمل حينما رُفع حظر تصنيع البيبسى بعدها بعامين.

فى بادئ الأمر كان مذاق بيبسى عدى بشعا. كانت الصودا، وغيرها من المكونات تأتى من الأردن، وكانت مخزنة لفترة طويلة، بل كان من المفروض أن تُعدم. بالرغم من ذلك كان يتم استعمال كل شىء، فالعراقيون فى أزمتهم كانوا يشربون كل ما يقع بين أيديهم.

كان قصى على علاقة ممتازة مع عبد حمود الذى أصبح السكرتير الشخصى للرئيس. عندما كان عدى يريد الحصول على موافقة والده على شىء كان يتحدث مع أخيه الذى كان يقنع بعدها حمود فى عرض هذا الأمر على الرئيس.

عبد حمود كان فى بداية الأربعينيات وكان من أقارب صدام البعيدين. ارتقى من وظيفته كحارس شخصى للرئيس إلى أكثر المواقع أهمية فى جهاز السلطة المحيط بصدام. كان يسيطر على جزء كبير من المعلومات التى كانت تصل إلى صدام، وكان ذا نفوذ قوى فى تحديد من يُسمح له فى الدخول على صدام. عادة ما كان يحجب عنه السيئ من الأخبار سواء بوعى منه أو بغير وعى، فقد كانت قدرته على عدم إثارة قلق الرئيس مسألة كرامة بالنسبة له.

فى حياته الشخصية كان هذا السكرتير الشخصى غليظ القلب ووحشيا مثله مثل قطيع الذئاب الذى كان يملك مقادير العراق. كان متزوجا من اثنتين. كانت زوجته الثانية التى كانت عائلتها لفترة من الوقت على علاقة جيدة بصدام متزوجة من أحد الأكراد الذى أخذت حياته تزداد صعوبة على صعوبة حينما ظهر عبد حمود فى الصورة. طلبت الزوجة الطلاق، وقد حصلت عليه بطبيعة الحال. لكنها علاوة على

ذلك طالبت بيت الزوجية المشترك فى بغداد، وهى رغبة لم يكن فى مقدورها تحقيقها إلا بموافقة الزوج حسبما ينص القانون العراقى.

رفض الزوج، غير أن حمود عمل على أن يكون البيت فى نهاية الأمر من نصيبها، وبالتالى من نصيبه أيضا. رأى هذا الرجل الكردى أن أكثر الأمور أمانا له أن يهرب إلى السليمانية. كان رجلا لطيفا، وحلو المعشر، فقد كنت أعرفه بصفة شخصية.

كان على ابن الرئيس أن يترك دار الضيافة الرسمية الواقعة على نهر دجلة بعد تلك الليلة المصيرية التى لقى فيها كامل حنا الخادم الشخصى للرئيس مصرعه. ولكن بفضل وساطة أخيه وعبد حمود، سمح له الرئيس بعد انتهاء حرب الخليج أن يعود للإقامة هناك مرة أخرى. كما تمت الموافقة أيضا على الطلب الذى تقدم به عدى لتحديث وتوسيع هذه الفيللا المؤثثة بأثاث رائع.

طاب لعدى المقام فى دار الضيافة الجديدة «العابد». لم تكن الدار تبعد كثيرا عن مهبط المروحيات فى القصر الجمهورى، وهو ما كان مثاليا عندما كان يريد ابن الرئيس القيام بالصيد الذى كان شغوفا به. كان يحب اصطياد الطيور البرية حبا شديدا، لكن ليس من الأرض على أية حال، بل من الجو.

كان من اهتماماته المفضلة الطيران بمروحية عسكرية، حيث كانوا يثبتونه فى فتحة فى باب كابينة القيادة، ويطلق النار من بندقية صيد على أسراب الطيور التى كانت تطير من تحته. كان أخوه الأصغر قصى يحب أن يرافقه فى رحلات الصيد هذه. وجهت لى أنا أيضا دعوة للمشاركة. اقترح قصى هذا عندما أتى ذات يوم إلى مستشفى ابن سينا لتهنئة إحدى قريباته التى وضعت مولودا ذكرا. فتحنا حديثا عن الصيد، وهنا سألنى قصى إذا كان عندى الرغبة فى الذهاب معهم ذات مرة فى رحلة صيد.

رفضت فى أدب. وبالرغم من أننى كنت أملك بندقية صيد حصلت عليها عندما كنت أخدم فى منتصف الستينيات كطبيب فى السلاح الجوى، إلا أننى لم أستعملها إلا مرة واحدة.

«أطلقت بها النار على قليل جدا من الطيور، وهو الأمر الذى أحزننى».

سألنى قصى فى استغراب: «لماذا»؟

«ليس من حقنا أن نطلق النار على طيور صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل كل ما تستطيعه هو الطيران بعيدا. وما إن تفعل ذلك حتى تجد نفسها تتعرض لرصاصاتنا».

نظر قصى إلىّ.

- «هل يعنى ذلك أنك ترى أننا مجرمون»؟

- «لا، ولكنى لا أشعر بالسعادة فى قتل الطيور الصغيرة».

قال قصى: «إنك رجل غريب».

بعدها ببضعة شهور كان قصى مع والده فى المستشفى، وأعاد فتح الموضوع مازحا.

«د. علاء لا يحب الصيد، لأنه يراه عملا إجراميا».

أجبت: «لا، لم أقل إن ذلك عمل إجرامى، لكن المعركة هنا غير عادلة».

ضحك صدام.

«د. علاء رجل شديد التأمل، فهو يرى الحياة من جوانب كثيرة».

لم يمر وقت طويل على انتهاء حرب الخليج حتى عادت اللجنة الأولمبية العراقية هى الأخرى فى قبضة عدى. كانت كل الاتحادات الرياضية بملايينها من الأعضاء قد أخضعت لسيطرة اللجنة من قبل. وسّع ابن الرئيس هذه المرة عمل اللجنة بإضافة بُعد ثقافى لها. تم ضم نادى الصحافة، واتحاد الكتاب، ونقابة الفنانين، وكذلك هيئات المحاربين القدماء ذوى الأنواط.

عاد عدى رجلا قويا للغاية، إلا أنه وهب نفسه لكرة القدم فى المقام الأول، حيث أراد للفريق الوطنى العراقى تحت قيادته أن يحلق فى سماء كرة القدم العالمية. رأى أن انتصارات المستقبل لن تتحقق إلا إذا استحضر اللاعبون دائما أمام أعينهم ما قد يتهددهم من عقاب لا هوادة فيه فى حالة خسارة أى مباراة.

فى الغالب كانت العقوبة تتمثل فى الضرب بالعصى على باطن القدم.

كان أحد لاعبى المنتخب الوطنى يتعثر دائما عندما كانت تحين له فرصة للتهديف.

قال له عدى إن من حقه التعثر ثلاث مرات فقط فى أثناء المباراة، وما زاد على تلك الحصة المقررة فإن عليه أن يضع فى حسبانه أنه سيعاقب بعشر ضربات بالعصى عن كل تعثر. أما أن يُجزّ شعر اللاعبين الذين أخفقوا فكان يعد من قبيل العقوبات المخففة. وأحيانا يمكن أن ينتهى بهم المطاف إلى معسكر العقاب الحربى فى الرضوانية على أطراف بغداد، حيث تكون فى انتظارهم زنزانة، لا يُقدم لهم فيها سوى الماء والخبز، وتمارين عقابية عسكرية. بعد خسارة إحدى المباريات فى عام ١٩٩٤ أرسل كل الفريق الوطنى إلى هناك.

لم تكن مساندة الفريق أيضا أمرا سهلا. روى لى ظافر محمد جابر ما حدث عندما رافق اللاعبين فى ربيع عام ١٩٩٣ إلى الدوحة فى قطر. كان من المقرر أن يلعب المنتخب الوطنى هناك ضد كوريا، وإيران، والسعودية فى التصفيات المؤهلة لكأس العالم فى إيطاليا فى العام التالى له. عُين ظافر بهذه المناسبة رئيسا لبعثة الفريق الوطنى. قبل المباراة ضد السعودية تلقى جابر الأمر من عدى بألا يقف عند عزف النشيد الوطنى للمملكة.

«كان هذا محرجا للغاية، فالأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز كان رئيس بعثة الفريق الوطنى السعودى، وعلاوة على ذلك كان أحد أصدقائى الجيدين. بطبيعة الحال نهض الأمير عند عزف النشيد الوطنى للعراق. كان علىّ التظاهر بإصابتى بمشاكل طارئة فى الهضم. عدوت إلى الحمام، بينما كان النشيد الوطنى للمملكة يتردد صداه من مكبرات الصوت».

تعادلت العراق مع السعودية، لكنها انهزمت من إيران، وكوريا، مما حرم الفريق الوطنى العراقى من المشاركة فى كأس العالم. ألقى عدى بالذنب على المدربين والمساعدين، وفصلهم. كان اللاعبون يخشون أسوأ العواقب الممكنة عندما عادوا إلى بغداد. غير أن ابن الرئيس أطلق لحلمه العنان بشكل استثنائى وتخلى عن فكرة معاقبة اللاعبين.

أصبحت اللجنة الأولمبية دولة داخل الدولة، وسرعان ما بسطت ذراعها الطويلة إلى بعض الوزارات. بعد فترة من الوقت لم يعد بالإمكان الحصول على عمل فى وزارة

الثقافة، أو فى وزارة الإعلام، أو فى وزارة التعليم العالى والبحث العلمى دون الحصول أولا على مباركة خلصاء عدى الأولمبيين.

سرعان ما أدرك جميع الناس إلى أين اتجهت رياح السلطة. عادةً ما كانوا يذهبون أولا إلى عدى ولجنته الأولمبية ليسألوا المشورة. ويدفعوا ما يلزم من الرشى. قبل أن يتوجهوا إلى الوزارات المعنية. لعب عدى دورا حاسما فى فساد الإدارة العامة، مدمرا الآن البقية الباقية من الثقة فى صدام ونظامه. كان اسم عدى يتردد على كل لسان فى العراق.

بطبيعة الحال كان الرئيس يعرف كثيرا عن ممارسات عدى، غير أنه لم يكن من السهل وجود ما يفرض على صدام التدخل. كان إحساسى أن صدام لم يكن لديه الجرأة على توبيخه، لأنه كان يخشى من تفاقم اهتزاز حالته الذهنية.

كان لهذا الأمر عادةً عواقب مضحكة ومبكية فى الوقت نفسه.

كانت اللجنة الأولمبية التابعة لعدى تبعد مرمى حجر عن وزارة الداخلية التى كان يرأسها وطبان، أخو صدام غير الشقيق. كانت الطرق المؤدية لمجمعى المكاتب تصب فى تقاطع يحاول اثنان من رجال الشرطة فيه تنظيم المرور بقدر المستطاع.

بطبيعة الحال كان لعدى، ولوطبان أولوية المرور عندما كانا يصلان بموكبيهما إلى هذا التقاطع. كان على مستعملى الطريق وقتها الانتظار إلى أن يمرا. ولكن حدث فى ضحى أحد الأيام أن تقابل موكباهما فى نفس الوقت عند التقاطع. كان على ضابطى الشرطة أن يتخذا قرارهما فى أقل من ثانية: هل يعطيان الإذن بالمرور أولا للرئيس الأعلى للشرطة، أى وزير الداخلية، ويدعان عدى ينتظر، أم بالعكس يُوقفان وطبان؟

فى ضحى ذلك اليوم كان ظافر محمد جابر جالسا فى السيارة الليموزين الخاصة بابن الرئيس:

«أوقفا وطبان، وقد رأيت ابتسامة انتصار عريضة على وجه عدى».

جن جنون العم، وأمر حرسه الخاص بضرب رجلى الشرطة البائسين ضربا مبرحا. بعدها وُضعا فى حقيبة السيارة المرسيدس السوداء لوزير الداخلية، واقتيدا إلى أقرب سجن. هناك تلقيا مزيدا من الضرب قبل أن يلقى بهما فى زنزانة مظلمة تحت الأرض.

طبقا لأقوال جابر كان عدى يتناول طعام الغداء حينما علم بما حدث.

«قضينا بقية اليوم فى محاولة الوصول للرئيس لإرغام وطبان على الإفراج عنهما، فى آخر الأمر وفقنا فى ذلك. لم يتم إطلاق سراح ضابطى الشرطة إلا بعد أن اتصل سكرتير صدام الشخصى عبد حمود بوطبان مباشرة، وأبلغه بالأمر الواضح الذى أصدره الرئيس».

كان صديقى الحميم خضر عبد العزيز الدورى واحدا ممن كُتب عليهم التعرض للتعسف اليومى المنحط. كان عضوا فى مجلس قيادة الثورة، ورئيس حزب البعث فى شمال العراق. كان يحظى بالاحترام الشديد سواء من جانب الأكراد، أو السنة، أو الشيعة. كان يعد من الرجال الشرفاء المجتهدين. كان الدورى لا يزال يؤمن بالأفكار المبدئية للحزب، وبالاشتراكية، وبالتوزيع العادل لوسائل المجتمع، وهو الأمر الذى رأته النخبة الحاكمة بعد فترة من الوقت أنه تجاوز الحد المطلوب.

فى أحد أيام ربيع عام ١٩٩٣ مررت بمنزله الذى احتفظ به فى حى اليرموك ببغداد، حتى بعد أن أصبح عضوا فى القيادة القطرية. كانت سيارة العمل الخاصة به، وهى سيارة مرسيدس سوداء اللون، واقفة فى الجراج. توقفت لألقى عليه تحية الصباح.

كان يبدو شاحبا، ومهموما.

«تبدو متعبا. هل أنت بخير؟»

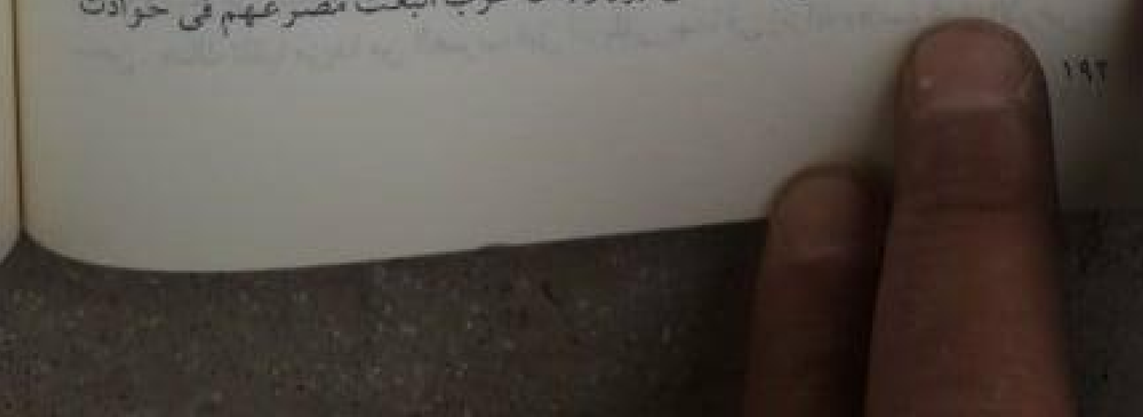
«أنا على ما يرام. لكن دعنا نذهب إلى الحديقة».

كان الدورى يشك فى أنه يتم التنصت على منزله هو نفسه.

فى الخارج حكى لى ما قد وقع منذ عدة ساعات، بعدما أوقف سائقه سيارته بعد العودة من كركوك فى الجراج.

«لقد سقط ناقل السرعة كله. لا يزال السائق تحت تأثير الصدمة. فلو حدث ذلك أثناء السفر لما كنا قد نجونا بحياتنا؛ فنحن عادة ما نسير على الطريق السريع بسرعة ١٥٠ كيلومترا فى الساعة».

فى الشهور الماضية لقى طائفة من أبرز رجال حزب البعث مصرعهم فى حوادث



سيارات غريبة، حينما كانوا فى طريقهم من أو إلى دوائر عملهم فى العراق. أخذ الناس يتهامسون سرا عن بعض الأمور؛ فلقد كانت الحوادث أكثر من أن تكون مجرد مصادفة.

ذكّرته أننى حذرته قبلها بفترة طويلة: «سيرتك، وسيرة استقامتك فى الشمال طيبة زيادة عن اللزوم. أنت تعرف أن هذا الأمر لن يجلب لك أكاليل الغار عند الطبقة الحاكمة العليا».

سألنى قائلا: «لكن ماذا عساى أن أفعل؟ أيجب على البدء فى ضرب واغتيال أهالى الشمال، لا لشىء سوى لإسعاد علية القوم»؟

بعدها بثلاثة شهور اجتمع مجلس قيادة الثورة. قبل أن تبدأ المباحثات أجلس الدورى فى مواجهة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزة الدورى. بعد أن دخل صدام ونهض جميعهم وجلسوا ثانية نظر صدام إلى الرجل القادم من كركوك.

«اسمع يا خضر، لقد زادت ثروتك فى الآونة الأخيرة، واقتنيت عديدا من المزارع الكبيرة. من أين لك بهذا المال»؟

أدهش السؤال الدورى.

أجاب: «كل ما عندى يا ريس أدين به لكرمكم».

«لكن كيف استطعت شراء البيت الذى فى اليرموك. سمعت أنه بيت منيف، وبه طوابق كثيرة».

لقد اشتريته من ثلاثين عاما ويزيد، وأنا أعلّيه الآن.

غير صدام الموضوع.

«لقد منحت عزيز الدورى، أحد الأصدقاء من قريتك، منصبا عاليا فى حزب البعث فى كركوك بطريقة ملتوية...».

يا ريس، أما أنه نقل من مكتب الحزب فى بغداد إلى كركوك، فهذا الأمر ليس لى علاقة به. لقد أمر بذلك عزة الدورى؛ فقد طلب منى أن أعمل على أن يتم اختياره فى منصب عال.

حينئذ نظر الرئيس إلى عزة الدورى. أخذ نائب الرئيس يحملق فى سطح المنضدة ويهز رأسه بالنفى.

«هذا ليس صحيحا. هذا ليس صحيحا. ليس صحيحا على الإطلاق».

جُن جنون صدام.

«يا عزة الدورى، ويا خضر الدورى: لا بد أن تسويا ذلك الأمر فيما بينكما، لكننى أريد أن أعرف إلى ما ستنتهيان إليه من نتيجة».

بعد الاجتماع عاد الدورى ثانية إلى كركوك. فى صباح اليوم التالى سلمه أحد أمناء القيادة القطرية خطابا من صدام يأمره فيه بالعودة إلى بغداد، والذهاب إلى بيته، والانتظار هناك. فُصل الدورى من مجلس القيادة، وسُحبت منه جميع امتيازاته.

«إن ما قلته للرئيس كان الحقيقة».

طبقا لأقوال الدورى فإن هذه الحادثة كانت متفقة تماما مع شخصية عزة الدورى، فاليد اليمنى الذليلة لصدام كانت لا تتورع بطبيعة الحال عن الكذب، وعن اللجوء للحيل الرخيصة للتخلص من رفقاء الحزب غير المرغوب فيهم.

خضر الدورى هذا رجل وسيم، طويل القامة، حيث يبلغ طوله مترين تقريبا. لم يكن من المحبوبين لدى الرئيس، ولم يكن صدام يطيق أن تلتقط له الصور فى لقاءات مجلس قيادة الثورة وهو بجانبه.

قال له صدام ذات مرة: «فى كل مرة يلتقط لى أحدهم صورة معك أشعر بعدم الارتياح، فأنت أطول قامة منى بكثير».

قال لى الدورى ونحن نتحدث عن هذا الأمر: «ربما يكون لهذا وقع سخيف فى الأذن، لكن هذا الذى قاله الرئيس يتطابق مع عقليته».

تخلى معظم الأصدقاء عن خضر عبد العزيز الدورى حينما طُرد من مجلس قيادة الثورة، ومن منصبه فى كركوك، ووضع رهن الإقامة الجبرية فى منزله. كانوا يخافون من أن يزوروه. عندما زحفت القوات الأمريكية على بغداد فى أبريل من عام ٢٠٠٣ كان قد مر عليه ما يقرب من عشر سنوات محتجزا فى منزله باليرموك. لكن لم يكن فى

هذا الخلاص للدورى، بل إن الأمر زادت طينته بلّة بالنسبة له، فقد كان من أوائل الرجال من النظام القديم الذين اعتقلهم الحكام الجدد، ورموا بهم فى السجن.

لم يكن صدام يتحدث مطلقا عن عائلته، وعن المصاعب التى كانت تسببها له، كما أنه كان شديد الحذر فى كلامه عن بقية النخبة الحاكمة التى كانت تحيط به، لكننى مع ذلك على قناعة بأنه كان واعيا من البدايات المبكرة بسوء الإدارة والفساد من حوله والذى كان مداه يتسع يوما بعد يوم. فى ربيع عام ١٩٩٢ كنا نتحدث عن حرسه الخاص. كان معظمهم من أقاربه القريبين أو البعيدين، وكان سلوكهم يتميز بالصلف، وبالوحشية. أينما حلوا حلت المشاكل.

قال صدام: «طالما ظل كلبك صغير السن والحجم يمكنك أن تركله، وأن تعاقبه بشتى الوسائل المختلفة، لكنه عندما يكبر، ويصبح قويا فإن عليك أن تمعن فى التفكير عما إذا كان يجب عليك ضربه، فهو نهاية المطاف يمكنه أن يعضك. تخيل لو أنك كنت محاطا بمئات الكلاب».

صهرى سعد العانى تقلد لعدة سنوات منصب مدير عام فى وزارة المياه والرى. فى أحد أيام صيف عام ١٩٨٣ كان هو والعاملون معه منهمكين فى مشروع للرى فى مدينة الصويرة الصغيرة فى منطقة زراعية تبعد أربعين كيلومترا غرب بغداد، زرع فيها السبانخ. كانت المنطقة كبيرة، والمحصول ممتازا. كان صهرى ورجاله يتحدثون مع فلاحة عندما هبطت ثلاث مروحيات نزل من إحداها صدام.

أثنى الرئيس على المشروع. أخذ صدام ومعه وحرسه الخاص يتأملون لفترة ما حواليهم ليتوجه بعدها إلى الفلاحة ليمتدح زراعتها الممتازة. انحنى الرئيس، وقطف بعضا من أوراق السبانخ ليرفعها عاليا فى انتصار.

سألها صدام: «هل يمكننى أن أحتفظ بها»؟

أجابته: «بالطبع، فهى ملكك».

«ماذا تعنين بذلك»؟

«هذه الأراضى الممتدة يملكها برزان التكريتى».

رأى صهرى كيف احمرّ وجه صدام.

قال صدام: «من الواضح أن معلوماتى فى نواح كثيرة ضعيفة». رمى صدام بأوراق السبانخ على الأرض فى غضب وقفل راجعا بطائرة الهليوكوبتر.

خير الله طلفاح، خال صدام وحموه، كان من أكثر أفراد عائلة صدام الذين استفادوا من الفساد المزدهر. عندما استولى حزب البعث على السلطة فى عام ١٩٦٨ أصبح محافظ مدينة بغداد، واستغل موقعه للحصول على مساحات كبيرة من الأراضى بطريقة قانونية أو غير قانونية. لم يكن شىء فى المدينة بعيدا عن متناول يديه الطويلتين الجشعتين. سرعان ما أصبح خير الله طلفاح واحدا من أغنى رجال العراق.

حتى أدنى فرصة للتربح لم تكن لتفلت من دائرة اهتماماته. على سبيل المثال، عندما كان الفلاحون الفقراء يأتون من الريف يريدون بيع الخراف والخضراوات فى السوق كان عليهم أن يدفعوا رسوما فى مقابل ذلك، لم تكن تدخل فى خزينة المدينة، بل فى حافظة نقود المحافظ.

كانت شراهة الخال معروفة فى كل مكان حتى أن صدام والرئيس البكر لم يتبق أمامهما من حل سوى عزله من منصبه فى عام ١٩٧٢. بعدها على أية حال عمل خير الله طلفاح على نطاق واسع «كصاحب نفوذ». كان بعض الناس ممن لديهم مشاكل مع المصالح الحكومية يذهبون لخال صدام ويدفعون ما يستلزم من رشى. بعدها كان طلفاح يتوجه إلى الإدارة المختصة، وكان يعمل على أن تلبى مطالب من كلفه بالأمر.

كان رجلا طويلا، ثقيل الوزن، ذا ملامح قاسية، دائم اللعان ودائم الرواية للنكات البذيئة. كل من كان يعترض طريقه كان ينهال عليه بالسباب. حتى الرئيس نفسه لم يكن مطمئنا إلى رد أفعاله حينما كان يأمر وزراءه بأشياء كانت تتعارض مع رغبات حَميه.

بترت ساق خير الله طلفاح وهو فى سن طاعنة. كان جرح فى ساقه قد تلوث مما أدى - مع معاناته بدرجة شديدة من مرض السكر - إلى حدوث غرغرينا رطبة. فى أثناء ما كان يرقد فى مستشفى ابن سينا لإجراء عملية البتر أتى صدام لزيارته. عندما كان صدام يغادر المستشفى سمعته يقول لحرسه الخاص إن حاج خير الله لن يُسمح له بالحركة كثيرا. كان هذا الرجل قد أدى فريضة الحج من قبل.

قال صدام: «شيء جيد أن يرقد هنا، فلن يضايق الوزراء طوال الوقت بمطالبه والحاحه».

حتى الرئيس فشل في إيقاف هذا الرجل الفاسد العجوز، وصفقاته المتنوعة، برغم أنها كانت على كل لسان. ظل خير الله طلفاح تحت حماية الرئيس إلى أن مات في عام ١٩٩٣.

ومع ذلك كان يحدث من حين لآخر أن يتدخل الرئيس عندما كان بعض أفراد أسرته وأقاربه القريبين يسلكون مسلكا شائنا.

أتذكر واقعة صهره لؤى خير الله، أخو زوجته ساجدة. في منتصف الثمانينيات كان يدرس في جامعة بغداد، وحدث أنه رسب في كل المواد. في أعقاب ذلك بحث عن أستاذه، وضربه ضربا مبرحا، وكسر ذراعه. عندما علم الرئيس بما فعله أمر حرسه الخاص بكسر ذراع لؤى في المكان نفسه، وقد حدث، وقام أحد أصدقائي من جراحي العظام بمعالجته.

تحرك صدام أيضا عندما حدث تشابك بالأيدى بين أخيه غير الشقيق سبعاوى وبين جار له على قطعة أرض في تكريت. حاول أحد رجال الشرطة أن يفض الاشتباك بين الثورين الهائجين. في أعقاب ذلك قام أحد حرس سبعاوى الخاص بناء على تعليمات منه بكسر ذراع رجل الشرطة. تقدم رجل الشرطة المخلص في عمله بشكوى إلى الرئيس الذي رأى أن رجل الشرطة لم يفعل شيئا سوى محاولته الحفاظ على الهدوء والنظام.

قضى سبعاوى أربعة أيام في السجن بتهمة كسر ذراع رجل الشرطة، مما أزّم العلاقة بين صدام وسبعاوى وهي متأزمة أصلا لنفس الأسباب.

فيما عدا ذلك ظلت العائلة غالبا بعيدة عن المضايقات.

انطبق على عمر التكريتي، أحد أبناء سبعاوى، المثل القائل «هذا الشبل من ذاك الأسد». في ذات يوم اتصل بي وأخبرني أن عليه أن ينقل أحد الشبان إلى مستشفى الواسطي، وأنه يفضل أن أعتني به شخصيا، إن كان ذلك ممكنا. كان الشاب مصابا بطلق ناري في الوجه. دخلت الرصاصة من تحت عظمة الصدغ الأيسر لتخرج من تحت عظمة الصدغ الأيمن. كانت معجزة إلهية أن ينجو هذا الشاب.

حكى لي والده أن ابنه كان يقود السيارة ولم يلحظ أن عمر الذي كان يقود السيارة



التى خلفه كان يريد تخطيه. أخذ عمر يستعمل آلة التنبيه بجنون. عندما ابتعد ابنه عن الطريق فى نهاية المطاف ليسمح له بتجاوزه، انحرف عمر بسيارته نحو سيارة ابن الرجل، وأرغمه على التوقف.

أخرج عمر فى ثورة غضبه مسدسه، وأطلق النار عليه.

نصحت الرجل أن يرسل خطابا إلى دائرة شكاوى الرئيس.

أجابنى الرجل: «لا أجرؤ على فعل ذلك».

اشتهر عمر من زمن طويل أنه سريع اللجوء إلى مسدسه. كان ابنى تحسين يدرس معه فى الوقت نفسه فى جامعة بغداد. روى لى ابنى أن ابن سبعاوى فى عام ١٩٩٢ قد أطلق النار على رئيس اللجنة الطلابية فى شجار معه فى فترة الاستراحة بين محاضرتين وقتله. كان تحسين وكثير غيره من الطلبة شهودا على هذه الواقعة.

اتفقت الأسرتان على قبول الدية كما هى العادة فى العراق. فى أعقاب ذلك أصبح عمر الذى كان حتى وقتها مجرد عضو فى مجلس إدارة اللجنة رئيسا للجنة الطلابية.

أما من لم يكن من عائلة صدام فقد كانت الأمور تبدو مختلفة تماما.

وهكذا تفرغ صدام أخيرا للسفاح البدين الفاسد فسادا مبينا إبراهيم علاوى. فى عام ١٩٩٧ قُبض عليه بسبب صفقاته الواسعة أثناء عمله كمدير لأمن بغداد، وقُدم للمحاكمة.

اتضح أثناء المحاكمة أنه كان ينهب، ويسرق، ويرتشى بالاشتراك أيضا مع سبعاوى، أيام كان الأخ غير الشقيق لصدام مديرا للأمن العام. فى أثناء المداولات أعلن اللواء علاوى أنهما بعد غزو الكويت فى أواخر صيف عام ١٩٩٠ كانا ضالعين بشكل نشط فى عمليات النهب المحمومة فى الكويت. أُستدعى سبعاوى شاهدا، واستمع لتلك الاتهامات، ولم يعقب.

حُكم على علاوى بالإعدام، غير أن الحكم لم يُنفذ. ظل اللواء حبيس سجن أبو غريب سيئ السمعة إلى أن قام صدام بالعفو عنه وعن كل المجرمين والمعتقلين السياسيين الآخرين فى أوائل مارس من عام ٢٠٠٣، أى قبل شهر من سقوط بغداد. قيل إنه لما أفرج عنه كان أكثر نحافة بكثير عن اليوم الذى اعتقل فيه.



الفصل العاشر

مسألة عائلية

لم يدم الأمر طويلا حتى أعلن صدام حسين يوم الثامن من أغسطس، اليوم الذى انتهت فيه أخيرا الحرب الدموية والسخيفة ضد إيران عيدا قوميا فى العراق - «يوم الأيام» -. فى كل البلاد كان يتم الاحتفال «بالنصر» على العدو فى الشرق بمظاهرات ضخمة وبالعروض العسكرية، كما كانت القيادة الحكيمة للرئيس ومجهوداته فى أثناء ثمانى سنوات من الحرب الصعبة موضوعا لأناشيد إطراء لا حصر لها من جانب الشعب المتوحد والشكور.

عادة ما كانت الاحتفالات و الأعياد تبدأ فى المغرب، وإذا حكمنا بناء على ما كان سائدا من أجواء الفرح فإن يوم الثامن من أغسطس من عام ١٩٩٥ كان سيعنى مجددا واحدا من أعظم الأيام لصدام.

بدلا من ذلك كان هذا اليوم هو بداية تحلل عائلته، بدءا من ابنه عدى، فأخيه الأصغر غير الشقيق وطبان، ثم كل من زوجى الابنتين حسين وصدام كامل اللذين كانا متزوجين من ابنتيه رغد ورنا.

وطبان الذى فقد نفوذه ولم يعد يشغل الآن سوى منصب «مستشار الرئيس» بعدما كان فى السابق وزير داخلية العراق، كان يحتفل «بيوم الأيام» عند صديقه حسن الخطاب الذى كان يملك مزرعة صغيرة تقع على الطرف الجنوبى لمدينة بغداد. كان هناك ما يقرب من المائة والخمسين شخصا من الجنسين مشاركين فى الاحتفال. مغنيين، وموسيقيين، وراقصات قدموا عروضهم، وحملان كاملة كانت موضوعة على الشواء، أما الخمر فكان يسيل أنهارا.

علاوة على ذلك شارك القوادون البارزون بمجهوداتهم إلى حد ما فى الاحتفال، فلم يكن من اللائق على أية حال أن يفشل الحفل لغياب مجهوداتهم.

عدى أيضا كان يقيم احتفالا فى «نادى الزوارق» على نهر دجلة فى بغداد. عندما كان العم برزان فى منتصف الثمانينيات بوصفه رئيس المخابرات القوى لا يزال يتمتع بحظوة صدام بُنى هذا النادى للضباط والعاملين البارزين لجهاز المخابرات المهيب كمكان للترفيه. عندما أصبح برزان خارج رحمة صدام آل هذا النادى إلى الرئيس. كان الرئيس يحتفظ به لقيادات حزب البعث، وللضباط ذوى الرتب العليا، وللوزراء، ولأسرهم كذلك. كان الطعام والشراب، بما فيها المشروبات الروحية، متوفرا بكميات كبيرة، ولفترة طويلة تمتع نادى الزوارق بسمعة طيبة على أنه الملهى المستديم لنخبة النظام.

إلا أن صدام أغلق فى عام ١٩٩٢ محابس الخمور، ولم يعد تقديم البيرة، والنبيذ، والكحوليات مسموحا به فى نادى الزوارق، كما كان على الضيوف المميزين من ذلك التاريخ أن يدفعوا بأنفسهم ثمن الطعام. بدءوا فى الاختفاء شيئا فشيئا، وبعد أن أصبح الملهى الواقع على ضفاف النهر مهجورا رأى عدى أن الساعة قد أتت، واستولى على النادى فى هدوء شديد. أمر حفنة من حرسه الخاص بالتوجه إلى هناك وفرض السيطرة، كما عين طباخا جديداً ونادلين جددا.

كان الملهى بصالته الكبيرة، وبمطعمه، وبباره الذى يبدو كسطح سفينة، بما كان يحيطه من مساحات خضراء، وبإطلالته الكبيرة الجميلة على نهر دجلة كأنه خُلق لمجالس المجون الخاصة بابن الرئيس. كان يستخدم بكثرة، وكانت معظم حفلاته تُقام هنا.

فى عشية «يوم الأيام» من عام ١٩٩٥ كان هذا الملهى الشاطئى ممتلئا بفتيات صغيرات السن. طبقا لأقوال صديق عدى وسكرتيره الشخصى ظافر محمد جابر كان هناك زحام يقرب من خمسمائة امرأة، أما هم فكانوا ما بين ستة أو سبعة رجال إذا استُبعد الحرس الخاص الذى كان يراقب الموقف. كان عدى لا يشبع من الأشياء التى كان يُعجب بها.

قل فى العاهرات ما شئت، لكن بعضهن كن أكثر جاذبية من الأخريات. فى مزرعة



حسن الخطاب أدى هذا الوضع إلى كارثة بشكل أو بآخر، حينما أخذ الاحتفال بالعيد الوطنى يقترب من مرحلته الحميمية. كان خيار وطبان الأول امرأة رائعة الجمال، وهو الأمر الذى تسبب فى وقوع القلاقل، لأن وزير الداخلية لم يكن الوحيد الذى كان يضع عينيه عليها.

فلؤى خير الله كان كذلك مأخوذا بها، وهو لم يكن فى تلك العائلة المكونة من الأعمام، وأولاد العمومة، والأصهار من الرجال والنساء وغيرهم من الأقارب الذين كانوا على رأس الهرم الحاكم فى عهد صدام، كان شخصا عاديا.

كان لؤى أخا زوجة صدام ساجدة؛ أى صهره. لكن الأمر لم يقتصر على ذلك، فأخته كانت متزوجة من وطبان بالذات.

إذن كان اثنان من الأصهار يسويان حساباتهما بسبب ملكة الليل، مما سيكون له عواقب وخيمة.

بدأ كل شىء عندما طلب لؤى من أحد أصدقائه أن ينتزع من يدى وطبان جميلته المختارة، وهو الأمر الذى باء بالفشل. أمر وزير الداخلية اثنين من حرسه الخاص بالتدخل وبالتنكيل بمبعوث صهره، الذى عاد إلى لؤى بخفى حنين والدماء تنزف منه أنهارا. تشاور الصديقان الثملان مليا عما يجب فعله، ووصلا إلى نتيجة مفادها أنهم فى حاجة ماسة إلى الدعم.

فكر الاثنان فى عدى وتوجها من فورهما إلى نادى الزوارق ليطلبا العون. لم يقدر ابن الأخت أن يقول «لا»، بعدما عرض عليه الخال لؤى وصديقه الذى كان فى حالة رثة مرادهما. عدى نفسه الذى كانت الخمر قد لعبت برأسه إلى حد ما كان قد اقتنى منذ وقت قصير بندقية جديدة تماما من طراز «جاك هامر». يستعمل سيلفستر ستالونى وأرنولد شوارتسنيجر فى أفلامهما مثل هذا النوع من الأسلحة النارية اليدوية. لذلك شعر ابن الرئيس أنه مجهز تجهيزا جيدا للوقوف بجانب خاله فى تصفية حساباته.

كان الحفل لا يزال قائما على قدم وساق، إلا أن وطبان ومعظم حرسه الخاص كانوا قد غادروا مزرعة حسن الخطاب، عندما ظهر عدى ليستوضح الأمر، هو ولؤى،



وصديقه المعتدى عليه، وظافر محمد جابر وثمانية من حرسه الخاص. تم التنكيل بمن كان موجودا من أصدقاء وزير الداخلية وحرسه الخاص الذين أوسعوا صديق لؤى ضربا، ثم أطلق عليهم الرصاص.

بعد ذلك قام عدى بإطلاق النار على المشاركين فى الحفل من بندقيته الجديدة. قُتل ثلاثة وجُرح كثيرون.

بعد ذلك عاد وطبان. فى أثناء مغادرته الحفل انتبه لموكب سيارات عدى وعاد ليستوضح ماذا كان فى نية ابن أخيه. وما كان عليه فعل ذلك، لأنه عندما هبط من سيارته المرسيدس الكبيرة سوداء اللون مع حرسه ا لخاص فتح عدى النار من جديد. أُصيب عمه فى كلتا ساقيه. لم يجرؤ حرسه الخاص عن الدفاع عنه، ففى آخر المطاف كان ابن صدام هو من يطلق النار.

تفجرت الدماء. كان وطبان غائبا عن الوعى عندما وضعه عدى فى سيارته واتجه به إلى مستشفى ابن سينا.

قال لصديقه جابر: «ظننت أنه كان يريد قتلى رميا بالرصاص. لقد أطلقت عليه النار دفاعا عن النفس».

فى السادسة والنصف وصلتنى مكالمة. طُلب منى أن أتوجه إلى مستشفى ابن سينا. أمام مبنى المستشفى كان هناك حشد كبير من قوات الأمن والحرس الخاص. فى المستشفى كان يجلس أخو عدى، أى قصى، والسكرتير الشخصى لصدام عبد حمود عند المدير. كان يبدو عليهم الشحوب، والعصبية، والإرهاق الشديد من قلة النوم.

كان وطبان يرقد بالفعل على منضدة العمليات. بعد إعطائه المحاليل ونقل الدم له عاد إلى وعيه مرة أخرى. كان يتألم بشدة وكان مرعوبا من أن ابن أخيه حصده بالرصاص حصدا. كان فخذه الأيسر بصفة خاصة فى حالة سيئة. كان الثلث الأعلى من عظمة القصبة قد تهتك بفعل طلقات الرصاص، كما أن العضلات والأعصاب الرئيسية كانت مصابة إصابة شديدة. كان فخذه الأيمن قد أصيب أيضا، غير أن حجم الأضرار فيه لم يكن كبيرا. استقر الرأى أن يقوم جراح العظام فى مستشفى ابن سينا وأنا بالعملية الضرورية. بعد أن انتهينا من عملنا بعدة ساعات كنا وقوفا أمام غرفة العمليات.. وأتى صدام.

قال لى: «أنا آسف لأننا مضطرون لأن نضايقك بمشاكلنا طوال الوقت».

بالرغم من أنه كان مشدودا بعض الشىء إلا أن الهدوء والتماسك كانا باديين عليه. لكنه لم يبتسم كما اعتاد أن يفعل عندما كان يأتى إلى المستشفى.

استعلم عن حالة وطبان.

«جيدة بالنظر لملابسات الأمر، لن يموت، لكن الإصابات الناجمة عن الأعيرة النارية فى الفخذ الأيسر حالتها خطيرة جدا».

ذهب صدام وحده إلى أخيه غير الشقيق. بعدها بقليل خرج مرة ثانية من غرفة العمليات وغادر مستشفى ابن سينا بصحبة قصى وعبد حمود. كان من الواضح أنهم فى عجلة من أمرهم.

كان لعبد حمود ابن أخت اسمه رافد، وكان واحدا من حرس الرئيس الخاص. كان هو أيضا فى مزرعة حسن الخطاب للاحتفال «بيوم الأيام» مع وطبان، وأصيب كذلك.

أصابته رصاصة من بندقية عدى تحت العين اليسرى بقليل، إلا أنه نجا بأعجوبة. وتسببت الطلقة أثناء خروجها فى قطع الأذن اليسرى. نقلوا رافدا إلى مستشفى ابن سينا فى تلك اللحظة.

بينما كنا نجهزه للعملية روى لى أن وزير الداخلية كان قد سخر من ابن أخيه قبل إطلاق النار. منذ الولادة كان الفك الأعلى لعدى ممتدا للأمام امتدادا كبيرا بشكل غير طبيعى. لهذا كان من الصعب عليه أن يتحدث بوضوح. فى الحفل قلده عمه تقليدا دقيقا وجعل من عيبه فى النطق مادة للسخرية والمزاح، مما أثار جوا من المرح الشديد فى الحفل. استشاط لؤى الذى هو خال عدى وصهر وطبان غضبا. لم يكن غضب عدى أقل فى حدته عندما سمع بذلك، فكثير ممن استمعوا إلى وطبان وكادوا يغرقون فى الضحك من نكاته التى كان يلقيها على ابن الرئيس لم يكونوا حتى من أفراد عائلتهم.

«كان عدى فى جنون الغضب عندما وصل إلى هناك وبدأ فى إطلاق النار من حوله»، هذا ما رواه لى ابن أخت عبد حمود.

ليكشف بعدها أيضا هذا الخبر المثير :

«حدث فجر اليوم ما هو أكثر سوءا، لقد هرب حسين كامل وصدام كامل إلى الأردن، ومعهما زوجتيهما وأولادهما، كما انضم لهما أخوهما حاكم كامل».

فهمت على الفور لماذا لم يكن صدام مبتسما كعادته وكان باديا عليه التوتر، عندما جاء قبلها بعدة ساعات لزيارة أخيه غير الشقيق المصاب.

كان زوجا الابنتين حسين وصدام كامل الأثيرين إلى قلب الرئيس. لم يكافئهما بابنتيه رغد ورنا فحسب، بل منحهما أيضا كثيرا من المراكز المؤثرة.

كان حسين كامل وزير الصناعة والتصنيع العسكرى، و مسئولا مسئولية خاصة عن برنامج التسليح العراقى. كان صدام كامل بوصفه رئيس الحرس الخاص للرئيس يتمتع هو الآخر بمنصب فى منتهى الأهمية. كان يتولى الحراسة الشخصية لصدام ليلة هربه سويا مع أخيه، ومع كلتا الزوجتين، ومع الأطفال.

ربما لا يمكن لأحد أن يتصور كيف كان شعور صدام عندما غدر به هذان الفردان من أفراد أسرته اللذان ربما كانا أقرب الناس إليه.

اختفى جابر، وعدى، وخاله لؤى مؤقتا بعدما أطلق النار على وطبان ونُقل إلى مستشفى ابن سينا. اختبئوا عند عبد حسن المجيد الذى كانوا يثقون به. كان عبد خال لؤى وأخو على حسن المجيد، أى «على الكيماوى».

كان صدام يبحث عنهم كالمجنون. تلقى قصى الأمر باقتفاء أثر أخيه الأكبر بأسرع ما يمكن. على مدار عصر ذلك اليوم نجح قصى فى توصيل رسالة إلى جابر مفادها أنه يجب أن يتصل به.

سأل جابر عدى عما إذا كان لا مانع عنده.

«يمكنك أن تبدى استعدادك لمقابلة قصى مساء اليوم، ولكن إياك أن تقول له أين أنا. لا بد أن يهدأ والدى أولا».

كان الاحتفال العام «بيوم الأيام» يجرى على قدم وساق فى شوارع وحدائق بغداد، عندما توجه جابر إلى القصر الجمهورى لمقابلة قصى.



«لا بد أن تخبرنى أين هو! لا بد أن نعقد مجلس عائلة بأسرع ما يمكن».

رفض جابر، فهدده قصى بالسجن.

فى أثناء ذلك عرف عبد حسن المجيد هو الآخر أن حسين وصدام كامل قد هربا مع عائلتيهما إلى الأردن. كان الاثنان وَلَدَىْ أخيه، وقد أدرك خطورة الموقف. لهذا اتصل عبد حسن بقصى وأخبره عن مكان اختباء الأخ والخال.

بعدها بقليل اتصل قصى بأخيه.

قال له: «لا بد أن تأتى على الفور. هناك ما هو أهم من موضوع وطبان يجب أن نركز عليه».

أرسل جابر بتصريح صحفى مكتوب بخط اليد إلى الصحف، وإلى الإذاعة، وإلى التليفزيون، مفاده أن وطبان تعرض فى أثناء الاحتفال «بيوم الأيام» إلى حادث. ولم ترد تفاصيل أخرى.

كما جاء فيه: «نتمنى له الشفاء العاجل».

ترأس صدام مجلس العائلة الذى عُقد فى الساعة الحادية عشرة مساء فى أحد القصور. كان الهدوء والتماسك باديين على الرئيس. تم الاتفاق على أن يتوجه عدى، وجابر، و«على الكيماوى»، ومانع عبد الرشيد - رئيس المخابرات العراقية - إلى الأردن فى محاولة لإقناع حسين وصدام كامل بإعادة التفكير.

فى الساعة الرابعة فجرا توجهوا بالسيارة عبر الصحراء فى اتجاه الغرب. فى حدود الساعة الثانية عشرة ظهرا كانوا فى عمان. بمساعدة الملك حسين حاولوا بلا جدوى الحديث مع ابنتى صدام، غير أن الاثنتين رفضتا. فى مدار عصر ذلك اليوم تأكد أن الحملة لن تكلل بالنجاح، وبعد وجبة غداء خفيفة مع السفير العراقى فى عمان قرر الوفد العودة إلى بغداد.

«فى رحلة العودة كلها كانوا يضغطون علىَّ. أرادوا منى أن أتحمل أنا ذنب إطلاق الأعيرة النارية، مما من شأنه أن يسهّل على الرئيس كثيرا من الأمور، كما قالوا لى. لكنى رفضت أن ألعب دور كبش الفداء»، هذا ما رواه لى ظافر محمد جابر فيما بعد.



طالب إخوة صدام الثلاثة غير الأشقاء بالإجماع بمعاقبة عدى لفعلته. غير أن الرئيس رفض، فنشر الغسيل القذر من خلال محاكمة علنية لم يفد لا العائلة، ولا النظام. كما أن دور وطبان فى هذه القصة المؤسفة يمكن وصفه بأى شىء إلا بأنه محترم. وزير داخلية لعبت الخمر برأسه قليلا وصهره فى صراع على عاهرة، لم يكن ذلك مما يمكن نشره فى أوساط الرأى العام. كان الذنب يتحمله الطرفان.

لم يكن من السهل على سبعاوى، وبرزان، ووطبان أن يقبلوا قرار أخيهم غير الشقيق. سبّب هذا القرار الضغائن فى العائلة. عندما كنت أقابلهم كانوا دائما يشتكون من أن الرئيس لم يحاسب عدى على النحو الصحيح. غير أن صدام طلب من عدى الذهاب إلى عمه فى مستشفى ابن سينا وأن يقدم له اعتذاره المطلق، بل وأن يأخذ معه مسدسا ويطلب من وطبان أن يطلق عليه النار فى نفس الموضع من النصف السفلى من الساق الذى هتكته البندقية الخاصة بعدى.

فعل عدى ما أُمر به. قبل وطبان الاعتذار ومنحه عفوه الرسمى، لكنه رفض أن يطلق النار من المسدس على النصف السفلى من ساق عدى، ولو فعل لكان الأمر قد سُوى على الطريقة البدوية.

كان الإخوة الثلاثة يزدرون ابن أخيهم قبلها بالفعل، وبطبيعة الحال زاد الأمر بعد هذه الواقعة سوءا. غير أن الإخوة الثلاثة لم يكونوا على علاقة جيدة تماما بعضهم مع بعض. كان الواحد منهم يغتاب الآخر، ويحاول أحدهم وضع العراقيل فى طريق الآخرين، ما أمكن له ذلك. ازداد الأمر سوءا على سوء حينما قرر سبعاوى تأييد قرار صدام بعدم معاقبة عدى. كان أكبر الإخوة الثلاثة آنذاك رئيسا للأمن العام ولم يرغب كما كان واضحا أن تطول فترة تحديه للرئيس خوفا من أن ينزع الأخير عنه منصبه المهم.

دارت مناقشات مستفيضة عن أكثر شخص مناسب لعلاج وطبان. كان لا بد من إجراء عمليات جراحية فى العظام والأعصاب. أوضح صدام بشكل لا لبس فيه أن المال لا يلعب دورا. بدون النظر للتكاليف كان لا بد لأخيه غير الشقيق أن يحصل على أفضل مساعدة طبية يمكن الحصول عليها.

طرأت على رأس صدام أن يستعين بمساعدة الجراح الكوبى العالمى الفاريس



كامبريس كان الاثنان تربطهما علاقة صداقة جيدة، كما هو الحال أيضا مع فيديل كاسترو الذى كان يرسل لصدام بانتظام السيجار الهافانى.

فى نهاية المطاف استقر الاختيار على فرنسا. أتى فريق من الأطباء من باريس إلى مستشفى ابن سينا فى بغداد، وأجروا ما يلزم من العمليات الجراحية الكثيرة المعقدة لكى يقف وطبان على قدميه.

كانت رغبة صدام أن يتلقى أخوه غير الشقيق ما يلزم من المساعدة فى العراق. لم يكن يرسل أفراد العائلة للعلاج الطبى بالخارج إلا مكرها. ولذلك شعرت بالخوف وخشيت أن تُجر قدمى فى واحدة من تلك المؤامرات المحيطة بالرئيس التى لا حصر لها عندما انتحى بى سبعاوى جانبا ذات يوم من أيام الخريف بعد زيارة لأخيه فى المستشفى ليحدثنى بينى وبينه فقط فى أمر مهم.

وضع ذراعه حول كتفى.

«يا دكتور علاء، هل تحدث أخى برزان معك فى إمكانية إرسال وطبان إلى سويسرا لمواصلة علاجه الطبى هناك»؟

كان برزان فى ذلك الوقت لا يزال سفير العراق لدى الأمم المتحدة فى جنيف.

«لا، مطلقا، فهو لم يتصل بى، ولم يقترح مثل ذلك الأمر».

لم يزد سبعاوى عما قاله، لكننى كنت مستعدا لأسوأ الاحتمالات فيما يخص مدير الأمن العام. فى قطيع الذئاب المحيط بالرئيس كانت شعبيتى تتناقص يوما بعد يوم. كان يثير لديهم الريبة والحسد أن يكون شخص ما قريبا للغاية من الرئيس. إن تحويل وطبان إلى مستشفى فى سويسرا كان سيشعل غضب الرئيس. بدا لى الأمر أن سبعاوى يريد أن يتهمنى ويتهم أخاه فى جنيف إننا نحن أصحاب هذا الاقتراح.

بهذه الطريقة كان الرجال الذين هم على شاكلته يتخلصون من الناس الذين كانوا لا يحبونهم.

بعدها بعدة أيام أتى صدام إلى مستشفى ابن سينا ليزور وطبان وليودع الجراحين الفرنسيين الذين أجروا مزيدا من العمليات الجراحية فى النصف السفلى من ساق



وطبان. بعدها سيسافرون قاطعين الصحراء ليستقلوا الطائرة من عمان إلى باريس. كان سبعاوى برفقة صدام.

قال الرئيس: «لا بد أن أشكركم على مجهوداتكم الرائعة، وعلى ما برهنتم عليه من شجاعة بقدومكم إلى هنا، بالرغم من الدعاية المستمرة للولايات المتحدة ضد العراق».

بعد أن ذهب الأطباء طلب منى صدام البقاء معه ومع سبعاوى فى غرفة وطبان.

«أنا أتابع منذ زمن بعيد إنجازاتك يا دكتور علاء كفنان وجراح، وللعراق ألف سبب تجعله فخورا بك».

نظر صدام إلى سبعاوى وهو ينطق بهذه الكلمات.

«لقد قابلته سواء فى مناسبات شخصية، أو رسمية، وأنا على يقين أنه يتميز فى كل ما يقوم به بالشرف. كما أننى لن أنسى أبدا ما قام به من أجلى بعد حادث السيارة فى عام ١٩٩٩».

واصل صدام أناشيد إطرائه، وشيئا فشيئا أصبح الموقف محرجا.

أجبت صدام: «شكرا لهذه الكلمات الجميلة، يا سيادة الرئيس، ولكن إذا أذنتم لى فإنى أفضل الذهاب الآن، فهناك مريض ينتظرنى».

كان واضحا لى ماذا كان يدور هناك بجانب سرير الرجل المريض. دعوه فى حاله، هذه كانت رسالة صدام إلى أخويه غير الشقيقين. فى صباح اليوم التالى أُعفى سبعاوى من منصبه كمدير للأمن العام.

أخذ حجم هواية عدى فى اقتناء الأشياء يتضخم تضخما مذهلا فى خريف هذا العام الممتلئ بالأحداث. بينما كان معظم العراقيين يزدادون فقرا على فقر، ومرضا على مرض، وبؤسا على بؤس، كان ابن الرئيس يستورد السيارة الفارهة وراء الأخرى ليضمها إلى مجموعته. فى أثناء ذلك كان عدى يمتلك فى خريف عام ١٩٩٥ العاصف ما يقرب من ألف سيارة.

كان هناك نحو مائة من أغلى وأجمل السيارات مركونة فى جراج يقع على الأراضى



التابعة للقصر الجمهورى والقائمة عليها حراسة مشددة: رولس رويس، وبينتلى، وليكسوس، وأودى، وعديد من سيارات الـ بى. إم. دبليو.، والمرسيدس، وبورش، وفيرارى ولامبورجينى. فى الجراج، كان هناك علاوة على ذلك مجموعة رائعة من السيارات القديمة كانت أحب ما يملك ابن الرئيس إلى قلبه.

فى ضحى يوم من الأيام تصاعدت ألسنة اللهب السوداء من القصر الجمهورى. كان الجراج يحترق، ولم يقم أحد بمحاولة إطفاء الحريق.

كالمعتاد زار صدام أخاه غير الشقيق فى مستشفى ابن سينا، إلا أنه ثار ثورة عارمة حينما رأى أن قدرة أخيه غير الشقيق على المشى مرة أخرى أمر معقد جدا وسيستغرق وقتا طويلا. فى ثوره غيظه توجه إلى جراج عدى، وأمر حرسه الخاص بإحضار صفيحة من البنزين، وأعواد الكبريت.

فى هدوء أخذ الرئيس يدخن سيجارا ضخما من الهافانا، وهو يستمتع بانتقامه من ابنه، وبالسيارات التى أخذت تلتهمها النيران.

كان صدام قد غادر المكان عندما أسرع عدى وظافر محمد جابر ليعاينا حطام السيارات المحترقة عن آخرها فى هذا الجراج الفخم. كان قصى هو الآخر قد أُخبر بالعملية الانتقامية لوالده وكان متواجدا قبلها فى المكان.

«لماذا لم تَحُل بينه وبين ذلك»؟، صاح به عدى، وهو على وشك البكاء وقد خرج تماما عن شعوره. «هل نسيت أننى أنقذتك من السجن»؟

كان عدى دائما ما يذكر إقامة أخيه الأصغر فى السجن عندما كان لسبب أو لآخر غير راض عنه.

فى عام ١٩٨٤ اعتدى قصى - وقد لعبت الخمر برأسه قليلا - على دبلوماسى سعودى فى فندق المنصور فى بغداد بالضرب. ليس من الواضح علام دار الشجار، غير أن الدبلوماسى تقدم بشكوى لوزارة الخارجية العراقية. علم صدام بالأمر وأمر بوضع ابنه الأصغر فى السجن. حبُس قصى فى زنزانة بنفس السجن الذى أقام فيه عدى وجابر بعد الاعتداء على الخادم الخاص للرئيس كامل حنا وقتله. غير أن مقام الابن الأصغر للرئيس كان قصيرا للغاية، فبعد عدة أيام لا غير هب عدى لنجدة أخيه.

ظهر عدى مع بعض الأصدقاء فى مكتب مدير السجن وطالب بالإفراج عن أخيه. عندما رفض المدير أطلق عدى النار على ساق المدير من بندقية كلاشينكوف وأرغمه على الإفراج عن قصى.

فى أعقاب ذلك اختفى الاثنان عند بعض أقارب صدام إلى أن هدأ صدام. وبعدها لم يعد أحد يذكر تلك الواقعة.

«كان عليك التدخل ومنع والدنا من فعل ذلك»!، واصل عدى اتهاماته لأخيه.

«أتيت متأخرا للغاية، كانت النار قد اشتعلت فى الجراج بالفعل»، أجابه قصى مضيفا: «ولكن لحسن الحظ استطعت أن أمنعه من الزحف على سياراتك الأخرى».

كان الكثير منها موجودا على بعد مرمى حجر من القصر الجمهورى فى أحد المخازن. بأسرع ما يستطيع هرول عدى إلى هناك. تحصن خلف أجولة الرمل أمام المدخل وأحضر مدفع رشاش ثقيلا.

غير أن صدام لم يواصل حملته العقابية الخاصة بعض الشىء لابنه. «لو كان ظهر هناك، لكان عدى قد قتله على الفور»، كان هذا هو تقدير جابر للحالة النفسية لصديقه.

كان الخريف والشتاء فى عمان صعبين على زوجى ابنتى صدام. فى البداية كان لا يزال الأمر مشوقا. استقبلت مخابرات الدول الغربية وعلى رأسها وكالة المخابرات الأمريكية بنهم ما كان عندهما من حكايات، وهو ما انطبق أيضا على رولف إيكيوس، رئيس فريق التفتيش على الأسلحة التابع للأمم المتحدة.

ولكن بعد أن روى لهم حسين كامل كل ما يعرفه عن برنامج التسليح العراقى، وبعد فشل أخيه صدام فى تقديم معلومات على درجة خاصة من الأهمية عن حياة النظام العراقى بدأت الحياة اليومية الكئيبة فى العاصمة الأردنية عمان تزحف سريعا عليهما وعلى عائلتيهما. لم يعد هناك من يهتم بهما، كما أن العراقيين فى المنفى بمجموعاتهم المعارضة لم تكن تريد أن تربطهم علاقة بهما لأن زوجى ابنتى صدام كانا مسئولين بصفة شخصية عن جزء من القمع وبعض جرائم الحرب.

كان الانتقال من الحياة المترفة فى مركز السلطة فى بغداد إلى كيان كان يزداد ضآلة



يوما بعد يوم فى المنفى فى عمان أشد مما كانا يتوقعانه. ارتفعت أصوات الشائعات أن حسين كامل كان مشتاقا إلى البيت لأنه ليس فى أحسن أحواله الصحية. كان عنده مشاكل نفسية عميقة.

ألح الوزراء الذين تحدثت معهم أن مبعوث عائلة الخربيط القوية ذات النفوذ فى مدينة الرمادى توجه كوسيط للرئيس فى زيارة لعمان. عرض على زوجى الابنتين حرية الحركة إذا أرادا ذلك.

كما أخبرهما أن صدام يعدهما بألا يعاقبهما.

على بعد ثلاثمائة كيلومتر من عمان وخمسمائة كيلومتر من العراق تمتد الحدود بين العراق والأردن فى الصحراء العربية الجافة القاحلة. النقطة الحدودية على الناحية العراقية اسمها «طربيل». يقال إن هذا الاسم يأتى من كلمة trouble الإنجليزية التى تعنى المشاكل. لقى الآلاف من الجنود الإنجليز مصرعهم هنا فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى حربهم ضد الأتراك عندما تحللت بقايا الدولة العثمانية.

هشام الغريرى كان رئيس النقطة الحدودية عندما وصل حسين، وصدام، وحاكم كامل مع زوجاتهم وأطفالهم فى العشرين من فبراير من عام ١٩٩٦ إلى طربيل. لا أعرف ما السبب وراء عودتهم إلى العراق، لكننى تكون لدى الانطباع أن حسين كامل فى المقام الأول لم يعد يتحمل الإقامة فى عمان، وأنه بوصفه الأخ الأكبر قد أقنع الباقين بمصاحبته فى طريق عودته إلى بغداد.

طبقا لأقوال الغريرى فإن حالة حسين كامل كانت سيئة عندما وصل إلى طربيل.

«كان كمن يسير وهو نائم. لم يكن حليق الذقن وكان يرتدى بيجاما عبارة عن قميص أبيض اللون وبنطلون أسود».

كان معه مسدس، أخذه منه الغريرى طبقا لتعليمات الرئيس.

وكان صدام كامل لا زال يرتدى البيجاما عندما دخل الحدود العراقية.

فى أعقاب ذلك أعطى رئيس النقطة أوامره بأن يسلم رغد ورنا بأطفالهما إلى ابنى الرئيس ليتوجها بهم إلى بغداد. كان قصى وعدى قد وصلا قبلهم مع حرسهما الخاص إلى طربيل ليكونا فى استقبال المجموعة القادمة من عمان.



سأل حسين كامل فى استغراب: «لماذا»؟

أجابه الغريرى: «هذا أفضل شىء لكم».

بعد أن غادر ابنا وابنتا وأحفاد الرئيس المكان تم إرسال زوجى الابنتين فى عربة خاصة تحت حراسة مشددة إلى بغداد.

بعدها بيومين أعلن فى الصحف وفى التليفزيون أن رغد ورنا قررتا طلب الطلاق.

تزامن ذلك الإعلان مع الاحتفال بختام رمضان. تجمع صدام وعائلته فى أحد قصور الرئيس فى تكريت. لم يُدع إلى عشاء العيد زوجا الابنتين المقضى عليهما.

«لقد وعدتهما بأننى لن أعاقبهما لهربهما إلى الأردن ولخيانتهما لى»، قالها صدام بعد أن التُهم الحمل المُحمّر والأرز، وبعد أن قدمت الفاكهة والتمر. أخذ صدام يتأمل هذا الجمع الكبير ثم وجه ناظريه إلى على حسن المجيد، عم زوجى الابنتين.

«ثم إنها مسألة عائلية».

العم، كان يكره أن يقول ما لا يلزم.

استقر حسين كامل وإخوته فى داره فى الجادرية المجاور لبيت صدام حسين. لكن بعد أن سمع عويل وصياح النساء اللواتى دخلن المنزل قادمات من تكريت وهن ينقلن خبر عزم على حسن المجيد القضاء على الإخوة القادمين من الأردن، انتقل حسين، وصدام، وحاكم كامل، عند أخت لهم كانت تعيش هى وأطفالها الثلاثة فى منطقة السيدية على الأطراف الجنوبية لمدينة بغداد على الطريق الشريانى المؤدى إلى بابل. هذا ما نقله لى أحد المضمدين العاملين فى مستشفى ابن سينا والذى جاء ليعطى حسين كامل حقنة من البنسلين لعلاج التهاب اللوزتين الذى كان يشكو منه.

انضم إليهم أبوهم كامل المجيد فى أثناء الليل، وأحضر معه أسلحة. كلهم كان يعرف ماذا ينتظرهم. سبقت الشائعات الخاصة بالاحتفال العائلى فى تكريت قطيع الأقارب المسلحين تسليحا ثقيلا الذين أخذوا طريقهم فى اتجاه الجنوب لرد الكرامة المهدرة للعائلة.

فى الساعة الخامسة صباحا وصل الأقارب الذين أصبحوا مع الوقت فرقة هجوم



كاملة إلى هناك، وحاصروا المنزل الواقع فى السيدية. غير أن «على الكيماوى» لم تكن به الرغبة لقتل أخيه. لذا طلب من كامل المجيد أن يغادر المنزل سويا مع ابنته والأطفال. ولكن كامل رفض.

كان كامل يلبس الكوفية المثبتة بعقال لُف حول جبهته مرتين. عندما أعاد على حسن على مسامعه أنه لا يريد قتل أحد سوى أبناء الأخ الذين سلبوا العائلة شرفها بهروبهم إلى الأردن، خلع كامل العقال، وقذف به تحت أقدام أخيه.

يُعد ذلك فى العالم العربى إشارة لا لبس فيها. قُضى الأمر. لم يكن هناك معنى لمواصلة الحديث. من رمى العقال تحت الأقدام عليه هو نفسه تحمل عواقب الصراع.

فى بداية الموقعة أبلى حسين، وصدام، وحاكم كامل سويا مع والدهم بلاء حسنا. تكبد «على الكيماوى» ورجاله بعض الخسائر. كان ثائر سليمان المجيد هو أول من أُصيب إصابة نارية مميتة. كان معظم العراقيين يعرفونه لأنه اختلس بعد نهاية الحرب موادا للبناء وأسمنت كانت تخص وزارة الصناعة. اتهمته الصحف والتليفزيون، وقد أراد صدام أن يضرب من خلاله العبرة والمثل، فحبسه فى السجن سنين عدة. فى تلك الموقعة فقد ثائر سليمان حياته الفاسدة فى القتال الدائر حول كرامة العائلة المهدورة.

بعده قتل أحمد عبد الغفور، أحد حرس صدام الشخصى. كان هو أيضا من الأقارب البعيدة للأربعة الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم بمهارة فى المنزل المحاصر.

كان أمامنا عمل هائل فى انتظارنا فى مستشفى ابن سينا عندما بدأ نقل المصابين من العائلة. حكوا لى تفاصيل ما جرى فى هذا الصراع العائلى فى تكريت وما تم فيه من تصفية حسابات فى السيدية.

بعد ثلاث ساعات قرر على حسن استعمال قنبلة تعمل بالدفع الصاروخى ضد أخيه وأولاد أخيه حتى تدب الحركة فى حرب الخنادق هذه.

عندما أصاب الصاروخ المنزل وانفجر لقى صدام، وحاكم كامل، وأبوهما، وكذلك الأخت، وأطفالها الثلاثة الذين كانت أعمارهم تتراوح ما بين الثلاث والست سنوات مصرعهم. كانوا قد لجئوا لإحدى غرف الحمام فى المنزل. عندما نقلوا فى أعقاب ذلك إلى مركز صدام لجراحة القلب فى بغداد كانت أجسادهم جميعا محترقة احتراقا شديدا.

لم يُقتل حسين كامل فى هذا الهجوم الصاروخى وواصل القتال .

غربت الشمس ، وكانت الدراما العائلية الدموية قد دخلت ساعتها الثانية عشرة حين استطاع صهر حسين كامل ، أى جمال مصطفى ، مع ابن عمه الأصغر اقتحام المنزل . كان مصطفى متزوجا من حلا ، أصغر بنات الرئيس ، وكان من حرس صدام الخاص .

تحصن حسين كامل بمدفع رشاش قصير يتصاعد منه دخان البارود على بسطة السلم بين الطابق الأرضى والطابق الأول ، بعدما قتل اثنين من أقاربه ، وجرح اثنين غيرهما .

صاح حسين كامل بصهره السابق : «صدام رجل شرير . لا بد أن تتخلصوا منه ، إنه عميل أمريكى ، ولا يمكن الوثوق به» .

رد جمال مصطفى بوابل من طلقات من مدفع الطلقات القصير الخاص به . أصيب حسين كامل إصابة بالغة ، غير أن صهره وابن عمه أصيبا أيضا فى تبادل إطلاق النار ، وسقطا على الأرض . أُصيب حبيب ، وزوج ابنة الرئيس السابق فى بطنه ، وأدرك أنها النهاية . بكل ما تبقى عنده من قوة نهض على قدميه وسار مترنحا فى الطريق .

صاح : «أنا حسين كامل» . كان يريد الموت واقفا .

غير أن المدفع الرشاش القصير لأحد أقاربه البعيدين أطاح به أرضا .

توجه «على الكيماوى» إليه ووضع حذاءه على وجهه ، وهى أكبر إهانة لرجل عربى .

فى أعقاب ذلك وضع العم مسدسه على رأس ابن أخيه الذى تحت حذائه ، وأفرغ فيه خزانة مسدسه .

لم يشارك لا عدى ، ولا قصى فى القتال ، ليس لأنهما لم يكونا راغبيْن فى ذلك أو قادرين عليه ، بل لأن والدهما كان قد وعد فى آخر الأمر زوجى ابنتيه بألا يعاقبهما . كانت كلمة الشرف التى يقولها الرئيس ملزمة أيضا لابنيه .

غير أن الاثنين لم يدعا المشهد يفوتهما . كانا جالسين فى سيارة فى نهاية الشارع متمتعين بأفضل رؤية . من هناك أخذا يتأملان مشهد النهاية من بدايته إلى نهايته .



جمال مصطفى وابن عمه حبيب نجيا من الموت فى القتال الملتحم. أجريت لمصطفى عملية جراحية فى مستشفى ابن سينا. كانت عنده إصابات فى البطن، غير أن الإصابات لم تكن خطيرة. فى الساعة العاشرة مساء ظهر صدام ليزور زوج ابنته. لم تبد عليه السعادة الحقيقية، لكنه كان متماسكا بحق، حينما وقف بجوار سرير المريض.

سمعته يقول: «لا أعرف كيف خطر على بال هذا الرجل أن يغادر العراق، ولا كيف خطر على باله أن يعود».

بالطبع كان يقصد حسين كامل.

بعدها بشهرين كنت عند رغد، أرملة حسين كامل، فى منزلها، لأجرى لها جراحة صغيرة. كانت تلبس السواد، وبدا عليها الحزن العميق.

تمنت لها الممرضة التى رافقتنى الشفاء.

ردت رغد قائلة: «كان من الأفضل لو تمنيتِ لى ألاّ أعود»، ومع ذلك أضافت قائلة: «يا ليتنى أبنى لذكرى زوجى مسجدا».

بعد شهرين كنت مرة أخرى عند رغد لأنهى علاجها. كانت لا تزال تلبس السواد.

كنت أُجرى كواء باستعمال موصّل كهربائى لإيقاف بعض أشكال التزيف الصغيرة ولإزالة بعض الأنسجة، وهى وسيلة مألوفة ولكنها تستلزم أن يتم توصيل المريض كقطب سالب أرضى بواسطة ناقل كهربائى (الإلكترود) يتم تثبيته على الظهر أو على الفخذ. فإذا لم يُفعل ذلك يتلقى المريض صدمة كهربائية.

تلقت رغد صدمة كهربائية، ورأيت كيف أنها ارتعشت عندما وضعت الموصّل عليها. كانت الممرضة مهملة ولم تثبت الإلكترود على الابنة الكبرى للرئيس كما تنص عليه التعليمات.

لحسن الحظ لم تكن صدمة قوية.

قلت لها: «الحمد لله»، وأحسست بطبيعة الحال بالارتياح أن رغد لم يصبها مكروه، ومع ذلك قلت لها: «كنت سأواجه مشاكل حقيقية لو كان أصابك مكروه».

نظرت رغد إلىّ.



«على العكس. لا تشغل بالك. كان سيهلل من الفرح».

كانت تتحدث عن والدها.

ترك حسين كامل عند مقتله بعض الأشياء ذات القيمة. عندما كان لا يزال خادما أمينا للشعب فى عهد صدام من دور وعمارات. استدعيت محاميته للقاء صدام لتقدم كشف حساب عن قيمة ما كان لديه.

«اضطررت أن أخبره»، هذا ما قالته لى المحامية عندما كانت بعدها فى عيادتى لإجراء جراحة صغيرة.

كانت ثروة حسين كامل تتمثل فيما يزيد على مائتين من البيوت، والمحال، وغيرها من الأراضى فى بغداد وبالمقربة منها. لم يكن يملك شيئا باسمه، غير أن المحامية كان لديها ما يلزم من إحاطة شاملة بالأمر. عادةً كانت ممتلكات «الخونة» تئول إلى خزينة الدولة، وكانت تصادر مباشرة بعد الإعدام.

روت لى المحامية: «فى حالة حسين كامل قرر الرئيس أن تئول الممتلكات إلى رغد وأطفالها».

بفضل مجهودات وبراعة الأطباء الفرنسيين استطاع وطبان بعد عام أن يقف ثانية على قدميه، غير أنه كان يعرج وكان عنده مشاكل ضخمة فى السير.

وكما كان متوقعا حُمّل جابر محمد ظافر، الصديق الحميم لعدى وسكرتيره الشخصى، مسئولية ما حدث وجعلوه كبش فداء للمصير المر لوزير الداخلية. قُدم للمحاكمة وحكم عليه بالإعدام، لكن بعد ستة شهور عفا عنه صدام وأطلق سراحه. أراد عدى أن يستعيد جابر مكانه كصديق وسكرتير، إلا أنه - لأسباب مفهومة - كان قد طفح به الكيل، ورفض.

عندما هرب ابن آخر من أبناء الأخ فى عام ٢٠٠٢ إلى الأردن كان فى هذا ضربة قاسية لكرامة عائلة «على الكيماوى». فى هذه المرة علاء سليمان المجيد أمام إغراءات حياة جديدة أفضل خارج حدود العراق. كان علاء أخو ثائر المجيد الذى لقى مصرعه على يد حسين كامل فى هذا الصراع العائلى الذى نشب فى السيدية فى فبراير من عام ١٩٩٦.



بعد عدة شهور نجح إخوة علاء فى إقناعه بالعودة إلى بغداد. هو أيضا لقى مصرعه رميا بالرصاص لأنه بهروبه إلى الخارج سلب العائلة شرفها.

كان أخو علاء، أى سلام، هو من قاد عملية الاغتيال. كان واحدا من أهم الحرس الخاص لصدام، وقد ظهر - بعد سقوط بغداد فى العام الماضى - هو وبعض إخوته ووالده فى التليفزيون ليدلوا بدلوهم، حيث ادعوا أن الرئيس الذى كانوا يكرهونه ويزدرونه قد أكرههم على اغتيال علاء المجيد.

«إذا كنت تكره صدام لهذه الدرجة فلماذا لم تقتله»؟، كان هذا هو السؤال الذى طرح عليه.

ظل مدينا لنا بالإجابة، وفى كل منطقة الشرق الأوسط تضاحك الناس من هذه الهالة القدسية المصطنعة من جانب الأب والإخوة.



الفصل الحادى عشر

الثعبـــان

فى يوم الثالث عشر من يوليو من عام ١٩٩٦ اتصل بى أحد حرس الرئيس الشخصى وطلب منى أن أتوجه لمستشفى ابن سينا. من هناك نُقلت بالسيارة إلى القصر الجمهورى، حيث كان صدام فى انتظارى. كان يشعر بآلام فى الساق. أحد أصابع القدم اليمنى كانت تسبب له متاعب فى أثناء المشى. لم يكن الأمر يحتاج إلى عبقرية لمعرفة السبب. كان صدام يعتنى بنفسه عناية فائقة. كان لا بد أن تكون مقاس البدل الخاصة به لا يزيد أو ينقص ملليمترا واحدا، وأن تكون أحذيته بالتالى صغيرة وأنيقة المظهر.

قلت له: «أحذيتكم ضيقة للغاية يا ريس. لا بد أن ترتدوا أحذية أكبر بنمرة أو نمرتين».

أجابنى بقوله: «لا أستطيع أن أمشى بشكل صحيح، إذا كانت أحذيتى أكبر كثيرا أو أوسع كثيرا، فعندها أشعر دائما بأننى سأتعثر فى مشيتى».

«لا بد أن ترتدوا أحذية أكبر، وإلا ستصابون أيضا بمسامير القدم».

لم يجب صدام.

كنت قد انتهيت من فحصى له، وعندما كنت على وشك إغلاق حقيبتى لمس الرئيس ساعدى.

«ماذا حدث للوحة التى كنا قد تحدثنا عنها»؟

«ما زلت أعمل فيها، فتكوينها الفنى صعب».

«أرى أنك أخذت وقتا كافيا»، رد علىَّ صدام مبتسما، وهنا أدركت أن الأمر أصبح خطيرا. لم أستطع التسويف أطول من ذلك.

وعدته قائلا: «أتوقع أن أنتهى منها فى غضون بضعة أسابيع».

فى مارس من عام ١٩٩١، وكانت الفوضى لا تزال تعم، والحرب الأهلية سواء فى شمال أو جنوب العراق على أشدها، كلفنى صدام بأن أخلّد أحد أحلامه. روى لى أنه كان يسير برفقة حرسه الخاص فى غابة مظلمة، عندما رأى ثعبانا كبيرا أخضر يتجه نحوه على حين غرة.

«استللت سيفى وضربت رأسه. انفجرت الدماء فى كل الاتجاهات. أيضا بنطلونى كان مخضبا بالدم، قبل أن يتمكن حراسى فى إبعاده عنى فى نهاية الأمر».

كان الرئيس ما يزال مأخوذا من الحلم عندما أخذ يرويه لى.

«سأكون سعيدا للغاية إذا استعملت هذا الفكرة فى واحدة من لوحاتك».

كانت هذه المرة الأولى والأخيرة التى يطلب فيها صدام منى عملا فنيا.

فى بداية الأمر كنت أتهرب من الإجابة عندما كان يسألنى عن مدى تقدمى فى رسم الصورة وعن ميعاد انتهائى منها.

كانت إجابتى المعتادة هى: «مازلت مشغولا بالتصور والتكوين الفنى. قد يستغرق ذلك وقتا».

ولكن منذ ذلك التاريخ مر ما يزيد على خمسة أعوام. كنت متفهما لفروغ صبر صدام، ولم يكن أمامى خيار آخر سوى رسم اللوحة.

لم يكن ينقصه صورا شخصية، فقد حاول كثير من الوزراء وكبار رجال الحزب عبر سنوات طويلة أن يتفوق كل منهم على الآخر فى توزيع لوحات وتماثيل لصدام فى كل أنحاء البلاد. كان يظهر فى كل الأحجام والزوايا المتصورة فى كل ركن منها. لم يكن الرئيس يطلب ذلك. لكنه لم يرفض ذلك أيضا. كان صمته يفسر على أنه موافقة على هذا التزويق فى كل أنحاء العراق الذى كان يتخذ إلى حد ما أشكالا بدائية للغاية. فقد

كان كثير من الأعمال التى توزعت فى كل أنحاء البلاد ينقصها القيم الجمالية الأساسية للعمل الفنى.

نشأت صناعة كاملة كانت تعيش فقط على تصوير الهيئة الأبية للرئيس وقوامه النبيل، وخاصة عندما كان يقترب عيد ميلاده فى الثامن والعشرين من أبريل. وقتها كانت فرشاة الرسم تعبر بلا حدود أو هدف عن الحب الحقيقى للابن البار للأمة، مخلصها ومثلها الأعلى.

كثير من اللوحات والتماثيل المنحوتة التى كان يُرفع عنها الستار فى يوم ميلاد الرئيس والتى كان مكتب الرئيس يصرف لها مكافآت نقدية سخية كانت فى بعض الأحيان تعقد لسانى لما فيها من قدرة ثرية على الابتكار الفنى. كان صدام ينظر إلى كل هذا فى وقار وهدوء شديدين.

«من حق الناس أن يعبروا عن مشاعرهم تجاهى كما يريدون هم»، كان هذا رأى صدام عندما تحدثنا عن هذا الاهتمام السنوى الخاص. «لا يهم أنهم ليسوا فنانين محترفين طالما أنهم يجتهدون، فالمهم النية، وليس النتيجة».

فى قصوره ومنازله علقت على الجدران بجانب البورتريهات أيضا لوحات واقعية للمناظر الطبيعية وصور للخيول. غير أنه لم يكن يختار هذه الصور، بل ترك أمر هذا التزويق لبعض العاملين المهتمين بالفنون من هيئة أركان الرئيس الذين كانوا لا يريدون المخاطرة بأى شىء، فقد كانوا يعرفون الأشياء المفضلة لديه.

لم يكن صدام يتدخل فى عمل «مركز صدام للفنون» الذى تطور شيئا فشيئا ليصبح معرض الفنون الوطنى للعراق، وأهم منتدى للفنانين المبدعين. كان المركز مليئا بأعمال الفنانين الكلاسيكيين، والانطباعيين، والسرياليين، والتشكيليين التجريديين على سبيل المثال لا الحصر. لم يكن الرئيس يتدخل فى مشتريات المركز.

اعتاد أن يقول: «يجب أن يترك للفنانين حرية أن يعملوا حسبما يرون، طالما أن هذا لا يعيقنا عن الوصول لأهدافنا».

كانت ليلى العطار مديرة المركز تتصرف انطلاقا من هذه الخطوط العريضة الحرة. كانت هى نفسها رسامة بارزة. كنت أستمتع دائما بمشاركتها فى تنظيم المعارض.



لايزال موتها المفاجئ يحز فى نفسى، حيث أصبحت على غير انتظار ضحية جديدة بريئة تماما من ضحايا الصراع على السلطة الذى كان يدور فوق رءوسنا.

فى يوم السادس والعشرين من يونيو عام ١٩٩٣ كنت أضع اللمسات الأخيرة لمعرض كنت سأفتتحه فى اليوم التالى فى صالة العرض التى تشرف عليها ليلى العطار. كانت الصور معلقة فى أماكنها، والإضاءة أكثر من ممتازة، والكتالوج خال تماما من أى من أناشيد المديح المعتادة للرئيس وعما للنظام من أياد بيضاء على فنانى العراق وعن مباركاته الملهمة لهم.

كانت وزارة الثقافة والإعلام تطلب فى العادة أن يتم طبع كلمات الشكر هذه مع صورة لصدام فى هذه الكتالوجات، ولكنى كنت أرفض خلط الفن بالسياسة. كانت علاقتى مع الرئيس تتميز بوضع خاص، لكن كثيرا من زملائى الفنانين كانوا يجدون صعوبات أكثر بكثير فى سحب أنفسهم من الاشتراطات السياسية للوزارة. كانت ظروفهم المادية تفرض عليهم أن يكونوا على علاقة جيدة مع الحكام. فإذا ما عارضوا برفضهم دعاية النظام كانت التكليفات لا تذهب لهم فى المستقبل.

غير أننى كنت ماديا على أية حال واقفا على قدمى. كان مرتبى من المستشفى الذى كنت أعمل فيه ككبير للأطباء وكذلك إيراداتى من جراحة التجميل يمنحانى دخلا جيدا. من تنازل سقط دوره كفنان مستقل، ولم يعد بإمكانه العمل بدون مضايقات. كان الضباط يقتحمون عليهم خلوتهم ليتأكدوا من أن الأعمال المكلفين بها تتطابق فعلا مع تصورات النظام.

كان مديرو الأقسام، ومديرو الإدارات، والمعماريون، بل حرس صدام الخاص أيضا يتدخلون فى قضايا مثل شكل إحدى اللوحات، أو أحد التماثيل، أو أحد النصب التذكارية. لم يخجلوا من طرح مقترحات خاصة «للتحسين»، هذا فى حالة قيام الفنانين بعمل فنى لتلك الإدارات والمراكز الحكومية.

كان الفساد مع ذلك هو أسوأ شىء، هذا الفساد الذى انتشر أيضا فى مجال الفنون ككرة من نار بعدما أعلن صدام عن بعض المسابقات لإقامة المبانى والنصب التذكارية. بالرغم من أن العراق والنظام كان يعانى من عقوبات الأمم المتحدة، ومن غياب الواردات من تصدير النفط، إلا أن الرئيس رأى ضرورة إقامة القصور والمساجد



وغيرها من المبانى الضخمة أكثر من أى وقت عرفه تاريخ البلاد الحديث. كان الرئيس معجبا بباريس وغيرها من العواصم الأوروبية، لذا كان الهدف من هذه المبانى الحديثة أن يضمن لبغداد مكانا معماريا وحضاريا فى الخريطة العالمية، وأن يخلد صدام بذلك ذكره فى التاريخ. فى غالب الأمور كانت لجنة عامة هى التى تحدد نتيجة مسابقات المبانى والنصب التذكارية. كان عند الأغلبية الساحقة من أعضاء هذه اللجان تفهم للمواهب المحدودة، وكان الفنان الذى يدفع أكثر هو من يفوز بالمسابقة فى معظم الأحيان.

كانت ليلى العطار، «مديرة مركز صدام للفنون»، ورئيسة لجنة المشتريات لحسن الحظ غير مرتشية. كان همها الأهم والأكبر هو مساندة الفنانين، وليس محفظتها. كان الخوف المقيم لدى موظفى الثقافة البيروقراطيين من عدم التعامل سياسيا مع كل الأمور بشكل صحيح غريبا عليها.

قبل افتتاح معرضى الجديد بيوم مررت عليها سريعا فى مكتبها لأعبر لها عن رضائى عن العمل، وعن كل الاستعدادات. شكرتنى على مديحى لها.

سألتنى «ألا نلقى نظرة أخيرة على اللوحات»؟

اندهشت، لأنها كانت فى غير هذه المرة دائما ما تنتظر الافتتاح الرسمى.

قالت: «لا أعرف لماذا أريد رؤيتها الآن، لكن إحساسى ينصحنى بعدم الانتظار».

ذهبت معها لإلقاء نظرة على لوحات معرضى الذى سميته «حوار اليقظة» وهو عن فلسطين.

فى صباح اليوم التالى أطلقت السفن الحربية الأمريكية المرابطة فى الخليج العربى ٢٣ صاروخا من طراز توماهوك. كان هدف الهجوم الصاروخى هو مبنى مكاتب المخابرات العراقية.

قبلها بشهرين بالتمام والكمال كان جورج بوش - الذى حل محله فى أثناء ذلك بعيد العام الجديد بيل كلينتون فى رئاسة الولايات المتحدة ١٩٩٢/ ١٩٩٣ - فى زيارة الكويت ليجدد ذكريات طرد صدام من دولة الكويت فى أثناء حرب الخليج. بينما كان بوش فى الكويت اكتشفت السلطات فى مركز مدينة الكويت سيارة مليئة بالمتفجرات



وأبطلوا مفعول القنبلة التى كانت تعمل بمفجر ميقاتى ، وكانت طاقتها التدميرية تكفى لتدمير أجزاء كبيرة من وسط مدينة الكويت . كان من المقرر أن تنفجر بالمقربة من رئيس الولايات المتحدة السابق .

أخصائيو وكالة المخابرات الأمريكية الذين فحصوا السيارة المفخخة وجهوا اتهامهم إلى بغداد وإلى مخابرات صدام . قبضت السلطات الكويتية على مجموعة من العراقيين وأعدمتهم . كانت المحاكمة مقتضبة ، هذا إذا كانت هناك محاكمة من أساسه .

كان الثلاثة والعشرون صاروخا التى انفجرت فى السابع والعشرين من يونيو هى الرد الانتقامى للمحاولة المزعومة لصدام لاغتيال الرئيس الأمريكى الذى لم يُعَدْ انتخابه .

كانت ليلى العطار تقيم مع زوجها وابنتها بجوار مجمع مكاتب المخابرات فى حى المنصور فى بغداد . كان هذا المجمع قد قذف سابقا أيضا بالقنابل فى عام ١٩٩١ فى أثناء حرب الخليج . دمرت قنبلة انحرفت عن مسارها آنذاك منزل العطار تدميرا كاملا . ولحسن الحظ كانت هى وعائلتها فى زيارة لأصدقاء لهم يقيمون بالمقربة تماما منها عندما وصل الصاروخ الأمريكى لهدفه الخاطئ . بعدها ظلت ليلى العطار مقيمة عند أختها .

غير أن صواريخ توما هوك الجديدة التى استعملت فى هذه العملية كانت دقيقة للغاية . أصاب واحد منها منزل الأخت الذى دُمر تدميرا كاملا . لقى كل من ليلى العطار وزوجها وإحدى العاملات بالمنزل مصرعهم بينما أصيبت الابنة إصابة بالغة .

أجّلت الافتتاح الرسمى لمعرض لوحاتى لمدة شهر . منح محمد سعيد الصحاف ـ وزير الإعلام ـ الذى اشتهر بعد ذلك فى العالم كله فى الأيام الأخيرة للنظام ـ منح الافتتاح بريقا خاصا عندما كان وزيرا للخارجية ويقوم بأعمال وزير الثقافة والإعلام وكالةً حين كان هذا الأخير خارج القطر .

قال : «هذا المعرض فريد ومعبر» .

اتفقت معه ـ على سبيل الاستثناء ـ تماما فى الرأى .

غير بعيد بعد موت ليلى العطار كنت واقفا فى وسط صحراء شاسعة وقاحلة . مئات من الرجال العرايا وقفوا إلى مناضد ، وأخذوا يغسّلون جثثا بالصابون والماء .



أخذت النساء النائحات الباكيات فى استخراج أطفالهن الموتى من الرمال الذين بدا عليهم أنهم توفوا منذ قليل. شيئا فشيئا رأيتنى أدفع شيئا فشيئا ناحية النساء، أقترب منهم أكثر وأكثر، وبدأت أنا نفسى فى الحفر. أردت أن أجد والدى المتوفى فى عام ١٩٦٦.

كلما تعمقت فى الحفر كلما بدأت أفكر فى الحال التى سأجد عليها والدى. هل كان مجرد هيكل عظمى، أم أننى سأجد ما هو أكثر من مجرد عظام؟ اتضح لى أننى حتى بدأت أتعرف على ملامح وجهه عندما تعمقت فى الحفر أكثر وأكثر. كانت رفاته تتكون من هيكل عظمى شد حوله الجلد شدا.

ساعدونى فى سحبه إلى أعلى ووضعه على مائدة، لأبدأ بعدها أنا أيضا فى تغسيله بالماء والصابون.

شعرت بخوف مميت. أحسست أن قلبى سيخرج من صدرى. صرخت عاليا وتصببت عرقا عندما أيقظتنى زوجتى من الكابوس. تعجبت من أننى أنا نفسى بدأت أتفاعل مع الموت الجماعى ومع كل ما عداه من حوادث مفزعة. لم يغادر هذا الحلم المفزع ذاكرتى منذ ذلك الحين. بدأت أنظر إلى الأحياء وكأنهم موتى يتحركون.

عندما رأيت أنه لم يعد أمامى مفر لم يدم الأمر طويلا حتى كنت انتهيت من رسم حلم الثعبان الذى رآه صدام. رسمت الحلم فى مقاس عادى ١٧٠ سم فى ١٦٠ سم وأرسلته بعد شهر واحد فقط من تأكيد صدام بضرورة إنجازه إلى مكتبه مع تحياتى القلبية.

القرار الذى تلقيته بعد ذلك من سكرتيره الشخصى القوى عبد حمود أدهشنى دهشة عظيمة. حلم الثعبان التمثيلى تقرر أن يرفع الستار عنه فى الاحتفال بيوم إعادة انتخاب صدام رئيسا وأن يكون هذا هو هديتى له. وهو ما لم يكن كذلك مع كثير من هدايا الآخرين.

تم إعادة انتخاب صدام لمدة سبعة أعوام قادمة، حيث عقدت الانتخابات فى يوم الخامس عشر من أكتوبر من عام ١٩٩٥. تولى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزة إبراهيم الدورى إدارة الاستعدادات للانتخابات وعمل على أن يحقق الاقتراع الشعبى النتيجة المرجوة.

من بين ٨,٤ مليون من العراقيين الذين لهم حق التصويت أراد ٩٩,٩٦ بالمائة منهم صدام رئيسا للمستقبل. لم تكن نسبة المشاركة فى التصويت خيالية، لكنها كانت بنسبة ٩٩,٤٧٪ تقع فى الإطار المقبول.

أنا أيضا لم أستطع إلا أن أجدد ثقتى بصدام تجنبا لحدوث ما يعكر الصفو. فى المقار الانتخابية جلس مندوبو حزب البعث المحليين، وأخذوا يتابعون عملية التصويت بأعين زرقاء اليمامة. كان علينا ملء البطاقات الانتخابية بـ «نعم» أو بـ «لا» فى معيتهم. بعد إغلاق المقار الانتخابية عمل مندوبو حزب البعث أيضا على ملء البطاقات الانتخابية لمن لهم حق التصويت والذين لم يظهروا لسبب أو لآخر.

بعد إزالة الستار عن حلم الثعبان، وبعد ذهاب كل كبار الحزب طلب الرئيس أن أقابله فى غرفته الخاصة. كان صدام فى الماضى قد احتفظ بعدد من لوحاتى، لكن لم يكن هناك مجال للشك أن هذه اللوحة أعجبته بصفة خاصة، لأنها على العكس من معظم أعمالى الفنية الأخرى كانت تمثيلية تماما.

قال: «أنت فنان عظيم. بدون فنانين كبار وسياسيين جيدين لا يمكن أن ننهض ببلادنا».

فى هذه اللحظة دخل عبد حمود، وسلم الرئيس قصاصة من الورق، التهمها الرئيس بعينيه التهاما، وبعدها بقليل دخل شيخ قبيلة كردى من دهوك إلى الغرفة.

سأله صدام: «ماذا تريد»؟

أوضح له الشيخ أن ابنه أنهى دراسته القانونية، وأنه يحق له أن يكون له مكان فى المجلس التنفيذى المهم للمنطقة الكردية.

أجاب الرئيس: «تم تعيين الأعضاء بالفعل، ولم يعد هناك أماكن شاغرة، لكننى أستطيع أن أمنحه منصبا آخرا جيدا، إذا أردت ذلك».

«لا، إما المجلس التنفيذى، وإلا فلا»، قالها الشيخ بوضوح تام.

اعتذر صدام عن تلبية الطلب فى الوقت الحاضر وبعدها انصرف الشيخ بعد أن شرب القهوة.

دخل عبد حمود مرة أخرى.

قال الرئيس: «أعطه سيارة جديدة لولده».

سادت المناطق الكردية اضطرابات عظيمة بعد أن أُخضع جزء كبير منها، أى المحافظات العراقية الثلاث الواقعة فى أقصى الشمال، بعد حرب الخليج فى عام ۱۹۹۱ للحماية الدولية، وهو ما أُطلق عليه «المناطق الآمنة». هذا الجزء الجبلى من البلاد كان شبه منفصل تماما عن بغداد، وتمتع بشكل من أشكال الحكم الذاتى تحت إدارة زعيمى الأكراد مسعود برزانى وجلال طلبانى.

انسحبت القوات العراقية الحكومية كلية، غير أن صدام حرم فى ذات الوقت المناطق المستقلة من أى دعم اقتصادى. لم يعد يصل إليها المواد الغذائية، والبنزين، وزيت التدفئة، كما لم تعد تدفع مرتبات الأطباء، والممرضات، والمدرسين، وموظفى الإدارة المحليين.

وصل المفوض العالى لشئون اللاجئين ببرنامجه الغذائى إلى نحو ۷٥۰ ألف كردى من بين ۳,۲ إلى ۳,٥ مليون من الأكراد فى المحافظات المعنية فى أول شتاء لهم للحكم الذاتى. أما الآخرون فإما تجمدوا من البرد، أو تحملوا الجوع، أو حاولوا الصمود بقدر ما استطاعوا.

ومما زاد موقف الأكراد صعوبة علاوة على ذلك أن برزانى و طلبانى لم يستطيعا الاتفاق بعد الانفصال عن الحكومة المركزية على شكل ديمقراطى موحد لحكومة المنطقة الجديدة المستقلة. وبالرغم من أنه أُقيم فى مايو من عام ۱۹۹۲ فى ظل اهتمام دولى كبير انتخابات لتشكيل برلمان دستورى، غير أن كلا من زعيمى الأكراد ابتعدا عن الحكومة الكردية الجديدة التى تأسست بعد اجتماع النواب فى أثناء الصيف.

فضّل برزانى وحزبه الديمقراطى الكردستانى أن يحافظا على نفوذهما وسلطتهما فى شمال المنطقة، بينما احتفظ طلبانى وحزبه الاتحاد الوطنى الكردستانى بسيطرته فى الجنوب. قسمت كردستان الجديدة إلى منطقتين. حكم برزانى والحزب الديمقراطى الكردستانى فى أربيل ودهوك، وطلبانى والاتحاد الوطنى الكردستانى فى السليمانية.

وبعدها بدأت الحرب بينهما.



قال صدام: «كان هذا قصدى».

كنا لا نزال نشرب الشاى بعد إزالة الستار عن صورة الثعبان. بعد أن رحل الشيخ من دهوك شرح لى صدام الوضع فى الشمال.

«كثير من لواءاتى، وقطاعات كبيرة من قيادة حزب البعث رأوا ضرورة عدم انسحابنا من المحافظات الشمالية، لكننى أصررت على الانسحاب لكى يرى الأكراد شر وعجز برزانى وطلبانى. سوف يدرك الشعب الكردى الطيب عموما استغلال وتعسف هذين الاثنين آجلا أو عاجلا»، قالها صدام وابتسم.

حصدت الحرب بين قوات البشمرجة التابعة للحزبين أرواح آلاف الضحايا. بدأت الحرب فى ديسمبر من عام ١٩٩٣ عندما أمسك برزانى وطلبانى بتلابيب بعضهما بسبب قضية مسار الحدود لكلتا الوحدتين الإداريتين اللتين أعلنتا قيامهما من جانب واحد داخل المحافظات الثلاث المارقة. غير أن النزاع تعمق. كانت النزاعات القبلية والعائلية دائما ما تصبغ صبغتها على الحياة فى المناطق الكردية، وفى غيرها من كل أنحاء العراق. دار النزاع فى هذه المرة أساسا حول التهريب وما يدره من دخل. كانت مبالغ طائلة.

كانت كل أشكال التجارة مع بغداد خاضعة لعقوبات الأمم المتحدة، مما جعل - لعظيم فرحة برزانى - التهريب بين العراق وتركيا مربحا أكثر يوما بعد يوم. كان على شاحنات نقل النفط الضخمة، وسيارات النقل المحملة بالأسمدة الصناعية، والأسمنت المتجهة إلى الشمال أن تعبر حواجز الشوارع التى أقامها الحزب الديمقراطى الكردستانى قبل أن يُسمح لها بالمرور إلى الحدود التركية. لم يكن يسمح للسائقين بالمرور إلا بعد دفع رسوم انتقال إلى برزانى. وبالمثل كان لا بد من دفع رسوم إلى زعيم الأكراد عندما كانت السلع والبضائع تأتى من تركيا إلى الاتجاه الآخر.

طلبانى طالب هو الآخر برسوم عند نقاط التفتيش الخاضعة له عندما كان يتم تهريب النفط، والأسمنت، والأسمدة الصناعية إلى إيران عبر المنطقة البعيدة الواقعة فى الجنوب الشرقى لحزب الاتحاد الوطنى الكردستانى، غير أن التهريب إلى الجمهورية الإيرانية ومنها كان حجمه أقل إلى حد كبير جدا من التهريب عبر الحدود التركية. لهذا لم يكن هناك مجال للمقارنة بين إمكانيات الربح والإيرادات من جانب طلبانى وبين

تلك من جانب برزانى. ولهذا طالب طلبانى أن يتم التوزيع بالعدل للإيرادات المجمعة، وهو المطلب الذى عارضه زعيم الحزب الكردستانى الديمقراطى.

فى ديسمبر من عام ١٩٩٤ طردت قوات البشمرجة التابعة لطلبانى بعد نجاحات بارزة فى ميدان القتال قوات الحزب الديمقراطى الكردستانى من أربيل. لكن لم يكد يمر نصف العام بعدها حتى رد برزانى بلا رحمة - ولكن على أية حال بمساعدة صدام.

أخذ كل العالم يراقب المشهد مشدوها:

فى يوم الواحد والثلاثين من أغسطس من عام ١٩٩٦ توغل أكثر من ثلاثين ألفا من جنود القوات الخاصة العراقية بمساندة الدبابات والمدفعية الثقيلة عبر حدود المحافظات الكردية المارقة، واستولت على أربيل.

تم هذا التوغل المكثف بالتعاون مع قوات البشمرجة التابعة لبرزانى، وبقيادة قصى، ابن الرئيس الذى لم يتحرك من مكانه إلا بعد أن تم طرد قوات البشمرجة التابعة للاتحاد الوطنى الكردستانى من مناطقهم الرئيسية حول السليمانية. كانت هذه أكبر عملية عسكرية لصدام منذ غزو الكويت، وما تلاه من هزيمة فى حرب الخليج. توجه طلبانى وجنوده وعشرات الآلاف من اللاجئين عبر الحدود إلى إيران.

لم تكن واشنطن الوحيدة التى اندهشت وتبرمت عندما اتضح أن مسعود برزانى قد تحالف سرا مع صدام والنظام فى بغداد لاستعادة ما فقده من الأرض والنفوذ.

والذى كان أيضا سببا خاصا للتبرم أن المؤتمر الوطنى العراقى لم يحرك ساكنا عندما توغلت القوات الحكومية والحزب الديمقراطى الكردستانى فى مناطق الحكم الذاتى للأكراد. تم تأسيس المؤتمر الوطنى العراقى فى عام ١٩٩٢ـ١٩٩٣ بأموال أمريكية، وقاده أحمد الجلبى، العراقى المعروف فى المنفى.

كان الجلبى فى هذا الوقت معروفا فى العالم العربى فى المقام الأول بأنه أنهى فى نهاية الثمانينيات على بنك بترا فى عمان. كل المساهمين الذين أودعوا عنده أموالهم تكبدوا خسائر فادحة. اتُّهم الجلبى بالتلاعب وحكم عليه غيابيا فى الأردن. لكنه ينفى التهمة باستمرار.

سرعان ما أسس المؤتمر الوطنى العراقى بالتعاون مع وكالة المخابرات الأمريكية

مكاتب ومجموعات من «المجاهدين» فى عديد من المدن فى مناطق الحكم الذاتى للأكراد، غير أنهم سقطوا فى عاصفة هجوم صدام وبرزانى . فى أربيل وحدها أُعدم نحو مائة من أنصار الجلبى علانية عندما سقطت المدينة . حزمت بقية مجموعات المقاومة للمؤتمر الوطنى العراقى ما تبقى لهم، وولوا الأدبار .

كان لصدام ألف سبب للابتسام فى ذلك اليوم من أيام الخريف الذى تلقى فيه أخيرا لوحة الثعبان المنشودة .

لم يتخلص فقط من «المجاهدين» فى شمال العراق التابعين للجلبى، بل إن القوات الخاصة للحرس الجمهورى التى كانت قد انسحبت مجددا من المحافظات المارقة قد أثبتت للأكراد أنها لا يزال يُعمل لها ألف حساب . كانت الحماية الدولية التى تتمتع بها مناطق الحكم الذاتى محدودة جدا طالما كان الأكراد يصارعون بعضهم مثل هذا الصراع الشديد .

عاد كل من قوات البشمرجة التابعة للاتحاد الوطنى الكردستانى واللاجئين تدريجيا من إيران . بدأ القتال مجددا ضد الحزب الديمقراطى الكردستانى . واستمر عدة سنوات إلى أن نجح الوسطاء الأمريكيون فى دفع برزانى وطلبانى لعقد الصلح .

قال صدام : «لقد تركتهم يختارون . فقط عن طريق ذلك أمكنهم أن يعرفوا ما هو الأفضل لهم» .

سألته عما إذا كان يريد سماع حكاية كان يقرؤها طبيب الأطفال الإنجليزى جون روبر دائما - إذا لم تخنى الذاكرة - لابنيه توماس وماثيو . كان د . روبر زميلا لزوجتى فى مستشفى رويال ديفون اكسيتير جينرال هوسبتال فى نهاية الستينيات . كانت تربط عائلتينا علاقة صداقة .

قال الرئيس : «هات ما عندك!» .

«فى يوم من الأيام كان هناك ذئب يعيش فى غابة كبيرة . كان يستطيع أن يهيم هنا وهناك، وكان هناك كثير من الحيوانات التى كان يستطيع اصطيادها وافتراسها .

كان الذئب والكلب صديقين . كانا يتقابلان بانتظام على أطراف الغابة الكبيرة ليتجاذبا أطراف الحديث وليقضيا ساعات طيبة مع بعضهما .



بعد ذلك أتى عام قاحل. لم يعد هناك ما يستطيع الذئب اصطياده فى الغابة وافتراسه. أخذ يزداد هزالا يوما بعد يوم، وكان على وشك الموت جوعا.

فى ذات يوم قرر الذهاب إلى صديقه الكلب، وأن يطلب منه العون. كان الكلب يتمتع بالصحة ولم يكن جسده يشكو الهزال. تعال معى إلى المدينة وسأجد لك سيدا. ما عليك سوى أن تفعل مثلى. عليك أن تحرس منزله، فإن فعلت سيعطيك الماء والطعام وبيتا صغيرا للنوم.

رأى الذئب أن هذا اقتراح جيد. ذهب معه إلى المدينة. ولكن عندما اقتربا من منزل صاحب الكلب لاحظ الذئب أن الكلب كان يلبس سلسلة حول عنقه بها يافطة من النحاس مكتوب عليها اسم صاحب الكلب.

سأله: «ما هذا»؟

«السلسلة علامة على أننى لى صاحب. فى اليافطة مكتوب اسمه. طوال اليوم أكون مقيدا بالسلسلة، ولكن عند المغيب يعطينى سيدى الطعام، ويطلق سراحى لأحرس منزله».

ظل الذئب واقفا ونظر إلى الأرض.

قال له بعد لحظة تأمل: «يا عزيزى، لا أستطيع أن أبيع حريتى، لا لشىء إلا أن أؤمن طعامى. لا أتحمل فكرة أن أكون مقيدا طوال اليوم، وأن ألبس سلسلة مثلك. أُفضل أن أهيم جائعا فى الغابة على أن أعيش فى المدينة مقيدا إلى أحد السادة».

استدار الذئب، وعاد أدراجه.

نظر صدام إلىّ طويلا، لكنه لم يقل شيئا. لا شك أن الحكاية التى رويتها له لم تعجبه.

قال صدام: «صورة حلم الثعبان ستتخذ مكانا جميلا فى متحفى»، ونهض بعدها. انتهى حفل الاستقبال.

كان يقصد «متحف القائد» الذى تعرض فيه كل الهدايا التى تلقاها الرئيس فى داخل وخارج البلاد. كان المتحف قائما فى أحد المبانى الحديثة الضخمة فى بغداد. كان يشبه معماريا إحدى الكاتدرائيات الحديثة.

الفصل الثانى عشر

صيد الفتيات

اشتهر محل الرواد بما يقدمه من المرطبات المتميزة جداً وبالفتيات اللاتى كن يترددن على المكان. كان المحل يشغل المكان الواقع فى الناصية بين الشارعين التجاريين أبو جعفر المنصور والمنصور. وفى كل مساء كان المكان حول محل المرطبات يعج بالشباب حَسنى المظهر أبناء العائلات الكبيرة وبالفتيات اللاتى كن يتجمعن هناك مثل النحل على العسل. وما رأيته من نافذة العيادة الخاصة بى الكائنة بنفس العقار أثبت لى أن هذه الناصية الحيوية هى أكثر مكان محبب للشباب فى بغداد يمكن فيه اصطياد الفتيات.

وبالطبع كان عدى يتردد كثيراً على هذا المكان، وكان يحب أن يجوب بسيارته المرسيدس أو غيرها الشوارع فى تؤدة ليبحث عن الضيوف المناسبين لحفلاته الليلية. حتى إذا رأى فتاة ذات مظهر واعد أرسل إليها أحد أصدقائه أو حراسه ببطاقة تحمل رقم هاتفه، لتتمكن من الاتصال إذا أرادت. وبالفعل كانت هناك الكثيرات ممن فعلن ذلك. وكانت الدوافع لذلك كثيرة، فبعضهن كن يفعلن ذلك طلبًا للمال، وبعضهن طمعًا فى الحصول على وظيفة والأخريات كن ينتهزن الفرصة لسؤال عدى عن مكان أخيهم أو أبيهم الذى اختفى فى غياهب ومتاهات المخابرات القاتلة. وربما دفع بعضهن الفضول إلى التعرف على حياة الترف التى يحلم بها الكثير ويعتقدون فى توفرها خلف أسوار القصور المحصنة.

وأغلبهن كن يجهلن ما ينتظرهن، فعُدى لم يكن يتورع عن فعل أى شىء، فكثيراً ما تعيّن علىّ معالجة بعض الفتيات اللاتى كن يشاركنه حفلاته الليلية ويتعرضن أثناء



مداعبات الفراش إلى التعذيب بالسكين أو إطفاء السجائر فى أجسادهن أو إلى أشكال أخرى من الانتهاكات.

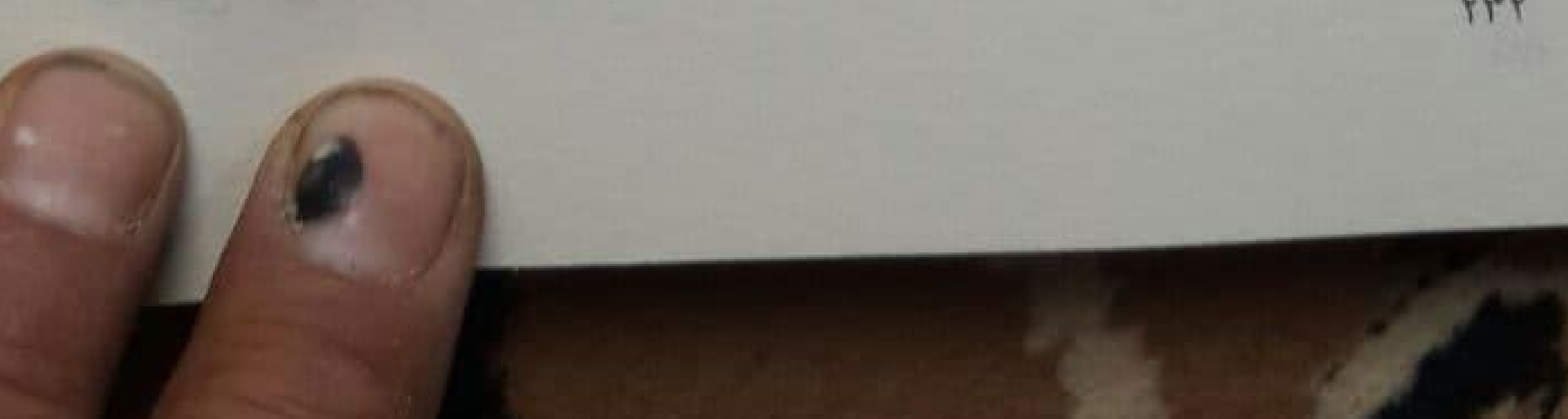
ولم يكن عدى يُكن لهن أى احترام، حتى حينما كان يكافىء إحداهن، فلم تكن مكافأته تتعدى عُلبة مساحيق أو ما شابه ذلك، مما لا يزيد ثمنه عن خمسة أو عشرة دولارات. فقد كان عدى حارسًا على ملياراته.

كان عدى يحتاج كل ليلة إلى نساء، لذا فقد كان هناك ستة من موظفيه يعملون على جمع الفتيات له. ثلاثة من أعضاء اللجنة الأولمبية العراقية التى كان يترأسها عدى كانوا يعملون بدأب على ذلك، فقد تخصصوا فى تنظيم حفلات تبدو وكأنها حفلات بريئة فى حدائق الجامعة والمعاهد العليا فى بغداد. ولأن عدى كان يحتاج كل ليلة إلى نساء، فقد كان هناك عدد من النساء اللاتى يعملن لحسابه، يقمن بالبحث فى هذه الحفلات التى كانت تنظمها اللجنة الأوليمبية فى أماكن متفرقة من بغداد. ولم يكن يعنيه كثيراً مَن التى تُشاركه الفراش، فقد حكى لنا صديقه القديم وسكرتيره الخاص ظافر محمد جابر أنه فى إحدى الحفلات جاءته فتاة باكية وقالت له: «لقد ظننت أنه يهتم بى ولكنه فى نهاية الأمر قد أخذ والدتى».

وكانت هذه الحفلات تُقام عادة فى نادى اليخوت على نهر دجلة فى منطقة ساحرة الطبيعة، وكثيراً ما كانت تُنظم الانتقالات بالحافلات لمواقع الحفلات، التى كانت تتميز باللهو والرقص ويُقدم فيها الطعام الفاخر. وكثير من الفتيات كن يحضرن بصحبة إحدى أخواتهن أو بصحبة الخالة أو العمة أو الأم. وكان كل شىء يسير بشكل أنيق، حتى عندما كان عدى يظهر على شاشة التلفاز وهو ينتقى من بين الحضور من سيشاركونه الأمسيات الخاصة ذات الجو المرح.

وبعد أن يختار من يريدهن كان يترك لبعض الموظفات لديه مهمة إقناع المختارات بالحضور. وكان بعضهن يُدركن حقيقة ما يدور فى الخفاء، أما الأخريات فكن يوافقن على الحضور، فقد كانت الحفلات تسير بشكل محترم بدرجة توحى بعدم وجود خطورة فى المشاركة فيما يتلوها من الحفلات.

ولم تنطل هذه الحيلة على الفتيات إلا لفترة محدودة بعدها انتشر الخبر فى بغداد، فقام عُدى بطرد موظفاته القائمات على إقناع وصيد الفتيات له.



وقد أتت إحداهن إلىّ فى المستشفى مدعية أنها تعرضت لحروق من موقد يعمل بالغاز فى بيتها. ولكن كان بها حرق أدى إلى جرح محيطه عشرة سنتيمترات، له نفس الشكل على مؤخرتها وقد كُتبت فى وسط الحرق الدائرى كلمة «عار». فقد كافأها عُدى على خدماتها الأولمبية المخلصة بأن أحرق مؤخرتها بالحديد الساخن ليجعل فيها علامة مميزة كما يُفعل بالأبقار.

وفى يوم الخميس الموافق الثانى عشر من ديسمبر ١٩٩٦ كان عدى يبحث من جديد فى منطقة محل الرواد عن فتيات. وقد اتسم هذا الأمر مع مرور الوقت بالخطورة. كان الكثيرون يعرفون بخروجه إلى شارع المنصور ولم يكن أمرًا سريًا أنه أحيانًا لا يصطحب معه حراسه الشخصيين عندما يخرج للبحث عن صيد لملذاته الليلية. وبمرور السنوات تكررت محاولات اغتياله، كان آخرها فى مارس ١٩٩٣، حيث انفجرت قنبلتان كانتا مُخبأتين فى صناديق القمامة أمام مكتبه باللجنة الأولمبية، ولكن الانفجار حدث قبل ذهابه للعمل.

وفى أحد أيام شهر ديسمبر خرج عدى بصحبة صديقه على الساهر فى سيارته البورش كاريرا، وبينما توقف فى شارع المنصور أمام محل الرواد حيث نزل صديقه ليعطى رقم التليفون لإحدى الفتيات إذا برجلين ملثمين يثبان من أحد الشوارع الجانبية ويطلقون وابلا من الرصاص اخترق كلا من السيارة وابن الرئيس. ولإثارة الفوضى فى شارع المنصور المزدحم بالسيارات قام الرجلان بإطلاق بعض الأعيرة النارية فى الهواء ثم هربا من ممر صغير إلى شارع مواز لشارع المنصور، حيث كانت بانتظارهما السيارة التى هربا بها. ولم يتم القبض عليهما حتى الآن وإن كان يغلب الظن أنهما من الشيعة المناوئين للنظام الحاكم.

وقد سارت سيارة عدى البورش مسافة ثلاثين أو أربعين مترًا قبل أن تتوقف، ثم جرى صديق عدى حتى لحق بالسيارة وأسرع بإخراجه منها ونقله فى سيارة أُجرة إلى مستشفى ابن سينا. كان فاقد الوعى عندما وصل إلى المستشفى وكان ينزف بغزارة، فلم يعد يربط ساقه اليسرى بجسده إلا قطعة صغيرة من الجلد.

فى يوم الخميس المذكور، الذى أطلق فيه النار على عدى، لم يكن لدى نوبة عمل فى مستشفى ابن سينا، كنت فى المرسم فى منزلى أرسم لوحة حين تلقيت اتصالا



هاتفيا قُبيل الساعة السابعة مساء وطُلب منى التوجه إلى المستشفى بأسرع ما يمكن. وعندما وصلت إلى هناك بعد حوالى ثلاث أرباع الساعة كان المكان يعج بالحراس الشخصيين وضباط الحراسة الخاصة التى يترأس إدارتها قُصى.

وفى غرفة العمليات كان هناك ثلاثة أطباء يعملون على إنقاذه وقد بدأ ضغطه يتحسن بعد أن أعطوه كميات كبيرة من السوائل لأن ضغط دم عدى كاد يصل إلى الصفر عند نقله إلى المستشفى. ثم قاموا بفتح بطنه حيث اخترقت صدره رصاصة من اليسار، حوالى عشرة سنتيمترات أسفل الإبط، ومرت على مسافة قصيرة جداً من القلب لتخترق الرئة وتشق المعدة فى طريقها للخارج. كان جراح العظام سنان العزاوى هو الذى استقبله وقام بإسعافه حيث كان مناوبا فى مستشفى ابن سينا وقت الحادث.

وبعد أن فتحنا القفص الصدرى قمنا بخياطة الثقوب والجروح. ولأن الثلث الأعلى من الساق اليسرى كان قد ثُقب بفعل الأعيرة النارية، فقد أخذتُ جزءاً من عضلة الساق وسددتُ به الثقب فى المكان الذى كانت فيه عظمة الساق. وأخيراً قمت بزراعة جزء كبير من الجلد من الجزء الداخلى للفخذ الأيمن على قصبة الرجل اليسرى لأسُد الفتحات بها.

كما اخترقت عدة رصاصات الفخذ والساق اليمنى دون أن تكسر أى عظام أو تدمر العضلات. واستمر عملنا ست ساعات حتى استطعنا أن نسد الثقوب ونُوقف النزيف الذى فقد عُدى بسببه كميات هائلة من الدماء، فقد كان إجمالى ما نُقل إليه من دماء خلال أربع وعشرين ساعة عشر لترات.

ولعله من الصعب أن يقترب شخص ما من الموت مثل ما حدث لعدى فى ذلك المساء من شهر ديسمبر.

وبينما كنا واقفين فى الغرفة الأمامية لغرفة العمليات نغسل أيدينا، إذ بصدام وسكرتيره الخاص عبد حمود وبعض الحراس الشخصيين يدخلون علينا. ولم يبد على صدام أى توتر أو حزن بل كان هدوءه لافتًا للنظر. وبعد أن حيَّانا قال لنا: «إننا نضايقكم مرة أخرى بمشاكلنا». ثم سكت برهة وقال بعدها: «ولكن الأهم هو أمن العراق والعراقيين».

وسأل عن حالة عدى وأجبناه بأنه بالمقارنة بما حدث له فإن حالته أفضل مما كان يمكن أن تكون عليه. ثم توجه صدام لغرفة العمليات، فأشرت إلى عبد حمود بأن هذه ليست بالفكرة الجيدة، فالمنظر سيكون صعبًا عليه ولكن عبد حمود لم يجرؤ على إيقاف صدام.

وكان عدى مازال تحت تأثير التخدير نائمًا على طاولة العمليات عاريًا من كل شئ إلا بعض الضمادات على صدره وبطنه وساقه وفخذه، وعلى الأرض كانت هناك بقع كبيرة من الدماء والكثير من الفوط الملطخة بالدماء. فاقترب منه صدام ونظر إليه ثم قال له: «يا بنى إن الرجال يجب أن يتوقعوا أن يحدث لهم مثل ذلك».

ثم أخذ يد عدى فى يده وقال: «ولكننا على حق والآخرين على باطل». ثم قبَّله على جبينه. وقام قصى الذى كان قد حضر بتقبيله هو الآخر وعلى عتبة حجرة العمليات قبّل قصى يد والده واحتضنه وقبّله على وجنتيه.

ثم سأل صدام: «ما الذى حدث لأخيك»؟

كان قصى هو رئيس الحراسات الخاصة والمسئول عن أمن وسلامة الأسرة.

قال قصى لأبيه إن عدى كان صائمًا وبعد غروب الشمس كان فى طريقه مع صديقه على الساهر إلى شارع المنصور ليشترى بعض الطعام (سندوتشات). كان عدى يصوم يومى الاثنين والخميس أسبوعيًا، وكان يوم الحادثة يوم خميس. واستكمل قصى روايته: «وعندما نزل صديقه من السيارة هاجمه الجناة».

نظر صدام إليه نظرة ملؤها الشك وطلب أن يتحدث مع الساهر. وبالفعل تم إحضاره، ووقف إلى الحائط.

«أعرف أنكما كنتما تبحثان عن فتيات». هذا ما قاله له صدام وهو ينظر إليه نظرة متفحصة. ولم يشكره على أنه سارع بنقل عدى إلى المستشفى. وكاد الساهر أن يموت خوفًا وهو واقف فى مكانه لم يتفوه بكلمه واحدة، ولاحظنا أنه قد تبوّل فى سرواله.

ولم تكن محاولة قصى تفسير وجود أخيه عند الرواد تفسيرًا إسلاميًا يرتبط بصيامه وإحساسه بالجوع، لم يكن هذا التفسير محض خيال، فقد كان عدى يتبع تعاليم الإسلام والقرآن بدرجة ما حسب إدراكه لها.



إن موت خاله عدنان خير الله فى بداية سنة ١٩٨٩ فى حادثة سقوط طائرة مروحية هو الذى نمّى الشعور الدينى لدى عدى. كان عدنان هو وزير الدفاع فى حكومة صدام، وكان قبل وفاته فى ظروف غامضة، محبوبًا جداً فى الجيش، وكان ضباط الجيش يكنون له احتراما كبيراً. ولكن من الواضح أن عدنان لم يكن من الشخصيات المفضلة لدى عدى.

ولكن توجه عدى نحو الدين لم يكن سهلاً، فقد كانت الصلوات اليومية الخمس فى اتجاه مكة تمثل بالنسبة له مشكلة كبيرة، فلم يكن مثلاً يؤدى صلاة الفجر، لأنه كان فى ذلك الوقت عادة إما فى حالة من السكر بعد سهراته الطويلة، أو كان بالفعل فى سبات عميق وكأنه حجر. ولنفس الأسباب لم يكن يؤدى صلاة الظهر، وكان يحاول تعويض هذا النقص بأن يتبع سنة الرسول ويقوم الليل يصلى لفترات طويلة.

أما مشكلة تعاطى الخمور فقد كانت أشد سوءاً، فكما هو معروف فإن شرب الخمر محرم فى الاسلام. ولكن عدى كان له شيخ خاص به هو عبد الغفار العباسى المشرف على البرامج الدينية التى يبثها تليفزيون الشباب الذى كان يمتلكه ابن الرئيس.

فى أحد الأيام قام عدى بإرسال ظافر محمد جابر للشيخ ليسأله ما إذا كان من المسموح أن يشرب كأسًا من الخمر بعد العشاء.

وعندما سمع الشيخ السؤال سأل: «ومن الذى يريد أن يعرف ذلك»؟

فأجابه جابر: «إنه عدى».

فقال العباس: «فى حالته نعم يجوز».

كان صدام قد رحل من مستشفى ابن سينا قبل أن تصل أم عدى «ساجدة» إلى هناك. كانت الأم فى حالة من الارتباك الشديد وبدا عليها أنها خرجت دونما أى تأهب أو استعداد فقد كان شعرها غير ممشط، ورافقها ابنها قصى إلى غرفة عدى. ولم يفلح فى تهدئتها.

وإذا بها تقول باكية: «إنه سيقتل أبنائى»!

فهمت ما تقصده، فقد كان صدام غير محبوب لدى الشعب العراقى فى



الآونة الأخيرة ولم يعد أحد يحتمله أكثر من ذلك ولكن من الذى يجرؤ على التفوه بذلك.

كانت ساجدة تعتبر أن الهجوم على عدى ما هو إلا محاولة من الشعب للانتقام من صدام، لأن أحداً لم يستطع أن يصل إلى الرئيس شخصياً حتى الآن.

وكانت ظروف المعيشة قد وصلت فى الخريف من ذلك العام إلى مستوى متدنى بدرجة لم تصل إليها منذ بداية الأزمة الاقتصادية التى بدأت مع الحرب ضد إيران عام ١٩٨٠.

فقد استنزفت السنوات الخمسة عشر الأخيرة آخر طاقات الشعب لما كان فيها من حربين متعاقبتين و عدة محاولات للثورة وعقوبات من الأمم المتحدة، حتى أن مئات الآلاف من الأطفال قد ماتوا من جراء تلك الأحوال القاسية. وبينما كانت ظواهر مثل الفقر والجوع والمرض والجريمة والدعارة تتفشى فى البلاد، استمر خبراء التفتيش الدوليين فى البحث عن أسلحة الدمار الشامل المزعومة التى يمتلكها صدام. وقد تزعم هذا البحث المضنى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى.

وفى اليوم التالى اكتشفنا أن عدى فقد القدرة على الحركة فى ذراعه الأيسر ويده ورجله اليسرى. بالإضافة لذلك فقد بدأت عينه اليسرى تزيغ إلى الداخل واستطعنا أن نكتشف عن طريق رسم المخ وجود إصابة طفيفة فى المخ حدثت بسبب انخفاض ضغط الدم الذى عانى منه عدى بعد الحادث عندما نُقل إلى مستشفى ابن سينا. ولم يكن هذا التشخيص مطمئناً، فكيف سيكون الحال لو زاد على جنون عدى إصابة بالمخ. أعلن مختصو وجراحو المخ والأعصاب فى مستشفى ابن سينا فى وضوح شديد رفضهم لإعلان هذا التشخيص. فالتصرف الأكثر أمناً كان إخفاء هذا الخبر السيئ عن عدى وعائلته. علماً أنه لم يطلب من الأطباء إخفاء الحقيقة. لكن هذا السلوك مع العائلة أصبح متعارف عليه بسبب سلوك بعض الأطباء المقربين للعائلة.

فقد كان علينا نحن الأطباء فى مستشفى ابن سينا أن نتصرف دائماً بحذر شديد وكأننا نتحرك فوق طبقة رقيقة من الثلج، لأن مرضانا كانوا أكثر الناس فى العراق سلطة وتأثيراً. ولهذا فإن أى تشخيص غير صحيح أو أى علاج لا يأتى بنتيجة يكون

لهما عواقب وخيمة على الطبيب المعنى، وربما أثّر ذلك على مستقبلنا تأثيراً سلبياً لأبعد الحدود.

وكانت محاولة إنقاذ عدى أصعب مما ظننا. فى يوم ٢٠ ديسمبر اشتكى عدى ألماً شديداً فى صدره، فقمت مع زميلى طبيب الباطنية المناوب بفحصه واكتشفنا وجود العلامات الأولى لانسداد فى الرئتين، وليس هذا بالأمر الغريب بعد إجراء العمليات الجراحية الكبيرة، فعادة ما تحدث تجلطات بالدم فى الأوردة التى تنقل الدم خلال الجسم. وأحيانًا يكون من الصعب اكتشاف مثل هذه التجلطات الدموية التى تبقى عالقة بجدران الأوعية الدموية قبل فوات الأوان.

فعندما تتحرك التجلطات من مكانها، من الممكن أن تتجمع فى الرئة لتسد طريق تدفق الدم إليها. وهذا يعنى فى الغالب الموت المحقق للمريض. وكانت الآلام التى عانى منها عدى فى الصدر تدل على أن بعضا من التجلطات قد تحركت من مكانها وبذلك فالمسألة أصبحت فقط مسألة وقت حتى تتحرك باقى التجلطات إذا لم نتمكن من إذابتها عن طريق المواد المخففة لكثافة الدم قبل أن تصل إلى الرئة.

وكان مجموع عدد الأطباء المعالجين لعدى تسعة، وتمت دعوتنا فى يوم ليلة رأس السنة فى المساء إلى قصر السجود على نهر دجلة بالقرب من النصب التذكارى للجندى المجهول لمقابلة صدام الذى كان يريد مجدداً أن يطمئن على حال ابنه. فشرحنا له أن ما يؤرقنا هو وجود تهديد بحدوث انسداد فى الرئة وأننا نعالجه بشكل مكثف باستخدام مواد مخففة لكثافة الدم. فنظر إلينا صدام وقال لنا إن المرء لا يجب أن ينشغل بالقتلى والجرحى أثناء المعركة «ولكن بعد نهايتها نقدم للجرحى أفضل رعاية وعلاج ممكن». ثم أضاف قائلاً: «وهكذا الحال أيضًا مع عدى». وبذلك أنهى اللقاء.

وبعد ذلك بأسبوع وبينما كنا نفحص عدى أثناء المرور الدورى إذا به يُخرج الجميع عَداى من الحجرة. «قل لى يا دكتور علاء، لقد عالجت عمى وطبان أيضًا وأجريت له عملية جراحية، أين كانت إصابته، الساق اليمنى أم اليسرى»؟

«اليسرى».

«هلا قلت لى أين بالضبط»؟!



«نعم، فى نفس الموضع الذى تحطمت فيه ساقك بفعل الأعيرة النارية».

«يا إلهى. . . لقد عاقبنى الله»!

ثم سكت برهة سألنى بعدها عن المكان الذى يمكن أن يحصل فيه على أفضل علاج، هل فى بغداد أم فى الخارج. وبينما كنت أناقشه فى مزايا وعيوب كل من الإمكانيتين إذا بصدام يدخل علينا وبصحبته أخيه غير الشقيق وطبان، الذى كان يمشى بصعوبة شديدة بالرغم من أنه غادر مستشفى ابن سينا منذ أكثر من نصف سنة.

ومن سخرية القدر أن يرقد الآن ابن أخيه فى نفس المستشفى لإصابته فى الساق اليسرى أيضًا وبطلق نارى حطم الساق كلية فى نفس الموضع الذى أصابه عدى فيه بطلق نارى يوم ٨ أغسطس من العام الماضى وهم مجتمعون على وليمة على ضفة نهر دجلة، كان ذلك هو ذات اليوم الصعب الذى هرب فيه أزواج بنات صدام بصحبة زوجاتهم وأبنائهم إلى الأردن. وبعد هذا الحادث آنذاك قدم عدى الاعتذارات لعمه وطلب منه الصفح. ولكن كان لدى شعور قوى بأن وطبان يبذل مجهودًا كبيرًا فى إخفاء شماتته فى عدى، بالرغم من أن وجهه كان عابسًا وهو يسأل ابن أخيه عن حاله. لقد كان يكره عُدى حتى النخاع.

«دكتور علاء هو الذى يجب أن يجيب عن هذا السؤال. أجب بصدق يا دكتور ما هى فرص شفائى»؟

جلس صدام ووطبان وأخبرتهما أن حالة عدى مازالت تؤرقنا وخصوصًا بسبب حالة ساقه اليسرى شديدة السوء. وعلى الرغم من أن الأطباء وهيئة التمريض قد بذلوا أقصى جهدهم وقاموا بعمل رائع أنقذوا به حياة عدى وساقه إلا أنه لن يتمكن من السير بشكل طبيعى بعد ذلك.

سألنى صدام: «كيف هذا»؟

«لأن جزءًا كبيرًا من العضلات قد تهتّك ومعظمها دُمرت تمامًا». وهنا قاطعنى عدى وطلب أن نُعيده كما كان تمامًا. فأجبته قائلاً: «الله وحده الذى يقدر على ذلك وليس الأطباء». وأجهش عُدى فى البكاء.

فقال له صدام: «يجب أن تقبل الواقع، فالدكتور علاء لم يقل غير الحقيقة».



وسألنى الرئيس ما إذا كان لدينا كل المعدات اللازمة لعلاج عدى على أفضل وجه. فأجبته بأننا لا نملك الأجهزة المناسبة لمراقبة دورته الدموية بالدرجة المطلوبة، فليس لدينا أجهزة الموجات فوق الصوتية اللازمة لذلك. وأخبرتهم كذلك أن مشكلة الجلطات الدموية ما زالت تؤرقنى، حيث إنها عالقة بالأوعية الدموية ويمكن أن تتحرك فى أى وقت منهية بذلك حياته.

وأُصيب عُدى مجدداً بألم شديد فى الصدر اضطررنا على إثره من زيادة جرعة المسكنات والعقار المسمى هبارين اللازم لخفض كثافة الدم.

واقترح صدام علاج عدى خارج العراق، فى باريس مثلاً، حيث إنه يقدر الأطباء الفرنسيين جداً. «لقد كانوا دائماً أصدقاء جيدين لنا، وقدموا لنا دائماً المساعدة كلما احتجناها، هناك علاقة طيبة تربطنا بفرنسا والفرنسيين».

وقال لى: «إذا كنت تعرف طبيباً فرنسياً جيداً فاتصل به». فأجبته بأننى سأفعل ذلك. واتصلت بالأستاذ الدكتور دومنيك لوفيت الذى تربطنى به صداقة جيدة وهو واحد من أبرع جراحى العظام فى فرنسا. وشرحت له الموقف وذكرت له المشكلة التى تواجهنا فى ابن سينا، وسألته إذا كان يمكنه أن يرتب لعلاج عدى فى باريس ووعدنى بالاهتمام بهذا الأمر ولكن بعدها بفترة وجيزة جاءنى رده بالرفض شارحاً لى أن الحكومة هناك قد ألمحت بأن عدى ضيف غير مرغوب فيه.

فى العاشر من يناير تمت مناقشة الموضوع فى وزارة الخارجية الفرنسية ورُفض طلبنا، ولكنهم قالوا لنا فى الفاكس الوارد من Quai d'Orsay بباريس أنهم لا يمانعون فى إرسال فريق طبى بالتجهيزات اللازمة لعلاج عدى فى العراق.

ووافقنا على هذه الفكرة وبالفعل وصل الفريق الطبى فى السادس عشر من يناير وتم فحص عدى بأجهزة الموجات فوق الصوتية التى أحضروها معهم. التجلط كان فى المنطقة عند التقاء البطن بالفخذ. وكان طوله خمسة سنتيمترات، وقد انفصل بشكل شبه كلى عن جدار الوريد. وربما اقترب عدى فى هذه اللحظات من الموت تماماً كما كان عندما نقله صديقه إلى المستشفى فى الثانى عشر من ديسمبر، وكاد ضغط دمه يومها أن يصل إلى الصفر.



لذا فقد اقترح الأطباء الفرنسيون استئصال ذلك التجلط باستخدام تقنية جديدة تم تطويرها واختبارها على مستوى دولى ولكن عدى رفض ذلك. وعلى هذا فقد اضطررنا إلى زيادة جرعات المواد المخففة لكثافة الدم وطلبنا منه أن يخلد إلى الراحة وأن لا يتحرك قدر الإمكان. وذاب التجلط تدريجيًا حتى إنه اختفى تمامًا فى بداية شهر مارس.

وفى الثانى من فبراير حضر الأستاذ لوفيت إلى بغداد لعمل جراحة لعدى يثبت فيها ساقه، وكان يريد أن يأخذ لهذا الغرض جزءا من عظام الحوض ليثبته كجسر فى الموضع الأعلى من الساق الذى دُمر تمامًا جراء الأعيرة النارية. ولأن الساق كانت مازالت متورمة فقد قرر لوفيت تأجيل العملية عدة شهور حتى تتحسن حالة الساق. ولكن عدى استشاط غضبًا عندما سمع ذلك. فقد طالب بإجراء العملية فى أسرع وقت ممكن ورفض استقبال الطبيب الفرنسى مرة أخرى.

ولذلك فقد تم اتخاذ قرار بإرسال زميلى الدكتور حسن الخضيرى إلى أوروبا ليتحرى عمن يمكنه إجراء هذه العملية، وكذلك ليبحث عن أى إنجازات طبية حديثة يكون من شأنها مساعدة عدى.

وقد شككتُ فى جدوى مثل هذه الرحلة ولكن أغلب زملائى صوتوا بالموافقة عندما طرحت الفكرة للمناقشة. وعاد الدكتور الخضيرى فى الثانى من مارس بعد أن زار ألمانيا والسويد وفرنسا. وكما توقعت فقد عاد صفر اليدين دون أن يجد أى إنجازات علمية فى مجال طب العظام قد تساعد عدى على الشفاء، وقد أقر بذلك وهو صاغر وذليل أمام صدام الذى حضر إلى مستشفى ابن سينا ليسأل عن ثمار الرحلة.

ثم سألنا صدام عن رأينا فى الموقف، فرد أحد زملائى أن الدكتور الخضيرى لم يأت بجديد، وإن كل ما جاء به معروف لدينا خير المعرفة، وإن الأفضل أن نبقى على تعاوننا مع الفريق الطبى الفرنسى والدكتور لوفيت فنحن نعرفهم ونعرف قدراتهم بالفعل.

ووافق صدام على ذلك قائلاً: «أنا لا أجد أى داع لأن نستبدل الأطباء الفرنسيين بغيرهم، فقد قاموا بعمل جيد وهم أصدقاؤنا كما كانوا دائمًا، وطالما هبوا لمساعدتنا كلما احتجنا لذلك. وهذا قرارى ولا أريد أن أستمع لأى اقترحات أخرى فإن هذا لن يجلب على عدى إلا القلق والحيرة».



فتجرأ الدكتور الخضيرى وقال: «ولم لا نعالج عدى فى سويسرا، إنه بلد محايد». وهنا غضب صدام وقال: «اللعنة على سويسرا! ما هذا الاقتراح الأحمق. إننا نؤمن بالله ونعرف أن كل ما يحدث هو إرادته وهذا ما يجب علينا تقبله». ثم تركنا وخرج.

فأسرع الدكتور الخضيرى إلى عدى ليحكى له ما دار بيننا من حديث وما قرره أبوه فى النهاية. ولكن عدى أصر على ألا يجرى له الدكتور لوفيت العملية وفى اليوم الذى تلاه نفذ عدى رغبته وأجرى له العملية طبيب عظام ألمانى من مدينة شتوتجارت. وخلال الربيع من ذلك العام قام ذلك الطبيب بإجراء العمليات الجراحية اللازمة فى ساق عدى. وعلى أية حال فإن صدام لم يكن يصر على تنفيذ رغباته مع عدى وقصى.

وبعد ذلك اكتشفت أن عديا كان عنده أسباب خاصة دفعته لدعوة ذلك الطبيب من شتوتجارت، فالطبيب الألمانى لم يكن جراح عظام بارعا فحسب، بل كانت تربطه علاقات عمل بإحدى الشركات الألمانية التى وردت للعراق بضائع خلال حرب الخليج الأولى ولم تحصل على حقها كاملاً. كان المبلغ المتبقى للشركة هو تسعة ملايين دولار تعيَّن على الطبيب تحصيلها بينما كان عُدى تحت سكينه الجراحى (بالمعنى الحرفى للكلمة).

وقد اقترح عدى وأخوه قصى على الشركة الألمانية أن يرضوا بمبلغ أربعة ملايين دولار، ولم يعق موافقة الشركة على هذا الاقتراح إلا رغبة قصى وعدى فى الحصول على خمسة ملايين دولار من العشرة كعمولة لهما.

ووصل فاكس غير مرغوب فيه عن طريق الخطأ لمكتب اللجنة الأولمبية مباشرة، مما أثار مخاوف قصى وعدى من أن يكون أى شخص غريب قد اطلع عليه، وبالتالى يمكن أن يخبر والدهم بالسبب الحقيقى الذى جعل الطبيب الألمانى يجرى عمليات الساق لعدى فى بغداد بدلاً من الطبيب الفرنسى لوفيت.

وعلى الفور ألقى الأخوان مسئولية حضور الطبيب الألمانى إلى مستشفى ابن سينا على الدكتور الخضيرى وألصقا به تهمة عقد صفقات مشبوهة على غير علمهما. واستشعر الدكتور الخضيرى أنه سيدفع حياته ثمنًا لهذه التهمة، لذا فقد هرب مع أسرته فى سرعة خاطفة إلى السعودية، حيث يعيش بها حتى الآن.



عندما أخذتُ رقعة من جلد فخذ عدى الأيمن لأغطى بها مكان دخول الرصاصة فى ساقه اليسرى استمرت فترة التئام الجرح فى الفخذ مدة طويلة على غير المألوف، فعادة يتكون الجلد مرة أخرى بسرعة ولكن فى حالة عدى فقد أعاق نمو الجلد تعدد مرات إصابة الجرح بتلوثات والتهابات. ولم نكن فى الحقيقة نعرف كيف تحدث مثل هذه الالتهابات على الرغم من أننا نعطى مريضنا مضادات حيوية ونقوم بتطهير الجرح وتضميده بشكل مستمر.

ذات يوم أسرَّت إلىَّ إحدى الممرضات أن عدى قد رجع إلى عادته القديمة وكلف أصدقاءه بالبحث عن الفتيات عند الرواد، وأن الحفلات تقام كل ليلة فى المستشفى وتنتهى بزيارات نسائية لعدى فى غرفته. ولأن الضمادة المثبتة على باطن فخذه الأيمن تعيقه عن الاستمتاع بملذاته وهو فى فراش المرض، لذا فقد كان عدى يزيحها من طريقه. فلا عجب إذًا من تلوث الجرح وعدم شفائه.

وفى التاسع والعشرين من مايو ١٩٩٧ حضر والده بصحبة قصى إلى المستشفى وبعد زيارة عدى ذهبا إلى مكتب المدير لتحية الأطباء المناوبين. وسأل صدام عن حالة عدى وأوضحنا له أن فترة العلاج قد انتهت وأنه سيخرج من المستشفى بعد يومين.

وبدا على صدام الارتياح لسماع هذا الخبر. ثم وجه كلامه لقصى قائلاً: «يجب عليك أنت وأخيك أن تتوقعا مثل هذه الأحداث فى المستقبل، توقعا الأسوأ، فإن من هم فى مثل مكانتكم تمر بهم إن آجلاً أو عاجلاً أوقات صعبة». وفى التاسع من شهر يونيه وبعد حوالى ستة شهور أمضاها عدى فى مستشفى ابن سينا خرج وهو يعرج ويمشى بصعوبة بالغة. وكان قد استعاد القدرة على الحركة بشكل جيد فى ذراعه الأيسر ورجله اليسرى واستعادت عينه اليسرى وضعها الطبيعى. ولكن لم يعد باستطاعته فى أغلب الأحيان أن يكتب جملا متصلة المعنى. وكان من الصعب فهمه عندما يتكلم. وكان حتى قبل الإصابة يتكلم بطريقة غير واضحة بسبب كبر حجم فكه العلوى بدرجة غير متناسقة مع حجم فمه. ولم يكن ابن الرئيس على أية حال من الأحوال كثير الحديث. وكان من الصعب تحديد درجة إصابة مخ عدى لأنه كان قبل الحادثة مجنونًا. ولكن قُبيل مغادرته المستشفى و بعدها كان أشد ثورة وعدوانًا فى مواجهة ما حوله أكثر مما كان قبل الهجوم عليه فى شارع المنصور.



وقد حاول صديقه على الساهر، الذى أنقذ حياته من قبل، الهرب إلى الأردن بصحبة زوجته وأولاده فى خريف ٢٠٠٢، ولكن تم إلقاء القبض عليه عند نقطة طريبيل الحدودية وتم إرساله إلى بغداد حيث علم عدى بمحاولة الهروب الفاشلة واستدعاه إلى مقر اللجنة الأولمبية وقال له: «إنك ستعاود المحاولة من جديد، ومثلك مثل أصدقائى الآخرين الذين هربوا إلى الخارج لن تستطيع أن تغلق فمك، ولكنى لن أترك ذلك يحدث».

وقد أخبرتنى بعد ذلك إحدى بنات عم الساهر، والتى كانت تعمل ممرضة فى مركز صدام لجراحات التجميل، أن عدى قد أرسل مجموعة من رجاله من ميليشيا الفدائيين إلى بيت صديقه بعد أيام من حديثه الأخير معه وقاموا بقطع لسانه أمام زوجته وأطفاله وجيرانه.



الفصل الثالث عشر

عملية ثعلب الصحراء

لقد حذرته كثيراً من ارتداء الأحذية الصغيرة والضيقة التى دأب على ارتدائها، حتى حدث ما لم يكن منه بُد. فى يوم الثامن والعشرين من شهر يناير ١٩٩٩ وكان يوما شتويا معتدل الجو فى بغداد، جاء زهير العزاوى مدير مستشفى ابن سينا إلى مكتبى ليبلغنى أن الرئيس فى طريقه إلينا، وكان الخبر بمثابة مفاجأة لنا، إذ كانت المرة الأولى التى يعلن فيها الرئيس عن موعد زيارته.

كان صدام يعانى ألمًا بسبب مسامير القدم فى باطن قدمه اليمنى وكاد الألم أن يذهب بعقله وهو يريد الآن استئصال الجلد المريض. وعندما حضر قال لى: «كنت على حق يا دكتور... أين ستجرى العملية».

فاقترحت إجراء الجراحة فى العيادة الخارجية. وعندما اقتربنا من طاولة العمليات لاحظ صدام عليها فوطة متسخة. فنظر إلى مدير المستشفى وقال له: «ألم أخبركم بموعد وصولى..»؟

فأسرع العزاوى باستبدال الفوطة المتسخة بأخرى زاهية النظافة. وبدى عليه الخوف على حياته.

ثم قال الرئيس: «إذا كان هذا ما يحدث معى، فأنا لا أجرؤ حتى أن أفكر فيما يحدث للمرضى الآخرين».

وعلى الفور قدم العزاوى اعتذاراته، وبقى بعد ذلك فى منصبه، وهذا ما لم يتوقعه أحد، ثم قمت بتخدير صدام موضعيًا واكتشفت بعدها أنه ليس مسمار قدم واحد بل

اثنين . وبعد أن ضمدت الجرح نصحته أن لا يتحرك كثيراً وأن يبقى قدمه مرفوعة لأعلى لبضع ساعات .

وبعد مضى أقل من ساعة هرع إلى اثنان من حراسه الشخصيين وطلبوا منى تجهيز ضمادات وأربطة جديدة ، وأن أسرع معهم إلى إحدى الدور حيث كان صدام يرقد فى فراش كبير عليه بقعة هائلة من الدماء . وكانت الضمادة على قدم صدام مشربة بالدماء كما راقت دماء على الأرض وبدى صدام شاحباً .

وعندما رآنى قال لى : «هذا ليس خطأك يا دكتور علاء ، فأنا الذى لم أعمل بنصيحتك وخرجت بعد العملية لحضور اجتماع فإذا بقدمى تدمى بجنون» . فقمت بتغيير الضمادات وأخبرته أنه لا يوجد أى خطر مما حدث وبعد إجراء العملية بأربعة أيام أحضرونى مرة أخرى لأطمئن على حالة صدام وما إذا كان كل شىء يسير على ما يرام .

كان هذه المرة ينتظرنى فى منزل صغير تحت أشجار كبيرة بالقرب من الجسر المعلق على نهر دجلة ، حيث كان صدام يغير مكان إقامته دائماً لدواع أمنية . فاطمأننت على حال الجرح وغيرت الضمادات . وبعد انتهائى من عملى طلب منى صدام أن أصحبه إلى غرفة مجاورة . وفى تلك الغرفة كان أحد مهندسى صدام قد قام بفرد خارطة كبيرة تشتمل على رسوم لكل المبانى المقامة على الأرض الخاصة بالقصر الجمهورى .

وأشار صدام إلى أحد المبانى وقال لى : «انظر إلى هذا المبنى ، لقد تم تدميره أثناء الهجوم الصاروخى الأمريكى الأخير . والآن يجب أن يعاد بناؤه ولكن بضعف حجمه الأصلى» .

وفى الفترة من السابع عشر وحتى العشرين من شهر ديسمبر ١٩٩٨ سقط على بغداد وعلى بعض المدن الأخرى وابل من الصواريخ الأمريكية والبريطانية .

وكنت فى تلك الأيام أذهب إلى عملى كما اعتدت فى مستشفى ابن سينا ومستشفى الواسطى . وقد لفت انتباهى أن خروجى مع سائقى كل يوم ومحاولتنا شق الطريق بين الانفجارات وستائر الدخان قد أصبح لكلينا أمرا شبه روتينى .



وكما يقول المثل العربى : «إذا كنت مبتل الثياب ، فلا تخشى المطر» . وكان حالنا بالفعل هو حال المبتل .

أطلق الرئيس بيل كلينتون على العقاب العسكرى للعراق اسم «ثعلب الصحراء» .

وكان تبريره هذه المرة هو أن المفتشين الدوليين الذين يبحثون فى العراق منذ سبع سنوات عن أسلحة الدمار الشامل قد تم طردهم من العراق فى مستهل شهر ديسمبر ، وإن عملهم قد أصبح شديد الصعوبة لأنهم لا يحصلون على الموافقات اللازمة لدخول ما يريدونه من الأماكن ، كما ادعى كليتون أن صدام لم يعد يحتمل وجودهم بعد أن اتضح وجود علاقات تربطهم بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سى آى إيه CIA) .

وقد أصابت القنابل أكثر من مائة مبنى ، دُمِّرت خلال الأيام الأربعة التى استغرقتها فترة القصف ، كان أغلبها مكاتب ومبان خاصة بالإدارة الأمنية فى حكومة صدام أو بوكالات الأنباء ، وكان بعضها على مقربة من القصر الجمهورى على نهر دجلة .

شق شعاع الشمس طريقه عبر نافذة صغيرة بالحجرة سقط منها الضوء على صدر صدام فلاحظت خطوطا سوداء فى بذلته الرمادية الأنيقة .

ثم أشار صدام إلى مبنى آخر على الخارطة وقال لى : «كنت أستخدم هذا البيت دائمًا وأنا أخطط للمعارك الكبيرة أثناء حربنا ضد إيران ، لذا فكنت أسميه بيت النصر . ولكن جزءا منه قد تعرض للتدمير إثر القصف الأمريكى فى شهر فبراير ١٩٩١ فأمرت بإعادة بنائه فى ضعف حجمه السابق . لقد قرر صدام أن أى مبنى يقصفه الأمريكان يجب أن يعاد بنائه بضعف حجمه الأصلى .

والآن وقد تم تدميره مرة أخرى ، فقد أمرت المهندسين بإعادة بنائه ولكن هذه المرة فى صورة قصر يجمع الكثير من التماثيل والأعمال الفنية . يجب أن تكون أسقف حجراته شاهقة العلو .

وفى صباح الثامن من فبراير طلب الرئيس منى أن أغيّر له ضمادة الجرح ، لذلك فقد جاءوا بى إلى بيت صغير على نهر دجلة . وبدى على صدام الغضب والضيق ، عندما حضرت أمر أحد حراسه باصطحابى لغسل يدى والغريب أنه أمر حارس آخر كان واقفًا بجانب الغرفة أن يذهب هو أيضًا ليغسل يديه .

وظل صدام صامتًا وأنا أغيّر الضمادات وبدى غارقًا فى التفكير.

وبعد أن انتهيت سألنى ما إذا كان الجرح يلتئم كما ينبغى، فأكدت له أن كل شىء على ما يرام ولاحظته وهو يمشى عدة خطوات لأطمئن على أن الضمادة لا تعيقه عن الحركة.

وبدى عليه الإنهاك وقد ثقلت جفونه وتدلت بطريقة لم أعهدها من قبل.

ثم طلب منى أن أغسل يدى، وبعدها صافحنى مودعًا لأنه كان يريد أن يخلد إلى النوم.

وترددت فى بغداد شائعة تقول إن القصف الأمريكى الأخير كان بمثابة رسالة موجهه لقواد الجيش العراقى للقيام بانقلاب على صدام، كان القصف دعوة للثورة عليه.

وفى مساء ذلك اليوم سمعت فى نشرة الأخبار بوفاة الملك حسين ملك الأردن. وسمعت أيضا أنه قد تم إعدام اللواء كامل ساجت وعدد من الضباط.

وكان اللواء ساجت من أهم وأشهر الأبطال الحربيين فى العراق، وقد تم تكريمه عدة مرات على بطولاته وشجاعته أثناء الحرب ضد إيران.

والآن يُتهم ذلك الرجل الذى يحظى باحترام زملائه فى الجيش بأنه قد دبر انقلابا عسكريا بمساعدة بعض الضباط، كما تم اتهامه بتلقى خطاب حول موضوع الانقلاب العسكرى الذى اتهم بتدبيره الفريق الركن اللواء نزار الخزرجى الذى هرب إلى أوروبا بعد أن كنت قد عالجته إثر إصابته فى هجوم شيعى على الناصرية فى مارس ١٩٩١، فقد استطاع رئيس الأركان السابق بمساعدة مسعود البرزانى والحزب الديمقراطى الكردستانى الهرب عبر الأراضى الكردية المستقلة إلى تركيا.

وقد استغرقت فى التفكير تلك الفترة، فقد ذكرنى إعدام اللواء كامل وزملائه بالظروف والحكومة التى نعيش فى ظلها، كما كشف لىّ عن مدى القرب بين الحياة والموت.

وبقرب حلول الألفية الجديدة تحسنت الأوضاع فى العراق فقبل عامين كان صدام قد غيّر موقفه الرافض لبرنامج الأمم المتحدة النفط مقابل الغذاء.



وبدأ تدفق كميات كبيرة من البترول العراقى إلى السوق العالمية تحت إشراف دقيق من قبل مفتشى مجلس الأمن بنيويورك، وكانت إيرادات البترول تحول على حساب مجمد باسم منظمة الأمم المتحدة. وبهذه الأموال استطاعت الإدارات المختصة فى بغداد دفع ثمن الواردات من الأغذية والأدوية.

وقد بدأ هذا المشروع الإنسانى العملاق فى عام ١٩٩٧ ووفر الغذاء لشعب تعداده أكثر من عشرين مليون نسمة. وعمل الجهاز الإدارى فى العراق بطريقة جيدة فاقت التوقعات. وصلت المساعدات فى سرعة للعائلات المحتاجة وكانت تشتمل على كل ما يحتاجونه من الدقيق والأرز والسكر وزيت الطعام والشاى والصابون، وكانت هذه الكميات تكفى لمدة شهرين.

وعلى الرغم من أن برنامج هيئة الأمم قد سد جوع العراقيين إلا أنه لم يحل بأى حال من الأحوال المشكلة الاقتصادية الأساسية، فقد كان له مفعول معوق للنشاط الاقتصادى، فلم يعد هناك أحد مضطر للعمل للحصول على الغذاء.

ولم يكن مسموحًا أن يمول العراق بإيرادات النفط عمل إصلاحات كبيرة فى محطات توليد الطاقة، أو فى محطات الضخ ومحطات تنقية المياه أو تحسين شبكة المياه التى كانت فى حالة سيئة.

وبالرغم من أن لجنة العقوبات كانت قد سمحت بشراء مضخات ومرشحات ومواسير، إلا أن اللجنة المشرفة على الحساب المجمد لدى هيئة الأمم المتحدة لم تعتمد المبالغ اللازمة لدفع مستحقات الشركات القائمة على عمليات التجديد والتركيب.

ولأن حكومة بغداد التى كان ملحوظًا عليها القصور والعجز لم تكن تدرك أهمية هذه المشروعات، فقد تحولت الشوارع فى مدننا إلى ما يشبه بئر المرحاض لأن الصرف الصحى كان يعانى الانسداد والأعطال المستمرة، وكان الوضع شديد التأزم فى جنوب العراق، لأن شبكة الصرف الصحى كانت قد دمرت تمامًا بعد الحرب ضد إيران وحرب الخليج. ولأن الضغط فى مواسير الصرف الصحى كان فى المعتاد عاليًا جدًا فقد كان يختلط بمياه الشرب التى تجرى فى مواسير غير محكمة، وكان الناس يشربون هذا الماء فى المعتاد دون غليه أو تعقيمه. حتى الألبان الجافة التى كانت تأتى إلى العراق فى إطار مشروع «النفط مقابل الغذاء»، كانت تقدم للأطفال بعد أن تمزجها الأمهات عن غير

علم بهذا الماء الملوث. ولهذا فقد كان نصف الأطفال فى مدينة البصرة مثلاً يعانون من الإسهال. وكانت معدلات الوفيات بينهم عالية بشكل مفزع، إضافة إلى أن المواد الغذائية المستوردة من بعض الدول كانت سيئة للغاية.

وأسوأ ما واجهنا هو عدم وجود خطة قومية لحل مشاكل الشعب الصحية، ولم يكن صدام أو زعماء الحزب الحاكم أو أحد من وزرائه يعى مدى الصعوبات التى كانت تواجهنا فى كفاحنا الطبى ضد المرض.

وأى رغبة فى تحول كبير فى السياسة الصحية للدولة لم تكن سوى نوع من مبارزة طواحين الهواء، فقد كان لدى صدام وحاشيته شك كبير فينا نحن الأطباء.

فى بداية الثمانينيات وأثناء الحرب على العراق تم مثلاً تسريح أربعين من أبرع الأطباء والأخصائيين عندما قامت الحكومة بحملة تطهير فى الكليات والمستشفيات التى كان يعمل ويحاضر فيها هؤلاء الأساتذة والأطباء، ولم يشفع لهم أن معظمهم قد حصل على درجة الدكتوراه وعلى شهادات فى تخصصه الطبى من أفضل جامعات ومستشفيات إنجلترا وفرنسا وأمريكا. ولم نفهم أبدا ما الذى دعا صدام لسحب دعمه للبحث الطبى، ولكننا سمعنا أن لجنة من حزب البعث قد أعدت تقريراً ذكرت فيه أن الأطباء الصغار لا يجدون مكانًا لهم كطبيب أول أو كأستاذ فى الجامعة إلا بعد فترة انتظار طويلة.

وتصرف صدام العنيف هو مجرد مثال على طريقته فى حل المشاكل الكبيرة.

ونتيجة لعدم توفر الثقة بالأطباء تحول الطب فى العراق إلى مجرد وهم ودجل.

وفى نهاية الثمانينيات تلقيت يومًا اتصالاً هاتفيًا من وزير الصحة آنذاك عبد السلام محمد سعيد الذى أبلغنى بأن زوج ابنة صدام ووزيره للتصنيع الحربى والمدنى حسين كامل المجيد يريد مقابلتى. حين قابلته كان معه قصاصة ورق من صحيفة وشريط فيديو قصير عن دواء ساحر لعلاج السرطان.

وقد قدم المخترع نفسه للرئيس الذى تحمس كل التحمس لاختراعه وقرر تقديم الدعم له ولذلك فقد حضر إلى حسين كامل.

ويعرض شريط الفيديو كيف يتم شفاء عدد من مرضى السرطان بما يشبه المعجزة

بعدما يشربون بعض الأكواب من إكسير الأعشاب الذى أعده المخترع، الذى يقف فى مطبخه يحرك الإكسير فى قارورات كبيرة.

قال لى الوزير: «يجب أن أصارحك بأننى يساورنى الشك فى ذلك المركب، ولكن المرضى يبدون فى الشريط فى حالة أفضل بكثير بعدما شربوا من هذا المشروب العجيب الذى يقدمه لهم المخترع».

فأجبته بأننى أعتقد أنه يخلط مشروبه بكمية كبيرة من الكورتيزون، لأن مريض السرطان تتحسن حالته عقب تناوله هذه المادة ولكنها لا تعيق انتشار المرض. ولكى أكون أكثر وضوحًا، إننى سأكون حذرًا جدًا قبل أن أثق فى شخص يدعى أنه باحث فى مرض السرطان وهو لا يملك ميكروسكوبا واحدًا فى معمله.

وبعد مضى شهرين افتضح أمر هذا المعالج النصاب الذى تحمس له صدام، فقد كان الجزء الأكبر من مشروبه السحرى يتكون من الكورتيزون، ومات معظم مرضاه بعد تصوير الفيديو بفترة وجيزة، كما اتضح أن ذلك المخترع كان قد تم تسريحه من الجيش لإصابته بمشكلات نفسية.

ولم يكن طبيب الأعشاب ذلك هو الوحيد الذى تمكن من خداع صدام، ففى الفترة نفسها التى كنت أعالج فيها صدام من مسامير الرجل ظهرت صيدلانية وادعت اختراع مرهم لعلاج الغرغرينا وتريد تجريبه على مرضانا.

كثير من مرضانا كانوا يعانون من الغرغرينا. ومرض السكر هو من أكثر الأمراض انتشارًا فى الشرق الأوسط ومن أهم آثار هذا المرض حدوث تصلب فى الأوعية وخصوصًا فى الساقين، وبسبب ضعف الدورة الدموية تحدث فى هذه الأماكن بعض الحروق، حيث يكون الحل الوحيد هو البتر لتجنب انتشار موت الأنسجة الذى يهدد حياة المريض. ولم ترغب الصيدلانية أن تخبرنا بتركيبة المرهم الذى اخترعته، وكانت تدعى قدرتها على منع انتشار الحالة وتحسين سريان الدورة الدموية بشكل هائل وبالتالى لن نضطر بعدها للبتر ويتم بذلك إنقاذ سيقان كثيرة.

وتردد الحديث وقتها عن أن هذا الكشف هو إعجاز عالمى يستحق جائزة نوبل.

قامت المخترعة بالكتابة لصدام وحكت له عن كشفها العلمى ورد عليها الرئيس



متلطفًا: «حسب معلوماتى فإن الكثير من الأفكار الجديدة المتطورة لا تجد لها فرصة بسبب البيروقراطية، وأنا أعتقد أنهم سيحاولون وضع العراقيل فى طريقك».

وحضرت إلى مستشفانا ومعها خطاب يؤكد لنا فيه عبد حمود رغبة الرئيس فى أن نساعدها بأقصى جهدنا.

فأجبتها إلى طلبها قائلاً: «لا مانع من أن تجربى مرهمك على مرضانا بشرط أن توقعى تعهداً ينص على تحملك وحدك المسئولية كاملة عن حالاتهم، فنحن لا نعرف أى شيء عن المكونات الكيميائية لهذا المرهم أو الأعراض الجانبية لاستخدامه. ولكن إذا قبلت تحمل المسئولية بشكل شخصى فلا مانع لدى».

فقالت لى إنها ستحضر فى اليوم التالى ولكنها لم تفعل.

ثم أتت بعد ذلك إلى رياض محمد صالح مدير عام مركز صدام لجراحة القلب. كان الدكتور صالح من أهم أخصائيى القلب فى العراق وكان لفترة طويلة فى الفريق الطبى الخاص بالرئيس. وفى يوم فقد وظيفته مما أثار عجبنا فى البداية، حتى عرفنا السبب بعدها.

قام الدكتور صالح فى إحدى المرات بفحص صدام واكتشف أن ضغط دمه كان مرتفعا جداً ولذا فقد نصحه الطبيب بالإقلال من أكل الدهون والملح والإقلال من التدخين وقبل الفحص التالى قام أحد الحراس الشخصيين لصدام بإبلاغ الطبيب بأن صدام لم يقلل من التدخين بل على العكس أصبح يدخن أكثر من ذى قبل ولم يتبع نصيحة الطبيب.

وعندما قاس الطبيب ضغط دم صدام قال له: «يا سيادة الرئيس، يجب أن أذكرك أن التدخين يمثل ضرراً كبيراً وخطراً على ضغط الدم، لذا فيجب عليك الإقلاع عن التدخين».

واستشاط صدام غضبًا وجنونًا.

«أغلق فمك. لقد قلت لى ذلك من قبل. إنك تكرر نفسك. إذا كنت أدخن أم لا فهذا أمر يخصنى أنا فقط، وأنت ليس لك أى لزوم هنا».



وعلى الرغم من أن مدير المستشفى قد احتفظ بعد هذه الواقعة بوظيفته إلا أن بقاءه فى هذه الوظيفة أصبح مهدداً بعد ظهور تلك الصيدلانية.

فقد كان من بين ما طلبته أن تتولى هى علاج الفريق الركن هشام صباح الفخرى وهو أحد القواد الذين جرحوا أثناء الحرب ضد إيران.

وكان اللواء مصابًا بالغرغرينا فى رجليه نتيجة للدرجة المتقدمة من مرض السكر التى كان يعانى منها. وحكى لى الدكتور صالح شاكيًا: «لم أجرؤ على الرفض فقد حضرت بصحبة أحد حراس صدام، لقد أخبرته بأن الأطباء الذين قابلتهم هنا لم يبدوا أى ترحاب أو تعاون، وهذا ما لم يقبله صدام».

وبعد يوم من استخدامها للمرهم السحرى على باطن ساق الفريق، قام الدكتور صالح بأخذ عينة من المرهم فى السر ليفحص تركيبها البكتيرى.

وأثبت التحليل المعملى أن المرهم يحتوى كمية كبيرة من البكتريا على مختلف أنواعها. وعندما واجه الصيدلانية بهذه النتيجة ثارت وصرخت فيه: «كيف تجرؤ على أخذ عينة من المرهم وتفحصها فى المعمل دون علمى!!» ثم خرجت من الحجرة غاضبة».

وعلى الفور ذهبت إلى القصر الجمهورى لتشتكى للرئيس، الذى كان يسمع لها دائمًا. وكان ما حدث بالنسبة له دليلاً قاطعًا على أنهم يضعون العراقيل فى طريقها وأن الأطباء يرفضون التعاون معهم.

وبالفعل تلقى بعدها الدكتور صالح قراراً بعزله عن منصبه كمدير لمركز صدام لأمراض القلب. وبعد ذلك تم تكليف مستشفى اليرموك بالتعاون مع المخترعة. ثم دعاها صدام إلى مكتبه بصحبه وزير الصحة وأربعة من المتخصصين فى الأمراض التى تفضى إلى موت الخلايا وقال الرئيس بأنه قد أعطى أوامره بتخصيص معمل وفريق عمل لمساعدة الطبيبة على إتمام أبحاثها حول المرهم الجديد فى مستشفى اليرموك. ولكن ساقى الفريق الفخرى لم يمكن إنقاذهما وتم بترهما.

وفى يوم العاشر من شهر فبراير تم اصطحابى من مستشفى ابن سينا إلى بيت صغير بالقرب من الجسر المعلق لكى أفحص قدم الرئيس اليمنى فى تمام الساعة الخامسة



مساءً، ولكنى اضطررت لانتظاره فترة، لذلك فقد اعتذر لى صدام عند قدومه على تأخره علىّ.

كان لديه محادثة مهمة مع مجموعة من الضباط واستمرت المحادثة أطول مما توقع. كان الضباط يعملون على تطوير نظام دفاع جوى لاستخدامه فى منطقة الحظر الجوى فى شمال وجنوب العراق.

«إنهم يفهمون عملهم جيداً ويحققون تقدماً، ولكنهم بحاجة للمال. إلا أننا لا نملك الكثير منه بسبب العقوبات». «كما يقول ماركس: يختفى المال دائماً، عند المواقف الحرجة».

بدأ حظر استخدام المجال الجوى أولاً فى الشمال، ربما لإعطاء الأكراد الذين يعيشون فى الأماكن الشمالية التى هربوا إليها بعد أحداث الشغب عام ١٩٩١ إحساسا إضافيا بالأمان.

أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا بغداد بحظر تحليق أى طائرات أو مروحيات عراقية شمال خط العرض ٣٦، حيث المناطق المسماة بالمناطق الآمنة، وبعد عام من الحظر قررت القوى العظمى الثلاث فرض حظر مماثل فى الجنوب، مبدئياً حتى خط عرض ٣٢ جنوباً.

كان العرب المقيمون فى مناطق المستنقعات آنذاك يشنون حرب عصابات لا جدوى منها ضد جنود الحكومة، ولكن تم تجفيف جميع المستنقعات من خلال مشروع صدام لردم المستنقعات.

وعلى حد علمى لم يكن سبب الحظر الجوى هو حماية ذلك الشعب الصغير أو حماية الهاربين من الأكراد وإنما فقط لفرض الرقابة على العراق.

وغطت منطقتنا الحظر معظم أراضى العراق، وخصوصاً بعد توسيع المنطقة الجنوبية حتى خط عرض ٣٣.

كانت الطائرات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية حتى عام ١٩٩٨ تذكر دائماً بأن صدام لم يعد هو صاحب الأمر فى البلاد. وتجلت هذه الحرب النفسية من خلال خمسين إلى مائة طلعة جوية يومياً.



وفى حالة حدوث أى محاولة لضرب إحدى طائرات الحلفاء كان ردهم يأتى دونما تأخير بأن ينسفوا المواقع وقواعد الصواريخ العراقية.

وخلال تلك المهمات الجوية فى مناطق الحظر قتل المئات من العراقيين وجرح الآلاف.

ولم تجد محاولات الدفاع عن المجال الجوى العراقى، فلم يحدث أن أصيبت إحدى الطائرات الأمريكية أو الإنجليزية أو الفرنسية خلال طلعاتهم الاستكشافية، ثم استكمل صدام حديثه قائلاً: وحيث إننا لا نملك الأموال الكافية لتطوير نظام دفاع جوى، فلن يبق لنا فى الوقت الحالى إلا الوطنية . . . فأجبته: «إن الوطنية مفهوم غير واضح المعالم».

«ماذا تعنى بالضبط . . .»؟

«إن الوطنية ترتبط عادة بتعبير الإنسان عنها وليس بما يؤديه الإنسان من عمل فى سبيل وطنه، فالبعض يظن أن خروجه فى مظاهرة فى الطريق العام هو أكثر وطنية من قضائه ساعات طويلة فى معمله وهو يقوم بالأبحاث العلمية».

«أنا أثق فى أن العراقيين يعرفون جيداً ما يفعلون، عندما يخرجون فى مظاهرة. فكما يحكى لنا تاريخ حضارة العراق، أن هذا الشعب تزداد وطنيته عندما يهدده عدو خارجى».

ثم سكت الرئيس برهة قال بعدها: «ولكن المشكلة أنه إذا قلت حدة التهديد الخارجى مرة أخرى فإن شعورهم الوطنى يتراجع ويسقط الناس فى بئر السلبية والإهمال».

كان برنامج النفط مقابل الغذاء الذى وفر الطعام لملايين الناس بمثابة منجم ذهب لكل من أقارب صدام وزعماء الحزب والوزراء، الذين استغلوا الفرصة ليزدادوا ثراء، فقد كانت الصفقات عملاقة، فمن ١٩٩٧ حتى انهيار الحكومة العراقية فى أبريل ٢٠٠٣ تم شراء سلع غذائية وأدوية بأكثر من عشرين مليار يورو. وبالتالى فإن أى مبلغ عمولة حتى لو كان بنسبة مئوية بسيطة فإنه يجلب لصاحبه مبالغ طائلة.

وكان يجب اعتماد الفواتير والمشتريات والموافقة عليها من لجنة العقوبات المنبثقة عن

مجلس الأمن والتى كانت تراقب الحساب المجمد الذى تحولت إليه المليارات من عائد بيع النفط العراقى. وكان دور اللجنة الأساسى هو منع صدام من شراء أية أسلحة جديدة أو أى معدات أو تجهيزات قد تساعده فى إنتاج أسلحة الدمار الشامل. ولكن لم يتسن للجنة مراقبة هذا الكم الكبير من الصفقات غير المشبوهة أو العقود التى يتم توقيعها وما تضمنته من عمولات. وكان من الواضح أن خداع المراقبين فى نيويورك لم يكن بالأمر العسير. فالعملية كانت تتلخص ببساطة شديدة فى اختيار الموردين الذين هم على استعداد لدفع عمولات بشكل غير شرعى لعصابة الذئاب من الفسدة فى السر وبطرق خفية على السعر النهائى قبل عرض العقود على لجنة العقوبات للموافقة. وكلما ارتفع السعر ارتفعت العمولات.

ولم يكن القطاع الصحى استثناءً، ففى الوقت الذى كنا نصرخ فيه طلبًا لبعض الأدوية المهمة لإنقاذ حياة مرضانا وطلبًا للمشارط والأربطة والضمادات الحيوية وأدوية التخدير، كانت تصل إلينا أجهزة طبية حديثة وباهظة الثمن. وفجأة وصل إلى جميع مستشفيات العراق أجهزة طبية عالية التقنية وأجهزة الرنين المغناطيسى، بالرغم من أن معظم الأطباء لم يكونوا على دراية بكيفية تشغيل تلك الأجهزة. وكنا بذلك شهود عيان على لون من أخبث وأحقر وأقذر ألوان الفساد.

كان المرضى يموتون وهم على طاولات العمليات لأن متخصصى التخدير لم تتوفر لهم الأدوية الأساسية لإنقاذ حياة هؤلاء المرضى من الأدوية التى تستخدم أثناء أو بعد العمليات الجراحية. وكانوا يضطرون لاستخدام عقاقير لها آثار جانبية مميتة.

لابد أن وزير الصحة مدحت مبارك كان على دراية بما يجرى ولكن لم يكن بمقدور أحد تغيير مجرى الأحداث.

حتى زوجة صدام ساجدة وأختها إلهام، زوجة وطبان أخى صدام غير الشقيق، كلتاهما لم تمتنعا عن المشاركة فى الفساد. فالجميع كان يريد نصيبه من الكعكة.

فى أحد الأيام اتصلت بى إلهام وطلبت منى أن أذهب إليها فى البيت، لأنها تريد محادثتى فى موضوع له أهمية كبيرة بالنسبة للأمة.

«ساجدة وأنا نرغب فى تقديم خدمة لبلدنا فى هذا الوقت العصيب». هكذا بدأت حديثها بعد أن قدم لنا الخدم الشاى.

«أعرف أنه سيتم شراء عدد كبير من أجهزة الفحص بالرنين المغناطيسى وغيرها من الأجهزة، وقد اتصلت بنا شركة أمريكية مقرها بيروت بهذا الخصوص، فالشركة على استعداد لتوريد الأجهزة لنا وبسعر أفضل مما قدمه الموردون لوزارة الصحة من شركة سيمنز».

ثم أضافت قائلة: «والأجهزة المعروضة علينا أفضل وأكثر فعالية».

وعلمت أن بعض ممثلى الشركة سيحضرون مساء اليوم التالى إلى عيادتى الخاصة لشرح الموضوع لى بشكل أكثر تفصيلاً.

وأكدت لى أخت زوجة الرئيس: «الموضوع مستعجل جداً وإنه من العار أن تفلت هذه الفرصة من أيدينا».

وطلبت منى أن أكتب خطاباً بصفتى محل ثقة صدام أشرح له فيه أن أجهزة الرنين المغناطيسى المعروضة من تلك الشركة هى أرخص وأفضل من غيرها ولذلك فيجب شراؤها لجميع مستشفيات العراق.

فقلت لإلهام أن هذا ليس تخصصى وإنها يجب أن تسأل مختص أشعة فقالت لى: لا، فصدام يثق فيك أنت، لذلك فإن ساجدة تريدك أنت أن تكتب خطاب التوصية بعد أن قرأت كتيبات الدعاية الخاصة بالشركة وقابلت مندوبيها.

وكما توقعت فقد زارنى مندوبو الشركة فى عيادتى وأخبرونى بأن أجهزتهم هى الأفضل فى السوق العالمية كلها. وأخبرونى أننى سأستفيد شخصيًا من وراء هذا الموضوع. وكان أحد المندوبين لبنانيا والآخر عراقيا.

وبعد خروجهما من عندى اتصلت بإلهام وقلت لها:

«يؤسفنى أن أخبرك أننى لن أكتب الخطاب للرئيس كما طلبتما منى» فقالت لى: «حسنًا».

ثم عاودت الاتصال بى بعدها مباشرة وأخبرتنى أنها قد تحدثت مع أختها وتريد منى الحضور إلى مستشفى ابن سينا.

وعندما ذهبت إلى المستشفى كان بانتظارى الحارس الشخصى لساجدة ومعه خطاب



فيه أننى أقترح على صدام أن وزارة الصحة يجب أن تشترى أجهزة الرنين المغناطيسى من الشركة المعنية لأنها تقدم أرخص وأفضل عرض. وكان الخطاب جاهزا ولا ينقصه إلا توقيعى.

فاتصلت بإلهام مرة أخرى وقلت لها: «لقد قرأت الخطاب ولكن كيف لى أن أوقع مثل هذا الخطاب وأنا لا أعرف الكثير عن هذا التخصص ولذلك فأنا لا أنوى اقتراح أى شىء لا على الرئيس ولا على غيره».

فأجابتنى متعجبة: «إنك تتصرف بشكل غريب، إن ساجدة تطلب منك هذا الصنيع. ساجدة، زوجة الرئيس تطلب منك شخصيًا المساعدة. إنها تعرف أن صدام يثق فى أنك لن تخدعه».

فقلت لها: «يؤسفنى وأرجو منك المعذرة فأنا لن أوقع على شىء». فغضبت إلهام وأغلقت الخط بعنف.

ثم تلقيت منها اتصالاً هاتفيًا بعد ثلاثة أيام، قالت لى فيه: «لقد وجدنا طبيب أشعة وقد وقع بالفعل على الخطاب والآن يمكن أن توقع أنت أيضا على الخطاب».

«ليس عندى أية نية لذلك حتى الآن».

وجن جنونها هذه المرة أيضا ولكنها لم تعاود الاتصال بى بعد ذلك.

ومضت أيام بعد آخر محاولة فاشلة للأختين لإقناعى بالتوقيع، وإذا بأهم سكرتير لدى صدام عبد حمود يحضر إلى مستشفى ابن سينا ويدخل دون مقدمات فى الموضوع: «لقد كان تصرفًا حكيمًا منك أنك لم توقع الخطاب الخاص بأجهزة الرنين المغناطيسى».

وسألته كيف عرف بالأمر..؟ وأجابنى: «هذا عملى».

وفى يوم السادس عشر من فبراير أى بعد مضى حوالى أسبوعين من إزالتى «العين السمكة» من قدم صدام كان الجرح شبه ملتئم كلية، لقد جاءوا بى إلى بيت صغير جديد على الأرض بقصر الرضوانية بالقرب من مطار بغداد الدولى، وكان الجو غير مريح فى الهواء الطلق بسبب الريح الباردة.



كان دكتور طاهر التكريتى المختص بالأمراض الباطنية فى فريق صدام الطبى قد قام بقياس ضغط دمه الذى أصبح طبيعيًا الآن وكعادته كان صدام يدخن واحدا من سيجار الهافانا الكبير . وبدا عليه الإرهاق والتعب . وقال لىّ صدام بعد أن انصرف الدكتور التكريتى : «ما رأيك يا دكتور علاء فى العقوبات التى فرضتها علينا الأمم المتحدة . إلى أى مدى يتضرر منها الناس العاديون»؟

«لا شك فى أن الحصار الاقتصادى الذى فرضته الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا على العراق قد أثّر علينا جداً . إن نسبة من خمسة عشر حتى عشرين بالمائة من المشاكل الاقتصادية التى نعانى منها السبب فيها تلك العقوبات . أما السبب الرئيسى فى نظرى فهو السياسة الاقتصادية المزرية التى تسبب فيها الكثير من مسئولى الدولة» .

بينما كنت أتحدث مع صدام كان النقيب سرمد الصفار واقفًا بأحد أركان الحجرة ، وكان أكثر الحراس الذين يثق فيهم صدام .

وعندما هممت باستكمال حديثى أشار له صدام أن يغادر الحجرة ، ولاحظت أن صدام لم يعجبه ما قلته له .

وسألنى : «ما الذى تعنيه بالضبط»؟

فأجبته : «هذا هو الانطباع الذى اكتسبته من خلال احتكاكى بالناس وبالمرضى وهذا يتوافق مع ملاحظاتى الشخصية» .

فسألنى : «هل تستطيع إثبات ذلك» ؟

«فشرحت له إنه إذا سعى أى مواطن عراقى مثلاً لتأسيس شركة وطلب الموافقات اللازمة فسيكون بانتظاره جحيم حقيقى من البيروقراطية» .

واستطردت فى كلامى قائلاً : «على المرء أن يتوقع الأسوأ الآن . إن آجلاً أو عاجلاً سيكون لزامًا دفع رشاوى صغيرة أو كبيرة من أجل الحصول على موافقة . إنه الجحيم بحق» .

جلس صدام برهة صامتًا ثم قال : «أنا أعانى مشكلة صعبة . أنا أبذل مجهودا كبيرا لأجد الأشخاص المناسبين للمناصب العليا . وأنا أعرف أن وزرائى ليسوا بالمجتهدين



ولا هم شديدى الذكاء، وكذلك زعماء حزب البعث أيضا. عندما أناقش معهم قضايا معقدة يستمر الأمر أحيانا فترات طويلة جداً حتى يفهموا ما أتكلم عنه أساساً».

وأحيانا أتصفح مثل هذه المناقشات وأرى على الفور أنهم لم يفهموا أى شيء.

وسكت الرئيس ثم أشعل سيجاراً جديداً وقال بعدها: «لقد جربت أن أعين بعض أعضاء الحزب من الذين لم أجربهم من قبل وعينتهم نوابا للوزراء ومدراء فى الوزارات ليتدربوا على العمل ولأوقف بهم فيض الفساد. وتوهمت أن أهل الثقة فى الحزب أفضل من العاملين فى الحكومة ولكن ثبت لى بعد فترة لا تجاوز الشهر أن الأوضاع قد ازدادت سوءاً».

وعندما خرجت من عنده رثيت لحال الديكتاتور بالرغم من أنه لم يكن هناك داع لذلك.

الفصل الرابع عشر

حياتى كفنان

قال الرئيس: «لا تخبر أحدا من البدو بمحل سكنك». كلنا فى العراق يفهم ما يعنيه هذا المثل الشعبى. فإذا كنت ودوداً ومتعاونًا بدرجة كبيرة، لن يضع الناس لمطالبهم منك حدوداً.

رغم أننى لم يكن لدىَّ عمل فى ذلك الصباح من يوم الجمعة فى نهاية عام ١٩٩٩، إلا أنه قد تم استدعائى مرة أخرى إلى بيت صغير ملحق بقصر الرضوانية.

وقال لى الرئيس عند وصولى: «يؤسفنى أن أزعجك مرة أخرى بسبب قدمى، أ. جوك أن تغير الضمادة».

وكان الرئيس فى حالة مزاجية جيدة، والجو رائع ودافئ بفعل الشمس الشتوية. وكان الجرح فى قدم صدام قد التأم. لذلك فلم يكن هناك داع لوضع ضمادة جديدة، ولكننى قلت له:

«ولكن علىّ أن أنبهك مرة أخرى إلى عدم ارتداء الأحذية الضيقة».

ثم سألنى صدام: «هل ترغب فى تناول الطعام مع حراسى ومعى؟ فدورى اليوم فى طهى الطعام».

وكانوا قد نصبوا مطبخًا أمام البيت الصغير، ووقف صدام يطهو الطعام فيما لا يقل عن عشر أوان للطبخ، ومن وقت لآخر كان صدام يقوم بتحريك الطعام وإضافة الملح والبهارات إلى لحم الحملان والصوص والأرز فوق الموقد.

وبعد أن جلسنا إلى مائدة طعام كبيرة نُصبت فى الشمس قدم لى صدام قطعة كبيرة من اللحم المحمر.

وعندما أراد أن يعطينى طعامًا آخر من أحد الأوانى قلت له معترضًا: «هذا كثير جدًا، فأنا أعانى من ارتفاع نسبة الكلسترول لذلك أريد أن أقلل من أكل اللحم» فقال لى صدام: «هذا لحم حملان، لن يضرك إطلاقًا».

ثم قلت له: «لكى أكون صادقًا معك، أنا لا أهتم كثيرًا بتحذيرات الأطباء. إن الاعتدال فى كل شىء هو الأفضل بالطبع، ولكن فيما يتعلق بالكلسترول فإن هناك آراء مختلفة جدًا بين الأطباء».

ثم ابتسمت، فسألنى صدام عن سبب ابتسامتى. فحكيت له كيف كُنت قد استمعت إلى حديث اثنين من متخصصى القلب فى مستشفى ابن سينا منذ عدة أيام، وكانا يتحدثان عن الذبحات الصدرية وضيق الشرايين، وطبقًا لما قالاه فقد كُنت بسبب نسبة الكلسترول المرتفعة لدىَّ أقرب للموت منه للحياة.

وودت أن أشاركهما الحديث وأن أقول لهما: «إذا غضضنا البصر عن الحوادث كمسبب للوفاة فإنه فى المعتاد توجد ثلاثة أسباب رئيسية للوفاة وهى:

انسداد الشرايين والسكتة الدماغية ومرض السرطان. وحالات السكتة التى تتبعها إصابة بالشلل تكون وبالاً على المريض وعلى أهله الذين يتولون رعايته، وكذلك فإن السرطان وتبعاته مرض متعب جدًا. أما توقف القلب الذى يؤدى للوفاة بسرعة فهو أفضل مسببات الموت، لذا فأنا لا أفهم سبب قلقكما».

فسألنى صدام: «وبماذا أجاباك»؟ فقلت له: «لم يقولا أى شىء!»، فضحك وقال: السبب هو أنك تفكر بطريقة مختلفة.

ظهر فى شارب أحد حراس الرئيس بعض الشيب، فقال صدام مراعيًا: إن هذه علامة واضحة على كبر السن. وسألنى: لم يظهر المشيب على شعر اللحية أصلاً؟

فشرحت له أن هذا يتعلق بتوزيع الشعر فى أماكن متفرقة من الرأس، وأن المشيب يظهر أولا فى شعر الوجه قبل شعر الرأس. ثم أضفت أن الحل فى نظرى هو: «إما أن يتم حلق اللحية والشارب أو يتغاضى عن تلك الشعيرات الرمادية».



فنظر إلىّ صدام وفهمت أن اقتراحى هذا لم يعجبه. ربما كان من الأفضل أن أغلق فمى، وعلمت بعد ذلك أن صدام يصبغ شعر شاربه، علما أن صدام لا يصبغ شعر رأسه وحاجبيه فهو أسود بالطبيعة.

وعندما هممت بالرحيل طلب منى أن أبقى وسألنى ما إذا كنُت قد شيدت تمثالاً أو نصبًا تذكاريا فى بغداد من قبل. وأجبته بالنفى. فاقترح علىّ أن أختار من أعمالى النحتية ما شئت وأعيد بناءه ولكن بحجم كبير ولى أن أختار المكان الذى سيوضع فيه. وقال لى: «أخبرنى عندما تتخذ قرارك».

ولم أستغرق وقتًا طويلاً فى التفكير، ففى عام ١٩٩٢ كنت قد أقمت معرضًا فى بغداد تحت عنوان «أفكار من تراب». وعرضت فيه أحد أعمالى التجريدية التعبيرية وهو عبارة عن تمثال لرجل وامرأة يتعانقان، وكنت قد أسميته «اللقاء»، وبعد مرور أيام من تناول طعام الغداء مع صدام فى الرضوانية حملت إليه هذا التمثال، وظهر على صدام عدم إعجابه به، وقال إنه يفضل الفنون المجسمة، ولكنه لم يقل شيئًا ولم يسأل عما يعرضه التمثال.

ثم قال لى: «إذن هذا هو اختيارك، فلتبدأ بالعمل». وسألته: «ألديك أى اقتراحات أو تعديلات»؟

فأجابنى: «لا، ليس لأحد أن يدخل تعديلات على أعمالك الفنية». ثم رافقنى النقيب سرمد صفار، أهم حراس صدام، إلى مكتب المهندس المعمارى مازن الألوسى الذى يتعامل معه الرئيس ويشرف له على أعمال البناء الكثيرة والكبيرة فى كافة أرجاء البلاد.

واتفقنا على إقامة التمثال بارتفاع ٢١ مترا فى التقاطع الكبير بشارع المنصور، حيث ينتهى الطريق السريع الذى يوصل عبر الصحراء من الأردن حتى بغداد. وكان من المفترض إحضار الحجر الأبيض اللازم للتمثال من محجر بالموصل. ومن نفس هذه الأحجار شيد الآشوريون آثارهم وتماثيلهم فى منطقة الرافدين منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة.

وقال لى الألوسى: «لا توجد أية مشكلة. ولكن أى اسم سنطلق على التمثال؟ لأننا يجب أن نتباحث هذا الأمر كالمعتاد مع عبد حمود سكرتير الرئيس».

فأجبته : «(اللقاء) فإنه يمثل نشأة الحياة والاتحاد بين الرجل والمرأة».

وفى العام ذاته أنجزت أعمالا كثيرة نحتية ولوحات زيتية . وكانت رغبة وزارة الثقافة فى عرض عشرين لوحة من لوحاتى وعشرين قطعة من منحوتاتى فى باريس ونيويورك ولندن وفيينا .

وطلبت مقابلة الدكتور همام عبد الخالق وزير الثقافة والإعلام وهو من أكثر الرجال الجديرين بالثقة فى الحكومة . وكنت أود معرفة من سيتم تكليفه بإعداد الكتالوج المصاحب للمعرض، فقد كنت أخشى أن يساء استغلال فنى لخدمة أغراض سياسة .

وأكد لى الدكتور همام عبد الخالق قائلاً : «يمكنك أن تقوم أنت إذا شئت بإعداد الكتالوج وباختيار من سيتحدثون عنك دون تدخل من الوزارة بذلك» . وقد تم ذلك فعلا .

وفى هذه المرة أيضا لن يتضمن الكتالوج صورة لصدام ولا قصائد مديح لما قدمه من تضحيات من أجل الحياة الثقافية فى العراق . وبذلك كنت جاهزاً للسفر وكانت أولى محطاتى هى معرض أرسيما فى سان جرمان فى باريس ، ثم معرض بولتن فى ماى فير بلندن وكان موضوع المعرض الأساسى هو معاناة الإنسان بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل .

ثلاثة أيام بعد الافتتاح تلقيت اتصالا هاتفيا من شاب ، حكى لى عن مدى إعجابه بفنى . وقد أصابتنى الدهشة ، لأن التليفون المحمول الذى كان معى كنت قد استعرته من صديق لى وهو الوحيد الذى يعلم أنه لدى .

وأخبرنى ذلك الشاب برغبته فى التعرف علىّ ، ولم أمانع فى ذلك ، ولكنى كنت وقتها فى طريقى لزيارة ابنى فى شمال إنجلترا ، على أن أعود إلى لندن بعد خمسة أيام . وأخبرته أن يحدثنى يومها فى تمام السادسة مساء .

وبالفعل اتصل بى يوم عودتى وفى الساعة المحددة ودعانى للإفطار فى اليوم التالى فى فندق كلوتشستر فى لندن وقابلته هناك ، وهو شاب رشيق ، كان يرتدى بذلة سوداء أنيقة . وبمجرد أن جلسنا فى غرفة الإفطار بدأ فى مدح معرضى فى بولتن وأبدى إعجابه «بأسلوبى الخاص» .

ثم سألنى قائلاً: «إن سبب حضورك إلى لندن بالتأكيد ليس المعرض فحسب»؟

فأجبته: لا، فعلى نفس قدر أهمية المعرض بالنسبة لى، أردت أن أزور المستشفيات والعيادات، لأطلع على أهم الإنجازات الحديثة فى مجال جراحة التجميل. كما أخبرته بأننى أريد شراء أجهزة طبية ومعدات لمستشفانا فى بغداد. وكانت إجابتى موافقة للحقيقة.

ثم سألته: «اسمح لى بالسؤال، كم تبلغ من العمر»؟ وظننت أنه لابد وأن يكون فى عمر ابنى، الذى هو أيضا حاضر. فأجابنى: «ثلاثون».

ثم قلت له: «هل تعرف أنه فى الحقيقة لا يؤثر كثيراً أننى أكبرك فى العمر بالضعف تقريبًا. فالسن لا يأتى بالضرورة بالحكمة ولكن كلما تقدم بنا العمر فإننا نجمع خبرات أكثر. ولحسن حظى أو ربما لسوء حظى فقد عشت فى بلد أجمع فيه منذ ١٩٥٨ خبرات عادة ما تكون مرة وأليمة. إن معظمنا هناك، حتى ولو لم يحصلوا على قدر من التعليم، لديهم القدرة على فهم واستبصار نوايا من يتعاملون معهم».

وأردت من كلامى ذلك أن أشير إليه بأن يسألنى بكل صراحة ودون مراوغة، إذا كان ينوى استخراج معلومات منى.

ونظراً لخلفيتى العراقية، فقد كان هناك أشياء لا أحب أن تحدث لىّ مرة أخرى.

وقلت له: «لقد اتصلت بى على الهاتف المحمول وتغاضيت عن سؤالك عن كيفية حصولك على رقمى، فقد كان واضحًا لىّ منذ البداية أنك من المخابرات البريطانية. لكن هذا لا يهم، لا يهمنى تمامًا من تكون طالما لا تستخف ولا تستهين بذكائى. كان واضحا لى منذ مكالمتك الأولى أنه لا علاقة لك بالفن على الإطلاق.

وبدا على الشاب الحرج، فقلت له: «ابدأ.. فأنا مستعد للإجابة». حاول مضيفى الشاب أن يستجمع تركيزه مرة أخرى وكرر على إطرائه وثنائه على لوحاتى وتماثيلى.

ثم ألقى علىّ السؤال الوحيد الذى خطر بباله: «ما هى الظروف التى يعيش تحتها الفنانون فى ظل حكومة صدام»؟

نظرت إلى عينيه وقلت له: «أريد أن أعطيك نصيحة وأود أن تنقلها لمن كلفوك بهذه

المهمة. إن صدام سيختفى إن عاجلاً أو أجلا، لأن معظم الأعضاء وأهل الثقة فى حزب البعث قد ضاقوا ذرعًا بفساد وعجز الحكومة. ولكن الشعب العراقى سيبقى وكذلك فإن علاقتنا الأصيلة ببريطانيا ستبقى هى أيضا. لذلك فعليك إبلاغ رؤسائك أن عليهم المحافظة على تلك العلاقة وتنمية أواصرها إذا كانوا فعلاً يريدون أن يكسبوا قلوبنا، وعليهم أن يتصرفوا حيال تلك العقبات التى تضعها سفارتهم أمام العراقيين عند محاولتهم الحصول على تأشيرة دخول لبريطانيا. إن بعض المرضى الذين كنت أعالجهم ماتوا فى عمان وهم فى انتظار الحصول على تأشيرة دخول بلا جدوى. وكان من الممكن إنقاذ حياتهم إذا سمح لهم بزيارة أحد المستشفيات البريطانية».

عند الوداع شكرنى مضيفى على هذه النصيحة وأعطانى أحد كروته الشخصية.

تم عرض لوحاتى وتماثيلى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مبنى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك. وقد حضر لفيف من السفراء افتتاح المعرض وألقيت كلمة قصيرة تحدثت فيها عن خبراتى كطبيب وكفنان فى العراق، وانتهزت الفرصة وتكلمت عن المعاملة السيئة التى تلقيتها من سلطات السفر والهجرة فى مطار جون كنيدى.

قلت لهم فى كلمتى: «لقد كنت دائمًا معجبًا بالولايات المتحدة الأمريكية لما فيها من إنجازات علمية وحضارية كبيرة. ولكن عند وصولى إلى هنا تم أخذ بصمات أصابعى وتصويرى من ثلاث زوايا كما لو كنت أحد المجرمين. وما حدث لا يتفق إطلاقًا مع انطباعى عن هذا البلد كاتحاد قوى ومتحضر. إن ما حدث يذكرنى بأنظمة وحكومات مختلفة تمامًا. ولكنى لم أذكر فى كلمتى أية أسماء. وبعدها جاءنى أحد ممثلى الوفد الأمريكى فى هيئة الأمم المتحدة وأبدى أسفه على ما حدث عند استقبالى فى المطار وقال لى: أود أن أدعوك للبقاء فى الولايات المتحدة الأمريكية. بشكل مستمر. لكننى رفضت عرضه بأدب.

وفى الختام أجرت معى شبكة CNN حوارًا، حكيت لهم فيه عن أشياء كان أهمها معاناة الشعب العراقى وبخاصة أثناء الحرب مع إيران.

وقد علق المذيع الذى أجرى معى الحوار عند عرضه بالتلفاز قائلاً: «إن أعمال علاء بشير ترينا وحشية حكم صدام».



ولا أعرف حتى الآن من أين أتى بهذه المعلومة، إنه بمثابة لغز بالنسبة لى. فأنا لم أقل ذلك وما قاله لا ينافى الحقيقة.

لم يتنبه أحد فى بغداد من المكلفين بمراقبة مثل هذه المناسبات لما حدث، ولم يكن هناك أى رد فعل على ذلك اللقاء الصحفى بعد عودتى إلى العراق.

وقد حدثتنى سيدة لطيفة كانت تمثل جامعة بنسلفانيا أثناء تواجدى بنيويورك وأبدت رغبتها فى عرض أعمالى الفنية فى معرض استر كلاين بفلادلفيا. ولكنى لم أسمع عنها أى شىء لاحقًا. واكتشفت بعدها أن الجامعة قد أرسلت لىّ دعوة رسمية لكنها بقيت لأكثر من عام لدى سفير العراق فى الأمم المتحدة سيد الموسوى. كان المعرض قد حدد شهر فبراير من عام ٢٠٠٠ كموعد لعرض أعمالى الفنية ولكن السفير لم يبلغنى بشىء.

وبعد نيويورك كان الدور على موسكو وفيينا لعرض أعمالى هناك وفى العاصمة الروسية عرضت أعمالى فى الجاليرى الشهير مانيتس الكائن فى الميدان الذى يحمل نفس الاسم بالقرب من الكرملين. وفى فيينا عرضت الأعمال فى قصر بالفى. وقد قدم لىّ مدير هذا المعرض الشهير كل المساعدة أثناء إقامتى فى عاصمة النمسا وهو رجل لطيف وشديد الأدب.

كما بذل أيضا صديقى ناجى صبرى الحديثى، سفير العراق هناك، أقصى جهده من أجل إنجاح المعرض. وقد حضر الافتتاح معظم الدبلوماسيين وعدد من المشاهير فى فيينا.

وقد حكى لى مدير المعرض أنه يهودى ينحدر من جنوب أفريقيا. وبعد عدة شهور أرسل بخطاب لطيف للسفير العراقى الذى قام بدوره بإرساله لوزارة الخارجية. فقد ضمنّه اقتراحا مدهشا، كان علىّ أن أفكر فيه مليا.

هناك مؤسسة شهيرة فى جنوب أفريقيا، لم يرد ذكر اسمها، ترغب فى تبنى فنى والعمل على عرض لوحاتى وتماثيلى ليس فقط فى أوروبا ولكن فى جنوب أفريقيا والشرق الأقصى. كما أبدت المؤسسة، ومقرها الرئيسى فى هونج كونج، استعدادها لإهداء المستشفى الذى أعمل فيه غرفة عمليات مجهزة بأحدث الأجهزة.



وكتب لى فى خطابه: «إن المستقبل المشرق فى انتظارك والأبواب كلها مفتوحة، سيعرف العالم كله اسمك».

ولم يسلمنى ناجى صبرى إلا صورة من الخطاب لأن الأصل تم إرساله لوزارة الخارجية فى بغداد، وبعد فترة وجيزة أرسل إلىّ وزير الخارجية محمد سعيد الصحاف.

وسألنى الوزير: «هل تعرف شيئًا عن هذه المؤسسة فى جنوب أفريقيا»؟ فأجبته أننى لا أعرف عنها أى شىء.

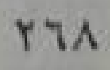
ثم قام الصحاف بإرسال خطاب مدير المتحف إلى رئيس ديوان الرئاسة، أحمد حسين خضير السمراتى، الذى اتصل بى بعدها بثلاثة أيام وقال لى: «إذا كنت تضمن هذه المؤسسة، فإننا لا نمانع فى أن تقدم لك المعونة فيما يتعلق بمعارضك الفنية».

وفهمت على الفور أن كلامه هو فخ واختبار لى، لذلك فقد أجبته على الفور: «لا أستطيع قبول هذا العرض لأننى لا أعرف أى شىء عن هذه المؤسسة ولا يمكننى أن أضمنها».

ولو كنت قبلت ذلك العرض لكنت الآن فى عداد الأموات. وبعدها قال لى أحمد حسين خضير: «أنا مسرور لسماع هذا الكلام منك». ثم حكى لى أن جهاز المخابرات العراقى لديه شك مبرر فى أن أقرانهم فى المخابرات الإسرائيلية، الموساد، وراء هذا الموضوع.

وأيا من كان وراء هذا العرض فقد استكملت المؤسسة حملتها من أجل إقناعى. ففى أحد الأيام تلقيت اتصالا هاتفيًا من هونج كونج، أو هذا ما ادعاه الرجل الذى اتصل بى وقدم نفسه قائلاً بأنه ممثل شركة جنوب أفريقيا، التى كتب لى عنها المدير العام للمتحف فى فيينا. ثم أضاف قائلاً: «نقوم بأعمال البر والإحسان بطريقة سرية ولذلك فلن أستطيع إخبارك باسم المؤسسة». وأصابنى هذا الاتصال بالخوف لعلمى بأن مكالماتى يتم التنصت عليها. لذلك فقد قلت له: «من الأفضل ألا تتصل بى مرة أخرى. يمكنك الاتصال بابنى فى إنجلترا، ولكن أرجوك ألا تعاود الاتصال هنا مرة أخرى».

وبدأ ابنى يتلقى اتصالات هاتفية من هونج كونج بشكل منتظم، ولم تتوقف هذه



الاتصالات إلا قبل سقوط حكومة بغداد فى عام ٢٠٠٣ بثلاثة أشهر، ومنذ ذلك الوقت لم أتلق أى أخبار من هناك.

ومن حسن حظى أننى لم أسمع بعد ذلك لا من المخابرات ولا من أى جهة أمنية أخرى ولم أتلق أى اتصالات جديدة من هونج كونج، تلك التى كادت تودى بحياتى. ولم يمانع صدام فى أن أنشر الفن العراقى الحديث فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عن طريق معارضى فى خريف وشتاء عامى ١٩٩٩/ ٢٠٠٠ وإن كان يفضل بقائى فى العراق.

قال لى صدام: «إن لوحاتك وتماثيلك ثروة قومية لا يجب بيعها فى الخارج» لذلك لم يسمح لى الرئيس أن اصطحب معى أعمالى الفنية إلى خارج العراق. وقد رفض كذلك أن أقبل عروض جاءتنى من الخارج لعمل لوحات جدارية.

وفى صيف ٢٠٠٠ كنت فى زيارة صديقى غازى الزبين فى الأردن وهو طبيب شهير فى جراحة التجميل وعضو فى الجمعية الوطنية بالمملكة الهاشمية. وقد حكيت له عن تمثال «الاتحاد» الذى كنا بصدد إقامته فى شارع المنصور.

سألنى صديقى: «ألا يمكنك أن تقيم تمثالاً هنا أيضا فى عمان»؟ فقد سأله عمدة العاصمة الأردنية أكثر من مرة عن أفكار لتجميل وجه المدينة. وقد وعده الدكتور غازى بعرض الأمر علىّ. وتحمست على الفور لهذه الفكرة وبعد محادثات مع مكتب التخطيط فى مدينة عمان، اتفقنا على أن اقدم لهم التخطيط المبدئى لتمثال تتم إقامته فى إحدى مناطق المرور الدائرى الشهيرة بالمدينة.

وبالمصادفة حكيت لسرمد، أهم حراس صدام، عن المشروع. فقال لىّ: «لا تبدأ فى العمل قبل أن تحصل على موافقة الرئيس».

وفى الحقيقة لم أر أى داع لاستئذان صدام أولا ولكن بحكم الخبرة كنت أعلم أنه من الأفضل الإنصات لمثل هذه النصائح والعمل بها وخصوصًا عندما تأتى من أحد المقربين لصدام.

أرسلت لصدام خطابًا أشرح له فيه المشروع، وبعد ثلاثة أيام وصلنى الرد: «أخى الدكتور علاء، السلام عليكم، إن تشييد تمثال بعاصمة دولة أخرى يتطلب وقتا طويلاً

وفهما عميقًا لتاريخ وحضارة تلك الدولة لذا فأنا أرى أنه من الأفضل أن توفر على نفسك مثل هذه المشقة. أترك مثل هذه الأعمال لزملائك الذين يهتمون بالدرجة الأولى بجمع المال، ولكن بالطبع الأمر متروك لك لتتخذ قرارك حسب ما ترى».

كان رده واضحًا. مشروع التمثال فى عمان لم يتم. . وحتى داخل حدود العراق لم يكن لى دائمًا الحرية فى اتخاذ القرار.

وفى ليلة رأس السنة لعام ٢٠٠٠ حلمت بأننى فى مقام الإمام الحسين إمام الشهداء وقدوة الشيعة فى كربلاء، وفى الحلم قمت برسم لوحة تجريدية للمعركة التى قتل فيها الحسين قبل نحو ١٣٢٥ سنة على أعتاب المدينة.

وكان سبب المعركة هو الصراع على من سيخلف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى العالم الإسلامى، فبفضل انتشار الإسلام من خلال الفتوحات المتتالية امتد العالم الإسلامى ليشمل المنطقة من إيران فى الشرق إلى مصر فى الغرب ومن شبه الجزيرة العربية إلى أرمينيا فى الشمال.

وقد أثارت وفاة الرسول محمد (ﷺ) الحيرة بين أتباعه، لأنه لم يكن له أبناء ذكور، وأدى التساؤل عمن سيكون الخليفة الشرعى له إلى عدد من الصراعات الداخلية.

وتم اختيار أبو بكر ليصبح أول الخلفاء، وقد كان صحابيا للنبى محمد (ﷺ) ومستشاره وحماه، ولكنه وقع صريع المريض بعد عامين من اختياره خليفة. ثم تلاه عمر بن الخطاب وكان أيضا حما النبى ولكنه قتل على يد أحد عبيده سنة ٦٤٢ وثالث الخلفاء هو عثمان ابن عفان، زوج ابنة الرسول، ولكنه قتل على يد مجموعة من المعارضين له من مصر. وتلاه فى الخلافة علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، ابن عم الرسول وزوج ابنته. ويرى الشيعة أن علىّ هو الخليفة الشرعى للرسول لما كان له من صلة قوية تجمعه به ولقرابته منه، وهم يعتبرونه: الإمام والقائد الدينى والسياسى.

لكن السيدة عائشة، وهى إحدى زوجات الرسول، والتى عاشت فترة بعد وفاته، كانت ضد على مثلها فى ذلك مثل معاوية. فكلاهما كان يرى أن رغبة الرسول هى أن

يكون أبو بكر أول الخلفاء، لذلك فإن الإمام على ليس له الحق فيها. وكان هناك عدد من القلاقل وحركات التمرد انتهت بقتل على بسيف مسموم فى الكوفة التى جعلها عاصمة الخلافة الإسلامية.

والسؤال عمن كان أحق بأن يصبح أول الخلفاء: أبو بكر أم الإمام على، تسبب فى انقسام العالم الإسلامى حتى اليوم إلى فرقتين: السنة والشيعة، ثم أصبح معاوية حاكم الشام، الذى تنتسب له الدولة الأموية، خامس الخلفاء وذلك بعد مقتل الإمام على، ثم ورث يزيد بن معاوية الخلافة بعد وفاة أبيه فى ربيع عام ٦٨٠.

وعندما طلب من الحسين بن على وحفيد الرسول ﷺ وهو فى المدينة أن يعترف ليزيد بالخلافة، تهرب من ذلك. وكانت الشيعة فى ما بين النهرين قد أوضحوا له أنهم يبايعونه كخليفة للمسلمين. وكانوا على استعداد لأن يقاتلوا إلى جانبه وخصوصًا سكان الكوفة عاصمة الخلافة الإسلامية فى عهد الإمام على إذا قام بالثورة على الخليفة فى دمشق.

قام الحسين بإرسال مسلم ابن عقيل إلى الكوفة ليتبين الأمر. وقام ابن عقيل بجمع آلاف من مبايعات إعلان الولاء للحسين وأرسلها إليه فى المدينة.

وعندها قرر الحسين الرحيل إلى الكوفة واصطحب معه عائلته كلها واثنين وسبعين من حملة السلاح وأسرهم إلى ما بين النهرين. وعلم يزيد فى دمشق بأن هناك ثورة وشيكة الحدوث فأرسل جيشًا من البصرة إلى الكوفة. وتصرف الجيش بشكل عنيف جدًا واختفت روح القتال بين أتباع الحسين وحاول مسلم بن عقيل الهرب. ولكن جنود الخليفة ألقوا القبض عليه وقطعوه بسيوفهم إربا.

ولم يتسنى له تحذير الحسين الذى كان فى طريقه فى الصحراء مع أسرته إلى الكوفة وهو لا يدرى أن بانتظاره استقبال غير الذى كان يتوقعه بعد أن جاءه تأكيد أهل الكوفة بأنهم سيناصرونه.

وعلى مشارف كربلاء غير بعيد عن الكوفة قابل الحسين وأسرته جنود الخليفة وكان عددهم أكثر من ثلاثة آلاف. وكان الحسين وأسرته يعانون العطش الشديد بعد أن قطعوا مسافة كبيرة وسط الصحراء ولكن الجنود منعوهم من الوصول إلى نهر الفرات، ومنعوا عنهم المياه وطلب حفيد الرسول من قائد الجنود السماح له بالعودة إلى المدينة

ولكنه رفض طلبه. وقال له أن عليه أن يستسلم هو ومن معه وسيتم ترحيلهم إلى دمشق كأسرى.

وقرر الجيش أن يقاتل رغم تفوق الجنود فى العدد والعدة. فعندما طلب من الاثنين وسبعين رجلا من المسلمين الذين كانوا معه أن يهربوا إلى مكان آمن أولاً قبل أن يفوت الأوان ولكنهم رفضوا جميعاً.

وفى العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠ حدثت المذبحة، وقتل إخوة الحسين وأبناؤه وأتباعه واحداً تلو الآخر أمام عيون زوجاتهم وأخواتهم وأطفالهم الصغار وهم جميعاً فى خوف وفزع. وكان الحسين هو آخر من قتل، قطعوا رأسه وأرسلوها إلى دمشق ثم أمر قائد القوات عشرة من جنوده بأن يدوسوا بسنابك خيولهم على جثمان الحسين.

ولم تكن هذه آخر ما وجه لحفيد الرسول من إهانات، فعندما وصلت رأس الحسين ليزيد فى دمشق قام قائد قوات الخليفة بتحطيم أسنان الحسين بعصاه.

وتم إرسال من بقى على قيد الحياة من أسرة الحسين بعد معركة كربلاء كأسرى عبر الكوفة إلى الشام. واكتظت الشوارع بالناس الذين وقفوا يبكون على ما ألم بأسرة الحسين من مهانة.

ولم يمنع الحزن هؤلاء الشيعة من أن يسرقوا كل ما كان بحوزة الأسرى وسألتهم زينب أخت الإمام الحسين: «كيف تفعلون هذا وأنتم تبكون على ما لحق بنا»؟

وكان الرد: «إن لم نفعل نحن ذلك فسوف يفعله غيرنا».

والحكايات حول قتل الإمام هى جزء من طفولتى، فقد كانت مدهشة بالنسبة لى وكنت كثيراً ما أتخيل شكل الأسرة وهى تسير عبر شوارع الكوفة وخصوصاً عندما بدأت تظهر علامات الانهيار على المجتمع العراقى بعد الحرب على إيران وبعد المغامرة العسكرية الفاشلة التى قام بها صدام فى الكويت.

حكى لى معين قاسم، وهو أحد أقاربى ويعمل مقاولا لأعمال البناء ويشرف على مشروعات كثيرة فى جنوب العراق، حكى لى عما رآه وهو فى طريق عودته من البصرة إلى بغداد عام ١٩٩٤ فى منطقة العمارة على بعد حوالى ٤٠٠ كيلو متر جنوب العاصمة العراقية. لقد رأى حادث سيارة حادت عن الطريق وانقلبت بركابها وكانوا

عبارة عن أسرة مكونة من أب وأم وخمسة أطفال. ومات الأب على الفور وكان هو قائد السيارة، أما الأم التى سقطت خارج السيارة فقد أصيبت بإصابات بالغة ومات اثنان من الأطفال بينما أصيب الثلاثة الآخرون بجراح ليست بالقاتلة.

وهرعت مجموعة من سكان إحدى القرى القريبة إلى موقع الحادث وبينما كنت أحاول انتشال الأب من بين حطام السيارة، رأيت أهل القرية وقد انكبوا على المرأة وسرقوا منها ما كانت ترتديه من خواتم وسلسلة وما كان معها من مال، ولم تسلم من السرقة جيوب الأطفال الجرحى والموتى.

وفى دقائق معدودة قاموا بفك إطارات السيارة الأربعة وأخذوها واختفوا. فربما قام آخرون بسرقة الأسرة المنكوبة إذا لم يسرقوها هم.

وعندما استيقظت فى أول يوم من العام الجديد أخذت أفكر فيما رأيته فى منامى عن مشهد الإمام الحسين وتلك اللوحة التى أردت رسمها عند قبره الفخيم فى المدينة المقدسة.

وسافرت إلى كربلاء لأقابل الإمام المسئول عن مقام الحسين وكان «سيداً» أى ينتسب بشكل مباشر للإمام الحسين. ولم يكن لديه مانع فى أن أرسم تلك اللوحة التجريدية للمعركة التاريخية فى كربلاء بعد أن شرحت له أهمية هذا العمل التاريخية والنفسية والاجتماعية.

وكان يرى أن إحدى الحوائط الكبرى (فى إحدى القاعات التى لا يأتيها الكثير من الحجاج) فى المقام الحسينى ستكون مكاناً مناسباً للوحة، وهى بين غرف صغيرة تحيط بالساحة المحيطة بمرقد الإمام.

ولكنه قال لى: يجب أن تحصل على موافقة الرئيس أولاً. ووافقه فى الرأى عمدة مدينة كربلاء الذى دعوناه ليشاركنا الرأى.

فقلت له: «أنا لا أفهم لماذا، فهناك الكثير من اللوحات لفنانين عراقيين وإيرانيين قدامى محفوظة فى خزائن مقام الحسين، ولا أظن أنهم قد حصلوا جميعاً على موافقة الرئيس»؟

ولكن كليهما قال لى: ولكن يجب عليك الحصول عليها أولا . وبعد أن فكرت فى الموضوع لعدة أيام كتبت خطابًا لصدام شرحت له فيه مشروع تلك اللوحة.

وفى ٢٠ يناير من عام ٢٠٠٠ كتب لىّ ردًا لا يتضمن الموافقة ولا الرفض:

أخى الدكتورعلاء، إن ما نحن بصدده هو محاولتنا لاستلهام روح التاريخ كمثال يحتذى به ووسيلة لرفع همة الناس ولكن مجرى التاريخ لا يتفق دائمًا مع المنطق.

إننا نستلهم النتائج من تلك القيم التى تتفق مع المبادئ التى يتوارثها الشعب والأمة. لذلك فعلى أبناء الأمة أن ينتبهوا. ويجب علينا ألا نفسر التاريخ بحيث تفند الفروض ما يخالفها من فروض أخرى، إذا كان الأمر يتعلق بعمل الخير والإنجازات الكبرى. كما يجب على الناس الآن ألا يثوروا على الماضى، وكذلك ألا يتغاضوا عن الدروس المستفادة من التاريخ، عندما تظهر الحاجة لتفسير متوازن ومسئول للتاريخ.

لذلك فإن الأهم من قصة الحسين ليس استشهاده، رغم أنه كان ولا يزال حادثًا محزنًا، وإنما الأهم هى تلك العبرة والعظة الهامة التى مؤداها أن الإنسان المؤمن النقى يجب عليه أن يضحى من أجل ما يؤمن به. هذا ما نحتاجه فى الوقت الذى أصبح فيه البعض يضرون القضية التى يؤمنون بها ويتنازلون عن مثلهم العليا بسبب خوفهم على حياتهم.

وعلى أية حال فإن علينا أن نضع فى اعتبارنا دائمًا أن وحدة الشعب أو أهدافنا القومية الأساسية أهم من أى اختلافات قد يعتبرها البعض نوعا من الإثراء الحضارى. أن الاختلاف لا يكون إثراء إذا ما أدى إلى عدوان وأخرج المشاعر القوية عن مسارها الطبيعى. إننا بحاجة لوحدة من أفكارنا وضميرنا وموقفنا، وحدة تعتمد على الأصول التاريخية لشعبنا وتقود خطانا نحو المستقبل. وفى الوقت ذاته تملؤنا بالثقة فى الحاضر وقدرته على تغيير مجريات الأمور. إن هذا هو الشرط الأول لشعبنا وأمتنا كى نتقدم ونسير فى الاتجاه الصحيح.

من أجل بلدك يا أخى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أخوك صدام حسين.

هكذا كانت طريقته فى الكتابة، وكانت رسالته لى واضحة أمام عينى. إنه لم ينس تمرد الشيعة فى الجنوب عليه بعد فشله الذريع فى الكويت، فقد آلمه ذلك التمرد بشكل كبير لأن المقربين منه كانوا يؤكدون له دائماً أن الشعب العراقى كله يحبه ويقف وراءه. وعلى هذا فقد كان من الأفضل التخلى عن مشروع كربلاء.

ومن حسن حظى أن العمل فى تمثال اللقاء كان يتقدم، وكنت قد كلفت أحد الأصدقاء (النحات مصطفى غالب)، بالإشراف على العمل. ولكن الاسم الذى اخترته للتمثال أثار مشاكل كبيرة فى الأوساط العليا، وبعد مفاوضات كثيرة منحونا الموافقة. فقد حل عبد حمود، السكرتير الخاص للرئيس، المشكلة. حيث اتصل بى وقال لى: «كل شىء على ما يرام. يمكنك أن تسميه اللقاء. ولكن يجب أن يمثل الشعب الذى يحتضن قائده وليس اللقاء بين الرجل والمرأة». فرددت عليه: «حسنا، فليكن».

الفصل الخامس عشر

حفل الزفاف

فى أحد أيام الصيف قبل أربع سنوات أرسلت سميرة شاهبندر فى طلبى. وكانت تسكن فى بيت عادى مفروش بأثاث عادى، لا يبعد كثيراً عن الجسر المعلق على نهر دجلة، وكان الجسر قد أعيد بناؤه بعد أن دمرته القنابل فى فبراير ١٩٩١ أثناء حرب الخليج. كانت سميرة، الزوجة الثانية للرئيس، قد رأت برنامجاً عن جراحات التجميل فى إحدى المحطات التليفزيونية التى تستقبلها عن طريق طبق الاستقبال، وكانت تريد أن تسألنى عن جدوى مثل هذه العمليات.

وقلت لها إنها يجب ألا تصدق كل ما يقال فى هذه البرامج، لأن جراحات التجميل أصبحت الآن تجارة رابحة فى العالم كله. ومن السهل أن يقع المرء ضحية بعض الأطباء الدجالين والمستشفيات المحتالة ممن يعدون بأكثر مما يستطيعون. قالت لى: «عندى تجاعيد كثيرة فى وجهى ورقبتى». وكانت سميرة شاهبندر ذات الشعر الأشقر الفاتح والعينين الزرقاوين لا تزال جميلة، رغم أنها أصبحت بين الخمسين والستين إلا أنها لم تكن بحاجة لعملية شد جلد.

وبعد أن فحصتها بدقة أكثر قلت لها: «من الواضح أنك ستبدين أصغر فى السن، إذا أجريت لك جراحة تجميلية».

واتفقنا على إجراء العملية يوم الجمعة لأنه يوم العطلة فى العراق وباقى العالم الإسلامى. ولذلك فقد كان من المعتاد أن يخلو مستشفى ابن سينا يوم الجمعة من الأطباء والممرضات، ولذلك قررنا أن تكون العملية فى الصباح كى لا يكثر القيل والقال، وهى المادة الأساسية للحديث عند معظم الناس.

ومر كل شيء يومها فى سلام وكما خططت له، فقد نقلت زوجة الرئيس بعد العملية إلى جناح مخصص لصدام وأفراد عائلته المقربين. ورجعت إلى المستشفى فى مساء نفس اليوم لأتأكد من عدم حدوث أى مضاعفات، وكان كل شيء على ما يرام.

ثم طرحت عليها سؤالاً عابراً: «هل يعلم زوجك بهذه العملية»؟ فأجابتني: «لا».

وأصبت بقشعريرة فى جسدى، فقد كانت لدينا أوامر واضحة من صدام بأن نخبره على الفور بأية مساعدة طبية تقدم لأى من أفراد عائلته.

وقلت لها: «لا أظن أنك مدركة لحجم المشاكل التى سببتها لىّ بإخفائك أمر عملية التجميل عن الرئيس».

كان واجبا علينا إعلام مكتب الرئيس بتفاصيل متابعة علاج عائلته حتما، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن يثق فينا، فكان يكلف رجاله بمراقبتنا بشكل دائم وكان بعضهم لا يتورع عن أن ينصب لنا الفخاخ.

فى بداية الثمانينات وبعد مضى فترة قصيرة من طلبهم منى الاشتراك فى الفريق الخاص بالرئيس، بدأت مجموعة من الشابات الجميلات الوفود على عيادتى الخاصة وكلهن طلبن منى أن أجرى لهن عمليات لا تقع فى مجال تخصصى.

وكما هو معروف فإن العفة لها قيمة كبيرة فى العالم الإسلامى وإذا لم يقطر الدم على ملاءة السرير ليلة الزفاف فإن العواقب قد تكون مأساوية جداً. فكثيرا ما كانت نساء العائلة يجلسن أمام الباب متربصات مثل الصقور ينتظرن خروج دليل العفة إليهن ليفاخرن به ويعرضنه أمام العشيرة كلها.

وإذا لم يتوافر دليل العفة المطلوب فإن حياة العروس تكون فى خطر عندما يتدخل الأب أو الأخ أو ابن العم لرد الاعتبار والشرف للعائلة. يمكن للمرء أن يكذب، ويحتال، ويسرق أو يغدر وحتى يقتل ولا يفقد شرفه بالرغم من ذلك. ولكن لا يمكن لأحد أن يزوج ابنته إذا فقدت عذريتها قبل الزواج فهذه هى الجريمة التى ليس لها عقاب سوى الموت. ولكن يمكن تجنب هذا الموقف العصيب عن طريق بعض الحلول الطبية. وأسهل هذه الحلول وأكثرها شيوعًا هو أن تذهب العروس قبل زفافها مباشرة

أو يومها إلى طبيب أمراض النساء الذى يقوم بعمل بعض الوخزات الموضعية التى ينطلق منها الدم فى الليلة الموعودة منقذا بذلك السعادة العائلية.

وهناك قوانين فى العراق وفى معظم دول الشرق الأوسط تمنع الأطباء من إجراء مثل هذه العمليات. ولكن بعض زملائى يقبلون أن يتدخلوا جراحيًا لإنقاذ مريضاتهم مقابل بدل مخاطرة مادى.

أما فيما يتعلق بالفتيات اللاتى حضرن إلى عيادتى وطلبن منى إجراء تلك العملية، فقد كان هناك شىء مريب: فأولاً لم يبد على واحدة منهن الإحراج وهى تطلب منى إجراء تلك العملية لها، وثانيًا كن يخلعن ثيابهن فى سرعة خاطفة ويقفزن على السرير المخصص للكشف على المرضى. وثالثًا لم تحاول إحداهن أن تناقشنى فى قرارى عندما كنت اخبرهن برفضى وكنت أطلب منهن الخروج من عيادتى نظرًا لأننى لا أجرى مثل تلك العمليات. ولو كان الأمر صحيحا لكان تصرف الفتيات مختلفا جداً، كان من الطبيعى أن يرجوننى ويطلبن منى المساعدة. لقد كان من الواضح جداً أن هناك شخص ما هو الذى أرسلهن لىّ كنوع من الاختبار لأخلاقى ومبادئى كطبيب قبل أن أقبل فى الدائرة القريبة من الرئيس.

كان هناك عدد من النساء الجميلات يعملن فى وكالات الأنباء التابعة للحكومة. وكان بعضهن يعملن لحساب الرئيس بشكل مباشر ومستقل عن البوليس السرى الرسمى.

وكان صدام يحب أن يقوم شخصيًا باختيارهن أثناء تواجده فى الجامعات، ومؤسسات البحث، والشركات، والهيئات الإدارية المركزية أو الفرعية. وكان يتم استدعاؤهن إلى مكتبه حيث يمتدح عملهن النشط والفعال ثم يقلدنهن مناصب مهمة فى الوزارات والإدارات وباقى المؤسسات الإدارية الحكومية.

ولم يكن عددهن بقليل، وكان صدام كما حكى لىّ بعض حراسه يدعوهن للقاء شهرى فى يوم وموعد محدد، وربما كانت علاقته بأخريات متميزة لفترات أحيانا تطول وأحيانا تقصر. كان يعاملهن بلطف ورقة وكرم كما كان يستمع باهتمام شديد لكل ما يقصصنه عليه.

وترددت بعضهن على عيادتى من أجل تصغير حجم أنوفهن أو إجراء عمليات تجميل أخرى. ولم يكن الرئيس يتحمس عندما كانت إحداهن تطلب مساعدتى ولكنه كان يوافق فى النهاية بسبب إلحاحهن عليه.

وكانت معظمهن لا يذكرنه بسوء بل يتحدثن عنه بشكل جيد ونادراً جدا من بينهن من عايشت معه موقفًا سيئًا.

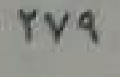
ولكن كان عليهن دائمًا أن يكن على حذر، فقد حكت لى إحداهن أنه طردها ذات ليلة بعد أن قالت له إن دخوله الكويت قد جلب النحس على العراق. عندها غضب الرئيس وركلها وضربها ثم أخبرها أنه لا يود أن يراها بعد ذلك أبدا.

وفى صباح اليوم التالى وصلها من مكتبه مبلغ مالى كبير يؤمن مستقبلها.

ولكن معظم النساء اللاتى كان يتعامل معهن صدام بشكل منتظم لم يصبحن عشيقات له، فالأهم بالنسبة له كانت المعلومات وحتى الثرثرة التى كن ينقلنها له. وكان يكلف بعضهن بالتقرب إلى مدرائهن. وكان بعض المتعطشين للحب من الوزراء وكبار الضباط وأعضاء الحزب الذين يستغلون سلطاتهم لمصالح شخصية يدفعون ثمناً غاليًا لتلك الأسرار التى قد يسرون بها فى ساعات من الحميمية عندما كانت أخبارهم تصل لصدام من خلال شبكة النساء التى تعمل له. وكان ذلك بلا شك هو السبب فى كثير من الحالات المفاجئة التى تم فيها تسريح البعض أو إلقاء القبض عليهم أو إعدامهم.

وكان الوضع يتأزم عندما يضايق أحد عن غير عمد واحدة من العاملات لحساب صدام. فقد كان مثلاً مازن الآلوسى لسنوات طويلة المصمم المعمارى الأوحد والمفضل للرئيس، وقد درس الهندسة المعمارية أيضا فى أمريكا، لذلك فقد كان مشرفًا على بناء عدد من القصور والبيوت السكنية والمساجد والقرى السياحية لصالح كبراء بغداد والعراق كما كان يقوم بعمل تصميمات البناء بنفسه.

وكان ينتهى من المشروعات دائمًا فى الوقت المحدد وبالتكاليف المحددة. وقد قلده صدام جميع الميداليات وأعلى الأوسمة التى تمنحها دولة العراق. وكنت قد تعرفت على الآلوسى عندما كلف الرئيس مكتبه بتشييد تمثالى «اللقاء» فى أحد شوارع بغداد



الحيوية. ولكنه لم يحضر افتتاح التمثال لأن صدام كان قد غضب عليه وطرده من وظيفته.

كان صدام قد قابل مهندسة معمارية شابة فى أحد مواقع العمل وأراد أن يضمها لشبكة النساء التى تعمل لصالحه. لذلك فقط طلب من الآلوسى أن يعينها عنده فى مكتبه. ولكنها بعد أن بدأت فى العمل كانت تأتى متأخرة وتمشى مبكرة بينما كان زملاؤها يكدون من أجل إنهاء المشاريع فى الموعد المحدد. فقام الآلوسى بتهديدها بطردها من العمل إذا استمرت فى عدم التزامها وبذلك وضع النهاية لمستقبله المهنى كرئيس للمكتب الهندسى الذى يعمل لصالح الرئيس. أولاً استدعاه صدام إليه وطالبه بالرجوع فى خطاب الإنذار الذى وجهه للمهندسة، ثم طالبه بالاعتذار لها على الفور. ثم أخبره أنه تم تخفيض درجته فى العمل وتم نقله إلى مكتب أمانة بغداد.

كانت المهندسة فى بداية الثلاثينيات من عمرها ولم تكن فى رأيى شديدة الجمال، ولكن معظم الرجال كانوا يرون أنها امرأة جذابة.

وفى أحد الأيام أرسلها صدام إلى بصحبه أحد حراسه لأفحص أحد جفنيها لأن فيه عيبا خلقيا طفيفا ولذلك لا يرضها شكله. فشرحت لها أن عملية التجميل ستترك هى أيضا أثرا، لذا فأنا أنصح بأن تتركه على حاله، ووافقتنى الرأى ولم أسمع عنها أى شىء حتى سافرت فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠١ لحضور مؤتمر طبى فى دوسلدورف، وسافرت عبر فيينا وكالمعتاد نزلت ضيفا على صديقى ناجى صبرى الحديثى وزوجته، وكان هو سفيرنا فى العاصمة النمساوية. وفى إحدى الأمسيات بينما كنا نجلس ونتجاذب أطراف الحديث، حكى لى السفير أنه ثمة امرأة عراقية قد وصلت إلى المدينة هى وزوجها، وكان لا يعرفها، فهما ليسا من عائلة صدام أو من مشاهير العراق ولكن سكرتير الرئيس عبد حمود اتصل به وطلب منه أن يهتم بها كل الاهتمام، ولم يفهم السفير لماذا فكلاهما لم يبد أنه يشغل منصبا مهمًا فى العراق فسألته عن اسمها وأخبرنى به. فنصحته أن يحسن استقبالها جداً ويعاملها كأفضل ما يكون، فقد أردت بنصيحتى أن أتجنب أن يقوم صديقى بأى تصرف خاطئ. لأنها لو رجعت إلى العراق غير راضية عنه فسوف يجلب له ذلك الكثير من المشاكل. وبالفعل استمع السفير وزوجته لنصحى ونظما لها برنامجًا يقنعها بما تستحق هى وزوجها.

وقد جاءت الأوامر من عبد حمود بألا يخل عليهما بأى تكاليف حتى تكون إقامتهما ناجحة، وعلى الرغم من أن الزوجين قد جاءا معهما بالكثير من الدولارات إلا أن السفير كان عنده أوامر بصرف ما يحتاجاه كى لا ينقصهما أى مال فى باقى الأسبوع الذى يقضيانه كإجازة لهما على نهر الدانوب.

وبدت على المرأة السعادة البالغة عندما وصلت وزوجها إلى المطار، وكان معها من الملابس والهدايا ما لا يعد ولا يحصى وهما فى طريقهما إلى العراق الذى يعانى من الحصار الاقتصادى منذ فترة. وكانت بعض الحقائب مكتظة ببذلات وأقمصه وأربطة العنق الفاخرة ولم تكن تلك الملابس على مقاس زوجها وإنما على مقاس رجل فى مثل جسم صدام.

وحصل ناجى صبرى على رضا الرئيس، فقد تم استدعاؤه إلى بغداد فى الصيف الذى تلاه وتم تعيينه وزيرا للخارجية، وقد حكى لى صديق أن المرأة قد امتدحته جداً بعد عودتها من فيينا وأنها قد اقترحت على الرئيس أن يستبدل وزير الخارجية محمد سعيد الصحاف بسفيره فى النمسا لأنه رجل مخلص ومهذب ومجتهد.

أخبرنى الحديثى لماذا أصبح آخر وزير خارجية فى حكومة صدام. فى بداية الثمانينيات كان أخوه محمد صبرى الحديثى نائب وزير الخارجية ولكن على حسن المجيد الملقب «بعلى الكيمائى» وابن أخيه حسين كامل نجحا فى إقناع صدام بأن نائب وزير الخارجية يخطط هو ومجموعة من المتآمرين لعمل انقلاب عليه حيث كان محمد صبرى من الأشخاص الأكفاء والمخلصين.

وبالتالى تم القبض عليه وتعذيبه وإعدامه فى النهاية، كما تم القبض على شقيقه الثانى شكرى أيضا، ولكنه وبعد أن تعرض للتعذيب وللسجن لفترة طويلة تم إطلاق سراحه. وعندما عين ناجى صبرى الحديثى فى منصبه الجديد، حضر إليه صدام وقال له: «لقد سمعت أن أخاك قد قتل، ولم أكن على علم بذلك». وهذه لم تكن بالطبع الحقيقة ولكن الحديثى كان يشعر أن صدام بدا يفكر فى شعبيته وسمعته. ربما يكون قد عينه وزيراً للخارجية ليصلح ما أفسده قبل عشرين سنة. ولم يكتف الرئيس بتعيينه وزيراً للخارجية، بل أحاطه بقدر من العناية والتكريم لإثبات حسن نيته هذه المرة.

وتوقعت الأسوأ عندما عرفت وأنا فى مستشفى ابن سينا من سميرة شاهبندر أن

الرئيس لا يعرف شيئًا عن تلك الجراحة البسيطة وقبل أن أنهى حديثى معها . إذا بصوت أقدام فى الردهة الخارجية ودخل علينا صدام وبدى عليه التوتر والخوف .

وسألنى : «هل حدث شىء؟

فردت سميرة : «لا ، لقد تم استئصال ورم خلف الأذن» . فنظر إلى صدام وسألنى : «هل هذا خطير»؟ فأجبت : «لا هذا مجرد تجمع دهنى على الجانب الأيسر من الرقبة ، وتم استئصاله . ولكننى اضطررت أن أستأصل جزء من الجلد من مكان التجمع الدهنى ، ما جعل خدها الأيسر يبدو أكثر نضارة . وفعلت نفس الشىء فى الجانب الأيمن من الوجه والرقبة لكى لا تكون هناك فروق بين الجانبين بعد أن يتم شفاء الجلد . وكل شىء على ما يرام ويمكنها أن تغادر المستشفى مساء اليوم» .

نظر إلىّ صدام وابتسم وسكت ولكنى أظن انه فهم من البداية نوع العملية التى أجريتها لزوجته . وكانت هذه المرة الوحيدة التى أخفيت فيها بعض ما فعلته لزوجته .

رسميًا لم يكن لصدام إلا زوجة واحدة وهى ساجدة ابنة خاله خير الله . وقد تزوجا عام ١٩٥٨ أثناء إقامة صدام فى القاهرة بعد المحاولة الفاشلة لقتل الزعيم عبد الكريم قاسم . وقتها هرب صدام أولاً إلى سوريًا ومنها جاء إلى منفاه فى مصر .

ولم يصارح صدام زوجته ساجدة ، رغم وجود شائعات بأنه قد تزوج سميرة شاهبندر . وهذا ما حدث بالفعل . لكن هذا الموضوع كان من المحرم الكلام عنه فى نطاق الأسرة . وفى أحد الأيام كنت أتكلم مع إلهام أخت ساجدة وكانت متزوجة من وطبان ، أحد الإخوة غير الأشقاء لصدام .

وحكت لى أنها مقتنعة شخصيًا بأن زوج أختها يسر عنهم شيئا وأنه قد تزوج بأخرى . ثم قالت لى : «إن ساجدة لا تريد أن تعرف أى شىء عن هذا الموضوع وصدام ينكر كل شىء» .

لم تكن حياة ساجدة سهلة ، أذكر أننى دعيت ذات مرة فى صباح يوم شتوى إلى قصر الرئيس على الضفة الغربية من نهر دجلة ، فقد كان علىّ إجراء عملية بسيطة فى ذراعها الأيسر . وكانت إحدى غرف القصر مجهزة كعيادة واتفقنا على إجراء العملية فى اليوم التالى .

وعندما حضرت فى اليوم التالى نسيت أن أضع على يدها المخدر الموضعى قبل أن أقطع الجلد بالمشرط، وكانت هى المرة الأولى والأخيرة التى حدث فيها مثل هذا الخطأ. ولكنها لم تتفوه بكلمة ولم تتأوه، ولم أنتبه لما حدث إلا عندما لاحظت أن كمية الدم الخارجة من الجرح أكثر مما يجب حتى غطّت الجرح تماما، لأن التخدير الموضعى عادة ما يوقف الدورة الدموية فى المكان المعنى.

فسألتها: «هل تألمت جداً»؟ قالت لى: نعم.

سألتها: «لماذا لم تطلبى منى أن أتوقف»؟

فنظرت إلىَّ ساجدة وقالت: «لأن من يحتمل الحياة مع صدام، يحتمل أى شىء آخر».

فى المعتاد كانت مهمة علاج زوجات الرئيس من المهام اللطيفة. أما المهمة الصعبة والمتعبة بحق كانت مهمة الاعتناء بخالته الحاجة بدره. وكلمة حاجة تعنى أن السيدة بدره قد أدت فريضة الحج فى شبابها، وقد أصبحت الآن عجوزا، شهباء، ونحيفة تبدو كما لو كانت مومياء حية. وكادت تصيبنى أنا وزملائى الأطباء فى مستشفى ابن سينا بالجنون.

الحاجة بدره كانت خالة صدام، لم تتزوج قَطّ، وكانت تحب أن تجرى لها عمليات جراحية وتدخلات طبية أخرى ليل نهار.

كما كانت تحب أن تتصل بنا فى منتصف الليل لتشكو لنا ألمًا فى جسدها. وكانت تسكن فى بيت كبير فى بغداد، وقد أمدها صدام بكل ما تحتاجه من خدم وحراس.

ولكنها كما قلت كانت تحب وتطلب دائما إجراء عمليات جراحية لها، مهما كانت الأسباب فمع أقل حكة تصيبها مثلاً على الذراع تطلب منا استئصال جزء من الجلد لكى يذهب الشعور بالحكة. لا أستطيع أن أحصى عدد الأماكن التى استأصلتها من جلدها، فقط لكى أرضيها.

وأكثر ما كان يسعدها هو التخدير الموضعى، وكثيرا ما أجرينا لها عمليات جراحة بسبب أعراض وهمية عندها. ولم يمض أسبوع دون أن نجرى لها عملية منظار، رغم



أن معدتها كانت على ما يرام حسب رأى الدكتور مكى حمادى اختصاصى طب المناظير وأحد أكفأ الأطباء فى هذا الاختصاص.

وأنا على يقين انه لا يوجد حلق فى العالم كله مر من خلاله خرطوم وجهاز تصوير المنظار الطبى أكثر من حلق الحاجة بدره.

وبالطبع فإن هذه السيدة العجوز كانت ترغب فى أن تكون محور اهتمام الجميع، حتى ولو للحظات قليلة. ولكننا نعرف جميعا أن هذه السيدة قد تمثل خطراً على حياتنا. وكان اثنان من حراسها قد اختفوا وتم إعدامهم بعد أن اتهمتهم بسرقة أشياء تخصها.

ولم نجرؤ على أن نوقفها عند حدها ونقول لها كفى.

ولكن ساجدة زوجة صدام فقدت فى أحد الأيام صبرها عندما مرت أمام بيت الحاجة بدره فأوقفها الحراس للتفتيش وهى فى طريقها إلى قصر الرئاسة. والسبب فى وجود نقطة التفتيش هو أن السيدة العجوز كانت تتوهم أن هناك مؤامرة تحاك لقتلها ولذلك فقد أمرت الحارسين أمام البيت بعمل متاريس ونقاط تفتيش على مسافة خمسين مترا من بيتها.

أمرتهم ساجدة قائلة: «ارفعوا هذه المتاريس وإلا سأضعكم فى شنطة السيارة وآخذكم مباشرة إلى السجن». وفعلوا ما أمرتهم به ساجدة، فقد كانت ترى فى ذلك إثارة لمشاعرها.

وفى اليوم التالى كانت بدره فى طريقها لإجراء عملية فى مستشفى ابن سينا فرأت أن نقاط التفتيش تم رفعها، فانفجرت فى الحراس لعنًا وسبًا وهددتهم بالسجن والعذاب إذا لم يقيموا نقاط التفتيش مرة أخرى. وحكى لى أحد الحارسين أنهما اضطرا لتنفيذ الأوامر وإقامة الحواجز فى الشارع مرة أخرى.

وبعد ساعات قليلة مرت ساجدة مرة أخرى واستشاطت غضبًا أكثر من الحاجة بدره وكانت نهاية الحارسين التعيسين فى شنطة سيارة ساجدة ثم فى السجن لمدة أسبوع، واختفت الحواجز من الشارع أمام بيت الحاجة بدره للأبد.

قبل بزوغ فجر أحد الأيام اتصلت بى خالة الرئيس شاكية من ألم رهيب فى السبابة اليمنى وطلبت حضورى على الفور سألتها: منذ متى تعانى هذا الألم؟

أجابت: «منذ ثلاثة شهور. لابد أن تجرى لى جراحة».

ولماذا الآن وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير. قلت لابد أن تأتى. ذهبت لأخبرها سوف أراك غدا. ورجعت إلى دارى عند الفجر.

فى صباح اليوم التالى ومن باب الاحتياط أخذت معى مدير مستشفى ابن سينا وممرضين، وكما توقعت فلم تكن هناك أى مشكلة فى إصبعها.

قالت لى: «أريد أن تجرى لى عملية». سألتها متعجبًا: لماذا؟ كل شىء فى إصبعك سليم:

فانفعلت وقالت: «أنتم معشر الأطباء لا تفكرون إلا فى كسب المال، انتظر وسوف ترى ما الذى سيحدث لك».

فقلت لها: «لن يغير فى الأمر شىء أنك خالة الرئيس، ولا حتى فى مقابل عشرة ملايين دينار، فلن أقوم بعمل عملية جراحية». ثارت ثائرتها واستعملت كلمات غير لائقة عندما قررت ترك غرفتها.

وفى المساء اتصلت بى ساجدة واعتذرت لى بأدب شديد عن تصرف الحاجة بدره وطلبت منى أن أجرى لها العملية حتى ولو لم يكن لها داع.

فسألتها: «وماذا إذا حدثت تعقيدات»؟

ولحسن الحظ كانت الحاجة بدره تضايق عددا من وزراء صدام بمشاكلها الوهمية فاستجمعوا شجاعتهم واشتكوا لصدام الذى أمر بإلغاء الهاتف من بيتها. وارتحنا أخيرا من مشاكلها معنا فى مستشفى ابن سينا.

وعلى الرغم من ذلك فلم تكن هذه السيدة العجوز هى المشكلة الوحيدة التى واجهتنا فى المستشفى. فلم يكن صدام هو الوحيد الذى اتخذ لنفسه أكثر من زوجة. فعلى سبيل المثال كان لعزة الدورى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ما لا يقل عن خمس زوجات وعددًا كبيرًا من الأطفال وكان علينا الاعتناء بهم جميعًا عند الحاجة.

وكان يسكن فى «بلوك سكنى» على نهر دجلة، أخذت فيه زوجته الأولى البيت الرئيسى بينما كانت للباقيات بيوت مشابهة بجانبه.

وقد أخبرنى برزان أن السبب فى تعدد زوجات الدورى هو انه كان فى المزرعة الخاصة به فى تكريت ورأى هناك ابنة الرجل الذى كان يشرف له على الزراعة وكانت فتاة جميلة فى الثامنة عشر من عمرها. وعلى الفور سأل أباها إذا كان يسمح له أن يتزوجها وطبعًا وافقه إلى طلبه.

والقرآن ينصح المؤمنين بألا يتزوجوا بكثيرات، وإن أقصى عدد هو أربع زوجات أما الدورى الذى ظهر عليه التدين فى كبره، فقد رأى أن يجعل لنفسه استثناء ويتزوج بالخامسة نظرًا لأنه لا يشارك زوجته الأولى الفراش لأنها أصبحت عجوزا. واكتفى بأن يكل إليها مسئولية العناية بطعام وشراب أسرته الكبيرة. كانت الوجبات تعد فى بيتها ثم توزع على بيوت الزوجات الأخريات تبعا لنظام محدد. وكان نائب الرئيس يقسم الليالى على زوجاته تبعًا لقواعد ثابتة كما يأمر الإسلام.

وحياة مثل هذه ينتج عنها أطفال كثيرة. فى أحد الأيام جاء عزة الدورى دون موعد سابق إلى مستشفانا ومعه ثلاثة من أبنائه لنجرى لهم عملية الختان، وكانت أعمارهم تتراوح بين الثلاث والأربع سنوات، ومن بينهم طفل لم يكن الأب يتذكر حتى اسمه.

واذكر كيف جن جنونه عندما رفضت إجراء العملية لهم لأنهم قد تناولوا طعام الإفطار ولهذا فقد يتعرضوا لخطر الاختناق إذا أصيبوا بحالة من القىء وهم تحت التخدير. وبالطبع لا يمكن عمل العملية دون تخدير لأن هذا معناه آلام رهيبة للمريض.

وعندما فهم أنه لن يصل معى لأى حل آخر، أخذ أبناؤه إلى حلاق عند ناصية الشارع، وقام بعمل الختان للأطفال، الذين لابد وأن يكونوا قد تألموا ألما شديداً.

التأم الجرح بعد العملية التى أجريتها لسميرة شاهبندر بشكل جيد. كنت أمر عليها دائما لأطمئن على أن كل شىء يسير كما يجب، وكانت زياراتى تسعدها كثيرا وكنت أقضى معها كل مرة بعض الوقت ونحن نتحدث، وكان لدى إحساس بأنها وحيدة بشكل موحش.

كانت تحب أن تحكى لى كيف أن صدام يبهرها جدا: لا أفهم حتى الآن كيف وصل صدام لما هو عليه الآن إذا قارناه بالظروف البسيطة والبدائية التى عاش فيها وهو طفل.

كان لها ابنان وابنة من زيجتها الأولى. الولدان الصغيران والابنة وزوج ابنتها كانوا يعيشون فى بيت سميرة الشاهبندر وقد أنجبت لها الابنة حفيدة، يحبها الرئيس جدا. وكان يهتم بها جدا ويوليها رعايته فى كل مرة يأتى لزيارتها.

قالت لى سميرة: إنه يحب أن يراها دائما، ويحب أن يقذفها فى الهواء ويتلقاها ويلعب معها.

ولكن الفترات بين الزيارة والأخرى أخذت فى التباعد فقد كان صدام يهتم جدا بأمنه الشخصى ولذلك كان يغير مكان إقامته ومبيته بشكل مستمر. وما عادت سميرة تحتمل الوضع أكثر من ذلك.

وأشارت إلى حقيبتى سفر لونهما أحمر، كانتا بجانب الباب: انظر، هكذا أصبحت حياتى حاليًا. على أن أنتظر كل ليلة حتى يحضر حراس صدام ليصطحبونى إليه ولا أعرف أبدًا متى وأين يرانى أو فى أى بيت سأنام معه. هل هذه هى حياتى؟ وعلى الرغم من ذلك الناس يملؤها الحسد، ولكنى أعرف أن الله سيعاقبهم.

وعند خروجى لاحظت صورة صغيرة لزوجها الأول على أحد الأرفف. كان لديها أسباب كثيرة تدعوها لعدم الرضا. ابنها الأكبر كان يعمل مهندس طيران. وقد طلب أن يخرج إلى الأردن لكى يعمل فى عمان. وكان السبب الحقيقى هو أن عُدى بدأ فى مضايقته بشتى الطرق وخاف ابن سميرة من أن تنتهى تلك المضايقات نهاية سيئة.

فى البداية رفض صدام سفره إلى الأردن ولكنه رجع فى قراره ذات يوم: «يمكن أن أوافق على سفره ولكن بشرط، ألا تطلبى منى زيارته فى الخارج أبدًا، لأنى على يقين بأن ابنك لا ينوى الرجوع للعراق ثانية». فردت عليه: «أنا واثقة أنه سيعود يومًا إلى العراق». ولكن صدام كان على حق، وكان من الصعب عليها جدا تحمل فقدانها لابنها. ولكن كان لدىَّ شعور بأنه ثمة أسباب أخرى هناك لحالة الاكتئاب المتزايدة لديها. كانت امرأة ذكية ومثقفة وكانت تعمل مدرسة قبل أن ترتبط بزوجها الأول.

وكانت على وعى بأن الأحوال فى العراق تزداد سوءًا وأن الحكومة بدأت فى الانهيار التدريجى.

وفى الوقت نفسه الذى أجريت فيه عملية التجميل لسميرة كان الرئيس يعانى من مسمار فى القدم أحضرونى إليه فى أحد القصرين بالرضوانية بالقرب من المطار الدولى ببغداد.

كان القصر محاطًا بحديقة كبيرة وطرقا ومجموعة من البرك المخصصة لتربية الأسماك.

وبعد أن فحصت عين السمكة فى قدمه اليمنى ونصحته باستئصالها، طلب صدام من أحد الحراس أن يصطاد لى من إحدى البرك خمس سمكات من سمك البحيرة.

كان صدام شديد الكرم، وذلك على العكس من باقى عائلته الذين كانوا فى منتهى البخل.

قلت للرئيس معترضا عندما جاء الحارس بالسمك: «هذا كثير جدا» فقال لى صدام: خذها معك لزوجتك فى البيت، فستفرح بها. إن النساء يحببن أن يكون لديهن أكثر مما يحتجن. فيمكنك أن ترى ذلك كل يوم فى السوق. إنهن لا يرضين أبدا بما يأخذونه. هذا شىء فى فطرتهن لا فارق فى ذلك بين الذكيات منهن والغبيات أو إن كن نشأن فى الريف أو هنا فى بغداد. كلهن سواسية ولا جدوى من محاولة تغييرهن.

وقلت له: ربما يجب عليك أن ترتدى أحذية أكبر، ولكن محاولتى أن أنبهه لمشكلته الطبية الخطيرة باءت بالفشل، فالرئيس كان مشغولاً بحديثه عن الجنس اللطيف. واستكمل حديثه قائلاً: «إنهن عاطفيات ورومانسيات ومن الصعب عليهن اتخاذ القرارات؟ هن ضعيفات بالطبيعة. ولكنهن أكثر صدقًا من الرجال وعندما يقررن شيئًا فإنهن يضحين بكل شىء من أجله. إنهن يستحققن أن نستمع إليهن وأن نتيح لهن فرصة التأثير فى المجتمع والحصول على نفس حقوق الرجال. ولكن طبعًا فى إطار يتفق مع ديننا وتقاليدنا وحضارتنا. فإننا حافظنا دائما على الأخلاق طوال تاريخنا المجيد». وتركت السمك للحارس عندما خرجت من عند صدام وأخذت واحدة كان الحارس قد شواها على النار.

كان موقف صدام تجاه المرأة بالمقارنة بباقى الرؤساء فى الشرق الأوسط موقفا تقدميًا على الأقل من الناحية الرسمية. فقد غضب الشيوخ والملالى فى العراق - ذلك المجتمع المتدين الذى تسيطر عليه الأحكام القبلية - عندما سمعوا أنه فى المستقبل يجب على الرجل أن يتكفل بمصروفات مطلقته وأن ينتظر ثلاث سنوات قبل أن يسمح له أن يخرجها هى والأطفال من البيت الذى كانوا يسكنون فيه معًا، وأن كل ما فى البيت من أثاث وممتلكات يصبح من حق المرأة دون نقاش فى حالة الطلاق. كما أصبح للمرأة حق الانفصال عن زوجها.

ولكن صدام نفذ قرارات الإصلاح تلك على الرغم من كل الأصوات المتعالية بالاعتراض. ولم تمض فترة طويلة إلا وتعرضت القوانين الجديدة لاختبار صعب إذ حدثت واقعة فى عائلة صدام.

رجع برزان أحد الإخوة غير الأشقاء لصدام فى إجازة إلى العراق من جنيف حيث يشغل منصب سفير العراق لدى الأمم المتحدة، وجاء صدام لزيارته، وكانت مشكلة بخصوص «سجا» ابنة السفير، إذ طلب صدام منه أن يزوجها لعدى.

وبالنسبة لفتاة صغيرة جميلة ومثقفة كان عدى هو أسوأ شخص يمكن أن تتزوجه، فلم يكن هناك فى بغداد من هو أكثر منه مرضًا.

وبالفعل تم الزواج بعد شهرين ؛ وبعد الزفاف بأربعة أيام كان عدى بصحبة عدد من الداعرات فى جناح بفندق الرشيد مما أدى لفضيحة جديدة فى بغداد.

خرجت سجا إلى بيت ساجدة لأن والديها كانا فى جنيف وحاولت دون جدوى أن تقنع عمها بالموافقة على تطليقها، ولكن الرئيس رفض وطلب منها أن تتحدث مع عدى فى ذلك الموضوع. ولكن عدى رفض الحديث فى موضوع الطلاق وقال لها: «إن عائلتنا لا تعرف الطلاق».

ورأى عدى أن يلجأ للحل المعتاد لديهم فى عرف البدو وهو أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى ويترك الأولى على حالها، ويكفيها أنه يوفر لها المأوى والطعام والملبس، وهذا ما أراد فعله مع زوجته. كانت إقامتها عند حماتها بمثابة التواجد فى سجن. وقد رأيتها عدة مرات وأنا أقوم بزيارات منزلية عند ساجدة وكان من الفظيع جدًا أن أرى عينيها

الباكيتين وهما تستغيثان طلبا للمساعدة. ومن حسن الحظ أن أباها انتبه أخيرا لمدى جدية المشكلة ونزل إلى بغداد واستطاعت ابنته أن تزوره وسافرا سراً من العراق إلى جنيف.

ساءت العلاقة بين صدام وبرزان عندما عُزل برزان من منصبة كرئيس للمخابرات سنة ١٩٨٣ وبالطبع لم تتحسن العلاقة بعد فشلَ الزيجة التى أجبرت عليها ابنة السفير. ثم ازداد الوضع سوءاً بعدما استدعى صدام أخاه غير الشقيق من جنيف سنة ١٩٩٨، وكانت أحلام زوجة برزان وقتها على فراش الموت ولكن ذلك لم يؤثر فى موقف صدام، استطاع برزان بصعوبة شديدة إقناع صدام بأنه لا يستطيع أن يترك زوجته وحدها وهى تموت فى إحدى مستشفيات سويسرا.

وفى رأيى كانت أحلام أكثر نساء عائلة صدام شجاعة وصدقًا. كانت ذكية وماهرة ولم تكن تتجنب الاصطدام بالرئيس أبدًا. سمعتها أكثر من مرة وهى تنتقد نظام الحزب الواحد والديكتاتورية وعدم وجود حرية صحافة أو حرية رأى فى العراق، وكانت دائمًا تقول: «سينهار هذا النظام إن آجلاً أو عاجلاً».

ولم يكن صدام يحتمل رؤية زوجة أخيه وكان يسميها «الحية الصفراء» وعلى النقيض منه كان برزان يحبها من كل قلبه. بعد موتها بدأ فى بناء مقبرة كبيرة لها فى تكريت، كان من المفترض أن تصل لارتفاع خمسين متراً ولكن حكومة صدام انهارت قبل أن يكتمل المشروع.

تم تعيين برزان عند عودته من سويسرا مستشاراً للرئيس، ولكن صدام لم يسأله أبداً عن رأيه فى أى شىء. وكذلك لم يسأل الأخوين سبعاوى ووطبان بعد أن عزلهما عن منصبيهما كوزير للداخلية وكرئيس للمخابرات فى منتصف التسعينات. وبالرغم من ذلك فقد احتفظا بالحراس وبالسيارات المرسيدس الليموزين المدرعة وكانا يحظيان باحترام كبير.

فى نهاية أبريل ٢٠٠١ اتصل بى برزان وطلب منى الحضور لأن لديه أمرا هاما يجب ألا يطلع عليه أحد سواى.

ومن شدة فضولى ذهبت إليه على الفور، وبعد تقديم القهوة قال لى وكان يتصبب

عرفًا وبدو شاحبًا: لقد اتخذت اليوم قرارًا ويسعدنى أن تساعدنى فى تنفيذه. سألت نفسى ما إذا كان هناك محاولة انقلاب على صدام ويريدنى أن أشترك فيها، وتوقعت أسوأ الاحتمالات. إذ كان برزان أبرز منتقدى صدام سرا وعلانية وكان أولاد صدام يكرهونه كرها شديدا.

ولكن برزان لم يقل لى شيئًا وإنما طلب منى أن أصحبه فى سيارته إلى شارع المنصور. وتوقفنا هناك عند بيت فاضل البراك، رئيس المخابرات السابق، الذى اتهمه صدام منذ سنوات بالخيانة وتم إعدامه. ودخلنا فى البيت المجاور له، واستقبلنا رجل وقور كبير السن، كان يعمل لسنوات عدة كقاض. وكان قاضيًا محترمًا ومعروفًا قبل أن يحال إلى المعاش. هذا الرجل الوقور هو أبو أرملة فاضل. وقد جاءه برزان طالبًا الزواج من ابنته. قال الأخ غير الشقيق لصدام: كما ترى لقد جئتك اليوم مع صديق عزيز على، أقدره وأحترمه أكثر من كل إخوتى.. لم أحضر معى أى شخص آخر لأنه هو وحده بمائة رجل.

وعلى الرغم من أن التقاليد العربية كانت تفرض على الخاطب أن يأتى فى كوكبة من أهله وأصدقائه وعشيرته كتعبير عن احترامه لأبى الفتاة المطلوبة، إلا أن القاضى قد ظهر عليه التفهم والقبول وقال لنا: يسعدنى ويشرفنى أن أستقبلكم هنا فى بيتى.

وحكى له برزان عن صعوبة ظروفه بعد وفاة زوجته التى كان يحبها كثيرًا وقال له إنه هو الآخر قد مر بظروف صعبة كالتى مرت بها كريمته جنان فى السنين الماضية، وقال: أنا أحترمها وأقدرها جدًا، وأحب أن أطلب يدها منك للزواج.

فقال له القاضى: بارك الله لكما.

كانت جنان امرأة جذابة جدًا فى الأربعينيات من عمرها، استقبلتنا فى صحبة ولديها وبناتها الثلاث، وجميعهم أتم دراسته الجامعية، وكانوا مرتدين أفضل ثيابهم بمناسبة زيارتنا، وقدموا لنا الشاى والجاتوه.

وفى طريق عودتنا من الخطبة الناجحة ونحن فى السيارة سألت برزان ما إذا كان أخبر صدام برغبته فى الزواج فأجابنى: «لا، ولماذا أخبره»؟

فقلت له: لو كنت أعرف أنك لم تخبره لما أتيت معك. فسألنى: «لماذا؟...



يمكننى أن أفعل ما أشاء. . . صدام أيضًا يفعل أشياء كثيرة دون أن يسأل أحد. أنه لا يسألنى عن أى شىء».

«هذا شىء مختلف تمامًا، فكيف سيكون موقفك إذا تزوج ابنك دون أن يخبرك»؟

فأجاب على سؤالى قائلاً: «لم يصبح لى أى أهمية لا على المستوى السياسى ولا على المستوى العائلى، لذلك أفعل الآن ما أشاء».

فقلت له: «أظن أن ما حدث اليوم سيوقعنى فى مشاكل».

وبعد سبعة أيام تم الاحتفال بالزفاف، وكما توقعت فقد غضبت على عائلة صدام بسبب مساعدتى لبرزان. قالت لى ساجدة: «لقد كان من الخطأ مساعدتك له، إنها ضربة قاسية للعائلة بأكملها أن يتزوج برزان أرملة رجل خائن».

ومن حسن الحظ لم يقل صدام أى شىء عما حدث، ولكنه دعى إخوته غير الأشقاء الثلاثة ليتباحث معهم الأمر.

قال صدام لبرزان: «يجب أن تطلقها فوراً وإلا فلن تصبح أخونا بعد اليوم».

لم يوافقهم برزان لمطلبهم ولم يطلقها بعد ذلك. الآن انقطعت جميع حبال الوصل بين برزان وإخوته صدام وسبعاوى ووطبان.

الفصل السادس عشر

المصعد

كان مكى حمودات، وهو ضابط كبير برتبة لواء ركن، قصير القامة أشيب الشعر فى الخمسينيات من عمره، وكان يرى فى نفسه رجلاً مهمًا، لأنه المستشار العسكرى لعدى صدام حسين.

عندما زارنى فى المستشفى فى صباح العشرين من يونيه سنة ٢٠٠١، لم يحضر ليتباحث معى فى قضايا عسكرية أو سياسية وإنما جاءنى لأمر آخر، حيث قال:

«يحتاج نجل الرئيس إلى المصعد الذى لديكم».

كان المصعد الذى لدينا هو الوحيد فى مركز صدام لجراحات التجميل فى بغداد، وكنت أنا مديره الطبى والتنفيذى منذ ١٩٧٦، عندما كان المركز مجرد مستشفى استقبال حوادث عادى. وكان مستشفانا يتكون من مائة وعشرة من الأسرة وأكثر من ثلاثمائة موظف بينهم خمسين طبيبًا. وكان المبنى يتكون من طابقين فقط.

وهذا ما كان يشير إليه الفريق مكى فى كلامه، حيث إنه على بعد كيلومتر واحد شرقًا من مستشفانا كان مستشفى حيدر للنساء، الذى يتكون من طابقين بدون مصعد.

لذلك فإن الفريق مكى كان يرى أنه من الأفضل أن ينتقل المصعد من عندنا إلى هناك، لأننا فى رأيه يمكن أن نصعد السلم بين الطابق الأرضى والأول بغير عناء.

قبل هذه الواقعة بأسابيع استولى عدى على مستشفى الحيدرى للنساء والتوليد فى سرية تامة وكان بصدد تحويله إلى أحدث مستشفى فى العراق. فقد فطن عدى إلى

إمكانية التربح من قطاع الصحة. ولأنه كان يريد أن يبقى الأمر سريا، فقد واجه صعوبة في الحصول على التجهيزات الطبية والتقنية والمعدات اللازمة عبرا لقنوات الرسمية ليتمكن من تحقيق مشروعه. وكان المصعد من أهم ما ينقصه. شرح لى اللواء الركن الموقف وصرح لى بأنه يعتبرنى مَرِنا بدرجة كافية ستجعلنى أوافق على طلب عدى.

فقلت له إننا نحتاج المصعد فى مستشفانا، وبالإضافة إلى ذلك فأنا لا أستطيع أن أتنازل عن شيء من الملكية العامة دون أمر من السلطة العليا. عندها أخرج لى ورقة من جيبه الداخلى ووضعها على المكتب أمامى، كانت الرسالة الموجهة لى من الدكتور عميد مدحت مبارك وزير الصحة موجزة فى جملة واحدة تقول: «دكتور علاء، هل تعتقد أنه من الممكن أن ينقل المصعد من مستشفاكم إلى المستشفى الجديد الخاص بعدى»؟ فقلت معترضًا: «هذا ليس خطابا رسميا، والصيغة هى سؤال وليس أمرا بأن نقوم بفك المصعد من مكانه وتركه لكم».

استشاط اللواء الركن غضبًا واحمر وجهه وخرج ضاربًا الباب بعنف لأنه سيعود لعدى صفر اليدين.

وشعرت أن ما حدث ستكون له عواقب وخيمة ليس فقط علىّ ولكن على وزيرى الدكتور مبارك أيضًا.

ولأن الدولة أصبح يغشاها الفساد والظلم فلم يبق أحد من الوزراء أو فى الجهاز الإدارى إلا وتوجب عليه أن يتوخى الحذر دائمًا. فلم يعد هناك أمان. عندما أفكر فى تلك الأيام أجدها كابوسًا كئيبًا. وكان من الطبيعى وقتها أن نكتسب بعض الصفات الخاصة التى تساعدنا على ألا نضيع فى متاهة النظام الحاكم وما يواجهنا من تعقيدات شخصية وسياسية وعملية. وهذا ما أثار إعجابى بوزير الصحة الدكتور مبارك الذى استطاع البقاء فى منصبه منذ نهاية حرب الخليج وحتى دخول الغزو الأمريكى إلى العراق فى شهر أبريل من العام المنصرم.

كانت لدى مدحت مبارك قدرة عالية جدًا على التأقلم مع كل المتغيرات الاجتماعية والسياسية. حيث وُلد وتربى الدكتور - الذى كان فى نفس عمرى - فى السليمانية فى شمال العراق. وقد اشتهر فى البداية كمقاتل فى حرب العصابات التى كان يقودها

وقتئذ قائد الأكراد مصطفى برزانى. يقول البعض إن عائلته تنتمى لقبيلة النُعيمى العربية. قد يكون جمال العراق فى هذا الخليط الرائع للقوميات المتآخية افتراضا. وعلى أية حال فقد غَيَّرَ الجهة التى كان ينتمى إليها وهو طبيب شاب وأصبح مديرا للمستشفى الحكومى الجمهورى الموجود ببلدته.

وقد حدثت محاولتان لاغتياله من قبَل جماعات المقاومة الكردية. حتى أنه أصيب فى المحاولة الثانية بجروح بالغة بالصدَر بعد أن أُطلقت عليه عدة أعيرة نارية من مدفع كلاشنيكوف. ولذلك قرر بعدها الحياة فى بغداد الأكثر أمنًا. ثم تم تعيينه بعد ذلك مستشاراً طبيًا للرئيس، وحصل بعدها على مقعد فى البرلمان، وبعد فترة قصيرة قضاها كوزير للشئون الاجتماعية عينه صدام وزيراً للصحة.

ولم تنهل الإهانات والمضايقات على رجل فى حكومة صدام مثلما انهالت على هذا الوزير.

وكما توقعت لم يمض وقت طويل حتى وقع مدحت مبارك فى مشكلة كبيرة بسبب المصعد الموجود فى مستشفانا. اتصل بى الوزير وطلب منى الحضور إلى مكتبه على الفور، ولم يذكر لى الموضوع الذى يريدنى بشأنه. وفهمت أن المشاكل قد بدأت، لأنه اتصل بى فى السابعة صباحًا وعلى غير العادة من مكتبه وكان ذلك بعد يوم واحد من زيارة مستشار عدى العسكرى لى.

كان الوزير مكفهر الوجه ويبدو عليه الإنهاك، عندما دخلت عليه قال لى: «لقد علم صدام بموضوع المصعد».

لا أعرف كيف، لكنه حكى لى كيف زاره ثلاثة من مسئولى ديوان الرئاسة لاستجوابه حتى ساعة متأخرة من الليل. أعطوه خطابًا كتبه الرئيس بيده يطالبه فيه بشرح كيف يمكن لوزير يثق فيه الرئيس أن يخطر بباله أن يعطى لمستشفى خاص مصعداً مملوكًا لوزارة الصحة.

أعطانى مبارك الخطاب وكان فيه كلمات كثيرة مشطوبة مما يدل على أن صدام قد كتبه وهو فى ثورته.

كان صدام يسمح لقصى وعدى وباقى حاشيته بأن يفعلوا ما بدا لهم فى ظل



الاقتصاد المتهالك والفساد العام، ولكنه كان يرفض أن تحدث سرقات واضحة من الأموال العامة.

سألنى الوزير بصوت خافت: «بماذا أرد على الرئيس»؟

فأوضحت له بداية أننى لست الشخص الذى أخبر صدام بموضوع المصعد، وذلك لأتجنب أى شك قد يساوره. والحقيقة إننى للآن لا أعرف من قام بإخبار صدام عن هذا الموضوع. فالرئيس له مصادره التى تمده بالمعلومات فى كل مكان، ولذلك فقد كان من المتوقع أن يصل إلى مسامعه موضوع المصعد وأن يهتم به كما يهتم بكل آمال وآلام الأمة. فهل يسمح الرئيس بأخذ مصعد من مستشفى حكومى لينقل إلى مستشفى خاص.

ولأنى أعرف أنه يتم التنصت على مكتب الوزير فلم يكن هناك مانع فى أن أبالغ بعض الشىء.

واستطردت فى كلامى ذاكراً أن المصعد معطل عن العمل منذ أكثر من عشر سنوات.

لقد تم تغير اسم مستشفى الواسطى سنة ١٩٩٦ إلى مركز صدام لجراحات التجميل، وكان المركز على بعد ثلاثمائة متر من مركز آخر رمادى اللون، مكون من ثلاثة طوابق بها عدد قليل جداً من النوافذ الصغيرة وكان ممنوع الاقتراب منه لأنه مبنى المخابرات.

وكلنا كان يعرف ما يحدث هناك.

أثناء الهجوم الجوى على بغداد فى فبراير ١٩٩١ قصف الأمريكان هذا المركز الذى ربما كان أسواء معتقل تعذيب أنشأته الحكومة العراقية. ولأن هناك أرض غير مبنية بين ذلك المركز الذى دُمر تمامًا وبين مركزنا، فقد تعرض مركزنا لأضرار كبيرة. وكانت أبواب المصعد هى أكثر ما تعرض للتلف.

وأثناء الفوضى التى حدثت فى أعقاب الانفجارات تعرض المركز للسرقة، وكان من بين ما سُرق لوحات التشغيل وأجزاء هامة من المصعد. وفى السنوات العشر التى تلت ذلك كان شراء أبواب جديدة وقطع غيار للمصعد فى ذيل قائمة مشتريات وزارة الصحة. وكان هذا هو السبب فى بقاء المصعد فى مستشفانا.

اقترحت على الوزير أن يخبر الرئيس بالحقيقة وهى أن المصعد معطل وأن الوزارة بصدد شراء مصعد جديد: «لذلك فلم أر مشكلة فى أن أترك المصعد القديم المعطل لعدى، طالما يحتاج هو إليه».

ورأيت كيف تعلق مبارك ذلك الحائر والقلق بهذا الاقتراح وكأنه «غريقًا يتعلق بقشة». فربما يرضى صدام بهذه الإجابة.

وكان الأمر الأسوأ بالنسبة للرئيس هو اكتشافه أن المصعد لم يكن هو الشىء الوحيد الذى أراد عدى الاستيلاء عليه من وزارة الصحة ليستكمل تجهيز مستشفاه الخاص فى أسرع وقت، فقد طمع عُدى ليس فقط فى المصعد ولكن أيضًا فى كل شىء آخر احتاج إليه من مستشفيات بغداد الحكومية. كان الأطباء الذين عينهم يكتبون له قوائم بما يحتاجونه ثم يقوم مكى حمودات بالاستيلاء عليها وجلبها لمستشفى الحيدرى.

كان هذا أسهل الحلول بالنسبة لعدى، كى لا يضطر أن ينتظر طيلة الشتاء والربيع حتى يتمكن من الحصول على ما يحتاج إليه بالطرق الرسمية.

كان اللواء مكى يقوم بتفتيش المستشفيات فى سرية تامة، وكان على الأطباء والممرضات أن يقفوا مكتوفى الأيدى وهم يرون مندوب ابن الرئيس وهو يستولى على معداتهم الطبية وأجهزتهم الضرورية والأدوية وحتى أدوات العمليات الجراحية. وبعدها كانوا يضطرون للعمل بما تبقى لهم بعد هذا السطو على مستشفياتهم.

ولم يكن من السهل تعويض ما سرقه عدى، فقد كان طلب معدات أو تجهيزات جديدة بمثابة كابوس طويل ومخيف يؤرق مديرى المستشفيات، بالرغم من أن برنامج «النفط مقابل الغذاء» الذى طبقته الأمم المتحدة كان لابد أن يوفر لنا مثل هذه الاحتياجات، ولكن الواقع العملى كان على خلاف ذلك فقد كانت البيروقراطية العراقية التى يجب أن تفحص مطالبنا كعادتها بطيئة ورديئة. ولم تساعدنا بيروقراطية العقوبات الاقتصادية هى الأخرى. وأسوأ ما فى الأمر هو عدم الاكتراث بالآراء والأحكام الطبية عند الشراء ولكن كان الأهم دائمًا هو اختيار الموردين الذى يدفعون أعلى العمولات لعصابات الذئاب.

تولى صديقى الدكتور عدنان الناصرى لفترة قصيرة إدارة مكتب شكاوى الرئيس، وكان أصحاب الشكاوى بإمكانهم أن يكتبوا له أو يتصلوا به هاتفيًا ليحكوا له مشاكلهم

شخصيًا. وربما أبالغ إذا قلت أن مكتب الشكاوى هذا كان له تأثير كبير فى حل المشاكل.

ولكن من الغريب أن وصول مشكلة المصعد لمكتب الشكاوى وقد كان صديقى أحد الثلاثة الذين استجوبوا الوزير طوال الليل. وطلب منى الدكتور عدنان أن أحضر إلى مكتبه ليحصل منى على بعض المعلومات عن الموضوع. ولما كنت أعلم أن مكتبه يتم التنصت عليه هو أيضًا، لذا فقد قلت له نفس ما قلته لوزير الصحة.

وضع أمامى ورقة صغيرة على المكتب مكتوب فيها: «عندى صورة من خطاب وجهه صدام لعدى بخصوص المصعد». وكانت عادتنا فى المكاتب الحكومية فى بغداد عند الحديث فى أمور حساسة أن نكتب وريقات صغيرة لبعضنا البعض لنتبادلها، وذلك من باب الاحتياط.

وبدأت أقراء المكتوب بالورقة: «كيف تجرؤ وأنت إبنى على أن تأخذ من مَبنى حكومى عام شيئا لتضمه إلى ملكيتك الخاصة؟ إن العمل فى مجال المستشفيات ليس مجال عملك. كيف تجعل طبيبة تدعى أنها اشترت مستشفى الحيدرى، بينما يعرف الجميع أنك أنت صاحب هذا المشروع؟ يتعين عليك فى المستقبل أن تتقدم للحصول على موافقة وترخيص بالعمل وامتلاك مستشفى مثلك فى ذلك مثل أى مواطن عراقى». ظهر واضحا فى تلك الرسالة أن صدام كان فى غاية الانزعاج من عدى. كتب له: «ينبغى أن تعرف أنك بهذه الأفعال لا تسىء لنفسك وحسب بل تسىء إلىّ وإلى سمعتى. فإنك لو لم تكن ابن صدام حسين ما كان فى استطاعتك فعل ما تفعل! إن الناس سوف يتكلمون عنى بالسوء». طلبت من عدنان الناصرى نسخة من هذه الرسالة، إلا أنه رفض لخطورة ذلك على نفسه، وكان محقا فى ذلك.

وكان الأب وابنه يتواصلان عادة عن طريق الخطابات، ويتجنبان الكلام فى الهاتف لأنهما ينطلقان من أن مكالماتهم سيتم تنصت عليها. وفى المعتاد كان قصى وعدى يضطران إلى تحديد مواعيد مع أبيهم عن طريق سكرتيره الخاص والرجل القوى عبد حمود. ولم تكن هناك علاقة يومية بينهما وبين أبيهما، لذا لم يتبق أمامى بعد رفضى لطلب مستشار عدى العسكرى وبعد أن تلقى عدى من أبيه خطاب تأنيب لهذا السبب إلا أن أنتظر انتقام عدى منى.

لذلك فلم أدهش عندما حضر إلى المستشفى بعد ثلاثة أيام اثنان من المحررين الصحفيين ومصور من العاملين بجريدة بابل التى يمتلكها ويرأس تحريرها نجل الرئيس.

وبالطبع كان أول ما فعلوه هو تفقدهم للمصعد التعس والتالف، كما قاموا بتصويره من كل الجهات ثم جاءوا إلى مكتبى، وطلبوا منى التعليق على وضع المصعد المعطل الذى اعتبروه فشل إدارى سببه الإدارة السيئة للمستشفى التى لم تتمكن من عمل أى شىء لإصلاحه على مدار عشر سنوات.

وأكدوا لى أنهم سيقومون بنشر هذا المقال فى جريدتهم.

وأخبرتهم أنى متشوق لقراءته وشكرتهم لاهتمامهم بهذه المشكلة وأن المستشفى يعتمد على مجهوداتهم الصحفية التى ستعود علينا بالفائدة بكل تأكيد: «لقد كتبنا مرات كثيرة لا حصر لها لوزارة الصحة وطلبنا منهم إمدادنا بالأموال وقطع الغيار اللازمة لعمل الإصلاحات ولكن حتى الآن دون جدوى، كما رأيتم بأنفسكم».

ثم شكرنى المحرران والمصور وخرجوا، وسألت نفسى ما إذا كانوا سيقومون فعلاً بنشر هذا المقال، لأنهم إذا فعلوا فسوف أفقد عملى كمدير للمستشفى، فمعظم من هاجمتهم هذه الصحيفة واتهمتهم بالتقصير فقدوا أعمالهم سواء كانوا وزراءً أو كانوا مثلى فى ذيل السلم الوظيفى.

وقد كانت لى مشكلة سابقة مع جريدة بابل فى الفترة بين نهاية عام ١٩٩٢ وبداية عام ١٩٩٣ عندما دعانى عدى ذات مساء وحدثنى فى أمور كثيرة وامتدح إنجازاتى كطبيب وكفنان وطلب منى أن أكتب فى جريدته كلامًا فيه إساءة لبعض الوزراء وأصحاب المناصب العليا فى حزب البعث، وفى المقابل وعدنى أن تقوم الجريدة بامتداحى وتمجيدى ونشر صورتى بنفس الحجم الذى تنشر به صورة صدام على صفحة الغلاف.

فاجبته بأننى لا أعرف تلك الشخصيات التى ذكرها ولذلك فلست مؤهلاً لهذه المهمة. ولكنه أكد لى أن ذلك لا يعد مشكلة على الإطلاق، وأضاف قائلاً:

«سنمدك بكل المعلومات اللازمة».



بالرغم من ذلك أعدت عليه رفضى للعرض وقلت له: «أنا لست موهوبًا فى الكتابة».

ولا أجد مسوّغا أن أسمح لنفسى شتم المسئولين على صفحات الجرائد بدون مبرر.

وبعدها بخمسة أيام نشرت الجريدة صفحة كاملة عن: مستشفى الدكتور علاء بشير الخاص فى بغداد. ذكروا فى المقال أن الدكتور علاء يتربح من مرضى جراحات التجميل ويطلب منهم أتعاب مبالغ فيها واتهموا سكرتيرى بالاحتيال وبأنها تقنع المرضى الذين يقعوا فى مخالبنا بعمل صور بالأشعة وتحاليل دم، بالرغم من أن معظمهم لا يكونوا فى حاجة لها. بالإضافة لذلك فقد اتهمونني بالعجرفة والغرور والوقاحة. وفى ختام المقال طالبونى ألا أنسى أنه حتى فرعون قد مات وأنه لم يأخذ معه شىء مما جمعه من المال ومن عرض الدنيا.

وما إن نزلت الجريدة إلى الأسواق حتى أُوقف توزيعها. وفى اليوم التالى تلقيت اتصالاً من وزير الثقافة حامد حمدى الذى أخبرنى أن لديه تعليمات بأن يتيح لى إمكانية الرد. يمكننى أن أكتب ما شئت وسيظهر فى جريدة اليوم التالى ويذاع فى التلفاز. ولكنى رفضت، فما كُتب فى الجريدة لا يستحق الرد. وقلت له:

«دعهم يقولون ويكتبون ما يشاءون، فستثبت الأيام من كان منا على حق ومن كان الكذاب. والناس يعرفوننى ويعرفون أن هذا المقال مجرد هُراء. ومن لا يعرف ذلك الآن، فسيعرفه بعد فترة».

وبعد أسبوع قابلت ساجدة أم عدى واعتذرت لى على ما جاء فى المقال وأخبرتنى أن صدام غضب جداً عندما قرأه وقالت إنهم يأسفون جميعا لما حدث، وأن عدى نفى عن نفسه أى مسئولية وأخبر عائلته أن المقال تم تحريره ونشره دون علمه أو اشتراكه.

ولم يظهر أى مقال عن المصعد المعطل أو العمل الردىء فى مركز صدام لجراحات التجميل مرة أخرى، مما أصابنى بالدهشة. وعلى الرغم من علمى بأن صدام مازال يكن لى الاحترام والتقدير إلا أن عدى كان يتمادى فى تنفيذ رغباته رغم أنف أبيه. وكنت أشعر أن الرئيس لا يجروء على وضع حد لحملات عدى الانتقامية خوفًا من أن

بفلت زمام جنون عدى. كان نجل الرئيس يسىء استغلال حرية الصحافة من خلال جريدة بابل وعن طريق محطة تليفزيون الشباب التى كان يمتلكها. وفى أحد الأيام وأثناء إجرائى لعملية جراحية، إذا بمُعد برامج من محطة الشباب يأتى إلىّ فى العيادة ويطلب منى أن أذهب معه لتصوير برنامج حوارى.

فأجبته: «لا أستطيع الحضور معك فغرفة الانتظار بها مرضى كثيرون ولا يمكن أرسلهم إلى منازلهم الآن».

فقال لى: «يجب أن تحضر وإلا فسيغضب عدى فهو مُصِر على اشتراكك فى هذا البرنامج».

فقلت له: «ولكننى حتى لا أعرف موضوع البرنامج ولست مستعداً له. يؤسفنى أننى لن أستطيع الحضور».

فسألنى: «هل يمكنك أن تتصل بالمنتج»؟

فأجبته: لا، لن أفعل. اتصل أنت به وبعُدى وأخبرهما أنك لم تجدنى وسأغلق أنا العيادة وأذهب إلى أى مكان لا يجداننى فيه.

كنت أعرف هذا الشاب فهو ابن صديق لى يعمل مهندسا معماريا. قلت له: أبوك صديق عزيز على، والآن ستفعل ما أخبرتك به. فوافق على مضض وخرج من عندى. ولم تمض دقيقتان إلا وكان عندى مرة أخرى قائلاً أرجوك يا دكتور علاء لا تتسبب لى فى مشكلة، إذا اكتشفوا الأمر سأكون أنا فى خبر كان.

«لا تخف، لا أحد غيرنا نحن الاثنين يعرف بالأمر».

«الله مطلع علينا ويعرف كل شىء، أرجوك اتصل بالمنتج».

اتصلت به فقال لى: «عدى يجلس بجوارى وطلب شخصياً اشتراكك فى البرنامج مع مجموعة من الضيوف وأنا أخشى أنك إذا لم تحضر فسوف يقولون عنك أشياء كثيرة لن ترضيك».

كنا خمسة من المشاركين فى البرنامج، مطربة أردنية وزوجها، مطرب عراقى وواحد من وزراء صدام وكنت أنا جالساً بجوار المذيعة وهى شابة بالغة الجمال، ودون



أن يلاحظ أحد دفعت إلى بالورقة التى كُتبت فيها الأسئلة وأرادت بذلك أن تُعلمنى أنها لم تكن فكرتها هى ولا الأسئلة من إعدادها.

كان السؤال الأول: لماذا لا تحب التعاون مع محطتنا؟

وبعد أن أجبت عن السؤال بأنها ليست مشكلة تمامًا بالنسبة لى أن أظهر فى برامج عدى، استكملت أسئلتها التى كانت على غرار السؤال الأول، مثلاً لماذا أتصرف وكأنى أفضل من الآخرين، لماذا أنا دائمًا عنيد وهكذا. وتحول الموضع برمته إلى حرب كلامية. وعندما انتهت الحلقة، اقتربت منى المذيعة وهمست إلى: «أرجوك أن تطلب منى اصطحابك إلى الخارج. وبدا عليها الخوف والهلع. غادرنا الأستديو سويًا واصطحبتنى إلى الباب الرئيسى حيث انتظرها معد البرامج الشاب فى سيارته القديمة ماركة فولكس فاجن، وتركنا المكان معًا، كان هذا الشاب هو خطيب المذيعة. ونحن فى السيارة شكرانى وقالا لى أن عدى طلب مقابلة المذيعة الحسناء وحدها بعد التصوير فى حجرة خلفية. وبعد شهر تزوجا وهربا إلى الأردن.

كان نجوم الغناء أكثر من عانى من عدى، فقد كان حاقداً عليهم لأن الفتيات والنساء فى العراق يتهافتن عليهم.

فى صباح أحد الأيام وبينما كنت أجرى عملية جراحية لأحد مرضانا إذا بمصور وفنى صوت ومحرر صحفى من محطة الشباب يقتحمون علىَّ غرفة العمليات المعقمة بغير سابق موعد.

فسألتهم عما يريدون فقالوا لى: أرسلنا إليك عدى لنجرى معك حواراً عن زرع الشعر.

طردتهم على الفور من غرفة العمليات ولكنهم انتظرونى بالخارج وعند خروجى من غرفة العمليات سألونى: «هل أجريت عملية زرع شعر منذ ثلاثة أعوام لواحد من أشهر مطربينا»؟

واستكمل سؤاله وهو ممسك بالمكرفون أمام فمى: «نود أن نعرف منك ما إذا كانت تلك العملية قد نجحت»؟ فكان ردى: «أنا لا أذكر أى شىء عن عملية كهذه».

«كيف يمكن أن تنسى شيئا مثل هذا؟ هو بنفسه أخبرنا عن العملية»

«فى هذه الحالة فلا داعى إذن لسؤالى أنا، اسألوه هو»!

«يجب عليك أن تجيب على سؤالنا، وإلا فإن عدى سيستشيط غضبًا».

«آسف جدًا ولكنى لا أذكر مثل هذه العملية».

وفهم الصحفى أنه لن يصل إلى إجابة منى ولذلك فقد طرح على بعض الأسئلة العامة مثل: «هل تنجح فى العادة زراعة الشعر»؟

فأجبته: «نعم».

«وهل أنت متأكد أنك لم تجر عملية كهذه للمطرب الذى نسألك عنه»؟

فأجبته: «نعم».

غضب الصحفى جدًا وقام المصور بإيقاف الكاميرا وعادا معًا إلى محطة التليفزيون المملوكة لنجل الرئيس وهما صفر اليدين.

ومع ذلك لم يسلم منهم المطرب، فقد كان الخبر الرئيسى فى الأخبار المسائية بمحطة الشباب هو أن جيرانه ثائرون على ذلك التحول غير الأخلاقى فى حياته وظهر مدير الشرطة فى المنطقة التى يسكن بها المطرب وهو يؤكد لنفس الصحفى الذى أجرى معى الحوار أن المطرب المعنى قد تغيرت حياته فى اتجاه لا أخلاقى ولهذا فقد أصبح يمثل مشكلة كبيرة حتى أن جيرانه طلبوا من الشرطة أن تطرده من المدينة.

كما أكد قائد الوحدة العسكرية التى أدى فيها المطرب خدمته الوطنية لمذيع محطة الشباب أنه كان جنديًا سيئًا، ودخل الحبس العسكرى أكثر من مرة لتقصيره فى أداء واجباته.

بالإضافة لذلك فقد قاموا بإفشاء سر عملية زرع الشعر ليثيروا ضده معجباته من الفتيات والنساء. وبعد ذلك أذاعوا اللقاء معى كاملاً.

فى اليوم التالى اتصل بى عبد حمود سكرتير الرئيس قال لى: «لقد كانت شجاعة منك أنك لم تخف من محرر الشباب، إن تصرفك المحنك وحفاظك على آداب المهنة دون تهاون أمر يستحق الاحترام».

كان حمود لا يطيق عدى.

لحق بكثير من المطربين الضرر من عدى، فقد كان يدعوهم الواحد تلو الآخر لحفلاته وكان يجبرهم على الغناء طوال الوقت منذ مجىء الضيوف وحتى ذهاب آخرهم. حتى المطرب العراقى الشهير كاظم الساهر لم ينج من حسد وحقد نجل الرئيس.

كان كاظم الساهر من مشاهير المطربين فى الشرق الأوسط كله وكان يظهر دائمًا فى البرامج التلفزيونية وهو محاط بالجميلات. عندما حضر ذات مرة لإحياء حفلة موسيقية فى بغداد اتصل به عدى قائلاً: «يجب أن تأتى إلى لتسليتى».

حضر كاظم الساهر وأجبر على الغناء حتى مطلع الشمس فى اليوم التالى. ثم قال له عدى: أرى أنك تقوم دائمًا قبل وبعد حفلاتك بالتوقيع على صورك وتفرقها على المعجبات، يجب أن تفعل نفس الشىء لنا. وأعطاه عدى حذاءه ليوقع عليه اسمه ثم أحذية جميع الحضور، ولم يبق للساهر إلا أن يفعل ما أمر به مغصوبًا كارهًا.

ولم يرجع بعدها إلى العراق أبدًا. هذا ما أخبرنى به محمد المفرجى أحد حراس عدى.

إنه لإهانة كبيرة فى العالم العربى أن يوجه إليك أحدهم حذائه، وكان هذا السبب فى عمل فسيفساء عليها صورة الرئيس الأمريكى جورج بوش أمام مدخل فندق رشيد ببغداد، فلم يكن من الممكن أن تدخل إلى الفندق دون أن تطأه بحذائك.

نعم.. عندما كان يتوفر لدى الوقت كنت أجرى جراحات زرع الشعر والتجميل فى عيادتى الخاصة فى بغداد. فكثير من النساء فى الوطن العربى لسن راضيات عن أنوفهن. فالعديد يجدن أن أنوفهن معوجة من المنتصف أو أنها كبيرة الحجم أكثر مما يجب أو أنه يجب تعليتها من الأمام وكانت عمليات تعديل أو تصغير الأنوف من مجالات العمل المربحة.

كنت قد انتهيت لتوى من إحدى تلك العمليات عندما جاء إلى عيادتى لؤى مرزا وكان من حاشية عدى، وكنت أعرفه لأننى عالجته بعد حادث سيارة فى العام السابق.

وعلى الرغم من أن الكثير من الرجال فى العالم العربى يرغبون فى تعديل أو تصغير أنوفهم إلا أنه لم يأت إلى لهذا السبب.

جاءت زيارته لى قبل أيام من زيارة الفريق الصحفى الخاص بجريدة بابل الذى جاءنى لتقصى الحقائق.

وبالطبع كان سبب زيارته هو المصعد.

وبدلاً من أن يحيينى بالأحضان وبقبلتين على الوجنتين كما هى عادة الأصدقاء فى الوطن العربى قال لى: «أهلاً». وبدى عليه التحفظ وكان يحاول أن يخفى صداقته بى. وفهمت الموقف على الفور: بالتأكيد كان هناك ميكرفون أو جهاز تسجيل مخبأ فى ملابسه والذى أكد لى هذا الشك هو أنه اقترب بكرسيه منى بطريقة غير معهودة، وقال لى:

«إن عدى غاضب جدًا لأنك أخبرت والده بموضوع المصعد».

وأكدت لى طريقته فى الكلام مرة أخرى أن حديثنا يتم تسجيله على شريط وأجبته بأن هذا الكلام غير صحيح وأننى ليس لدى ما يدعونى لأن أشغل رئيس العراق بموضوع تافه مثل هذا.

«لم يحاول أحد من حاشية عدى إجبارى على فعل أى شىء وكذلك فإن وزير الصحة مبارك لم يتصرف بشكل غير لائق بل على العكس كان يتصرف بشكل سليم».

لم يقل مرزا أى شىء بل غادر المستشفى.

ولم يكتف عُدى بذلك بل أرسل إلىَّ بعدها بأسبوعين وطلب أن أذهب إلى مستشفى ابن سينا بالرغم من أنه كان يوم عطلتى. طلب عدى أن أفحص ساقه التى كانت قد أصيبت بأعيرة نارية منذ فترة.

كان الموعد الذى اتفقنا عليه للكشف هو الساعة التاسعة مساءً، وانتظرته أربع ساعات ولم يحضر، فسألت فى الاستقبال إذا كان من الممكن الاتصال بأحد حراسه لسؤاله ما إذا كان عدى ما زال ينوى الحضور. ولكن أحدًا لم يجرؤ على الاتصال خوفًا من غضب عدى. وبعد نصف ساعة حضر إلى أحد حراسه وأخبرنى أن عدى يريد منى



أن أذهب إلى بيته. وكان له عدة بيوت فى بغداد ولكنه فى تلك الليلة كان فى إحدى الشقق التى كان أبوه يبيت فيها أحيانًا.

عندما وصلت إلى هناك كانت الساعة تناهز الثانية صباحًا وتركنى الحراس لأنتظر ساعة أخرى، وفى الساعة الثالثة صباحًا راق له أن يستقبلنى وقال لى:

«لقد فكرت أن عندك عمل حتى منتصف الليل ولا بد أنك تريد أن تأكل وتستريح بعدها».

كان يرتدى عباءة هندية بيضاء، وطلب من أحد الحراس أن يحضر له زجاجة فودكا، وأخذ يشرب من فوهة الزجاجة مباشرة.

فقلت له: لا تشغل بالك بأنك السبب فى أن أقضى الليلة دون نوم ففى الفترة الحرجة من حرب الثمانية أيام ضد إيران كنا نحن معشر الجراحين لا ننام أكثر من ساعتين متصلتين.

ثم طلب منى الكشف على ساقه، الذى لم تتغير حالته منذ سنوات. فمكان الجروح كما هو.

لم يدعنى عدى إليه إلا لسبب واحد: هو أن يتركنى أنتظر لينتقم منى بهذه الطريقة.

كثيرًا ما كان يدعو الشخصيات التى لا يحبها من الوزراء والضباط والموظفين الذين لا يستجيبون لطلباته على الفور إلى مكتبه فى اللجنة الأوليمبية العراقية، ثم يتركهم ينتظروا بالساعات وربما قابلهم بعد ذلك أو لم يقابلهم، وأحيانا كان يصرف سائقيهم وحراسهم ليضطر هؤلاء الكبراء إلى الذهاب إلى منازلهم مستقلين سيارة أجرة أو سيرًا على الأقدام، كانت هذه إحدى طرقه المفضلة فى إذلال الناس.

وأخيرًا استطاع عدى أن يحصل على المصعد المناسب. ولا سيما ذلك المصعد الذى كان موجودًا فى مستشفى رشيد، أكبر مستشفى عسكرى فى بغداد.

ولكن بعد فترة منعه صدام من الإستيلاء على الأجهزة والمعدات والأدوية وأدوات العمليات الموجودة بالمستشفيات العراقية والتى كان الناس بحاجة إليها.

بعد ذلك تغير اسم مستشفى الحيدرى إلى المستشفى الأوليمبى. من الناحية الشكلية

كانت اللجنة الأوليمبية هى المالكة للمستشفى التى كان عدى يشغل فيها منصب السكرتير العام ومدير الإدارة. كما قام وزير الصحة بعد فترة بإخفاء حقيقة ملكية المستشفى وبذلك أصبح من حق المستشفى الجديد الحصول على ما يحتاجه من مخازن الوزارة.

وقد عاد المستشفى الخاص الجديد على نجل الرئيس بمكاسب مادية كبيرة كما توقع تمامًا، وكان بمثابة كنز له.

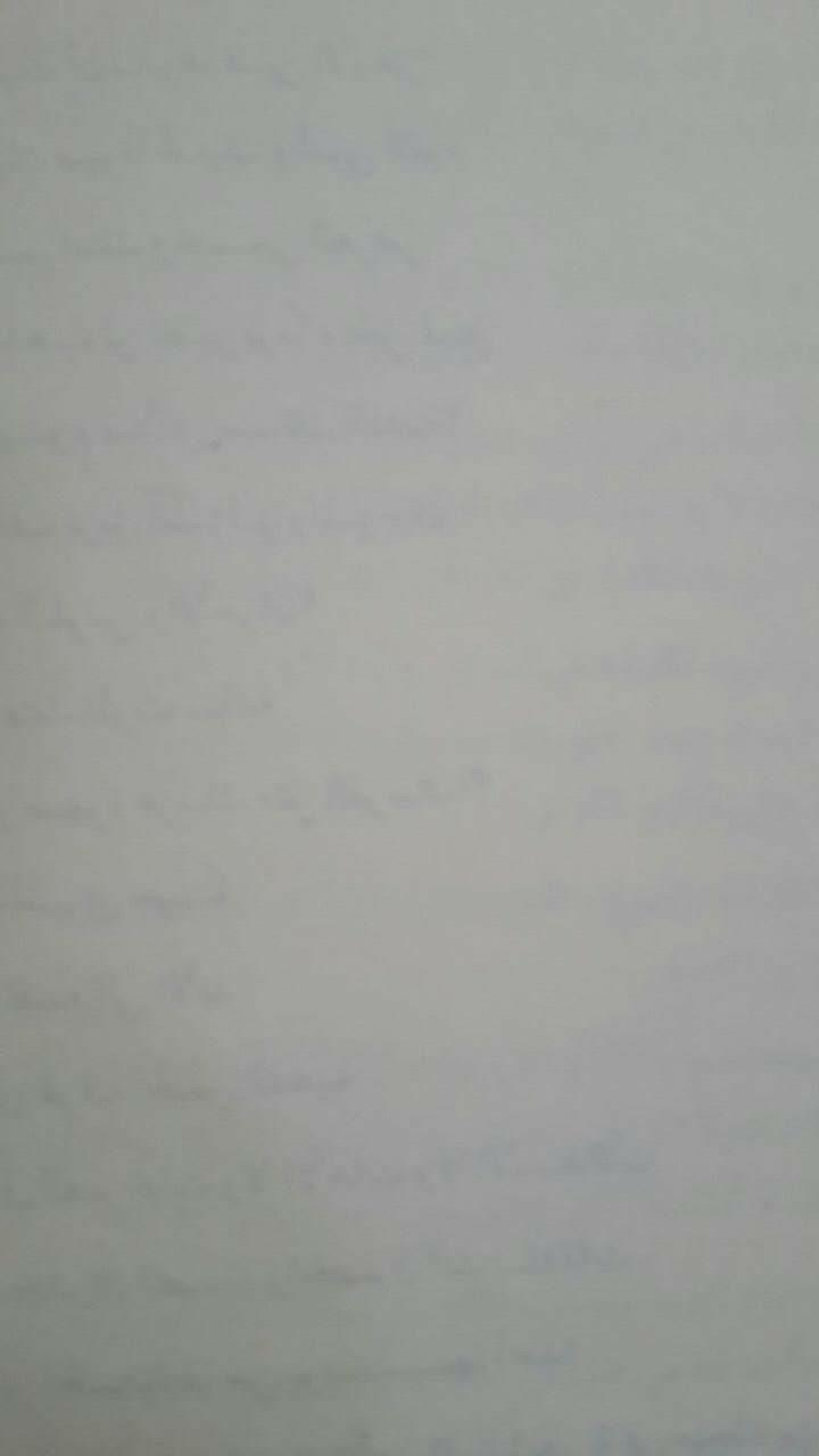
كان من نتائج عقوبات هيئة الأمم المتحدة على العراق أنه أصبح من المستحيل أن يجد الخمسة والعشرون مليون عراقى العلاج المناسب لأمراضهم وآلامهم فى المستشفيات الحكومية. لذلك فقد أصبح المستشفى الأولمبى هو طوق النجاة لمن يملك الأموال التى تكفى لعلاجه فى مؤسسة عدى الطبية.

وبالمقارنة بالقدرة الشرائية فى العراق فقد كانت الأسعار باهظة جداً. حيث كانت الفحوصات والعلاج فى المستشفى الأوليمبى أغلى عشر مرات من العلاج فى المستشفيات الحكومية الأخرى، حتى العمليات الصغيرة كانت تتكلف أحيانًا خمس ملايين دينار أى حوالى ألفين يورو فى الوقت الذى كان متوسط الدخل الشهرى، لمن يجد عملاً، لا يتعدى اثنين يورو. كان كثير من الناس يضطر لبيع سجاد بيته أو الذهب أو الأشياء الثمينة التى يمتلكها من أجل العلاج.

عندما يكون الأب أو الأم أو أحد الأبناء فى خطر فإن الأسرة تضحى بكل شئ من أجل إنقاذ مريضها. بالإضافة لذلك فقد استغل عدى جريدته ومحطة التليفزيون التى يملكها للدعاية للخدمات الطبية التى يقدمها مستشفاه المجهز بأحدث الأجهزة والخبراء الذين يحضرون أسبوعيًا من فرنسا وكان بعضهم وليس جميعهم من كبار العلماء فى مجالهم.

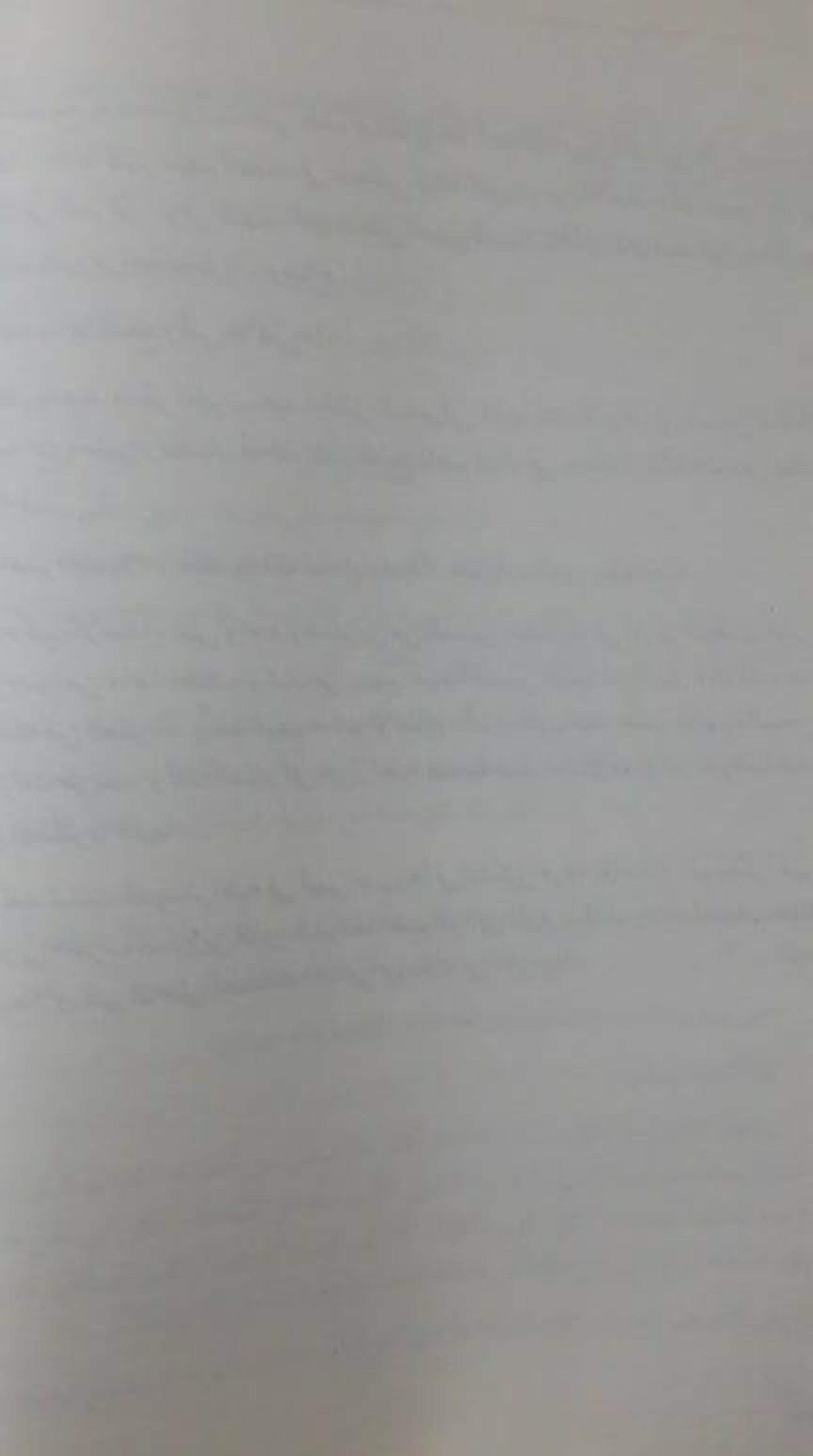
عندما دخل الأمريكان بغداد لحقت بالمستشفى الأوليمبى أضرار بالغة من جراء ما حدث من سرقات ونهب، أما الآن فقد أصبح اسمه مستشفى الشيخ زايد بعد أن قامت الإمارات العربية المتحدة بإعادة تجديده وأمدته بأحدث الأجهزة الطبية كمساعدة إنسانية منها للعراق.

إلا أنهم لم يضطروا لتغيير المصعد الذى كان فى الأصل فى مستشفى رشيد.



الجزء الثالث

الانهيار



الفصل السابع عشر

العد التنازلى

فى السادس من يناير عام ٢٠٠٢ تم الاحتفال بيوم الجيش فى عرض عسكرى ضخم أراد به صدام أن يُرى العالم والعراقيين أنه مازال لديه جيش حديث وقوى. تجمع وجهاء البلد والمتفرجون المتحمسون فى ميدان النصر بينما كان الآلاف من الجنود يمرون بالدبابات والسيارات المصفحة وسيارات النقل المحملة بالصواريخ أرض جو من تحت النصب التذكارى الذى كان يمثل سيفين متقاطعين ويذكر بالنصر فى الحرب على إيران وبالطبع كان التلفاز ينقل استعراض القوة هذا مباشرة ولم يعرض التلفاز الفوضى المرورية التى لم يسبق وأن حدث مثلها فى بغداد.

ازدحمت تقريبًا جميع الميادين والتقاطعات بعربات الجيش التى لم تستطع الوصول إلى ميدان النصر وتعطلت الواحدة تلو الأخرى. مئات السيارات توقفت عن العمل.

وإذا كان هناك من يتوهم أن العراق كانت لاتزال بخير فقد تبددت جميع الأوهام فى «يوم الجيش». كل بغداد كانت تتحدث عن هذه الفضيحة، وأطلقت النكات وضحكنا عليها.

كانت مظاهر الانهيار تطالعنا واضحة فى كل مكان، ففى أماكن متزايدة من بغداد بدأت مياه الصرف الصحى فى ملئ الشوارع من الرصيف إلى الرصيف.

كان الماء يصعد من الأرض ولا أحد يعرف من أين.

كان طفح مياه الصرف الصحى يحدث دائمًا بنفس الطريقة فقد كان يصيب الحى تلو

الآخر بالتناوب وعندما استقصيت هذه الظاهرة عرفت السبب : لقد أصاب جنون الفساد قطاع الصرف الصحى ببغداد أيضًا .

عندما تطفح مياه الصرف الصحى فى مكان وتملأه كان الناس يذهبون للمهندس المسئول فى الإدارة المختصة ، وهناك كان الفنى المسئول دائمًا متواجد وفى مقابل رشوة مناسبة يقوم بتحويل مياه الصرف الصحى إلى حى سكنى آخر .

كانت هذه تجارة مربحة .

أمتد الفساد فى كل المجتمع العراقى ولم يتوقف امتداده حتى فى الوسط الأكاديمى فقد ازدادت الحالات التى يأخذ فيها المدرسون والأساتذة - الذين لم تعد الحكومة قادرة على دفع رواتبهم - الرشاوى من تلاميذهم وطلابهم من أجل مساعدتهم على اجتياز اختبارات القبول أو الامتحانات . بدأت الجامعات والمعاهد العليا فى العراق التى كانت تعمل على مستوى عال وتبعا للنموذج الإنجليزى ، بدأت مثلها مثل كل شئ فى المجتمع العراقى فى الانهيار وقد ساهمت الطبقة الحاكمة فى هذا الانهيار ، فقد ظهرت على كثير منهم فجأة عقد الإحساس بالنقص لأن الأعضاء الشباب فى حزب البعث بدأوا فى الترقى . وكان معظمهم من الحاصلين على الشهادة الجامعية ودرجة الدكتوراه من جامعة بغداد . وكان معظم المقربين من صدام من الحاصلين على شهادة إتمام التعليم الابتدائى أو الثانوى على الأكثر .

وكان الحل بالنسبة لهم هو الدراسات التكميلية .

وبالتدريج بدأوا فى الحصول على جميع الشهادات والدرجات العلمية ، وخصوصًا عدى استطاع أن يتفوق فى ذلك ، فقد اجتاز كل الامتحانات بهمة ونشاط وحصل على درجة الدكتوراه وسط تهليل المشجعين وضحكات الشعب .

وتبعه عبد حمود وجمال مصطفى زوج حلا ابنة صدام الصغرى ثم سبعاوى الأخ غير الشقيق لصدام ثم ابناؤه الثلاثة استطاعوا أيضًا فى وقت قياسى الحصول على درجة الدكتوراه فى علم القانون أو الاقتصاد السياسى .

كما تم ترتيب شروط خاصة فى كلية العلوم السياسية لتهيئة الفرصة لكبار رجال المجتمع من أجل تحسين مؤهلاتهم الدراسية .

وكان يتم عادة الإعلان عن نتيجة الامتحانات قبل عقدها، ولأنهم كما ذكرنا من كبار رجال المجتمع فلم يكن من الممكن أن يجلس الممتحن مع باقى أقرانه للإجابة على أسئلة الامتحان وإنما كانوا يجلسون فى مكتب عميد الكلية مع أثنين من الأساتذة المكلفين بالإشراف عليهم وعند الضرورة بمساعدتهم.

أما المدرسون الجامعيون الذين كانوا يرفضون الاشتراك فى هذه العملية التعليمية الخاصة فكانوا يهددون بالطرد من عملهم وفى بعض الحالات بالسجن.

أما فى كلية الطب التى كنت أستاذاً فيها فلم يكن الوضع لحسن الحظ بهذا السوء وبالرغم من ذلك فقد وصل إلينا مهرجان الفساد الذى أحاط بالرئيس: كان لدى عبد حمود الذى حصل على الدكتوراة فى العلوم السياسية منذ فترة وجيزة الرغبة فى أن يرى ابنه طبيباً وفى الظروف الطبيعية لم يكن ابنه ليصبح طبيباً أبداً.

كان خضر الجنابى المشرف عليه طبيباً مساعداً فى مقتبل العمر، وكان يعمل فى مستشفى بغداد وفجأة سطع نجمه وترقى فى المجتمع الأكاديمى بسرعة خاطفة لم نرها منذ حصول عدى على درجة الدكتوراة فى العلوم السياسية علم الاقتصادى السياسى فى نفس المؤسسة التعليمية.

فى غضون سنتين تحول الطبيب المساعد الجنابى إلى طبيب أول ثم إلى عميد الكلية.

ولولا دخول الأمريكان العراق وسقوط الحكومة فى شهر إبريل ٢٠٠٣ لكان عمر عبد الآن حاصلاً على شهادة فى الطب وبأعلى التقديرات بلا شك.

أنا لا أشك فى أن صدام كانت لديه الرغبة فى وضع حد لهذه المأساة التى انتشرت فى الجامعات والمعاهد العليا. ولكن وضعه كان يزداد انعزالا ولم يعد قادراً على إجراء حملة تطهير بين رجاله المخلصين جداً، الذين كانوا فى الوقت ذاته فاسدون وعاجزون.

ولأنه كان يخاف على أمنه الشخصى بشكل مرضى فلم يكن باستطاعته تعيين أناس جدد يكونون مناسبين لشغل المناصب القيادية ولم يجرؤ على التخلص من الأوغاد الذين نسجوا حوله خيوطهم. كان دائمًا يقول: «شخص سيئ تعرفه خير من شخص جيد لا تعرف عنه شيئا».

وقابلته فى نهاية شهر يناير من عام ٢٠٠٢ عندما احتفلت اللجنة العليا للتعليم والتدريب الطبى التى كنت عضواً فيها باليوبيل العاشر.

وكان الدكتور همام عبد الخالق وزير التعليم قد رجانى أن اعد تمثال ليقدمه لصدام فى الحفلة كتعبير عن الشكر والعرفان نظير دعمه لعمل اللجنة.

وفرح صدام بالتمثال جداً.

وسألنى: «كيف تسير التوسعات فى مركز جراحات التجميل»؟

فأجبته: «على أفضل وجه». بالرغم من علمى بأن الوضع كان عكس ذلك.

كنا قد شرعنا فى التوسعات بناءاً على مبادرة من صدام قبل ستة عشر سنة، عندما أعجب وتحمس لعملنا الذى أديناه فى مستشفى الواسطى أثناء الحرب بين العراق وإيران وعلاجنا لأعداد كبيرة جداً من الجنود والضباط المصابين. ولذلك فقد رأى صدام وقتها أننا بحاجة إلى مبان أحدث لنتمكن من تطوير مهاراتنا فى مجال جراحات التجميل.

ولكن أعمال البناء توقفت بعد الحرب على الكويت بعد تطبيق العقوبات الإقتصادية على العراق. كان حسين كامل هو رئيس اللجنة وقتها وكانت الأولوية بالنسبة له هى استيراد ما يحتاجه الجيش والتصنيع.

ولم يفكر أبدًا فى شراء ما نحتاجه من جهاز تكييف مركزى أو مصاعد.

وكل ما قاله لى عندما توقفت أعمال البناء: «قريبًا سيبدأ العراق فى إنتاج مثل هذه الأشياء».

وكان صدام قد سأل فى عام ١٩٩٦ عما إذا كان العمل يتقدم وأجبته بأننا لا نزال فى انتظار التكييف والمصاعد وغضب الرئيس جداً وسألنى «لماذا لم تخبرنى من قبل»؟

فأجبته: «لأنى أعرف أنك مشغول بما هو أهم».

«لا.. هذا هراء. إن استكمال العمل فى هذا المركز له أهمية كبيرة بالنسبة للأمة كلها. سأهتم بهذا الأمر بنفسى». وكتب خطابًا موجهًا للوزراء المعنيين.

وعندما اجتمعت اللجنة العليا للتعليم والتدريب الطبى فى ذلك اليوم من شهر يناير عام ٢٠٠٢ لم يكن قد تغير شئ فى وضع المركز الطبى، فما زال المبنى غير المكتمل بطوابقه الخمسة واقفًا كما كان عندما توقف العمل فيه سنة ١٩٩١.

بعد الاجتماع جاءنى الرئيس وأمسك على ذراعى وقال: «لقد أجبت على سؤالى عن المركز الطبى وقلت أن العمل يتقدم ولكنك لم توضح ما تقصد».

كان صدام قد أرسل حراسه إلى هناك قبل أيام ليقفوا على حقيقة الأمر وقد أخبروه أن العمل بالمركز متوقف تمامًا.

فقلت له: «بالنظر للظروف الصعبة التى تمر بها بلادنا فأنا أظن أن إجابتى كانت سليمة».

فلم يكن بإمكانى أن أشتكى للرئيس من كل ما يواجهنا من مشاكل لأنه كان سيبحث عن أى مسئول فى الهيئات الحكومية ليعاقبه، وبالتالى كان سيعاقب أحدهم وربما بغير ذنب. وكانت العقوبة فى أفضل الأحوال فترة سجن طويلة.

وعندما كان الرئيس يغضب كان يتحول إلى خطر على حياة الآخرين.

قال لى صدام: «اسمع يا دكتور، إذا كنت تريد أن ينتهى العمل فى المركز بسرعة فعليك أن تذهب إلى المسئول فى مكتبه وتجذبه من رقبته وتضرب به الحائط ثم تطلب منه ما تريد. إذا بقيت مهذبًا فلن تصل إلى شئ».

فأخبرته أننى أريد أن ابذل قصارى جهدى عن طريق القنوات الشرعية وقلت له:

«إذا ظهرت مشاكل لا أستطيع التغلب عليها فأنا أعرف أننى يمكننى اللجوء إليك»
وكان الدكتور همام عبد الخالق سامعًا لحديثنا، وأستأذن صدام فى أن يضيف شيئًا:
المشكلة هى أن تصورات الدكتور علاء وطموحاته أعلى بكثير من قدرات وزاراتنا.
فنظر إليه الرئيس وقال:

«هل يجب إذًا أن نطلب من الدكتور علاء أن يستسلم، فقط لأنكم لا تفهمون طلباته»؟

ثم نظر إلى سكرتيره عبد حمود الذى كان يسحبه وراءه دائمًا وقال له:

«أصدر لجميع الوزارات والإدارات تعليمات منى ومن مجلس قيادة الثورة بأن يتعاونوا مع الدكتور علاء لإنهاء العمل فى المركز».

وأضاف الرئيس أن عابد حمود سيهتم شخصياً بالمشروع لذلك يجب على أن أكون على اتصال مباشر معه.

وقبل أن يذهبوا أخذنى حمود بعيداً عن الآخرين وقال لى:

«من الأفضل ألا تتصل بى شخصيًا لأننى أكون عادة مشغول جداً. اتصل بأحد المعاونين لى إذا صادفتك مشاكل».

وكما توقعت لم ينته العمل فى المركز أبداً، وكل اتصالاتى بمعاونى حمود بقيت بلا فائدة.

تبعًا للمصادر الرسمية كان قطاع البحث العلمى والتنمية يتطور بشكل كبير، فقد كان صدام يوزع الأوسمه الذهبية والفضية بكل سخاء على الباحثين والعلماء الذين تميزوا بأعمالهم الفريدة.

وفى نفس الليلة التى احتفلنا فيها باليوبيل العاشر قلدنى الرئيس ميدالية ذهبية تكريمًا لى على مجموعة من المقالات التى نشرت لى فى واحدة من أشهر المجلات العلمية الطبية المختصة بجراحات التجميل.

كان عدد الذين كرمهم طارق عزيز مائة وعشرون شخصاً. كان من بينهم اثنان من العلماء الذين تجاذبت معهم أطراف الحديث وأخبرانى أنهما من معهد الأبحاث الذرية. وانتهزت الفرصة وسألتهما ما إذا كانت الإشاعة التى تترد حول أن صدام يعمل على إنتاج أسلحة ذرية صحيحة.

فأجابنى أحدهما: «هذه الاشاعة ليس لها أى أصل من الصحة. لقد توقف هذا المشروع منذ سنوات عديدة. ولكن بعض الزملاء يكتبون تقارير وبرامج تطوير مطولة من أجل الحصول على الشهرة أو على بعض العلاوات».

كان مجموع الجوائز أربعون ميدالية ذهبية وثمانون ميدالية فضية ومبلغ ٢٥٠٠٠٠ دينار لكل واحد فينا وكانت قيمة المبلغ وقتها حوالى مائة دولار أمريكى.

وكانت أعلى جائزة يمكن لأحد أن يكرم بها هى جائزة صدام التى بدأ الرئيس سنة ٢٠٠٢ فى منحها. وقد حصل عليها حوالى ستة أو سبعة أشخاص، كنت من بينهم وكانت الجائزة تمنح نظير «الخدمة الفريدة والممتدة للشعب».

وكانت أسباب المنح التى أعلنتها اللجنة هى عملى كجراح تجميل ومدير لمستشفى الواسطى الذى تغير اسمه سنة ١٩٩٦ إلى مركز صدام لجراحات التجميل.

ولكن الرئيس تدخل وغير اسباب منحى الجائزة وكتب:

يمكن لأى شخص أن يقوم بإنجازات فريدة فى مجال الطب ولكن من النادر جداً أن يقوم أحد بإنجاز متميز فى مجال الفنون. ولذلك فقد استحق الدكتور علاء الجائزة بصفته «فناناً وليس كجراح تجميل».

وطبقاً للوائح كانت تمنح جائزة صدام مرة واحدة فقط لنفس الشخص، لذلك فقد دُهشت عندما حصلت عليها مرة أخرى فى بداية مارس ٢٠٠٣ قبل الحرب بأسابيع قليلة. كان صدام قد قرر منحى الجائزة بشكل استثنائى وكان عددنا هذه المرة قليل جداً، تلقينا جوائزنا لخدمتنا للشعب العراقى، وهذه المرة تم تكريمى كطبيب.

ولم أدر أبداً المبلغ المخصص لهذه الجائزة. وكان من المفترض أن يحدد صدام مبلغ الجائزة ولكن جنود الغزو الأمريكى عاجلوه، ولم أحصل لا أنا ولا الآخرين على جائزة مادية أو ميدالية أو شهادة تقدير تذكرنا بتكريمنا من قبل رئيس نجح فى الانتخابات سنة ٢٠٠٢ بنسبة ١٠٠٪، ليبقى فى منصبه لسبع سنوات أخرى.

وكما أعلن عزت إبراهيم الدورى المسئول عن الإشراف على عملية الاستفتاء فقد كانت نسبة المشاركين فى الانتخابات هى أيضاً ١٠٠٪.

فى السادس من يناير تم إلغاء العرض العسكرى الذى يقام فى عيد الجيش.

فقد اصبح من الواضح لكل مواطن عراقى عاقل أن العد التنازلى للحرب ضد أمريكا وبريطانيا قد بدأ وأن العراق ليس لديه أى قدرة على المقاومة.

وبينما كان المفتشون يبحثون بلا جدوى عن أسلحة الدمار الشامل فى العراق والتى لم تكن بحوزة صدام، وبينما كانت التهديدات تنهال علينا من واشنطن ولندن، إذا

بقصى يطلبنى إلى بيته . ابنته ذات الخمس عشر سنة لم تكن راضية عن أنفها، وطلبت منى الأسرة أن أعدلها .

بينما تدق طبول الحرب على مشارف العراق كانت عائلة صدام منشغلة بمثل هذه الأمور . وعلى أية حال فقد كانت عملية بسيطة، قد أجريتها آلاف المرات فى مستشفى المنصور من قبل .

وفى اليوم التالى طلبت إلى بيت رغد ابنة صدام زوجة حسين كامل فقد كانت ابنتها، حفيدة صدام ذات الستة عشر ربيعًا، حرير، تريد تجميل أنفها هى الأخرى .

وكأنهم لم يكتفوا بذلك . . اتصلت بى بعدها أخت زوجة قصى لنفس السبب . وفى الخامس عشر من فبراير كنت قد انتهيت من الثلاث عمليات .

وقد لفت نظرى أن عائلة صدام لم تكن تدرك ما ينتظرها وما تعنيه الحرب وما ستجلبه عليهم . لم يكن تقييمهم للأمور سليما كما ظهر لاحقا فيما بعد .

فى الثالث عشر من شهر مارس قبل بدء الحرب بأسبوع أجريت آخر فحص على مريضاتى الثلاث . ولفت نظرى اختفاء جميع النجف والأثاث الإيطالى من بيت قصى فى الجادرية وبدى البيت شبه خال . كان للموت رائحة فى ذلك المكان .

وكان قصى حاضراً عندما كنت أفحص ابنته، وبعد انتهائى من عملى دعانى لشرب القهوة معه، وكان ابنه الكبير مصطفى حاضراً أيضًا . وكنا متفاهمين جداً، وكان يعطينى عند كل زيارة كمية كبيرة من الشيكولاته . كان مصطفى فى غاية النشاط والحركة .

وعندما هاجمت قوات الاحتلال المكان الذى أختبأ فيه صدام بعد سقوط حكومته وبدأو فى إطلاق النار عليه وعلى عدى وقصى وابنه، قاومهم هذا الغلام ذو الثلاث عشر سنة لأطول فترة ممكنة، ولكن لم تنفعهم كثيراً الأسلحة الرشاشة التى كانت معهم ضد نيران العدو المتفوقة .

كان قصى يرتدى بذلة صفراء أنيقة بخطوط بنية . ولم يبد عليه أنه فى حالة جيدة وكان شارد الذهن . سألته عن حاله فقال أنه كالمعتاد وقال " عندما يتوقف الأساتذة والأطباء المتخصصون من جيلك عن العمل، فستحدث فجوة كبيرة . فقلت له :

«هذه الفجوة موجودة بالفعل» ثم ذكرته أن الحكومة قامت بتسريح أكثر من أربعين من المتخصصين والأساتذة فى بداية الثمانينات لتعطى الفرصة لمجموعة من الأطباء الصغار أصحاب العلاقات بحزب البعث فى الترقى السريع.

وقلت له: إن المشكلة لن تحل عندما نشغل المناصب الهامة بمن لا تتوافر فيهم المؤهلات اللازمة. افترض مثلاً أنى أطلب منك ترقية ضابط صغير ليصبح لواءاً ليقود فرقة أو لواء. فهل ستفعل ذلك؟

«هل تقصد تعيين عميد كلية الطب فى جامعة بغداد»؟

فأجبته: «مثلاً».

فقال لى: «ولكن حمود قام بتعيين ذلك العميد لأن ابنه كان فى المرحلة النهائية من دراسته وكان من مصلحته أن يصبح المشرف عليه عميداً. ولم يكن همام عبد الخالق وزير التعليم العالى راضياً عما حدث».

نظر إلى قصى وقال: «أنت على حق، لقد ارتكبنا أخطاءاً كثيرة، ونحتاج لفترة طويلة لإصلاح ما أفسدنا. وأظن أنه سيكون من الصعب جداً السيطرة على ذلك الفساد الذى استشرى فى قطاع التعليم. سوف يكون الإنسان أكبر معضلة فى عملية أى إصلاح بسبب الفساد الذى تعرض له.

أنا نفسى فكرت فى وقت ما أن أحصل على درجة الماجستير ولكنى عدلت عن رأيى. إن كل ما يحدث فى الجامعة ما هو إلا كذبة كبيرة. الامتحان الوحيد الذى أديته ومازلت فخور بنجاحى فيه بامتياز هو امتحان الثانوية العامة لأنه لم يكن فيه أى غش أو تزييف».

ولم أر الابن الأصغر للرئيس بعدها أبداً.

ورجوته يومها أن يأمر أحد رجاله بتوصيلى إلى بيت رغد لأفحص أنف ابنتها. وعلى الرغم من أن المسافة بين بيتها وبيت أخيها فى الجادرية لا تتجاوز الخمسين متراً، إلا أنه كان من اللازم السير لمسافة كبيرة حول البيت للوصول لبيتها، ذلك لأن قصى كان قد أمر ببناء سور بين البيتين بعد أن هرب حسين وصدام كامل بأسرتيهما إلى الأردن فى الليلة الموعودة من اليوم الخامس سنة ١٩٩٥.

قاد السيارة إلى هناك واحد من حراس قصى.

قال لى: «إن الموقف بات عصيبًا.. عدد كبير من الحاشية اختفوا، إنهم يخشون الحرب».

كان بيت رغد أيضًا شبه فارغ تمامًا وبالرغم من أنها كانت تبدو حزينة إلا أنها ابتسمت وهى تستقبلنى وقالت: «لقد أقبلت على بلدنا أوقات صعبة وعصيبة».

وتذكرت ما مرت به ابنة صدام بعد هروب زوجها إلى الأردن وكيف أن العائلة قتلته بعد رجوعه إلى العراق.

كان أنف بنتها على ما يرام.

وفى نفس اليوم زارنى برزان، أخو صدام غير الشقيق، فى مستشفى ابن سينا.

نقل مستشفى الرئيس من مكانه بالقرب من القصر الجمهورى خشية تعرضه للدمار إذا قصف القصر بالقنابل. لذلك فقد أخلى جناح كبير من مستشفى الكاظمية فى بغداد ليتخذ منه مستشفى ابن سينا مقرًا له.

بدى على برزان الاكتئاب، فلم يعد هناك شك فى المصير الذى كان ينتظرنا.

ستعلن علينا الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا الحرب حتى ولو لم يشاركها فيها باقى القوى العظمى الممثلة فى مجلس الأمن. وصدام لن يخضع لمطلب الرئيس الأمريكى جورج بوش بمغادرة العراق هو وابنيه ليبقى بلاده ويلات الحرب والموت والدمار.

قال لى برزان: «لقد رأيت الليلة فى المنام أنك غاضب منى ولذلك فقد جئتك لأسألك ما إذا كان هناك أى شىء حدث قد يعكر صفو مودتنا».

فابتسمت وقلت له: «أنا سعيد لأن هذا الحلم قد هيأ لنا فرصة للحديث». ثم ذهبنا إلى مكتبى.

«صدام هو السبب فى كل شىء. ردود فعله على قرارات مجلس الأمن كانت دائمًا خاطئة وبطيئة. عبد حمود وعصابة الأربعة: عزت إبراهيم الدورى وطه ياسين رمضان وعلى حسن المجيد وطارق عزيز، كلهم من الأشرار ومستشارين فاشلين. حاولت

مراراً أن أقنعه بالابتعاد عنهم . هم وحدهم يتحملون الجزء الأكبر من المسئولية فى الحرب القادمة ، ولكن صدام سيبقى هو دائماً المسئول عن عدم التخلص من ذلك الفساد الذى ألقى بنا إلى الهاوية .

حكيت لبرزان عن مقابلتى لأحد الضباط برتبة فريق أول وكان قد جاء إلى مستشفانا قبل عدة أيام لعلاج ابنته من بعض الجروح ، وكان من الواضح أنه لم يلق الاحترام والمعاملة المناسبة من العاملين فى الاستقبال .

عندما حضرت إلى المستشفى كان جالساً فى غرفة الانتظار بالعيادة الخارجية وهو فى شدة الغضب ، لذلك فقد دعوته وابنته إلى مكتبى محاولاً بذلك تهدئته ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، فما لبث أن جلس حتى بدأ فى صب الشتائم على الحكومة : «لم أعد أحتمل أكثر من ذلك لقد أصبح الوضع سيئاً لدرجة أنى لم يعد بمقدورى رعاية أسرتى» . وأدهشنى أن يقول لى كلاما مثل ذلك على الرغم من أنه يرانى لأول مرة ، فقول شىء كهذا لأحد الغرباء قد يكلف المرء حياته .

سألته : «والآن تستعدون لحركة جديدة»؟

فأجابنى : «ما هذا الكلام؟ لن يحارب أحد ، إن الدفاع بدون قيادة ، أم نعتبر أن عامل نظافة الدراجات البخارية السابق وبائع ألواح الثلج الذى جاء من تكريت قواداً»؟!

وكان يعنى على حسن المجيد ابن عم صدام وعزت إبراهيم الدورى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة .

«هل تظن أن الجيش سيحارب تحت قيادة مثل هذه»؟

لم يعلق برزان على ما حكيته له .

ثم قلت له : «أظن أن المآسى الحقيقة ستحدث بعد الحرب» . وذكّرته بما حدث وما رأيته بعد الثورة وسقوط الملكية فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٩٥٨ عندما قام الغوغاء بالتمثيل علناً بأجساد نورى السعيد وعبد الإله . وذكرت أيضاً السرقات التى حدثت والدماء التى أريقت وقت ذلك الانقلاب كما حدث نفس الشىء بعد ذلك عند سقوط عبد الكريم قاسم سنة ١٩٦٣ من المذابح وهتك الأعراض والممتلكات . .

فنظر إلى برزان وسألنى: «لماذا لا تحكى كل هذا لصدام»؟

فأجبته: «لأنه يعرف كل شىء».

كان وطبان أخو برزان قد أرسل لى قبلها بأيام بداعرتين من صديقاته بصحبة أحد حراسه، أرادت أحدهما تصغير صدرها والثانية تعديل عظام الحوض حيث كانت فعلاً كبيرة الحجم فأجبتهما أن الوقت غير مناسب تماماً لأن البلد يستعد لخوض الحرب.

وغضبتا جداً عندما أرسلتهما دون تلبية رغبتهما.

اتصل بى حارس وطبان بعدها بيوم قائلاً: «إن رئيسى يسألك ماذا إذا كان من الممكن أن تساعد الفتاتين بالرغم من ذلك»؟

فأجبته: «لا».

لقد وصلت حياة وطبان إلى هذا المستوى المتدنى فلم يعد يشغله غير الخمر والراقصات والداعرات.

وكان هذا هو وضع سبعاوى أيضاً، الأخ الأكبر لبرزان.

حكيت لبرزان عن صديقتى وطبان فقال لى:

«كنت دائماً أقول أن ذلك الرجل لم يعد فيه أمل».

وعندما خرج من عندى برزان كانت حالته النفسية أسوأ مما كانت عليه قبل زيارتى.

الفصل الثامن عشر

الأديب

كان حامد حمادى آخر وزير ثقافة فى حكومة صدام، مثله مثل باقى الكبار فى حزب البعث كان من مدينة تكريت. دخل حزب البعث وهو طالب ورافق الرئيس فى الشدة والرخاء وتبعه إلى القمة.

شغل حمادى لسنوات عدة منصب سكرتير الرئيس الخاص وكان من أقوى رجال العراق. وكنت أشعر دائماً أنه معتد بنفسه جداً ويصر على رأيه وأنه رجل عنيد.

ولكنه كان دائمًا مجتهدا ومخلصا جداً للرئيس. وحتى بعد أن فقد الكثير من امتيازاته فى بداية التسعينات ولم يبق له إلا منصبه كأمين عام لبيت الحكمة، ظل يعمل باجتهاد لصالح الرئيس.

حتى فى الثامن عشر من شهر مارس ٢٠٠٣ قبل يومين من بدء الهجوم على العراق كان وزير الثقافة فى مكتبه بينما كان باقى الوزراء فى مخابئهم خوفًا من الهجوم الأمريكى.

كلفه صدام بمهمة صعبة وهى مراجعة وتصحيح وطباعة الكتاب الذى ألفه، حيث كان يحب الكتابة. وكان يتعين على حمادى أن ينهى العمل بسرعة قبل فوات الأوان.

ترك صدام إدارة شئون البلاد لرجاله الذين يثق فيهم منذ تولى الحكم وهم: على حسن المجيد وعزت إبراهيم الدورى وطه ياسين رمضان وطارق عزيز وكذلك سكرتيره الخاص عبد حمود.

ولم يكن فى إمكان أحد أن يتوقع تبعات قرارات عصابة الأربعة وعبد حمود.

فمثلاً فى يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠٢ يوم ذكرى الهجوم الإرهابى على مركز التجارة العالمى فى نيويورك كان هناك احتفال كبير بهذه الذكرى فى منطقة جراوند زيرو فى مانهاتن. كان من المقرر أن يحضر الحفل الرئيس جورج بوش ورؤساء الدول من العالم كله وسكرتير عام الأمم المتحدة كوفى أنان وكذلك سفراء الدول لدى الأمم المتحدة.

عندما تلقى سفير العراق لدى الأمم المتحدة دعوة للحضور، أراد من باب الاحتياط أن يسأل أولاً وزير الخارجية ناجى صبرى الحديثى فى بغداد عما إذا كان هناك أى مانع فى حضوره. قام ناجى صبرى بتحويل السؤال إلى عبد حمود الذى قام بدوره بطرح السؤال على عصابة الأربعة الذين رفضوا أن يحضر السفير ذلك الحفل.

غضب لهذا القرار الوزير ناجى صبرى وإعتبره قرارا غير حكيم، فلم يكن من الصعب تخيّل عواقب عدم حضور سفير العراق فى هذه المناسبة. فبالتأكيد ستقوم واشنطن ولندن باستغلال عدم حضوره لتبرير هجومهما المخطط على العراق.

حكى ناجى صبرى فيما بعد أن هذا الأمر أصابه بالحيرة البالغة.

ولكن لحسن الحظ تم دعوته قبل أيام من عقد احتفالية نيويورك لحضور اجتماع الوزراء مع صدام. ولأن توزيع أماكن الجلوس يكون بحسب الأقدمية وهو فى الوزارة منذ عام واحد فقد كان مجلسه فى أبعد مكان من صدام. وقرر الوزير ألا يتكلم مع صدام فى موضوع رفض حضور سعيد الموسوى لحفلة الذكرى فى نيويورك أثناء الاجتماع كى لا يستفز عصابة الأربعة، فقد اعتاد طارق عزيز وطه ياسين رمضان صب اللعنات على الوزراء الجدد إذ تجرأ أحدهم وعارض قراراتهم. ولذلك فقد أعطى ناجى صبرى الرئيس ورقة يرجوه فيها أن يحدثه على انفراد وعندما قابله أخبره بموضوع السفير.

فقال له صدام دون ان يستشير عصابة الأربعة: بالطبع يجب أن يحضر. وقد تم ذلك فعلا. وهذا يكشف طبيعة ونوعية المسئوليات التى تركها صدام لمجموعة الأربعة لتأخذ قرارات ربما مهلكة لمصير الشعب العراقى.

كانت باكورة الأعمال الأدبية التى كتبها الرئيس هى قصة خيالية بعنوان «زبيبة والملك»، نشرها سنة ١٩٩٩ دون أن يكتب أسمه عليها، حيث كتب فقط: «رواية لكاتبها» وبالطبع نجحت القصة وحققت أعلى المبيعات، والتى كان ريعها حسب ما كتب للفقراء والمحتاجين.

وربما لم يكن فى تاريخ العراق حدث ثقافى لاقى شهرة وامتداحًا من أيام اكتشاف السومريين الكتابة فى بلاد ما بين النهرين قبل حوالى ستة آلاف سنة مثل ما لاقى كتاب صدام، الذى تلقفه النقاد فى الصحافة الحكومية والتليفزيون والإذاعة وانهالوا عليه مديحًا، وحتى المخابرات الأجنبية عكفت على دراسته لأغراضها الخاصة.

تقرر أن تُعد فى كل وزارة وفى كل إدارة حكومية قوائم بأسماء من يريد شراء الكتاب. وكان بيع الكتب يتم على أساس كتاب لكل واحد من أربعة من العاملين. جاءتنا تعليمات من وزارة الصحة بأن يشترى مركز صدام لجراحات التجميل الذى كنت مديره خمس وسبعين نسخة. على أن يتم بيعها للأطباء والممرضات وباقى العاملين وكان مجموعنا ثلاثمائة شخص.

وسواء أنا أو باقى من اشترى الكتاب وعددهم أربع وسبعون وجدنا صعوبة فى فهم الكتاب. كذلك لم يكن الأمر سهلاً على الشاعر العراقى الكبير عبد الرازق عبد الواحد الذى طُلب منه تحويل الكتاب إلى مسرحية. جاء هذا الطلب من لطيف نصيف جاسم رئيس اللجنة الثقافية بحزب البعث وعضو أعلى جهاز حكومى وهو مجلس قيادة الثورة.

حكى لى عبد الواحد عندما كنا نتحدث عن هذا الموضوع فى أحد المرات: «لم أعرف فى البداية من هو مؤلف الكتاب، ولكن بعد فترة أخبرنى ياسين أن صدام قام بمساعدة سكرتيره الصحفى على عبد الله بتأليف «زبيبه والملك»».

وواجه الشاعر - الذى يعيش حاليًا فى باريس - صعوبة بالغة فى إيجاد قافية مناسبة يصيغ فيها لغة صدام المنمقة والمعقدة وأفكاره المركبة.

وقال لى: «فى أفضل الأحوال يمكن أن نعتبر الكتاب هو محاولة من صدام ليقف أمام نفسه فى المحكمة». صدام هو الملك الذى يوضح المخاطر والمغريات التى تأتى بها

السلطة، ويعبر الرئيس فى كتابه عن تلك المخاطر والمغريات بشخصية الفتاة الجميلة المستسلمة زبيبة.

ثم أضاف عبد الواحد: «ولكنه كان من الصعب جداً إيجاد سياق واحد للنص» أما الكتاب الثانى: «القلعة الحصينة» فربما كان أصعب من الأول. ظهر بعد عام من «زبيبة والملك» وتم توزيعه بنفس الطريقة، حيث وزعت الأعداد الكبيرة التى تم طبعها على المؤسسات الحكومية والمستشفيات والمصانع بغض النظر عن اهتمام الناس بشراء الكتاب أو عدم اهتمامهم. وكان الموضوع الأساسى للكتاب هو أهمية الترابط بالنسبة للمجتمع العراقى. ولكن فكرة الرئيس الجيدة هذه جاءت فى صورة كتاب معقد ولا يجمع أفكاره أى سياق واضح.

ولكن بالطبع انهال النقاد عليه بالثناء والمديح. فقد كتب أحدهم: «نحن لا نعرف من مؤلف الكتاب، ولكن القصة كُتبت بطريقة ممتازة، وتدعو للتفكر. إن تاريخ الأدب العراقى لن ينسى هذه القصة أبداً». إن هذا الاسلوب من النفاق والتزلف المستمر من قبل بعض وجهاء المجتمع والبسطاء على حد سواء هو الذى سمح لحكام العراق بالوقوع فى شباك السلطة ومغرياتها أكثر فأكثر.

وبلا شك فرح ذلك الأديب الجديد المجهول بما أهدى إليه من مديح.

وبعد ستة شهور فقط كان كتابه الثالث فى السوق، وطبعاً اشترت مستشفانا خمس وسبعين نسخة منه.

كان اسم الكتاب الجديد «رجال و مدينة»، وكمثيليه السابقين احتوى الكتاب على تفاصيل كثيرة وطويلة لا يجمعها سياق واضح. ولكن لإحقاق الحق يجب أن أذكر أن كتابه هذا الذى نشره فى خريف ٢٠٠٢، كان شيقاً بعض الشئ.

فحكايات صدام عن طفولته وشبابه فى بيئة بسيطة وفقيرة بإحدى قرى تكريت أوضحت لنا صورة حقيقية عن الأمية والفقر التى عاش وسطها.

من المهم أن نفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى يصفها لكى نفهم ذلك التطور فى شخصية الديكتاتور وعائلته.

فقد كتب صدام: «لقد تعلمت أننى لا يمكننى أن أثق بأحد فيما يخص أمنى الشخصى وأننى يجب أن أكون دائمًا على حذر».

كان أخر كتب الرئيس الذى قام حامد حمادى بمراجعته فى مارس ٢٠٠٣ قبل ثمانية وأربعين ساعة من الهجوم الأمريكى ودخول جنودهم وهطول الصواريخ والقنابل على بغداد. كان من المفترض أن يظهر مع بداية العام الجديد تحت اسم مستعار أيضًا وقرأت فى الجرائد أن النقاد متشوقين للعمل المتألق الجديد.

وكان عنوان الكتاب الجديد: «أخرج منها يا ملعون»!

ودلل صدام بعنوان كتابه على موضوعه. فلا يحتاج الأمر إلى خيال واسع ولا لإحساس عالى كى يفهم القارئ من الذى يريد صدام أن يراه مطرودًا أو يرى أنه ملعون.

حكى فى مقدمة كتابه عن شعب شرير ومخادع جاء قبل ألفين وخمسمائة سنة إلى منطقة بالقرب من سوريا. وكان من يتعامل مع ذلك الشعب يكرهه. لذلك فقد فرح الناس كثيرًا عندما حارب الملك بوختنصر ذلك الشعب وأسره وقاده إلى بابل وجعل منه عبيدًا. ثم أضاف المؤلف: «وياليت الملك ما اتخذهم عبيدًا ولا جاء بهم إلى بلاد ما بين النهرين عندما هاجم القدس وهدم المعبد».

ولا يشك الرئيس فى أن هؤلاء العبيد قد لعبوا دورًا هامًا عندما استولى الفرس قبل أكثر من ألفين وخمسمائة سنة على تلك المملكة القوية آنذاك.

يذكر كتاب صدام: «إن الذى أدى إلى دمار بابل هى تلك المؤامرة التى نسجها الفرس واليهود معًا».

وعلى الرغم من أن صدام لم ينجح أبدًا فى تقبل الدولة الإسرائيلية، إلا أننى لا أعرف ما إذا كان يكره اليهود، فأنا لا أذكر أبدًا أنه تكلم عنهم بشكل سئ أو فيه احتقار أثناء حواراتنا، وذلك على النقيض من خاله الذى رباه خير الله طلفاح الذى كتب فى أحد الكتيبات فى أوائل السبعينات: «ثلاث أشياء كان من الأفضل ألا يخلقها الله: الفرس واليهود والذباب».

إن قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ والحروب المخزية التى مُنى فيها العرب هزائم



مخزية فى الأرض المقدسة تركت أثرًا سلبيًا جدًا على صدام، فهو لا يتقبل أبدًا حقيقة أن العرب قد فشلوا فى أن يتجمعوا ويتوحدوا سياسيًا وعسكريًا ليتمكنوا من طرد هؤلاء الدخلاء من الأراضى الفلسطينية التى اغتصبوها من سكانها.

إن الوجود الإسرائيلى ومصير الفلسطينيين كان بالنسبة لصدام كما كان بالنسبة لكثيرين ممن نشأوا فى هذه الفترة بمثابة شوكه فى عيونهم.

عندما كنت طالبًا فى الثانوية وبعد ذلك فى الجامعة كنت أصدق واعتقد فى أفكار حركة الوحدة العربية، وأننا نحن العرب يمكننا أن نتخلص من السيادة الاستعمارية فى الشرق الأوسط إذا توحد صفنا بعد أن تخلصنا من ظلام حكم العثمانيين الذى امتد بنا مئات السنين، كنا نرى أن نهاية السيطرة البريطانية والفرنسية على بلادنا أصبحت وشيكة. وقتها ملأنا التفاؤل والأمل.

ولكن خيبة الأمل عاجلتنا، فقد جاء اليهود من أوربا وطردوا وشردوا إخوتنا الفلسطينيين من ديارهم وقراهم ومدنهم. ثم جاءت أخبار الهزائم المنكرة التى لحقت بالجيوش العربية فى حربهم ضد إسرائيل سنة ١٩٤٨.

وضاع كبرياؤنا.

فى إبريل ١٩٩٣ كنت أرغب فى حضور مؤتمر طبى فى الولايات المتحدة الأمريكية وسافرت إلى الأردن لأحصل على تأشيرة الدخول ولكنهم أخبرونى فى القنصلية التابعة للسفارة الأمريكية أن هذا الأمر سيستغرق أسبوعين أو ثلاثة مما يعنى فوات موعد المؤتمر، لذلك فقد قررت البقاء فى عمان مع صديقى الفنان الكبير على طالب الذى يعيش فى هولندة منذ سنوات.

فى أحد الأيام اصطحبونى إلى أحد المطاعم السياحية فى منطقة أم قيس فوق هضبة فى الشمال الغربى من مدينة إربد الأردنية.

ومن مكاننا على طاولة المطعم كنا نرى النهاية الجنوبية لبحيرة طبرية وفى أسفل الهضبة التى كنا فوقها كان هناك وادى يفصل بيننا وبين مرتفعات الجولان. ووقع نظرى على بعض المزارع قال لى زملائى أنها لبعض المستوطنين اليهود. ولم أكن قريبًا من الأرض المقدسة من قبل مثل يومها، وخطر ببالى أنه يوجد الكثير من المستوطنين

اليهود يعملون جنبًا إلى جنب فى سلام مع عمالهم ومزارعيهم من الفلسطينيين وبدأت أحلم، وفكرت فى عام ١٩٤٨، وقتها كنت صبيًا. خرجت مع رفاقى إلى شوارع بغداد وودعنا الجنود وكانوا فى طريقهم إلى فلسطين، ثم فكرت فى الإضرابات والمظاهرات التى شاركت فيها وأنا طالب، كنا وقتها نعترض على الخنوع العربى أمام الدخلاء الصهاينة.

وبينما كنت استمتع بالطبيعة الجميلة أمامى، تملكنى إحساس بالأسى والخوف والذل.

كدت أجرى لأختبئ فى أى مكان، وقبضت بشدة على مسندى الكرسى وكأنى أجرى معه حديثًا. شعرت حينها أن الكرسى هو صديقى الوحيد الذى أثق به.

«الكراسى ومعناها بالنسبة للإنسان» كان عنوان معرض لوحاتى التالى فى بغداد.

وكان اليهود فى العراق، كما كانوا فى الشرق الأوسط كله، عبارة عن جماعة تعيش بين شعوب المناطق لمئات السنين فى سلام وانسجام مع المسيحيين والمسلمين. ولكن ما حدث فى فلسطين دمر هذا التواجد والتعايش السلمى فقد ازداد الأمر صعوبة بالنسبة لليهود المائة وعشرين ألف فى العراق الذين كان معظمهم فى بغداد، ولم يعد بقاؤهم فى العراق سهلاً.

تم إرسال حوالى خمسة عشر أو عشرين ألف جندى للأراضى المقدسة، ليقضوا على إسرائيل ساعة ميلادها بعد أن نادى ديفيد بن غوريون فى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ بقيام دولة إسرائيل.

وكانت القوات العراقية هى أكبر فرقة عربية شاركت فى المعركة، ولكن النتيجة كانت متواضعة جدًا فقد منيت الفرق العراقية مثل باقى الفرق العربية بالهزيمة تلو الأخرى وبدأ البحث فى العراق عن كبش فداء، ولم يكن هناك أفضل من اليهود ككبش فداء تشفى فيه القلوب الغاضبة غليلها وبدأت المعاملة السيئة والمضايقات تتزايد. ثم قيدت حرية حركتهم كما تمت محاكمة الكثير منهم أمام محاكم حربية وقذف بهم فى السجون بتهمة التجسس لصالح الدولة الصهيونية. كما عملت الحركة الصهيونية كما هو معروف على إيذاء اليهود فى العراق وتخويفهم لإرغامهم على

الهجرة إلى إسرائيل. لكن كثيرا من اليهود العراقيين الذين تربطهم مشاعر إنسانية ووطنية بالعراق فضلوا الذهاب إلى أوربا وأمريكا.

لم يسمح لليهود بتولى المناصب الحكومية وكذلك المناصب العليا فى الوسط الأكاديمى وفى سنوات قليلة غادر اليهود العراقيون العراق إلى إسرائيل وبالطبع كانت تل أبيب فاتحة لهم ذراعيها وكان من الواضح أن حكومة بغداد فرحت بالتخلص منهم.

وعادة كان جيرانهم فى العراق يفتقدونهم.

كان فى الحى الذى نشأت فيه دكانًا لتاجر أدوات حديدية يهودى كان أمينًا وحلو الكلام ومحترمًا من الجميع وبخاصة الفقراء. كان الناس يشترون من عنده ما يحتاجونه بالأجل وكان كثيراً ما يتنازل عن ديونه لدى الفقراء عندما تتراكم عليهم.

كان ذلك الرجل صديقًا لأبى وكنت أحب اللعب مع ابنه. أذكر أننا بكينا جميعا عندما قررت أسرته مغادرة العراق.

قليل من اليهود قاوموا مضايقات الإدارات الحكومية وطلبها منهم مغادرة البلاد إلى إسرائيل وبقى معظمهم فى العراق وعاشوا بدون مضايقات وتمتعوا باحترام الجميع، وفى عام ١٩٦٩ بعد فترة قصيرة من تولى صدام منصب نائب الرئيس تمت محاكمة سبعة عشر شخصاً بتهمة التجسس وصدر ضدهم حكم بالإعدام وتم شنقهم فى بغداد، وكان من بينهم أحد عشر يهوديًا وأثارت هذه القضية مشاعر الكره ضد الإسرائيليين التى تملكت العراق بعد هزيمة العرب النكراء فى حربها ضد إسرائيل مجدداً فى حرب الستة أيام سنة ١٩٦٧. وفى الوقت ذاته فهم الجميع أن إعدام هؤلاء الأشخاص هو أول دليل لا يقبل الشك فى موقف صدام الثابت تجاه الدولة اليهودية.

لم ولن يكون هناك شك أبدا حول آراء صدام عن إسرائيل فلا يمر خطاب طويل يلقيه الرئيس دون أن يندد بالمؤامرة الصهيونية العالمية ودون أن يدعو للحرب المقدسة فى فلسطين.

وبالطبع لم تتحسن العلاقة مع اسرائيل بعد ضربها الجوى للمفاعل النووى الأول والأوحد فى العراق سنة ١٩٨١، والذى بنى بالقرب من بغداد بمساعدة فرنسية وربما

دمرت تلك القنابل حلم صدام بامتلاك قنبلة ذرية الذى اقترب مرة أخرى من تحقيقة سنة ١٩٩٠.

ولم تكن صواريخ سكود التى أطلقها على إسرائيل أثناء حرب الخليج ١٩٩١ إلا عزاءا واهيا ولم يكن من العجيب أن يصرف الرئيس مبالغ مادية كبيرة لأسر الذين يقومون بعمليات انتحارية والناشطين الفلسطينيين بعد بداية الانتفاضة الفلسطينية فى سبتمبر ٢٠٠٠ ضد الاحتلال الإسرائيلى لقطاع غزة والضفة الغربية.

ولكنه لم يكن من الحقيقى أن صدام يكره كل اليهود، كما ادعت كثير من الكتب والمقالات. عندما أطلق عدى الرصاص عام ١٩٩٥ على ساق عمه وطبان، قام واحد من أهم جراحى العظام الأوربيين آلان جيلبرت، بإجراء أهم واصعب العمليات الجراحية التى كانت لازمة لإنقاذ أخ الرئيس غير الشقيق. وبينما كان المختصون الفرنسيون يعملون فى مستشفى ابن سينا إذا بأحد حراس صدام يحضر إلى مكتبى ويسألنى:

«هل صحيح أن أحد الأطباء الفرنسيين يهودى»؟

فأجبته: نعم وهو طبيب ممتاز وأعرفه منذ خمس وعشرين سنة ولأنى توقعت أن يقوم الحارس باخبار صدام بحقيقة الطبيب، فقد قمت بإبلاغه فى اليوم التالى بنفسى عندما جاء لزيارة أخيه.

فقال لى: «أنت تعرف أننى لا أكره اليهود ما داموا لا يحتلون أرضًا فلسطينية». وعندما غادر الدكتور جلبرت بغداد عائدا إلى باريس التقاه صدام وصافحه وأكرمه وشكره على قدومه ولم يذكر أى شئ آخر.

ولم يضايق الرئيس أنى كنت قد طلبت جهاز ليزر من الولايات المتحدة وكان الجهاز مصنوع فى إسرائيل. اكتشف أحد النشطاء من حاشية صدام بلد المنشأ لهذا الجهاز ولذلك فقد طلبنى وسألنى عن سبب اختيارى لهذا الجهاز بالذات وكان اسمه «كوهرنت» فأجبته بأن هذه الماركة هى الأفضل. ولكى لا أقع فى مشاكل أخبرت صدام بالموضوع وسألته إذا كان يريدنى أن ألغى طلب الجهاز. وكان رد صدام على سؤالى: «لا يهمنى أن الجهاز مصنوع فى إسرائيل طالما هو الأفضل ولكن دعهم يغيروا بلد المنشأ عندما يصل الجهاز إلى حدود العراق حتى لا يكثر الكلام».



وكان واحدا من أكثر طلابى موهبة، ظافر داود من عائلة يهودية وبعد تخرجه عينته وزارة الصحة كطبيب جراحة عظام فى مستشفى خارج بغداد ولكنى كنت أريده أن يبقى فى مستشفى صدام لجراحات التجميل الذى كنت لا أزال مديره. ولأتأكد من تعيينه فى مستشفى صدام حكيت للرئيس عنه وعن مواهبه وإمكاناته الخاصة ولم أخف عنه أنه من عائلة يهودية فقال صدام: «إنهم أناس موهوبون».

طالعتنا وكالة الأنباء العراقية «أى أن إيه» يوم السابع عشر من فبراير ٢٠٠١ بأن صدام قد أمر بإعداد جيش جديد باسم جيش القدس على أن تكون مهمته هى تحرير القدس. وبعد أسبوعين شاهدنا فى التلفاز المتطوعين فى معسكرات بغداد وحولها. كان الهدف هو إنشاء واحد وعشرين فصيلة عسكرية تحت قيادة الضباط العراقيين. وكان من المفترض أن يشترك فى ذلك الجيش ستة أو سبعة ملايين امرأة ورجل، وكان من المعتزم أن يُطلب من الدول المجاورة لإسرائيل فتح حدودها عندما يتحرك الجيش ليلقى بالصهاينة فى البحر. ولم يعرف الشعب العراقى الذى أنهكته الحروب وأتعبه الفقر هل يبكى أم يضحك على أوهام الرئيس التى عرضها عليه التلفاز.

كنت فى مساء الثالث عشر من فبراير مدعواً إلى الطعام لدى فاتك الصافى وهو أحد ملاك الأراضى وكان من أوائل أعضاء حزب البعث، كما كان لسنوات عديدة من رجال صدام الذى يثق فيهم، حتى قال لصدام عام ١٩٨٧ أن تأييد واحترام الشعب له زائف.

وانضم إلينا برزان، أخو صدام غير الشقيق.

كان هانس بليكس رئيس مفتشى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة قد قدم تقريراً جديداً لمجلس الأمن فى نيويورك. ولم تترك النقاشات والإشارات التى انطلقت من الولايات المتحدة ومن إنجلترا أى مجال للشك فى ما كان ينتظرنا.

قال برزان: «إن المشكلة هى أمن إسرائيل لقد حاولت مراراً و تكراراً أن أقنع أخى أن العالم قد تغير وأننا سنكون معزولين عن العالم، إذا لم نصل إلى حل متعقل يكفل لنا أن نعيش نحن والأمريكان والإسرائيليون ولكن كلامى معه كان بلا جدوى».

فى عام ١٩٨٩ قام أحد الدبلوماسيين العرب بزيارة برزان فى جنيف بصفته سفيراً

لبلاده لدى الأمم المتحدة، وحدثه الدبلوماسى عن قلق إسرائيل من كميات الأسلحة الكبيرة التى حصل عليها العراق إبان حربه ضد إيران واستشف رغبة الإسرائيليين فى فتح باب المفاوضات من أجل حل سلمى سواء بطريقة رسمية أو غير رسمية.

وبنية خالصة قام برزان بنقل الرسالة لأخيه الذى انتفض منزعجًا وكأنه قد قرصه دبور.

وعلى الفور أرسل صدام حامد حمادى وزير الثقافة برسالة لبرزان فى جنيف كتب فيها أن هذا الاقتراح قد ذكره بما حدث للرسول عليه الصلاة والسلم عندما عرض عليه بعض التجار من الكفار أموالاً فى مقابل تخليه عن دعوته وكان رد الرسول عليه الصلاة والسلام، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى فلن أترك نشر الإسلام.

وقال حمادى: «نبه علىّ الرئيس أن أبلغك ألا تزعجه باقتراح كهذا مرة أخرى».

بالرغم من ذلك فقد حاول برزان مرة أخرى، كان ذلك سنة ١٩٩١ بعد حرب الخليج عندما حضر فى زيارة قصيرة لبغداد، زار فيا صدام «لقد قلت له أنه ليس فى مصلحة العراق أن تنظر لإسرائيل على أنها عدونا الأساسى علينا أن نكون متحفظين بعض الشئ وربما وجب علينا تغيير سياستنا مع إسرائيل كلية».

غضب الرئيس وأمره بالسكوت وقال له:

«لقد تأثرت كثيراً بالتفكير الأوربى. إن أفكارك واتجاهاتك فى حاجة ماسة للتقويم».

وامتد بنا الليل عند فاتك الصافى. لم يملك برزان إلا أن يعجب لتصميم أخيه على رأيه فيما يتعلق بإسرائيل والانتفاضة غير المجدية ضد الاستعمار.

كما سخر أيضًا من فكرة جيش القدس الذى سيحرر القدس.

« يدعى الرئيس مفتخراً بأن هناك ستة ملايين متطوع ومقاتل عراقى مستعدون للحرب فى الأرض المقدسة. ولكن الجميع يعرف أن هذا الجيش ليس إلا دعابة سخيفة. لقد كتبت لصدام وأخبرته بأننى سأندهش جداً لو أنه وجد خمسة آلاف من الستة ملايين يكونون مستعدين فعلاً للحرب. ولكنه لا يريد أن يستمع لى. أنه يسمع

كلام المنافقين والكذابين الذين التفوا من حوله ويحكون له كيف أن الشعب العراقى بجميع طوائفه يقفون صفوفًا منتظرين قبولهم فى هذا الجيش، وكيف أنهم سعداء لأنهم يتعلمون استخدام السلاح وهم على خلاف ذلك تمامًا».

فقد برزان أى أمل كان عنده فى صدام.

ولم يشك برزان من عناد أخيه فيما يخص إسرائيل فى هذه المناسبة عند فاتك الصافى فقط. فعلى مر السنين كان برزان يؤكد لى أن اتفاق سلام مع إسرائيل سيحل الكثير من المشاكل التى تواجه الحكومة على المستوى الدولى، أكثر من مرة قال برزان: «إن أخى يجب أن يواجه الواقع ويجب أن يجلس مع الأمريكان ويعقد معهم اتفاق عملى، يمكن أن ترضى عنه القدس».

وأظن أن هذا الأخ غير الشقيق لم يكن سيرفض عمل التغيير السياسى المطلوب إذا سنحت له الفرصة بذلك. فبالنظر للمحادثات الدبلوماسية التى كان يجريها، فإنه كان يستحق أن يلعب دوراً هامًا فى بلده أكثر من كونه مجرد سفير لدى الأمم المتحدة فى جنيف.

فى عام ١٩٨٩ بينما كنت أقضى فترة دراسية فى مستشفى لامين الشهيرة بفرنسا إذا بسفيرنا لدى الأمم المتحدة يتصل بى. كان فى العراق لأن إبنه محمد أصيب إصابات بالغة فى حادث دراجة بخارية نتج عنه كسر فى الفك والفخذ. ورجانى برزان أن أحضر بصحبة بعض الجراحين الفرنسيين إلى بغداد بأسرع وقت ممكن.

ورافقنى إلى بغداد زميلين بارعين وهما دومينك لوفيت وسولفيان شتاوب اللذان كانا يعملان وقتها فى مستشفى لامين.

وبعد أن قمنا بكل ما إستطعناه لإنقاذ محمد فى بغداد اصطحبناهما معنا إلى فرنسا.

استكمل محمد علاجه فى مستشفى خارج باريس. وبينما كان الولد يتلقى علاجه كان الأب منشغلاً بمجموعة من الصور الملونة له والتى كانت قد التقطت له فى جنيف، وكان عدد الصور عشرون صورة تم تكبيرها بحجم ثلاثين فى أربعين سنتيمتراً.

وأكدت له أن الصور جميلة.

فقال لى أخو الرئيس: «يوما ما ستحتفظ بصورة منها».

ولم يكن برزان هو الوحيد الذى حاول تغيير رأى صدام فى علاقته بإسرائيل. ففى الثانى من مايو ١٩٩٤، فى وقت اشتدت فيه معاناة العراقيين من العقوبات الاقتصادية، تم توسيط أخو الرئيس فى محاولة دبلوماسية سرية. جاءت المبادرة رؤوف بطرس غالى أخو بطرس غالى.

ووصل الاقتراح لصدام عن طريق اللجنة الأولمبية العراقية التى كان عدى يترأسها:

«إذا فكرت بغداد فى عقد سلام مع إسرائيل فإن دولة كبيرة ستقترح على الولايات المتحدة الأمريكية رفع العقوبات عن العراق».

وكانت إجابة صدام التى أرسلها لعدى فى سرية تامة بعد أربع عشر يومًا إجابة مباشرة جدًا:

«إن دعوة الدولة الشقيقة تهدف إلى مزيد من الاضطراب فى علاقتنا بالصهاينة إنهم يتوهمون إذا ظنوا أننا سنغير موقفنا تجاههم لمجرد أنهم يريدون مساعدتنا فى مشاكلنا. اللعنة عليهم وعلى العرب الذين يشجعون سياسة مثل هذه. إن بابنا مغلق.

لا أمانع فى أن يحضر أخو بطرس غالى إلى هنا ليتحدث معى عن العقوبات ولكن بشرط ألا يتحدث معنا عن موضوع اللوبى الصهيونى هذا».

حصلت على هذه الورقة من صديق عدى وسكرتيره لسنوات طويلة ظافر محمد جابر.

كان إبراهيم ذلك الرجلَ الوقور الكبير البدوى واحداً من الشخصيات المحورية فى كتاب «أخرج منها يا ملعون» مات أولاده الثلاثة فى معركة، وترك كل واحد منهم من خلفه ولد: إسحاق ويوسف ومحمود. وعاش الأحفاد الثلاثة عند جدهم. يحكى صدام فى كتابه الأخير عن نشأة وحياة الثلاثة مع جدهم.

إسحاق كان بخيلا ويتصرف مثل الأوغاد والخونة ويضع على رأسه دائمًا قصاصة من القماش.

سأله يوسف: «لماذا هى صغيرة هكذا»؟

فأجابه إسحاق: «لأن القبعة ستكون غالية».

وكان يوسف ومحمود أفضل من إسحاق. يصفهما صدام بالنشاط والشرف وبأنهما يريدان الأفضل لجدهما وقبيلتهما ولباقى البدو.

كان الكتاب مليئًا بالاستعارات والمجازات البلاغية التى لم يكن من الصعب فهم مدلولها.

وتصل أحداث الرواية إلى ذروتها عندما يغادر إسحاق مدينة بابل ويذهب ليعيش فى أرض بغرب البحر الميت.

ولم يكن من العجيب أن يتعاون إسحاق هناك مع قائد رومانى ساعده فى كل شىء.

وقام الاثنان بأعمال كبيرة وقذرة على حساب المواطنين الصالحين فى المنطقة. وقررا بناء برجين كبيرين ليحتفظا فيهما بالذهب والأموال التى جمعوها. وكان دور القائد والحاكم هو الحفاظ على أمن البرجين.

كان إسحاق يقول: «إنه لأمر طيب أن تكون أموالنا فى أمان». وفى آخر صفحات كتاب صدام يحدث تصعيد درامى خطير: إسحاق والقائد يكتشفان أن مجموعة من الثوار العرب التى لا تهابهما وتقوم بمقاومتهما قد هجمت على البرجين وأشعلت فيهما النار. ويموتون وسط النيران وهما ينادون: «الله أكبر! الله أكبر».

ويبدأ قائد حراس القائد الرومانى فى إنشاد قصيدة مديح: «رحم الله هؤلاء الشهداء العرب.. ولعن الله الكافرين».

وانفجر إسحاق وشريكه الاقتصادى فى البكاء لأنهما أدركا، أن ما يرياه ماهو إلا نذير لما سيحدث لهما بعد ذلك من مشاكل فشهداء الأبراج سيكونون قدوة لكثير من ورائهم.

ولم يتبق لحامد حمادى وزير الثقافة وقتا حتى ينتهى من نشر كتاب صدام الأخير. فبعد أن انتهى من تصحيح آخر الأخطاء الإملائية وكتب على مسودة الكتاب أن يتم طبعها على الفور، لم يكن هناك أحد من موظفى الوزارة أو عمال الطباعة لينفذ الأمر فقد هربوا جميعًا لإنقاذ أنفسهم وأسرهم.

ولذلك فقد بقى آخر أعمال صدام حسين الأدبية على مكتب حامد حمادى حتى دخول الأمريكان بغداد فى التاسع من إبريل.

وعند بداية سرقة ونهب الوزارة وجد أحد موظفى الوزارة مسودة الكتاب وعليها ملاحظة وزير الثقافة بأن ينشر فوراً...

وقد حصلت منه على الكتاب، وهو الآن فى حوزتى.

الفصل التاسع عشر

الخليفـــة

كان يوم السادس من إبريل ٢٠٠٣ هو آخر يوم لى كطبيب فى خدمة صدام. ظهر جنود الغزو الأمريكى على مشارف بغداد واستولوا على المطار الدولى الكائن فى طرف العاصمة. وهبطت فيه أول مجموعة من الطائرات الأمريكية.

كان من المفترض أن أبدأ فى المساء نوبة عملى فى ابن سينا لمدة أربع وعشرين ساعة. وكان مستشفى الرئيس الخاص لا يزال يعمل. ولكن لدواعى أمنية كان قد نقل إلى جناح فى مستشفى الكاظمية فى الشمال الشرقى من بغداد. وشغل الدكتور خيرى بنوش منصب مدير مستشفى ابن سيناء للاثنى عشر شهر الماضية. وكان قد تلقى تعليمه الطبى فى الجيش وكان برتبة عميد، ومثله مثل كثير ممن يتلقون المناصب الهامة من مدينة تكريت.

كان نزيها مؤدبا ومن الناحية العلمية على مستوى عال وكذلك على المستوى الإدارى حظى بتقدير الأطباء وهيئة التمريض. ولم يكن محبباً لدى الحاشية المقربة من الرئيس لأنهم رأو أنه يتعامل مع مرؤسيه بلين ولطف.

وعندما ذهبت لأبدأ نوبتى فى العمل قال لى: «عندى تعليمات من أعلى، إنك غير مسموح لك بمغادرة ابن سينا (يقصد المكان الجديد). من الآن يجب أن تبقى هنا حتى تأتينا أوامر أخرى».

وفهمت على الفور ما المقصود. أراد صدام أن أرافقه إذا اضطر لمغادرة بغداد.

فقلت له: «حسناً ولكن يجب أن أذهب أولاً لأمى المريضة، فعمرها تسعون سنة

وهى بحاجة إلى مخزون من الماء والطعام والأدوية، طالما سأبقى أنا هنا لأجل غير مسمى».

وكعادة الدكتور بنوش وافقنى على طلبى.

ومرت ستة عشر يومًا مرهقة منذ بداية الحرب. وكان أهم واجباتى هو محاولة إبقاء مركز صدام لجراحات التجميل يعمل. وكان هناك أشياء كثيرة هنا تتوقف على قراراتى كمدير ومسئول طبى. ولذلك فقد آثرت السكنى فى المستشفى وكنت أنام عادة فى مكتبى حيث قمت بتخزين المياه والمعلبات.

ولحسن الحظ كان معظم الأطباء والعاملين فى هيئة التمريض متواجدون فى عملهم، قليل جداً منهم لم يظهروا فى المستشفى، فكلنا عشنا حروب كثيرة وكنا نظن أن هذه الحرب لن تستمر لفترة طويلة. لقد كان جميع العاملين فى مستشفى الواسطى يتمتعون بحس عال بالمسئولية المهنية ويعملون بإخلاص كبير.

ولم تتخذ الإدارات الحكومية أى احتياطات استثنائية بهدف إعدادنا لمواجهة أو استقبال الهجمات الأمريكية والبريطانية، التى كنا نعرف جميعًا باقتراب وقوعها.

فمثلا قبل الحرب على إيران وقبل غزو الكويت جاءتنا أوامر واضحة من وزارة الصحة بالاستعداد. ولكن هذه المرة لم تأت أى تعليمات، فعلى ما يبدو كانت الحكومة قد حلت نفسها وتفككت قبل أن يرسل الأمريكان أول طائراتهم الحربية.

وكان من الواضح أن حتى أعضاء حزب البعث لم يستعدوا للحرب. كانت وسائل الإعلام العالمية قد أعلنت أن صدام وعشرين أو ثلاثين فقط من أعوانه سيخلعون من مناصبهم ويحاكمون على ما اقترفوه من جرائم وأن باقى الإدارات وجهاز الشرطة سيبقى كما هو، لأنهم يرغبون فى أن يَعُم الهدوء وأن يسير كل شئ بعد الاحتلال كما كان قبله. وبالفعل فرح الكثيرون بهذا الخبر. ولم يكن هناك أى استعداد للحرب حتى بين رجال الحرس الجمهورى - فرقة صدام الخاصة - أو على الأقل لم يكن هناك استعداد لدى الضباط والجنود الذين تحدثت معهم، فالجميع قد ضاقوا ذرعًا بالفساد والانهيار الاقتصادى.

والآن سيقبلون بأى حل. وكان جدول عملى فى ابن سيناء يقتضى أن أكون منوبًا لمدة أربع وعشرين ساعة كل أربعة أيام.

وكانت مستشفى الكاظمية على الجانب الآخر من بغداد وعلى مسافة بعيدة من الواسطى بحوالى ثلاثين كيلو متراً. ويرجع الفضل لسائقى الماهر والمخلص الذى لا يعرف الخوف إسماعيل محمد الكعبى فى أننى كنت أتنقل فى المدينة تحت هذه الظروف الصعبة دون أن أفقد حياتى.

كنا لا نعرف أبدًا أين ستقع القنبلة أو أين سينفجر الصاروخ التالى، ولذلك فقد كنا نتجنب الشوارع التى بها مراكز اتصال، معسكرات جيش أو وزارات ومبانى عامة، لأنها تكون أهداف واضحة للقصف الأمريكى. ولكن لم يكن من المتاح دائمًا تجنب هذه الشوارع.

وفى ذات صباح ونحن فى طريقنا إلى مستشفى ابن سينا مررنا على مصلحة الاتصالات الخارجية فى منطقة الأعظمية. وكانت تتصاعد منها ألسنة النار والدخان. قبل مرورنا بدقائق قليلة أصيب المبنى بقنابل أمريكية وتحول إلى أطلال. وسرنا بين حطام السيارات المحترقة. ومن الواضح أن الحظ لم يكن حليف الجميع فى ذلك اليوم.

والأسوأ على الإطلاق كانت الرؤية شبه المنعدمة، ولا أدرى أى مخبول أفتى بإغراق بغداد فى بحر من الدخان لكى تصعب على الأمريكان مهمة إصابة الأهداف فى المدينة بقنابلهم وصواريخهم. تم تجهيز حُفر فى كل مكان ببغداد وملئت الحفر بالنفط الخام وتم إشعاله. لذلك فقد حدثت فى طرق بغداد حوادث سيارات كثيرة جداً رغم قلة عدد السيارات فى الشوارع.

أما بالنسبة لمرضى الربو ومرضى ضيق التنفس فقد كان الأمر كالجحيم وخصوصاً عندما هبت على معظم مناطق العراق عاصفة رملية من الخامس والعشرين وحتى السابع والعشرين من شهر مارس، فى هذه الفترة مات الكثيرون، لأن اختلاط الدخان بالغبار كان بالنسبة لكثير من الناس غير محتمل.

وفى مساء التاسع والعشرين من مارس حضر برزان إلى مستشفى الكاظمية ليتحدث معى وكان بصحبته اثنان من حراسه وكانا مدججين بالسلاح الثقيل. وفوجئنا

جميعًا عندما رأيناهم، فقد كانت مخاطرة كبيرة الخروج إلى الشوارع وسط القنابل ونيران الدفاع الجوى. سألنى: "كيف ستنتهى هذه الحرب؟

فأجبته: «انتهت الحكومة ولا توجد أى فرصة لإيقاف الحرب قبل أن يحقق الأمريكان والإنجليز أهدافهم».

ووافقنى برزان الرأى ثم سألنى:

«هل رأيت الرئيس مؤخرًا»؟

فأجبته: لا فهو لم يحضر إلى هنا ولم يرسل فى طلبى.

هناك إشاعة تردد عن أن صدام قابل قادة مجلس قيادة الثورة ووزرائه بعد يومين من بداية الحرب ليتباحث معهم الوضع وأنه كالمعتاد هادئ وغير متوتر وقد أكد له عبد حمود وطه ياسين رمضان وعزت إبراهيم الدورى أن بسالة ووطنية الجنود على أكمل وجه. وأنهم سيهزمون المعتدين الأمريكان والإنجليز.

ومن يومها لم ير أحد صدام وكان يغير مكان إقامته كالمعتاد فى سرية تامة.

قال لى برزان: «أنا على يقين أنه يعرف تمام المعرفة أنه لن يكسب هذه الحرب وأنه قد خطط منذ فترة طويلة لاختفائه بدلاً من أن يدخل فى حرب لا أمل له فى كسبها».

«إنه كان يعرف ما سيحدث».

وبدت على برزان الحيرة وكان على وشك الانهيار العصبى، ثم استطرد قائلاً:

«كان بوسعنا أن نتجنب كل هذه المشاكل. كم قلت له أنه يجب أن ينظر إلى الأوضاع العالمية بواقعية أكثر. كان عليه أن ينسى القضية الفلسطينية وأن يتصالح مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع إسرائيل. ولكنه لم يستمع إلى نصحى أبدًا، على العكس تمامًا، لقد حرم على وعلى الآخرين مجرد محاولة الكلام فى هذا الموضوع».

وأخبرنى برزان بأنه سيزورنى بعد عدة أيام ولكنها كانت آخر مرة أرى فيها الأخ غير الشقيق لصدام.

بعد نصف ساعة من خروجه وحراسه أصيب مبنى الاستخبارات العسكرية بستة صواريخ وكان المبنى على بعد خمسة كيلومترات من مستشفى الكاظمية على نهر

دجلة. ومن شدة الانفجارات سقطت فوق رؤوسنا النقوش البارزة والزينة من السقف.

وبعد منتصف الليل بفترة وجيزة سمعت أصوات محركات وضوضاء، فنظرت من نافذة حجرتى فى الطابق الثانى، فإذا بعشرات المدافع الكبيرة وناقلات الجنود المدرعة والمجنزرات وقد تمركز تحت الأشجار حول المستشفى. وبعد ثلاث ساعات تيقنت بالموت المحقق فقد تعالت حول المستشفى أصوات القنابل ودوى الانفجارات.

كنا فى تلك الليلة من يوم الثلاثين من مارس طبيبان فى المستشفى، فعلى ما يبدو كان زملاؤنا قد هربوا خوفًا من التفجيرات حول المستشفى.

وواجهتنى وزميلى مشكلة أننا لا نعرف الطرق داخل المستشفى جيداً. حاولنا الهرب أولاً إلى السرداب. واختبأنا بغرفة الخزين، ولكن الغرفة كان لها باب واحد فاقترحت على زميلى عندما توقف القصف أن نبحث عن مكان آخر لا نُحبس فيه إذا أصيب بقذيفة.

فصعدنا إلى الدور الأرضى واختبأنا فى غرفة الانتظار بقسم الإسعاف بأحد أركانها على الأرض. وكان زجاج النوافذ قد تحطم كله بفعل ضغط الهواء المتولد من التفجيرات.

وتساءلت وسط أصوات القنابل وأضواء الانفجارات التى تضئ بين الحين والحين، لماذا نقع نحن العراقيون دائمًا بين الجبهات؟.

كيف نتورط دائما فى صراعات بين طغاة كبار وصغار وبين قوى خارجية تريد أن تسقط الديكتاتور وتخضع البلاد؟

فمنذ مهد الحضارة فى بلاد ما بين النهرين وحتى الآن يحدث لنا دائما نفس الشئ. إن حكومة صدام وما كانت تعانيه من جنون العظمة والصراعات الداخلية وما اتسمت به من عنف وظلم لم يكن فريداً من نوعه فى تاريخنا وكذلك نهايته هى الأخرى.

وأشرق الصبح وهدأت الانفجارات وذهبت إلى الباب ونظرت، فإذا بمدافع صدام ودباباته وقد تحولت إلى أكوام سوداء من الحطام الملتوى وعجبت لدقة الأمريكان فى التصويب، التى أنقذت حياتى. ولكنى فكرت أيضًا فى تلك الأسلحة التى تحطمت،

وكم كلفت العراق من ملايين كنا بحاجة إليها فى أعمال أخرى، إضافة إلى الأشلاء المتناثرة فى كل مكان.

وعندما انتهت نوبتى فى مستشفى الكاظمية طلبت من إسماعيل أن يوصلنى إلى حى الجهاد حيث كنت أسكن. وبدت بغداد وكأنها مدينة أشباح، حيث كانت الشوارع خالية، عدا من بعض جنود الحرس الجمهورى. وفى كل مكان كانت الدبابات المحطمة وعربات نقل الجنود وعربات الجيش التى نسفتها صواريخ الأمريكان. وكانت النيران تتصاعد من مبنى الاستخبارات العسكرية ومن كل مكان. كانت بغداد تحترق كأنها بقايا موقد فى ساعاته الأخيرة.

كان بيتى لا يزال واقفاً مكانه، ولكن معظم نوافذه كانت قد تحطمت. ولحسن الحظ فلم يكن اللصوص قد وصلوا إلى بيتى حتى الآن.

حكى لى نائب مدير مستشفى الواسطى، عندما رجعت إلى هناك، أن مدير أمن شرق بغداد قد حضر ومعه رجاله إلى المستشفى ليستقروا بها بينما كنت أنا فى مستشفى الكاظمية. والسبب فى ذلك هو خوفه من أن يتم نسف مبنى دائرة الأمن. وغضبت عندما علمت بما حدث، فإن وجود هؤلاء السكان الجدد لدينا يمكن أن يعرضنا جميعاً للخطر عندما يدخلون ويخرجون من مستشفانا بأسلحتهم.

كنت لا أود أن يظن الأمريكان أن مستشفى الواسطى قد تحول إلى معسكر من معسكرات الجيش. ولكن لم يكن فى وسعى أن أفعل الكثير. أصدرت تعليمات لرجال الشرطة بألا يغادروا حجراتهم.

وبالفعل نُسف مبنى إدارتهم القريب من المستشفى فى الليل أثناء هجوم جوى وسُوى بالأرض. وكانوا سعداء جداً لنجاتهم من الموت بأعجوبة.

ترددت إشاعة فى الرابع من إبريل بوقوع معارك ضارية عند المطار الدولى وكان المطار على مقربة من حى الجهاد ومن بيتى. فذهبت مع سائقى إسماعيل إلى هناك لأطمئن على البيت. وكانت الشوارع خالية من الناس أكثر من ذى قبل عندما سرنا فيها قبل أيام.

تحطمت جميع النوافذ بفعل ضغط الهواء الناتج عن الانفجارات وكانت الستائر

ترفرف مع الريح. وحاولت أنا وإسماعيل أن نسد النوافذ بالورق المقوى. ولكنى تيقنت أنه لن يمر وقت طويل حتى يهجم أناس من المنطقة القريبة من البيت ويسرقون كل شئ ثمين فيه مثل السجاد والأثاث والموقد والبرادة والمذياع والتلفاز، ولم يخالجنى أى شك فى ذلك.

وفى المساء ظهر صدام فى شارع المنصور بالقرب من «نصب اللقاء» الذى افتتحه فى إبريل ٢٠٠٢ وكان واقفا يلوح للناس الذين تجمعوا من حوله. وكان محاطًا بحراسه وبدى فى الصور التى أذاعها التلفاز مرهقًا ومجهداً.

وترددت إشاعات بأن الذى ظهر هو أحد بُدلاء صدام وأنه لديه الكثير منهم.

ولكنه كان هو شخصيًا وليس لهذه التخمينات والإشاعات أى أساس من الصحة.

فلم أقم أنا ولا أحد من زملائى باجراء أى عملية تجميل لأى شخص لكى نجعل منه شبيهًا لصدام. ولو كان له بُدلاء لكنا عرفنا بالأمر. وكثيرا ما نشر فى الصحف الأجنبية حول هذا الموضوع، لكنه عار عن الصحة.

وبعد أن خرجت يوم السادس من إبريل من عند العميد خيرى بنوش بحجة توفير المياه والطعام والأدوية لأمى العجوز لم أعد إلى هناك ثانية.

لقد انتهى كل ما يربطنى بصدام ولم يكن لدى أى شعور بأنى مدين له بأى شئ أو أنى يجب أن أصطحبه فى رحلة هروبه. كنت قد قررت ذلك نهاية عام ٢٠٠٢ وأنا فى قطر.

لم اكن أبدًا عضواً فى حزب البعث ولا غيره. لم يكن هناك أى شئ يربطنى به أو بعائلته أو بالعصابة التى لا أمل فيها والتى فقدت سلطتها الآن وستعاقب على ما اقترفته خلال الخمس والثلاثين سنة الماضية.

قمت كطبيب بعمل كل ما كان فى استطاعتى من أجل الآخرين وصدام وعائلته من ضمنهم. أما كفنان فكانت مضامين أعمالى تروق له كثيرا ويحترمها.

ولم استغل أبدًا مكانتى كأحد الرجال الذين يثق فيهم صدام لأثرى نفسى بأى شكل من الأشكال، باستثناء السيارة المرسيدس التى حصلت عليها مع غيرى من الأطباء

المكرمين فى حينها، وتحطمت بعدها مباشرة أثناء الحرب ضد إيران فلم أحصل منه على أى هدايا قيمة.

أحسست أننى يمكننى أن أدير له ظهرى الآن وأنا مرتاح الضمير.

وطلبت من إسماعيل أن يوصلنى إلى بيت أختى التى تسكن حى الخضراء فى بغداد. كانت أمى لديها فى البيت، وقررت أن أبقى عندهما لأن رجال صدام لا يعرفون أين تسكن أختى وبالتالى فلن يصلوا إلى وأنا هناك.

وطلبت من إسماعيل أن يجد له مخبأ هو الآخر.

فى السابع من إبريل وقع القصر الجمهورى وكل المبانى التابعة له فى يد الأمريكان.

وفى الثامن من إبريل سيطرت قوات الاحتلال على معظم الجسور الواقعة على نهر دجلة وعلى معظم مناطق بغداد.

وكنت مازلت عند أختى فى اليوم الذى سقطت فيه الحكومة. ويومها سمعت طرقات على الباب عند الظهيرة وعندما فتحت الباب كان ابن عمى فوزى فرمان بشير واقفا بالباب. وكان فى حالة سيئة ويمشى بصعوبة وكان شعر رأسه ولحيته طويلاً ومتلبداً، لكنه كان مازال حيًا.

وكدت لا أصدق وأنا أعانقه أنه مازال حياً.

وقع فوزى قبل ثلاثة شهور فى يد رجال المخابرات بعد أن ألقوا القبض عليه وهم فى ملابس مدنية. ولم نسمع عنه شيئًا من ذلك الحين ولذلك فقد توقعنا الأسوأ. كان فوزى يتكلم دائماً ويعلن اعتراضه على الحكومة بلا خوف أو تحفظ. وقد سجن بعد اعتراضه على طه ياسين رمضان عقب محاولة الانقلاب التى قام بها ناظم كزار عام ١٩٧٣.

وعندما أطلق صدام سراحه سافر بعدها بعام إلى باريس حيث حصل على درجة الدكتوراه من السربون.

وعندما رجع إلى العراق مرة أخرى بدأ فى المعارضة من جديد.

كان يعيش دائما من أجل العراق ويؤمن بهذا البلد كبلد ديمقراطى علمانى بلا ظلم ولا فساد.

ودخل السجن مجدداً فى عام ١٩٩٤ وأفرج عنه بعد سنتين ولكن المرة الأخيرة كادت تودى بحياته.

حكى لى: «اتهمونى أنى كونت مجموعة معارضة تهدف إلى قلب نظام الحكم وكانوا ينوون إعدامى بتهمه خيانة الوطن. وجاءت الحرب فى آخر لحظة لتنقذ حياتى».

عندما ألقوا القبض عليه اعتقلوه أولاً فى مركز التعذيب التابع للمخابرات فى المنصور وكادوا يقتلونه هناك بالأحبال الحديديه والعصى.

وعندما بدأ الأمريكان فى قصف بغداد نقلوه الى سجن آخر فى نفس المنطقة. ولكن تخوفًا من أن يكون هذا السجن هو الآخر هدفًا للقصف الأمريكى فقد نقلوا ابن عمى إلى نقطة شرطة «١٧ يولية» التى تبعد ثلاثمائة مترًا فقط من بيت أختى فى حى الخضراء.

وفى صباح ذلك اليوم هرب جميع رجال الشرطة وتركوا سجنائهم ليواجهوا مصيرهم وحدهم. وعندما مر بعض الناس ليسرقوا نقطة الشرطة قاموا بتخليص السجناء. وقد ساعده أحد رجال الشرطة فى ملابس مدنية حتى وصل إلينا.

وكان فوزى ممتلئًا بالحماسة عندما حكى لنا عما حدث له ونحن على مائدة الطعام. وعلى الرغم من أن عمره كان يناهز الستة والستين سنه إلا أنه كان يريد تكوين حزب اشتراكى مدنى، وذلك بمجرد أن يتعافى مما مر به فى الشهور الماضية.

قال: «لابد أن يكون من الممكن بناء نظام ديمقراطى فى العراق بمساعدة بعض الشرفاء المتعلمين والنشطين».

ولم أكن متفائلاً بنفس الدرجة وقلت له: «الديمقراطية كلمة سهل أن نتشدق بها. ولكنه كان من الصعب علىَّ تصور وجود حكومة ديمقراطية حرة فى العراق بعد أن بُذر فيه كل هذا الكم من الكره والعنف والرغبة فى الانتقام».

إن بلدنا يحتاج الآن لحكام يكون مبدؤهم هو التسامح والإيثار. هذه هى الخطوة الأولى على طريق تحقيق حلم الديمقراطية. ولكن أين لنا اليوم بمثل هؤلاء القادة؟

فأجابني فوزي: «ولكني أريد أن أحاول بالرغم من كل شيء».

في التاسع من أبريل كان كل شيء قد انتهى. بمساعدة دبابة أمريكية تم إسقاط تمثال صدام في ميدان الفردوس أمام فندق فلسطين حيث ينزل الصحفيون.

وعندما ذهبت إلى مستشفى الواسطي كانت مجموعة من الناس قد احتشدت أمام المستشفى لسرقتها ولحسن الحظ وصل في نفس الوقت صديقي الصحفي الأمريكي الشهير جون لي اندرسون الذي يحرر في مجلة The New Yorker لأجراء حوار صحفي معي. فأسرع لقائد أقرب دبابة أمريكية وطلب منه أن يمدنا بجنود لحماية المستشفى.

وبذلك تم إنقاذ مستشفانا.

في هذه المرة لم تعرف حملات السرقة حدوداً. فحيث كان اللصوص يحلون كانوا يسرقون كل شئ. في مستشفى اليرموك وفي مستشفى الكندي ألقوا المرضى على الأرض ليسرقوا الأسرة من تحتهم.

ربما كانت هذه هي نفس الظاهرة التي حدثت قديمًا عندما قام نفر من أهل الكوفة وهم يبكون بسرقة النساء والأطفال الذين خلفهم الإمام الحسين بعد مقتله في الكوفة عندما كانوا في طريقهم إلى الخليفة يزيد. وكانت حجتهم: «إذا لم نأخذ نحن ما لديكم فسوف يأخذه غيرنا».

وكان لدينا نحن معشر الجراحين في مستشفى الواسطي الكثير جداً من العمل. لم يكن مرضانا من جرحى الحرب وإنما كان أكثرهم من اللصوص الذين أطلق عليهم الرصاص إما لصوص أمثالهم أو أصحاب البيوت والمحال التجارية الذين هبوا للدفاع عن ممتلكاتهم.

وكانت مشرحة المستشفى تمتلئ بسرعة.

ولن أنسى أبداً ذلك الشاب الذي كان في الثانية والعشرين من عمره حين أصابه لص مثله بطلق ناري نقل على أثره إلى المستشفى ومات وهو في سيارة الإسعاف قبل أن يصل إلينا. وبعد فتره وجيزة حضرت أمه وأبوه إلى المستشفى وهما بالطبع يبكيان وينتحبان.

وعندما قامت إحدى الممرضات بتفتيش جيوب القتيل وجدت مائة وخمسين دولاراً أعطتها لأبيه. فانفعلت الأم انفعالاً شديداً وبدأ الاثنان فى الاشتباك بالأيدى من أجل ذلك المال. ولم تملك الممرضة إلا أن أسرعت إلى ضابط أمريكى كان فى المقربة. فجاء وأخذ المال من الأب وقسمه بحكمة بينهما وأعطى كلا منهما نصيبه منه.

وتركا المستشفى وهما راضيان. وقد تركا ابنهما القتيل لليوم التالى.

وصلنى خبر أن بيتى قد نهب كما توقعت. وفى طريقى إلى هناك مررت مع إسماعيل على ميدان الفردوس ورأيت تمثال صدام والعراقيون يبصقون عليه و يضربون أحذيتهم على وجهه.

عندما هاجم المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان سنه ١٢٥٨ بغداد وحطموا بوابة المدينة كان المستعصم خليفة بغداد هو أغنى رجل فى العالم وقتها.

امتلأت الشوارع بالدماء حتى أن نهر دجلة ظل أحمر اللون حتى بعد مرور أسابيع على المذبحة. وكالمعتاد لا توجد أعداد دقيقة ولكن معظم المؤرخين الموثوق فيهم يقدرون عدد من قتلوا على يد المغول فى العراق وقتها بمليون شخص.

وتحكى القصة أنهم ألقوا الخليفة فى السجن بينما كان هولاكو يتفقد الثروة الهائلة التى جمعها الخلفاء العباسيون حتى وصلت إلى المستعصم منذ عهد ازدهار الدولة الإسلامية سنة ٧٥٠ وحتى الغزو المغولى.

وبعد فترة أحس الخليفة بالجوع، فلم يقدم له هولاكو إلا بعض الأحجار الكريمة وقطع اللؤلؤ على طبق من ذهب.

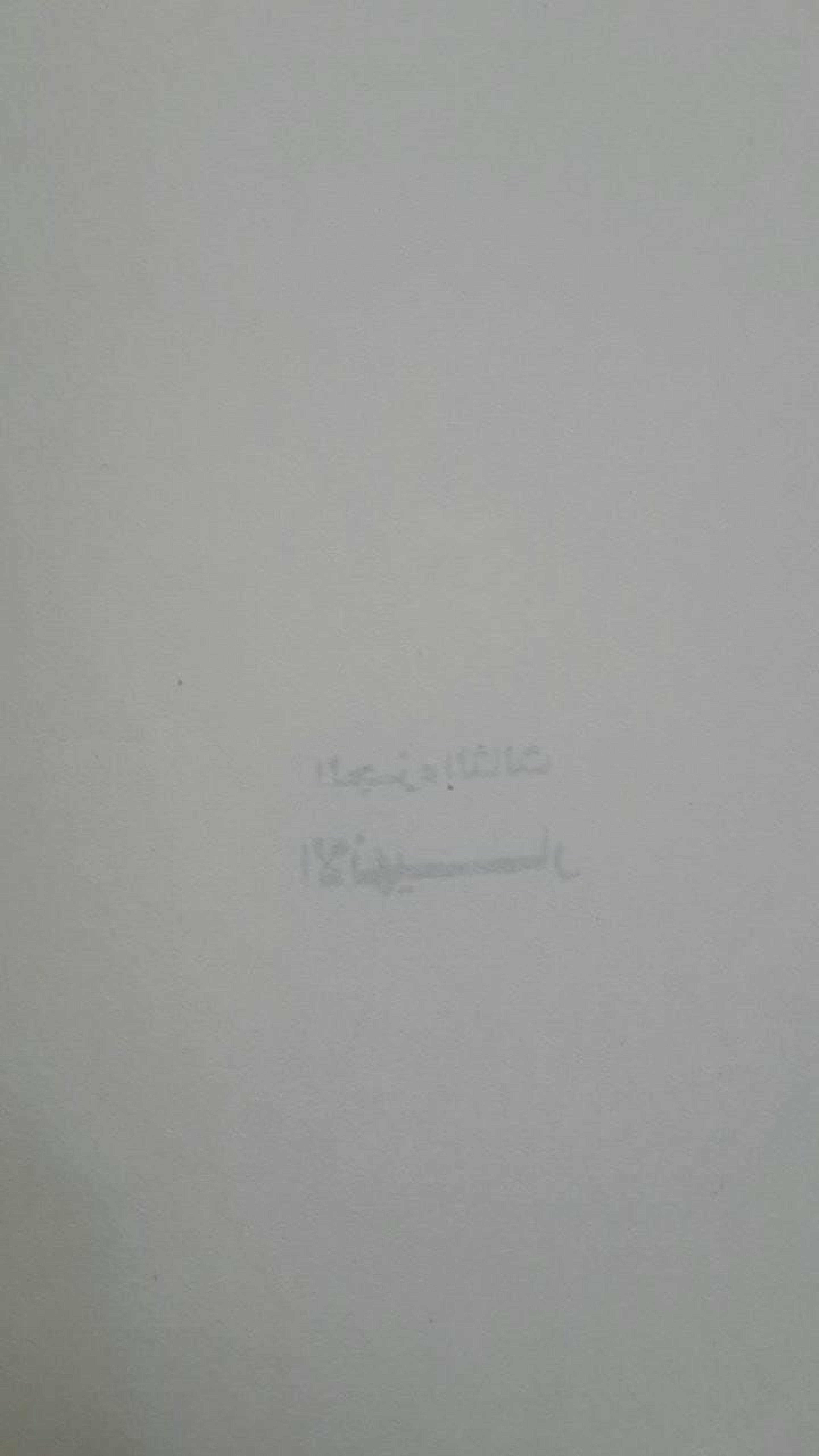
وقبل أن يقتلوا المستعصم بأن لفوه فى سجادة وأمروا الفرسان أن يمروا عليها بسنابك خيولهم، جاءه هولاكو إلى السجن وقال له: «لو كنت أنفقت ربع أموالك فقط على تسليح جيشك لما تمكنت أنا وجيشى من دخول بغداد أبداً».

عندما أقتُلع تمثال صدام البرونزى من مكانه فى ميدان الفردوس لم يبق على قاعدة التمثال إلا قدميه. وسألت نفسى ألم يقرأ صدام، الذى يحب الكتب كثيراً، القصيدة الخالدة للشاعر الأمريكى هنرى ودسورث لو نجفلو عن هولاكو و الخليفة؟

«قلت للخليفة: يالك من رجل عجوز،

ما حاجتك اليوم بالـذهب والكـنوز
مـالك تكنزها وتخبئها حتى داهمتك
بويلاتها الحرب العبوس؟
كنوزك لن تنفعك اليوم
كان عـليك أن تبذرها فـي الأرض
لتطرح عليك سيوفًا تحميك وتحمى القوم
وتنقذ كـرامتك وتحـمى العرض
حبيبات الذهب لن تصير يومًا سنابل قمح
أم تراك اليـوم ستأكل سبائك الفضة؟
هل سيخفف بريق اللـؤلـؤ والمـرجان
عنك الآم النقرس والأحزان؟
أم يؤخر عنك الموت ساعة
حين يعلو صهوة عرشك مثل الفرسان»؟
«وتركت أسيرى حبيسًا
يـأكل نفسه إلى الأبد
فى إحدى غرف الحبس الذهبية .
لن تخترق الصرخات ولا الآهات ولا الاستغاثات
تلك الـجدران الصماء والحصون الشـاهقات .
ولـم ير الخـليفة من يومـها أحد» .

هنرى ودسورث لونجفلو : الأعمال الشعرية فى مجلدين . ترجمها إلى الألمانية هرمان سيمون ، الجزء الأول ، ليبتزك : دار نشر فيليب ريكلام ، يونيه ١٩١٦ ، من صفحة ٤٩٣ إلى ٤٩٥ .



الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٤٤٢٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1113 - 5

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

كنت طبيباً لصدام

صورة عن قرب

قليلةٌ هى الكتب التى تعرضت لحياة دكتاتور العراق السابق «صدام حسين» ونظام حكمه، سواء فى فترة سطوته وجبروته أو حتى بعد سقوطه وهوانه.. وهذا الكتاب الجديد المثير يقدم صورة واقعية من قريب لحياة «صدام» الشخصية وحياة أسرته وأقربائه وعناصر حكمه الأقربين، فيسرد سيرته منذ بدأ كسياسى متطرف فى حزب البعث وحتى تبوأ عرش العراق متصرفا فى شئونه كيف شاء، فتدهورت أحوال العراق شعبا ودولة فى ظل حكمه.. وزاد الطين بلة دخوله فى حربين خاسرتين غير متكافئتين لا طائل من ورائهما، ولم يجن خسارتهما غير الشعب العراقى وحده!

هذه الصورة يقدمها الدكتور «علاء بشير» الذى كان ضمن فريقه الطبى الخاص، وهو شاهد عيان عايش الأحداث كلها عن قرب، واقترب من «صدام» وأسرته وأغلب المستبدين من عناصر نظامه، وكانت له آراء خاصة فى كل هؤلاء ظلت حبيسة صدره سنوات وسنوات، حتى باح بها أخيرا فى هذا الكتاب المثير الذى بين يديك.

إنه شهادة خطيرة على عصر مضطرب زاخر بالمحبطات، فلا تدع قراءته تفوتك.



6 221102 014045

دار الشروق